



الجمهـورية الجزائريـــة الديمقراطية الشـعبيــة
وزارة التعليـــم العــالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

الفتن والاضطرابات السياسية وتأثيرها على ديمغرافية المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط 280 – 706هـ/ 893 – 1307م

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث (ل.م.د) في التاريخ الوسيط

إعداد الطالب:
ابراهيم لحسن

إشراف:
د. عمار غرايسة

المشرف المساعد: د. علال بن عمر

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د. البشير غانية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	رئيسا
د. عمار غرايسة	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	مشرفا ومقررا
د. علال بن عمر	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	مشرفا مساعداً
أ.د. عاشوري قمعون	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	عضوا
د. سليم حاج سعد	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	عضوا
د. الطاهر الطويل	أستاذ محاضر أ	جامعة باتنة 1	عضوا
د. حسين بوبيدي	أستاذ محاضر أ	جامعة قسنطينة 2	عضوا

السنة الجامعية: 1444هـ/ 2022-2023م





الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الفتن والاضطرابات السياسية وتأثيرها على ديمغرافية المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط 280 – 706هـ/ 893 – 1307م

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث (ل.م.د) في التاريخ الوسيط

إعداد الطالب:

ابراهيم لحسن

إشراف:

د. عمار غرايسة

المشرف المساعد: د. علال بن عمر

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د. البشير غانية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	رئيسا
د. عمار غرايسة	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	مشرفا ومقررا
د. علال بن عمر	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	مشرفا مساعداً
أ.د. عاشوري قمعون	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	عضوا
د. سليم حاج سعد	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	عضوا
د. الطاهر الطويل	أستاذ محاضر أ	جامعة باتنة 1	عضوا
د. حسين بوبيدي	أستاذ محاضر أ	جامعة قسنطينة 2	عضوا

السنة الجامعية: 1444هـ/ 2022–2023م

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وصَلَّى الله على عَبْده ورسولِه، نبيِّنا مُحَمَّد ﷺ وعلى آله وصحبه وسَلَّمَ تسليماً كثيراً

قال اللهُ تَعالَى، بَعدَ:

أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿مِن اَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إسْرائِيلَ أنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الاَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاسَ جَمِيعًا ومَن اَحْياها فَكَأَنَّمَا أحْيا النّاسَ جَمِيعًا﴾

صدق اللهُ العَلِيُّ العَظيمُ

سورة المائدة، الآية: 34، رواية ورش عن نافع.

شُكر وعِرفان

الحمد لله رب العالمين بأن وفَّقني وَحدَه لا شريك له لإتمام هذا العمل.

ثُمّ على المستوى البَشري يَطيب لي أن أَتقدّم بجزيل الشُّكر لِمُشرِفِيَّ على هذا البحث، الدكتور: **عمار غرايسة** عميد كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية بجامعة الشهيد حَمَّه لخضر بالوادي والدكتور: **علال بن عمر** رئيس قسم التاريخ بذات الكلية والجامعة على قَبُولِهما الإشراف على هذا العمل وعلى كافّة جُهودِهما المبذولة في إطار ذلك، شاكِراً أيضا لِلَّجنَة التي تَكبَّدت عَناء مُناقشة وتمحيص وتصحيح هذا البحث، دون نِسيان شُكر كلّ من ساهم من قريب أو من بعيد في سبيل إنجازه.

الإهداء

أُهدي هذا العمل المتواضِع إلى:

- ✓ **والِدَيَّ الكريميْن وإلى كُلّ أهلي وعائلتي وأقاربي**
- ✓ **إلى كُلّ أساتذتي الذين دَرَّسوني ابتداءً من المرحلة الابتدائية إلى غاية المرحلة الدكتورالية الجامعية**
- ✓ **إلى كلّ من يعرفني**
- ✓ **إلى كلّ من له اهتمامٌ بعِلم التاريخ عموماً، وبالتاريخ الوسيط خصوصاً، وبتاريخ بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط بشكل أَخصّ.**

كَتَب القاضي الفاضِل: عبد الرَّحيم علي بن السعيد اللَّخمي البَيْساني (ت 595هـ/1199م) إلى عماد الدّين الأصفهاني (ت 597هـ/1201م):

"إنّي رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابه في يومه، إلاّ قال في غَدِه: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ولو زِيد لكان يستحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبر، وهو دليل على استيلاء النّقص على جملة البشر"

يُنظر: حسين بوبيدي، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي من ق 5 – 10هـ/ 11 – 16م – دراسة في تفاعل المؤثرات السودانية والمغربية**، (رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة –، الجزائر، 1441–1442هـ/ 2020–2021م)، (ص: في بداية الرسالة ما بين الإهداء وقائمة المختصرات). نقلاً عن: حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج1، ص 14. يُنظر كذلك: عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6–8هـ/ 12–14م)**، دار الطليعة، بيروت، 2008، ص 12.

قائمة المختصرات:

ـ باللغة العربية:

تح: تحقيق

ض: ضَبَط نَصَّه

تع: تعليق

تق: تقديم

مر: مُراجعة

تعر: تعريب

در: دِراسة

مج: مُجلد

ع: عَدد

د د ن: دون دار نشر

د ت ن: دون تاريخ نشر

د م ن: دون مكان نشر

هـ: الهِجري

م: المِيلادي

ص: الصفحة

ص ص: من الصفحة إلى الصفحة

ج: الجُزء

ط: الطّبعة

ت: تُوفي

إلخ: إلى آخِرِه

ـ باللغة الأجنبية:

p: page
pp: Pages continue

n: Numéro

éd: édition

op.cit: ouvrage précité. citatis opère

T: Tome

المقدمة

شَهِد مجال المغرب الأوسط[1] خلال تاريخِه السّياسي والحضاري الكبيرَيْن إبَّان الحِقبة الوسيطة ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية كنتيجة طبيعية لِتجاوُب المغرب الأوسط مع ظُروفه السياسية الداخلية ومع نظيراتها من الظروف المحيطة به مع المجالات الأخرى من بلدان بلاد المغرب بما في ذلك الأندلس وحتى مع البلاد المشرقية الإسلامية التي تربطه به رابطة وعلاقة روحية مَتينة.

هذا وإذا ما تَمَّت العودة إلى أُمّهات المصادر التاريخية خاصةً المهتمة منها بالتأريخ للجوانب السياسية والعسكرية لبلاد المغرب الأوسط وغيره من بلدان بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، سيجد الدّارس أنها مليئة بالحديث عن مختلف الفتن والاضطرابات السياسية العديدة والكثيرة والتي عَصفت بهذا المجال أو ذاك. وطبيعيّ فإنه وإذا ما كانت هناك حروب فإنه ستتبعها –وبالضّرورة– انعكاسات ونتائج على العناصر الفاعِلة والمؤثِّرة والمتأثِّرة بالظاهرة الحربية سواءً من الناحية المباشرة أو غير المباشرة. إذ تُعدّ النتائج البشرية أولى النتائج التي تُخلّفها مختلف الفتن والاضطرابات السياسية، كما وتُعدُّ في الوقت ذاته أُولى النتائج التي ينبغي التركيز عليها من طرف الباحثين كَأحد أبرز مُخلّفات وتأثيرات الظّاهرة الحربية على نظيرتها من الظّاهرة السّكانية.

وانطلاقاً من كلّ ذلك آثرتُ القيام بدراسة مُستفيضة حول موضوع: **الفتن والاضطرابات السياسية وتأثيرها على ديمغرافية المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط 280– 706هـ/ 893– 1307م)**. وذلك بالتَّطرّق إلى أبرز الفتن والاضطرابات السياسية بمختلف أصنافها من حروب وثورات وانتفاضات وغيرها وتأثيرها على الجانب الديمغرافي خلال فترة الدراسة، بِتتبُّع ودراسة تطور الوضع الديمغرافي في ظِلّ الأجواء السياسية المشحونة التي عَصفت بمجال المغرب الأوسط والتي عُدّت كإحدى أَهمّ أنواع الأزمات والكوارث البشرية التي شَهدها هذا المجال طِوال الحِقبة الوَسيطة.

أما الفترة الزمنية التي خُصَّ بها هذا البحث ، فلم يكن اختيارها اعتباطياً ولا بمحضِ الصُّدفة، فقد شهِد كُلٌّ من تاريخَيْ بداية ونهاية هذا البحث حدثيْن مُهمّين كان لهما وقعُهما على السّاحة السياسية لبلاد المغرب الأوسط أثناء فترة الدراسة، فسَنَة 280هـ/893م التي هي فترة بداية البحث، شمَلت حدثاً مُهمّاً سيلعب بعدها دوراً حاسماً في قلبِ موازين القِوى على الصّعيديْن السياسي والعسكري للمنطقة، والمتمثّل في مَجيء **أبي عبد الله الشيعي** إلى المغرب الأوسط وحُلوله ضيفاً له وزنه وسط قبائل كتامة، هذا الرّجُل الذي سيَعمل ابتداءً من هذا التاريخ على البدأ في عملية تجسيد المشروع الفاطمي على

[1] أقصد بالمغرب الأوسط الحدود السياسية الحالية لدولتنا الجزائر في حدود ما توفَّر لديَّ من مادّة مَصدرية وسيطية عن هذه الرُّقعة من العالَم الإسلامي الوسيط. ولا أبغي هنا الخوض في مَسألة تَسميَة وحدود هذا المجال (المغرب الأوسط) خلال العصر الوسيط لأنّ ذلك موضوع صالَ وجالَ فيه الكثير والعديد من الدّارسين والباحثين قَبلي، ولا يتَّسِعُ المجال هاهُنا للإتيان على ذِكرهم جميعاً لتعدُّدِهم وكَثرتهم كما أسلفتُ.

أرض المغرب، والذي كما يبدو فإن الظروف أضحت مُهيئة أمام هذا الداعي الإسماعيلي للمضي قُدماً في بداية تحقيق هذا الهدف الذي ظَلّ حُلماً يُراود مُخيلة زُعماء المذهب في المشرق منذ مدة بعيدة، حيث سيلعب كلٌّ من أبي عبد الله الشّيعي

وقبيلة كتامة دوراً كبيراً وأساسياً في تجسيد هذا المشروع على أرض الواقع بعد مُضي حوالي سِت عشرة سنةً من هذا التاريخ (280هـ/893م) أي خلال سنة 296هـ/909م تاريخ سقوط رقّادة عاصمة الأغالبة في يَدِ أبي عبد الله وجيوشه.

أما الحدث الثاني، فرغم أنه جاء بعد سَنَة من هذا التاريخ (280هـ/893م) إلاّ أنه كان له أثره البارز على مُجريات الأحداث السياسية التي وقعت بعد ذلك ضِمن مجالات المغرب الأوسط على وجه الخصوص، والمتمثل في وفاة الإمام الرستمي: **أبو اليقظان مُحَمَّد بن أفلح بن عبد الوهاب** سنة281هـ/894م والذي حَكَم ما بين سنتي: 241 و 281هـ/ 855 - 894 م ، إذ يُعتبر هذا الإمام —في نظري- آخر الأئمة الرستميين الأقوياء الذين كانت لهم القُدرة على التَّحكم في زِمام الأمور والسَّير بالدولة سيرة حسنة بالرغم من الظروف الخاصّة التي تتميز بها دولة بني رستم خاصة على الصَّعيدين السياسي والمذهبي. فوفاة هذا الإمام كانت إيذانا بنهاية العصر الذهبي لهذه الدولة، لتدخُل بعدها هذه الأخيرة في حالة من الّلاستقرار السياسي مُتمثِّلةً في تصارُع أبناء الأسرة الرّستمية الحاكِمة على مَقاليد الحُكم، لِيُعجّل ذلك بسقوط الدولة الرستمية نهائياً سنة 296هـ/ 909م على يد أبي عبد الله الشيعي ليدخُل بعدها المغرب الأوسط في سِلسلة من الأجواء والفتن السياسية استمرت إلى ما بعد رحيل العُبيديين إلى المشرق سنة 362هـ/973م.

كما وأنهيتُ فترة الدِّراسة بالحِصار الطَّويل الذي فرضَه المرينيون على تلمسان والذي استمر زُهاء ثمان سنوات ما بين سنتيْ: 698 و 706 هـ / 1299- 1307م ، حيث أعطى هذا الحدث التاريخي نموذجاً جيداً ومُهماً يمكن أن يلاحِظ فيه الباحث مدى التأثير السلبي والكبير للظاهرة الحربية على الوضعية السكانية والديمغرافية لمدينة أو منطقة ما. حيث ساهمت هذه الفتنة والاضطراب السياسي بين تلمسان وفاس في إحداث نزيف ديمغرافي كبير لمدينة تلمسان أدّى في النهاية إلى تناقص سكان هذه المدينة بنسبة قياسية وفي وقت وجيز بِفِعل الحِصار العسكري والاقتصادي المفروض على المدينة طِيلة ثمان سنوات.

الدراسات السابقة:

من المؤسف القول بأن الدراسات التي تطرّقت لموضوع تأثير الاضطرابات السياسية على ديمغرافية المغرب الأوسط قليلة وتكاد تكون معدومة، وذلك بالرغم من أهمية الديمغرافية التاريخية في حقل الدراسات الوسيطية لبلاد المغرب وقُدرتها على إنارة جوانب مُظلمة عديدة من تاريخ بلادنا الحضاري. هذا من جانب ومن جانب آخر فإنه وبالرّغم من كثرة الدّراسات التي عَنيت بالشّق التاريخي والسياسي لمجال المغرب الأوسط بتعرُّضها للكثير من المحطّات والحروب والمعارك التي ساهمت في

رسم المعالم الأساسية لتاريخ هذه المنطقة على امتداد قرون عديدة خلال العصر الوسيط، إلا أنها لم تتعرض في مُجملها إلى النتائج التي أفرزتها هذه الفتن والاضطرابات السياسية على الوضع الديمغرافي إلا في إشارات يَسيرة وجزئية، مثل الدراسة التي قام بها الباحث : **بوقاعدة البشير** حول : "**الصراع العسكري وخراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296– 547 هـ / 909– 1152 م**"[2]، إضافةً إلى الدراسة التي تطرقت إلى انعكاسات الحروب والفتن على مجتمع المغرب الأوسط خلال القرنين 7 و 8هـ/ 13– 14م[3] لكن دون أن تتعمّق –أي هذه الدراسة– في موضوع تأثير الظاهرة الحربية على الجانب السّكاني والديمغرافي، نفس الأمر ينطبق تقريباً على دراستيْن أُخريَتين نُشرتا مُؤخراً[4]، كما أن هناك دراسة مُسجَّلة في جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة باسم الباحث: بو القمح بلال تحت عنوان: **ديمغرافية المغرب الأوسط في العهد الزياني**، وصراحةً لا أعلم إن كانت قد نُوقشت أم ليس بعد.

أما في المغرب الأقصى فيوجد هناك عديد الدراسات والمؤلفات الأكادمية التي اهتمت بموضوع الديمغرافية التاريخية وتأثير الحروب والمعارك على المجتمع والدولة، **مع تركيز هذه الدراسات على المغرب الاقصى والأندلس كمجاليْن للدّراسة،** وأهم هده الدراسات: **مجلة كنانيش** في مختلف أعدادها خاصّة في عددها الأول الصادر سنة 1999م[5]، والتي أصدرتها مجموعة البحث في الديمغرافية التاريخية من جامعة مُحَمّد الأول بوجدة في المغرب، حيث تضمّنت هذه المجلة عِدّة مَقالات مُهمّة مُتعلّقة بميدان الديمغرافية التاريخية كَعِلم وبميدان المغرب الأقصى كمجال للدراسة وذلك خلال مختلف عصوره التاريخية مع التركيز على العَصريْن الوسيط و الحديث، خاصة مقال الأستاذ: إبراهيم القادري بوتشيش حول: **أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديمغرافي بالمغرب في العصر الوسيط (دراسة حالة)**[6]. وكذا مقال الباحث: مُحَمّد حجاج الطويل

---

[2] بوقاعدة البشير، **الصراع العسكري وخراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296– 547هـ/ 909– 1152م**، (مذكرة ماجستير، المدرسة العليا للأساتدة، بوزريعة . الجزائر . ، 2012ـ2013).

[3] حياة مشري، **انعكاسات الفتن والحروب على مجتمع المغرب الأوسط ما بين القرنين 7– 8هـ/ 13– 14م**، (مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة2 عبد الحميد مهري، 1435– 1436هـ/ 2014– 2015م).

[4] ناصري مُحَمّد، **الحرب والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني – دراسة في انعكاسات الحرب على البنى الاقتصادية والاجتماعية والذهنية (633–962هـ/1235–1554م)**–، (أطروحة دكتوراه طور ثالث، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس –الجزائر–، 1441–1442هـ/2020–2021م). بكارة حنان، **الحرب والمجتمع بمملكة غرناطة خلال عهد بني الأحمر (626–897هـ/1232–1492م)**، (أطروحة دكتوراه طور ثالث، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس –الجزائر–، 1441–1442هـ/2020–2021م).

[5] **مجلة كنانيش** –مجلة متخصصة في الديمغرافيا التاريخية–، ع1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية –جامعة مُحَمّد الأول – ، وجدة– المملكة المغربية، 1999م.

[6] **مجلة كنانيش،** ع1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية –جامعة مُحَمّد الأول – ، وجدة– المملكة المغربية، 1999م، ص ص 41– 52.

تحت عنوان: "**المسألة الديمغرافية: نحو منهجية ديمغرافية محاولات إحصائية (العصر الوسيط نموذجا)**"[7] إلى غير ذلك من المقالات المهمّة ذات العلاقة بشأن عِلم الديمغرافية التاريخية وبشأن تأثير الظاهرة الحربية على الجانب الديمغرافي لبلاد المغرب خلال العصر الوسيط دائماً ضمن نفس العدد (العدد الأول) من هذه المجلة. وبعيداً عن هذه الأخيرة هناك أيضاً مقالٌ مميَّزٌ لصاحبِه: مُحَّد حالي تحت عنوان: "**تطور الديمغرافيا التاريخية في سياق التاريخ الجديد**"[8] والذي قَدّم فيه معلومات في غاية الأهمية عن ظهور ونشأة تطور عِلم الديمغرافيا التاريخية خلال الفترة المعاصرة، وذلك في إطار الحركة التَّجديدية التي طَالَت الدّرس التاريخي في كلٍّ من أوروبا وأمريكا عَقِب ظُهور مدرسة الحوليات الفرنسية.

كان هذا على صَعيد المقالات، أما على صعيد الكتب فأبدأ بالدراسة القيّمة التي قام بها الباحث: حميد اجميلي بعنوان: "**المسألة الديمغرافية بالمغرب الأقصى – مؤشرات إحصائية حول الاقتصاد والتمدين خلال العصر الوسيط ق 6 – 8هـ/ 12 – 14م –**"[9]، والتي تُعتبر –أي هذه الدراسة– امتداداً لكتاب سبَق أن نشرَهُ ذات المؤلف تحت عنوان: "جوانب من التاريخ الديمغرافي بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط (ق 6-8هـ/12-14م) –رصد أولي لبعض قضايا الديمغرافية التاريخية" والذي صُدر سنة 2016م[10]، وهذا الكتاب الأخير لم أتمكن من الحصول عليه للأسف الشديد.

إضافة إلى كتاب "**جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**" لصاحبه الرّاحل الحسين بولقطيب[11] والذي خَصَّص جُزءً مُهماً في كتابه لدراسة ظاهرة الحرب وأبرز انعكاساتها على الدولة والمجتمع في العهد الموحدي، يُضاف إلى ذلك كتاب "**الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني**" ل:حميد تيتاو[12]، حيث عالج فيه مُؤلِّفه انعكاس ظاهرة الحرب على مختلف البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية في العصر المريني. دُون نِسيان كتاب: "**الموحدون وأزمات المجتمع**" ل :مُحَّد المغراوي[13] الذي تَطرّق فيه هذا الباحث لمختلف مَظاهر الأزمات الاجتماعية والسياسية والطبيعية التي عَصفت بالدولة الموحدية ، وكذا دِراستيْ الباحث **إبراهيم القادري بوتشيش** الموسومَتيْنِ ب: "**مباحث في التاريخ الاجتماعي**

---

[7] **مجلة كنانيش**، ع1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية . جامعة مُحَّد الأول . وجدة، المملكة المغربية، 1999، ص ص 19-28.

[8] دورية كان التاريخية، العدد الرابع والعشرون، يونيو 2014، ص ص 9 - 28.

[9] تقديم: مُحَّد الغرايب، منشورات الزمن، مطلعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، أكتوبر 2018.

[10] حميد اجميلي، **المسألة الديمغرافية بالمغرب الأقصى – مؤشرات إحصائية حول الإقتصاد والتمدين خلال العصر الوسيط ق 6 – 8هـ/ 12 – 14م –** ، **نفسه**، ص 9.

[11] الحسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، د ت ن.

[12] حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني 609– 869هـ/ 1212– 1465م إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية**، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، 2009، منشورات عكاظ 2010.

[13] مُحَّد المغراوي، **الموحدون وأزمات المجتمع**، جذور للنشر، الرباط، 2006.

للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين"[14] و **"المغرب والأندلس في عصر المرابطين : المجتمع، الذهنيات، الأولياء"**[15].

إشكالية الدراسة :

تتمحور **الإشكالية الرئيسية** لهذا البحث حول معرفة مدى تأثير ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية على الجانب السكاني والديمغرافي في مجال المغرب الأوسط، ومحاولة تتبّع مَسار تطور ديمغرافية هذه المنطقة في ظِلّ جوّ الفتن والاضطرابات السياسية خلال فترة البحث.

وقبل أن أُجيب عن هدا التساؤل، لابد أولاً –في نظري– من الإجابة على **تساؤلات فرعية أخرى**، فكَوْن موضوعي يندرج ضِمن إطار التأريخ للأزمات خلال العصر الوسيط، إرتأيتُ في البداية أن أُعرّف بمصطلح "التأريخ للأزمة " مع تِبيان المقصود منه، وذلك باعتبار أن الفتن والاضطرابات السياسية –في اعتقادي– ما هي في الحقيقة إلا نوعٌ من الأزمات البشرية التي عَصَفت بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط. مع الإشارة إلى سبب اختياري لظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية دون غيرها من الكوارث البشرية والطبيعية الأخرى التي عصفت بالمغرب الأوسط وأَثّرت على كيانه لاسيما على المستوى البَشري، دون نسيان إبراز عواملها وأسبابها ومظاهرها، لأَصِل بعدها إلى نتائجها المباشرة وغير المباشرة على ساكِنة المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة.

كما وسَأُعرّج أيضا على التّعريف بعِلم الديمغرافية التاريخية كَوْنه أحد التخصصات المنبثقة عن علم الديمغرافيا ضمن مجال العلوم الاجتماعية، والمنبثق أيضا عن الجغرافيا التاريخية ضمن مجاليْ التاريخ والجغرافيا، فما المقصود بهدا العِلم ؟ وكيف نشأ؟ وفيمَ تكمن أهميته في حقل الدراسات التاريخية؟

---

[14] ابراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د.س.ن.

[15] ابراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين –المجتمع –الدهنيات –الأولياء**، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، 1993.

الخُطَّة والمنهج المتبعيْن :

من أجل الإجابة على هذه التَّساؤلات والإشكالات، اعتمدتُ على خُطّة تضمّ مقدمة وخاتمة يتوسطهما ثلاثة فصول إضافة إلى **فصل تمهيدي**، هذا الأخير الذي جعلتُه كمدخل عام للموضوع أُعرّف به : بمفهوم التأريخ للأزمة وكذا بظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية، كمظهر من الكوارث والأزمات البشرية التي حَلّت بالمغرب الأوسط، كما وسأتطرّق فيه أيضاً إلى علم الديمغرافيا التاريخية من حيث المفهوم والمحاور والنشأه إضافة إلى مَنهجه وأهميته .

في **الفصل الأول**، سأتطرق فيه إلى عوامل ومظاهر هذه الفتن والاضطرابات السياسية، وفي **الفصل الثاني**، سأتحدث عن الآثار المباشرة وغير المباشرة لهذه الظاهرة على ساكِنة المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة، أما في **الفصل الثالث** ، فسأتطرق فيه إلى دراسة عامّة للتطور الديمغرافي للمغرب الأوسط ، مع تتبّع مَسار هذا التّطور خلال فترة البحث في ظِلّ مختلف الفتن والاضطرابات السياسية المتعلقة بالمنطقة .

مُعتمداً على عِدّة مَناهج وطُرق مَنهجية قائمة على استنطاق واستقراء مختلف النصوص المصدرية ثم دراستها دراسة وصفية وتحليلية مُعتمداً في ذلك على المنهجيْن الإحصائي والكمّي في ترجمة تلك النصوص المصدرية إلى جداول يتم تحليلها وتمحيصها بعد ذلك من أجل الخروج بنتائج أكثر دِقّة في محاولة تفسير حيثيات ومجريات هذا التطور، دون نسيان المنهج التاريخي الذي هو أساس أي دراسة تاريخية.

وأفتَح قوسيْن صغيريْن لأُلفِت عِناية القارئ الكريم أن هناك تجاوُزيْن مَنهجيَيْن في مَوضعيْن اثنيْن من ناحية كَمّ وعَدَد صَفحات عُنصُريْن اثنيْن من عناصر هذا البحث أدَّت بي الضَّرورة البحثية إلى الوُقوع فيهما. ويتعلق الأمر بالمطلب الثاني من المبحث الثاني من الفصل التمهيدي، الذي اشتمل على صفحة واحدة أَشرتُ فيها باختصار إلى أهمّية الديمغرافيا التاريخية في حَقلِ الدّراسات التاريخية. وقد أقدمتُ على هذا التَّصرف لأُبين للقارئ الكريم –سيما غير المتخصِّص– بشكل مُلخَّص ومُختصَر قِيمة هذا العِلم (الديمغرافيا التاريخية) على شكل فكرة عامّة وواضِحة ودُونَما إطناب. أمّا التَّجاوُز المنهجي الثاني فتمثَّل في كَمّ وحجم الفصل الثالث والذي جاء طويلاً جدّاً مُقارنة بباقي الفُصول الأُخرى، وذلك لأنّي حاولتُ الإجابة فيه –بشكلٍ مُفصَّل ومُعمَّق– على جزء مهمّ من الإشكالية الرَّئيسة لهذا البحث والمثبَتة في الصفحة السابقة، وهو ما أدَّى في النهاية إلى طُولِه واستحالة تقسيمِه إلى فصول أُخرى بسبب ترابُط وتناسُق عَناصرِه.

مصادر الدراسة :

فَضلاً عن أهمّ المراجع التي اعتمدتُ عليها في هذه الدرسة والتي أشرتُ إليها في عُنصر الدراسات السابقة، اعتمدتُ أيضا على جُملة من المصادر المهمّة تَمثَّلت أساساً في أُمَّهات المصادر التي تخصّ الفترة الوسيطة من تاريخ بلاد المغرب الإسلامي كَكُلّ ، بمختلف أصنافها مع التركيز على **المصادر الإخبارية السياسية** إضافة إلى **كُتب الرّحلات والجغرافيا**. وذلك باعتبار أن هذين النوعين من أهم المصنفات المصدرية التي أَرَّخت واهتمت بالجانبيْن السياسي والعسكري وما يتعلق بهما من فتن وحروب واضطرابات سياسية بشكل عام، هذا فيما يخص الصنف الأول (المصادر الإخبارية). فِيمَا تمثّلت الأهمية والقيمة التاريخيتيْن للصّنف الثاني (كُتب الرّحلات والجغرافيا) في أنها تُعطي القارئ صورة حضارية عامّة عن المناطق والمدن والمراكز السكانية المُراد الترجمة لها مع تركيزي على الجانبيْن العُمراني والديمغرافي. وأبرز هذه المصادر:

1. **المصادر الإخبارية السياسية:**

- ✓ كتاب **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** لعبد الرحمان بن خلدون (ت 808هـ/1406م):
- ✓ كتاب **البيان المغرب في ذكر أخبار الأندلس والمغرب** لابن عذاري المراكشي (كان حيا في سنة 712هـ/1312م)
- ✓ كتاب **الكامل في التاريخ** لابن الأثير (ت630هـ/ 1233م)
- ✓ كتاب **افتتاح الدعوة** للقاضي النعمان المغربي (ت 363هـ/974م)
- ✓ كتاب **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب** (وهو قسم من كتاب عيون الأخبار) للداعي ادريس (ت 872هـ/1468م)
- ✓ كتاب **بُغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** ليحي ابن خلدون (ت 780هـ/1378م)
- ✓ كتاب **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.** وكتاب **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** لابن أبي الزرع الفاسي (ت 726هـ/1326م)
- ✓ كتاب **نهاية الأرب في فنون الأدب** (ج24) لشهاب الدّين النويري (ت 733هـ/1333م)

كل هذه المصادر وإن تفاوتت في الأهمية، إلا أن لكلّ مصدر منها أهميته وقيمته التاريخية الخاصة سواءً حسب الفترة الزمنية أو حسب الدولة والمجال الذي تَحدَّث عنه، أو حسب المعلومات والمعطيات التاريخية التي تفرّد بها كل مصدر. هذا بالإضافة إلى غير ذلك من المصادر الأخرى ذات الصِلة بهذا النوع من المصنَّفات التاريخية.

هذا النَّوع من المصادر التاريخية وبالرغم من أن هناك من يعتبرها من الأسطوغرافيات الوسيطية الكلاسكية التي دَأب الباحثون على الاعتماد عليها في مختلف دراساتهم التاريخية. إلا أنني أقول بأن هذا النوع من المصنفات وبالنظر إلى موضوع بحثي الذي يتمحور حول موضوع الفتن والاضطرابات السياسية وتأثيرها على الجانب الديمغرافي، يجعل – لا مَحالة– هذا الصِّنف المصدري من أهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في مختلف الدراسات المغربية الوسيطية ذات العلاقة بهذا المِضمار. ذلك أنني أعتقد أنه لا ضَير في أن يعتمد الدّارس على مصادر تاريخية كلاسكية معروفة ومشهورة من أجل أن يَدرُس قضية أو موضوعاً جديداً قَلّما تُطُرِّقَ له من قَبل.

وتكمن أهمية هذا الصِّنف المصدري بالنظر إلى موضوع الدراسة هذا، أنه يمكّن وبكل سهولة من تتبع مختلف الفتن والاضطرابات السياسية التي عصفت بمنطقة ما خلال فترة زمنية ما، وأخصّ بالذكر زمكان هذه الدراسة على سبيل المثال، ومن ثَمّ تأثيرها على الصّعيد الديمغرافي. وذلك عندما تُركِّز مختلف النّصوص المصدرية لهذه المصنَّفات التاريخية حديثها حول عدد الجيوش المشارِكة في مختلف الحَملات والمعارك والحروب ثم التَّركيز بعدَها على عدد القتلى والضّحايا بعد كلّ مواجهة، بِغضّ النَّظر عَمَّا إن كانت الأرقام والأعداد المُقدَّمة من هذه النصوص المصدرية رقمية أو انطباعية فقط.

2. كتب الرّحلات والجغرافيا:

- ✓ كتاب **البلدان** لأحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي (ت 284هـ/897م)
- ✓ كتاب **صورة الأرض** لأبي القاسم بن حوقل النصيبي (ت 367هـ/977)
- ✓ كتاب **المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك) لأبي عبيد البكري (ت 487هـ/1094م)
- ✓ كتاب **معجم البلدان** لياقوت الحموي (ت 626هـ/1228م)
- ✓ كتاب **وصف إفريقيا** لحسن الوزان (ت بعد 957هـ/1550م)

وتكمن أهمية هذا النوع من الصنف المصدري أنه يعطي الدّارس صورة عامّة عن الأوضاع الحضارية للمركز السكاني المُراد الحديث عنه، وما يهم هنا وضعاه الديمغرافي والعمراني دون إهمال الأوضاع الأخرى كالوضع الاقتصادي –مثلاً– والذي يُعطي بدوره انطباعا عاما على الجانبين العمراني والديمغرافي. وتبرز أكثر قيمة هذه النصوص المصدرية ذات العلاقة بهذا الصنف المصدري إذا كان صاحبها مُتمرّسا وحذِقاً في طريقة وأسلوب إيصال معلوماته للقارئ المتلقّي. وتكون هذه المعلومات المُقدَّمة أكثر دِقّة وفائدة إذا كان صاحبها زار المناطق التي تحدّث

عنها، أو اعتمد على مصادر موثوقة في تدوين مُؤلَّفِه في حالة عدم قيامه بهذه الزيارة، وهذه المواصفات قد تنطبق مجملها أو بعضها على مختلف المصادر المثبتة في الصفحة السابقة. لكن هذا لا يمنعني –كباحث– **من توخّي الحذر** في طريقة التعامل مع كل هذه النصوص المصدرية سواءً المتعلّقة بهذا الصّنف المصدري أو غيره، وذلك بالنظر إلى تميُّز الكثير من النصوص المصدرية –بغضّ النظر على صِنفها– بإشكالية عبارات التّضخيم والتّهويل في حالة السّلب أو الإيجاب، في حالة الذّم أو المدح...، إضافةً إلى احتمالية سقوط بعض أصحاب هذه النصوص في وحل التّعصب السّياسي والمذهبي أو حتى القَبَلي والعِرقي لصالح ذلك الطّرف أو ذاك على حساب طرف آخَر.

بالإضافة إلى هذين الصِّنفين المصدريّيْن (المصادر الإخبارية السياسية وكتب الرحلات والجغرافيا)، اعتمدتُ على أنواع أُخرى من المصنَّفات. إلا أنّه –وللأمانة– فقد آثرتُ التَّركيز على هذين النّوعين من الأصناف المصدرية وذلك بالنظر إلى طبيعة موضوعي الذي يستدعي بالضرورة التركيز عليهما، هذا مع عدم إغفال المصنفات الأخرى طبعاً.

ومن أجل تعليل هذا التركيز على هذين الصّنفين المصدريّيْن دون غيرهما، أقول: **أولاً** فقد تفرّد الصّنف الأول (النصوص الإخبارية السياسية أو كُتب التاريخ العام) بتركيز الحديث على عُنصر الحَملات والمعارك وهو ما يسهّل عليَّ –كباحث– تتبع كرونولوجية أو تتابُع مختلف المواجهات والمعارك.

ثانياً: كما هو معلوم فإن موضوع البحث له علاقة مباشرة بعِلم الديمغرافيا التاريخية، هذا الأخير –أي علم الديمغرافيا التاريخية– يعتمد في الأساس على عُنصر الإحصاء والذي يعتمد بدوره –أي الإحصاء– على ضرورة توفّر مُؤشرات وأرقام تساعد على القيام بمختلف العمليات الإحصائية في إطار هذا العِلم. وبسبب غِياب أي أرشيفات وسِجلّات مصدرية إحصائية تعود للفترة مدار الدرس وللفترة الوسيطة عموماً، وبسبب توفُّر عُنصر المؤشرات الإحصائية في هذين الصّنفين المصدريين بصفة أكثر مقارنةً بنظيرهما من الأصناف المصدرية الأخرى، أدَّى بي كلّ ذلك إلى تركيز الاعتماد عليهما أكثر من غيرهما. هذا بالرغم من أن الأرقام والمؤشرات المقدمة في هذين الصنفين قليلة وغير كافية لأجل القيام بعملية إحصائية ديمغرافية دقيقة وعلى أكمل وجه. ناهيك عن معاناتها –أي المؤشرات الإحصائية المصدرية– من مَسألة عبارات المبالغة والتهويل، هذا دون نسيان أن هذه المؤشرات المقدَّمة من طرف المصادر تكون أصلاً في كثير من الأحيان انطباعية فقط وليست رقمية. لكن وبالرغم من كل ذلك لا يمكن إغفال هذه الأرقام والمؤشرات الإحصائية المقدَّمة من طرف هذين النوعين من المصنَّفات المصدرية التاريخية أو غيرها من المصنَّفات، وذلك باعتبار أنها –أي المؤشرات–

تساعدني –كباحث– على الأقل على أخذ انطباع ولو عام على الوضع الديمغرافي والعمراني للمنطقة أو التَّجمع السكاني المُراد الحديث عنه.

صعوبات البحث:

فَضلاً عن بعض الصّعوبات التي أثبتُّها في الفقرة الأخيرة أعلاه، أُضيف القَول أنّ هناك صُعوبتيْن أساسيتيْن واجَهتانِي أثناء إنجازي لهذا البحث: **صُعوبة بحثية وصُعوبة ظرفية.**

أما الصعوبة البحثية فتمثلت كما قلتُ أعلاه في عدم وجود أي سِجلات أرشيفية مصدرية تعود للفترة الوسيطة من تاريخ بلاد المغرب الأوسط بصفة عامة وللفترة مدار الدرس بصفة خاصة، وذلك من أجل توظيفها في القيام بعمليات إحصائية في إطار هذه الدراسة التي يُفترض أن تكون دراسة إحصائية كَمّية في الأساس لو توفرت لديَّ المعطيات الأرشيفية الإحصائية المصدرية التي يمكن الاعتماد عليها في إطار ذلك.

أما الصعوبة الظرفية، فتمثلت في تزامن فترة قيامي بهذا البحث مع فترة اجتياح جائحة الكوفيد 19 للعالَم، مع صاحَب ذلك من إجراءات وِقائية في إطار الاحتراز من انتشار هذا الوباء، بدءً بالحجر المنزلي وصولاً إلى غلق جميع خُطوط السَّفَر داخل وخارج الوطن، وهو ما صعّب عَليَّ حقاً التَّنقل من أجل الحصول على دراسات ومصادر لها علاقة بالدراسة سواءً داخل أو خارج الوطن، خاصةً عند الحديث عن المِنح قصيرة أو طويلة المدى نحو الخارج.

ما أودّ قوله في الأخير هو اعترافي بصعوبة الخوض في مِضمار هذه الدراسة والتي وكما تبدو فهي عبارة عن مُغامرة محفوفة بالمخاطر، في ظِلّ غياب المادة الأرشيفية الإحصائية ونُقص المعطيات الإحصائية بين ثَنايا المصادر الوسيطية وفي ظِلّ قِلَّة الدراسات المتعلقة بمجال المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط في ميدان هذا التَّخصص مِمَّا يزيد من صعوبة المَهمّة أكثر وأكثر. ولذا فأنا لا أدَّعي هنا أنني أتَيْتُ بجديد أو أنني سوف آتي بجديد من خلال هذه الدراسة المتواضعة، لكن ما أحاول أن أصبو إليه هو محاولة لفت انتباه الباحثين للاهتمام بتخصص الديمغرافية التاريخية ومختلف التخصصات الأخرى المنبثقة عن العلوم المساعدة للتاريخ وذلك لمحاولة استنطاق ما هو مُدوَّن في أُمَّهات المصادر التاريخية، وإعادة كتابة تاريخنا بشكل أكثر عَصرنة وتطوراً وأكثر دِقّة وإفادةً وتبسيطاً، وكذا من أجل تسليط الضّوء على نقاط عديدة من تاريخ بلادنا الحضاري ظلّت مَنسية أو مُتناسية لم يُتطرَّق لها بالرغم من أهميتها، ولعلّ موضوع دراستي يمكن أن يكون مثالاً على ذلك.

الفصل التمهيدي: مدخل عام حول الموضوع:

المبحث الأول: الأزمة وتاريخ المغرب الأوسط: الفتن والاضطرابات السياسية أنموذجا:

المطلب الأول: "التأريخ للأزمات" في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط: ملاحظات وتأمّلات

أولاً: الأزمة: المفهوم والدلالة

ثانياً: ما فائدة التأريخ لأزمات المغرب الأوسط خِلال العصر الوسيط؟

المطلب الثاني: الفتن والاضطرابات السياسية: مظهر من مظاهر أزمات وكوارث المغرب الأوسط البشرية

المبحث الثاني: الديمغرافيا التاريخية : المفهوم، النّشأة، الأهمية والقيمة التاريخية:

المطلب الأول: الديمغرافية التاريخية :المفهوم والنّشأة

المطلب الثاني: أهمية الديمغرافيا التاريخية في حقل الدراسات التاريخية الوسيطية

المطلب الثالث: إشكالات وتحدّيات البحث في الديمغرافيا التاريخية للمغرب الأوسط: إشكالية نُقص المعطيات الإحصائية في المصادر الوسيطية أنموذجاً

المبحث الأول: الأزمة وتاريخ المغرب الأوسط: الفتن والاضطرابات السياسية أنموذجاً:

لقد عَصَفت بمجال المغرب الأوسط خلال تاريخه الحضاري الطويل في الفترة الوسيطة، عِدّة أزمات كانت بمثابة تحديات وصعوبات واجهت مَسيرة البناء الحضاري لهذه الرّقعة من العالم الإسلامي الوسيط. وفي هذا الإطار أودُّ أن أُشير إلى أمر مُهمّ له علاقة بهذا الشأن: ألا وهو اعتقادي أنه **لا تاريخ بدون أزمات ولا أزمات بدون تاريخ**، من هنا أَرى أنه يُستحسَنُ بمختلَف الدارسين القيام بالتأريخ للأزمات ودراستها ومعرفة أسبابها والنتائج المترتّبة عنها على الأمم والمجتمعات والدول، ومن ثَمّ الاستفادة والاعتبار والتّعلم منها.

إن الإنسان كفرد تواجهه في حياته اليومية الطبيعية العادية عدة أزمات وتحدّيات بِغضّ النّظَر عن أصناف وأنواع هذه الأزمات والتحديات، فما بالك بالدول والأمم والشعوب! من المعلوم أن بلاد المغرب الأوسط وغيره من بلدان بلاد المغرب شَهِدت خلال الفترة الوسيطة قيام عدة دول كُبرى وعُظمى كان لها وزنها وثِقلها الحضاري محليا وإقليميا وعالميا في ذلك الوقت. فكيف لا تواجه دُولاً ومجتمعات بمثل هذا الحجم أزمات وانكسارات وتحديات! فيأتي دور الباحثين هنا في التّعرف على هذه الأزمات ودراستها ومعرفة مختلف نتائجها، ومن ثَمّ معرفة طُرق تَكَيُّف ومواجهة دول ومجتمعات الفترة الوسيطة مع مختلف هذه الأزمات سعياً منها –أي هذه الدول والمجتمعات– في مُواصلة مسيرة بنائها الحضاري رغم كل هذه الأزمات والتحديات التي مرَّت بها.

غالباً ما يذهب الكثير عند تطرّقهم لمختلف الأزمات التي حلَّت ببلاد المغرب الأوسط مع غيره من بلدان بلاد المغرب إلى الاهتمام بالأزمات ذات البُعد الطبيعي، مُتناسين تماماً تلك الأزمات ذات البُعد والعامل البَشري، ذلك أنني أَعتقد أن ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية أو الحروب بصفة عامة بمختلف أبعادها وتجلياتها، كانت أبرز الأزمات البشرية التي واجهت إنسان ومجتمع ودول مغرب العصر الوسيط. ولهذا قُمتُ بأخذ هذه الظاهرة (ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية) كنموذج لأزمات المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة، من هنا تَعيَّن عليَّ التطرق لهذا الموضوع والإلمام به من عدة جوانب ومحاور، وذلك بالتطرق بدايةً إلى عُنصر (الأزمة) مفهوماً ودلالةً، ثم التطرق إلى أهمية موضوع (التأريخ لأزمات المغرب الأوسط) وصولاً إلى معرفة عوامل اختياري لموضوع الفتن والاضطرابات السياسية كمظهر من مظاهر أزمات وكوارث المغرب الأوسط البشرية دون غيره من النّماذج.

المطلب الأول: "التأريخ للأزمات" في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط: ملاحظات وتأملات

أولاً:الأزمة: المفهوم والدلالة

لُغوياً، يُقصد بالأزمة: الشِّدة والقَحط[16] والمأزم: المكان الضيق[17] و أزِم الدَّهر: اشتدَّ[18] وهي بذلك تتقاطع في معانيها هذه مع مُصطلحيْن آخريْن أراهما قريبين من مصطلح (أزمة) وهما: الجائحة والكارثة، فالجائحة لغويا هي "الشدة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة"[19] كما أن الجوحة أو الجائحة تعني أو يقصد بها: "الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة"[20] أما الكارثة فلم تَرِد هذه الكلمة بهذا الإسم أو بهذا المصطلح وإنما وردت على شكل فعل فقط يحمل معنى المشقة، ف: كرث: إكترث فعل لازم من قولك: ما كرثني هذا الأمر، أي ما بلغ مني المشقة[21] وكرث: كرثه الأمر، بالتاء معجمة بثلاث: إذا شق عليه[22] وهذا يعني أن مصطلح (الكارثة) لم يستعمل كثيرا في الإسطوغرافيا الوسيطية[23]، على عكس كلمة (جوائح) أو(جائحة) اللّتين استعملتا بكثرة في مختلف المصادر التاريخية خاصّة الفِقهية منها.

هناك من الدَّارسين من يَرى أن كلمة (أزمة) بِدورها لم تُستعمل من طرف الأسطوغرافيا الوسيطية بالمفهوم الذي دأبت الصحافة الدولية في عصرنا[24] على استعماله، بل فَضّل مُؤلفو الفترة الوسيطة –في نظر هذا الدّارس– استعمال كلمات

---

[16] نشوان ابن سعيد الحميري(ت 573هـ/ 1178م)، **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**، تح: حسين بن عبد الله العمري وآخرون، ج1، دار الفكر بدمشق، دمشق ـ سورية، 1420هـ ـ 1999م، ص 244. الرّازي: مُحَّد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 660هـ/1261م)، **مختار الصحاح**، مكتبة لبنان، بيروت 1986، ص 6.

[17] ابن سعيد الحميري، شمس العلوم، **المصدر نفسه**، ج1، ص 246. ابي بكر الرازي، مختار الصحاح، **المصدر نفسه**، ص 6.

[18] ابن سعيد الحميري، **نفسه**،ج2، ص 251.

[19] أبي بكر الرازي، **المصدر السابق**، ص 49.

[20] ابن منظور، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة، د ت ن، ص 719.

[21] الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ/786م)، **كتاب العين**، ترت و تح: عبد الحميد هنداوي، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 1424هـ ـ 2003م، ص 18.

[22] ابن سعيد الحميري، **المصدر السابق**، ج9، 5812.

[23] أورد نشوان بن سعيد الحميري كلمة الكوارث في شطر بيت من ديوان رؤبة بن العجاج(ت 145هـ/762م) دون شرح معناها بالرغم من ذكره وشرحه للفعل: كرث، " قال رؤبة: وقد تجلي الكربُ الكوارثُ". ينظر: نشوان بن سعيد الحميري، **نفسه**، ج9، ص 5812.

[24] **ملاحَظة مُهمّة:** أودّ أن أُلفِت عناية القارئ الكريم أيضاً أنه عندما يجد هناك استعمالاً للأفعال والكلمات على صِيغة ضمير المتكلِّم (نحن) ضِمن هذه الدراسة، فإن ذلك راجعٌ إلى حالتيْن اثنتيْن: **أما الحالة الأولى:** أن يكون ذلك ضِمن نصٍّ مُقتبَس من مرجع أو مصدر ما حتى وإن لم يكن بين علامتيْ الاقتباس (" ")، وفي هذه الحالة لا يُمكنني التَّصرّف في أسلوب أو طريقة تعبير نصٍّ لستُ أنا صاحِبه. **أما الحالة**

أُخرى، مثل: فاقة، قحط، وباء، غلاء، جراد، مجاعة، فتنة، خلاء الأرض...إلخ، وأما ابن خلدون الذي ارتقى في بحثه إلى النظرة الاجتماعية الشمولية، فقد استعمل كلمات أخرى: هرم الدولة في نظرته عن أعمار الدول، أو الخلل الآتي إما من جهة العصبية أو من جهة المال، ونجد كلمات أخرى مثل: إدبار، نقص، ضعف عند صاحب روض القرطاس، ومن بين الكلمات التي يستعملها ابن عذاري نجد لفظ الحدثان، وبالجملة، فالأسطوغرافيا التقليدية حافلة بالكلمات التي تقترب من معنى الأزمة، لكن هذه الأخيرة منعدمة فيها[25].

صحيح بأن كلمة أزمة لم ترِد كثيرا في المصادر الوسيطية، وهو أمر بدوري أقول به، لكن ما يمكن أن يُعاب على طرح هذا الدارس أنه بالَغ أو اقتصر في ربط وتفسير عوامل الأزمة في العصر الوسيط بالجانب الاقتصادي دون غيره من الجوانب الأخرى حين قال: أن "مفهوم الأزمة مرتبط قبل كل شيء بالاقتصاد"[26]، وأنا هنا أُخالف هذا الطرح وأقول بأن العامل السياسي المتمثل في الفتن والاضطرابات السياسية وظاهرة الحرب بصفة عامة كانت من أكثر العوامل التي ساهمت في بروز وانتشار مختلف الأزمات في مغرب العصر الوسيط، طبعا مع غيره من العوامل الأخرى التي لا يمكِن إهمالَها، لكن –وفي المقابِل– لا يمكن القول أن العامل الاقتصادي هو وحده المرتبط بمفهوم الأزمة دون غيره من العوامل. نفْس الدارس ذهب إلى أكثر من ذلك عندما شبَّه وقارَن أزمات العصر الوسيط بالأزمات الاقتصادية التي عاشتها أوروبا وبالأخص فرنسا في الفترة الحديثة والمعاصِرة من تاريخها[27]، فكيف يُقارَن –إذاً– بين الأوضاع العامة للضِّفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط في الفترة الحديثة والمعاصرة مع نظيرتها من الضفة الجنوبية لهذا الحوض، مع الأخذ بعين الاعتبار الفُروقات الإقليمية والسياسية والاقتصادية والدينية بين الضفتين مع الفارِق الزّمني بين الفترة الوسيطة والفترتيْن الحديثة والمعاصرة؟

وعَلى أَيٍّ، و بعيداً عن التخريجات والتأصيلات الفقهية حول هذه المصطلحات الثلاث(أزمة ـ جائحة ـ كارثة)، خاصة مصطلح: جوائح أو جائحة والذي ورد استعماله كثيرا عند الفقهاء[28]، فإن الكلمتين الأوليتين: (أزمة) و (جائحة) اشترَكتا

الثانية: أثناء تحدُّثي بلِسان الأمّة أو البلد الذي أنتمي إليه كأن أقول: تاريخنا، بلادنا...إلخ. غير ذلك فإنّي أستعمِلُ في الغالب صِيغة ضمير المتكلِّم (أنا)، اللّهم إلّا ما سقطتُ فيه سهواً دون قصدٍ مِنّي واستعملتُ بَدَلَه صِيغة ضمير المتكلِّم (نحن).

[25] مُحَّد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط**: **الدولة ـ المدينة ـ الاقتصاد**، تن: مُحَّد المغراوي، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1420هـ/ 1999م، ص ص 266 ـ 267.

[26] مُحَّد زنيبر، **نفسه**، ص 269.

[27] **نفسه**، 266.

[28] قام كلّاً من الباحث الراحل: الحسين بولقطيب وكذا الباحث: عبد الهادي البياض، بالتّعريف بالجائحة من ناحية وزاوية فقهية. يُنظر: الحُسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، د ت ن، ص 23 وما

معا في كلمة (شِدّة) كأحد معاني هذين المصطلحين، في حين انفردت كلمة (كارثة) بأن حملت لوَحدها كلمة (المشقّة)، وما يهمّ هنا مصطلح (الأزمة) الذي حمل في العموم مدلولي الشّدة والضيق في المعاجم الوسيطية، وعلى هذا المعنى والمدلول درَجت أيضاً المعاجم اللغوية المعاصِرة في شرحها لهذه الكلمة، ف: أزْمة/ أزَمة [مفرد]: ج: أزَمات وأزْمات: شِدَّة وضَيْق[29]، والأزْمة و الأزَمَة: الشِدَّة والضَّيق، يقال أزمة مالية، أزمة سياسية وأزمة مرضية[30]، يُفهم من هذا التَّعريف الأخير أن الأزمة تتَّخِذ عِدّة أبعاد وأشكال وأن مجالاتها تتعدد وتتنوع، ومنه جاءت الأزمة السياسية كأحد تِلك الأنواع والتي لها علاقة مباشرة بموضوع هذا البحث: (الفتن والاضطرابات السياسية).

ثانيا: ما فائدة التأريخ لأزمات المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط؟

لا بأس من إعادة طرح هذا السؤال بصيغة أخرى: **ما هي أهمية التأريخ للأزمات في دراسة تاريخ المغرب الأوسط الوسيط؟** من أجل الإجابة على هذا السؤال يمكن الاستئناس بدايةً بما أورده أحد الباحثين في هذا الصَّدد: "دِراسة الأزمات تُقدّم مشروع قراءة جديدة لفهم الأسباب العميقة لانهيار دول وقيام أخرى"[31]. يُفهم من هذا أن دراسة الأزمة بمختلف أبعادها تُعين على فهمِ تاريخنا أكثر وأكثر. بَيْدَ أنّ هذا الفهم الذي أتحدّث عنه لا يمكن أن يتأتّى ـ في نظري ـ إلاّ بِدراسة هذه الأزمات من كل الجوانب ومن كل الزّوايا من أجل الوصول إلى حيثياتها والعوامل المتسبِّبة فيها والعناصر الفاعِلة فيها وصولاً إلى معرفة انعكاساتها ونتائجها على الدولة والمجتمع، ومن ثَمّ مَعرفة الدَّور الذي لعبته هذه الأزمة في سَيرورة الحدث التاريخي ومن ثَمّ الحرَكة التاريخية سلباً أو إيجاباً.

وبخصوص العلاقة التي تَجمع أو تربط بين الأزمة، وبين الحدَث التاريخي والحركة التاريخية عموما، ينبغي في البداية معرفة ما هو الحدَث التاريخي أصلاً؟ أنا لا أقصِد هنا المفهوم بل الشَّكل، في نظري واعتقادي فإن الحدث التاريخي في شكله يتضمن حالتين:

بعدها. عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6 ــ 8هـ/ 12 ــ 14م)**، دار الطليعة، بيروت ـ لبنان، 2008م، ص ص 18 ـ 19.

[29] أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصر**، مج الأول، عالم الكتب، القاهرة، 1429هـ/ 2008م، ص 88.

[30] مجموعة مؤلفين، **المعجم الوسيط**، ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 1425هـ/ 2004م، ص 16.

[31] أحمد عمالك، **الأزمة وتوطيد الحكم المركزي مجاعة عام 1071 ـ 1072 نموذجا**، الأيام الوطنية العاشرة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الجديدة ـ المملكة المغربية، أكتوبر 2002، ص ص 271 ـ 288.

الحالة الأولى: هي حالة الرخاء والاستقرار، ويكون ذلك بالبِناء الحضاري للدولة والمجتمع، كتشييد المدن والأمصار وعمارة الأرض والنّهوض بالوضع الفلاحي والاقتصادي لمنطقة ما أو دولة ما.

الحالة الثانية: هي حالة تأزُّم وعدم استقرار الأوضاع العامّة لدولة ما في زمان ما، وعادةً ما يكون هذا التأزم نتيجةً لسبب بشري كالحروب والفتن السياسية بين مختلف القبائل أو القِوى والدّول المتصارِعة، ويكون أيضا لسبب طبيعي كالكوارث الطبيعية من أوبئة ومجاعات وفياضانات وغيرها.

أي أن الحدث التاريخي في جوهره وشكله يحتمل وجهيْن: وجه الرّخاء والاستقرار ووجه التَّأزم والاضطراب، وهذان الوجهان لا محيد عنهما ولابد منهما من أجل سيرورة الحركة التاريخية، ومن أجل أن يتّصف حدث ما بأنه حدث تاريخي، وهذا من وجهة نظري دائما.

غير أن هذا الطرح يقود إلى تساؤل آخر أيضاً: **هل يمكن لوجهيْ الحدث التاريخي هذين أن يتزامنا معاً في نفس الفترة؟ أم أنهما يتعاقبان بشكل دوري ولا يلتقيان؟** الإجابة ببساطة تحتمل كِلا الاحتمالين:

أما بخصوص تعاقُب الوَجهيْن يمكن أن أضرِب مثالاً حول هذا بنظرية ابن خلدون القائلة أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص[32]، أين رأى ـ أي ابن خلدون ـ أن الدولة عمرها 120 سنة وتنقسم إلى ثلاث أجيال، كل جيل له 40 سنة. ويمكن تفسير هذه المراحل بالطريقة التي أراها تتوافق مع طرحي هذا، فالمرحلة الأولى تبدأ بحالة الأزمة ويكون ذلك بكثرة الحروب والفتن وذلك في إطار بداية جهود القبيلة لتأسيس دولتها على حساب أخرى كانت قائمة من قبل، ثم المرحلة الثانية: تكون مرحلة الاستقرار والرّخاء تتفرغ فيها الدولة لحركة البناء والتشييد، ثم سرعان ما تعود إلى واقع الأزمة والاضطراب في المرحلة الثالثة من عمرها أثناء هرمها وظهور عصبية وقبيلة أخرى مُناوئة لها تسعى لتأسيس دولة لها على حسابها.

أمّا بخصوص الحالة الثانية: حالة تزامن حالتي التأزّم مع نظيره من الرخاء والاستقرار، فالأمثلة كثيرة هنا، فمثلاً في الفترة الفاطمية: في الوقت الذي كانت تتعرض فيه مدن ومجالات واسعة من المغرب الأوسط لشتى أنواع الخراب والتدمير والحرق من جرّاء الحملات الفاطمية المتعددة على هذه المناطق، كانت تُبنى في المقابل مُدناً جديدة لا تَقِل أهمية عن تلك التي

---

[32] للمزيد حول هذه النظرية، ينظر: ابن خلدون عبد الرحمن (ت 808هـ/ 1406م)، **مقدمة ابن خلدون**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، 1421هـ/ 2001م، ص 213 وما بعدها.

أُحرقت ودُمّرت مثل: مدينة **المسيلة** التي بُنيت سنة 315هـ/927م[33]، و**أشير** التي بُنيت سنة 324هـ/936م[34]، ومن بعدِهما **القلعة** التي بُنيت لاحِقاً في فترة الصّراع الحمادي الزّيري سنة 398هـ/1008م[35]، إلى غير ذلك من المدن. وفي الوقت الذي كانت تتعرض فيه **القلعة** (قلعة بني حماد) للتراجع الرّيادي والحضاري بعد الدخول الهلالي للمجالات الحمادية بالمغرب الأوسط، كان الناصر بن علناس الحمادي (454 -481هـ/1062-1088م) يَبني مدينة جديدة ستضاهي في مَجدها مجد القلعة الذي كان بالأمس القريب، وهذه المدينة هي **بجاية** التي بُنيت سنة 457هـ/1065م[36]. وفي الوقت الذي كانت مدينة تلمسان تتعرض فيه لحصارها الطويل (698-706 هـ/1299-1307م) من طرف المرينيين، كانت تُبنى بالقرب منها مدينة المنصورة التي بلغت ذروة ازدهارها العمراني والحضاري و" استبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة"[37] أخرى. وأَختِم بالمثال الذي قَدَّمه الوزان عن مملكة تلمسان (الدولة الزيانية) في آخر مراحلها أين قال أنه "قَلّما توجد في البلاد سُبل آمنة، ومع ذلك فالسِّلع ترُوج بكثرة [بها] لقُربها من نوميديا (الصحراء) ولأنها تشكل مرحلة في الطريق المؤدية إلى بلاد السودان"[38]، أي أن الدولة الزيانية وبالرغم من تفاقُم وضعها الأمني وتأزّمه عقِب ضُعف السّلطة الزيانية من جِهة وكذا من جراء الاضطرابات السياسية التي عصفت بكيان هذه الدولة من مختلف الجوانب من جهة أخرى، بالرغم من كل ذلك إلا أن مُعامَلات هذه الدولة التجارية كانت في قمة العطاء والازدهار. وعَلَّل الوزان ذلك بالموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به تلمسان عاصمة هذه الدولة ووقوعها على الطريق التجاري: السودان الغربي ـ أوروبا، فهي قريبة من الصحراء بوابة السودان الغربي جنوبا، كما أنّ موانِئها بالسّاحل البحري (المرسى الكبير، وهران...) قريبة جدا من المدن التجارية الأوروبية شَمالاً.

---

[33] ابن خلدون عبد الرحمن (ت 808هـ/ 1406م)، **تاريخ ابن خلدون المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار،ج4، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، 1421هـ/ 2001م، ص 50 ـ 51.

[34] النويري: شِهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ/1333م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تح: عبد المجيد ترحيني، ج24، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، د ت ن، ص 88.

[35] ابن خلدون عبد الرحمن، **المصدر السابق**، ج6، ص 227.

[36] ابن الأثير: أبي الحسن علي بن أبي الكرم مُحَّد بن مُحَّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الملقب بعز الدين (ت 630هـ/1233م)، **الكامل في التاريخ**، راجعه وصَححه: مُحَّد يوسف الدقاق، مج 8، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 1407هـ/ 1987م، ص ص 372 ـ 375.

[37] ابن خلدون عبد الرحمن، **المصدر السابق**، ج7، ص 128.

[38] حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، تر: مُحَّد حجي ومُحَّد الأخضر، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان ـ ، ط2، 1983، ص 9.

ومِن ذلك يتبين أن حالة الأزمة وما يقابلها من حالة الاستقرار وجهان لعملة واحدة بالنسبة للحدث التاريخي وأن اتّصاف هذا الأخير بأحدهما أو كِليهما سواءً مُتزامنان أو مُتعاقبان بشكل دَوري، أمر لابد منه في أن يَتَّصف حدث ما بأنه حدث تاريخي له وزنه وأهميته في سيرورة الحركة التاريخية لمنطقة وزمان ما.

أَخلُص من خلال هذا الطَّرح إلى مَدى أهمية التأريخ للأزمات بمختلف أشكالها البشرية والطبيعية والتي عصف بكيان المغرب الأوسط من حين لآخر في الفترة الوسيطة وفي غيرها من الفترات التاريخية، وذلك بسبب الأهمية التي يكتسيها موضوع التأريخ للأزمات ودوره في فهم وتفسير حيثيات الحركة التاريخية. وبالتالي إعادة قراءة تاريخنا بطريقة تصل بنا إلى استخلاص الدروس والعِبر منه، خاصة في ميدان (دراسة الأزمة). غير أنه بقي أن أُنَوِّه إلى أن هذه الأخيرة ـ أي دراسة الأزمات ـ لا يمكن أن تؤتي ثِمارها –في اعتقادي–إلاَّ إذا كانت شاملة لمختلف الزوايا والجوانب وغير مُهمِلة لإحداها على حِساب أُخرى.

المطلب الثاني: الفتن والاضطرابات السياسية: مَظهر من مظاهر أزمات وكوارث المغرب الأوسط البشرية:

رُبما قد يبدو هذا العنوان مبُهماً وغامضاً نوعاً ما، لكن يمكن إعادة صياغته بطريقة استفهامية لِيَتَّضِحَ مقصوده ومدلوله أكثر فأكثر: **لماذا تم اختيار الفتن والاضطرابات السياسية كنموذج للأزمات البشرية التي حلت بالمغرب الأوسط دُون غيرِه من النَّماذج؟**

قبل الإجابة على هذا السؤال الجوهري، لا بد أولاً ـ في اعتقادي ـ من الإجابة على سؤال آخر مُتفرّع من هذا السؤال أراه له علاقة بهذا الشأن: **هل الفتن والاضطرابات السياسية أو ظاهرة الحرب بصفة عامة تُعدّ أزمة بحدّ ذاتها؟**

ربما يعتقد البعض أن الأزمات بصفة عامة وما يُرادفها من أزمات كالكوارث والجوائح التي لها أبعاد طبيعية كالمجاعات والأوبئة والزلازل والفياضانات وغيرها هي وحدها تعبّر عن مختلف الأزمات التي حلّت ببلاد المغرب الأوسط وبغيره من بلدان المغرب خلال العصر الوسيط دون غيرها من الأزمات، أين اقتُصر هنا في ربط الأزمة بالبُعد الطبيعي دون غيره من الأسباب والأبعاد. وهو أمر أَراه قد جانب الصواب كونه قد أغفل تماما البُعد البشري في أسباب وقوعها (الأزمات)، ولعلّ العامِل السياسي المتأزم والمتمثل في الفتن والاضطرابات السياسية أحد أهم العناصر الفاعِلة في وقوع الأزمات بمختلف أنواعها والمتسبِّبة أيضاً في تفاقُم نتائجها على الإنسان والمجتمع والدولة. لقد ذَكَر ابن خلدون أن "المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخِر الدولة والسّبب فيه، أما المجاعات فلِقَبض الناس أيديهم عن الفَلَح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العُدوان في الأموال والجِبايات أو الفتن الواقِعة في انتفاض الرعايا وكثرة الخوارج لهَرَم الدولة فيَقِلَّ احتكار الزّرع

غالباً...وأما كثرة الموتان فلَها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرنا أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيَكثُر الهَرْج والقتل..."[39]، وحتى الوَباء الذي "سببُه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة"[40] عَزَاهُ ابن خلدون إلى "كثرة العمران ووُفورِه آخر الدولة"[41]، أي أن ابن خلدون يُقرّ هنا بأن لِتَردي الأوضاع السياسية والأمنية في آخر أطوار الدولة دوراً كبيراً في ظهور الأزمات والكوارث الطبيعية كالمجاعات والأوبئة.

ومِنهُ، ففي اعتقادي أن الفتن والاضطرابات السياسية أو ظاهرة الحرب بصفة عامة هي **أُمُّ الأَزَمات** وعنها تتولد مختلف الأزمات الأخرى طبيعية كانت أم بشرية، فهي تسبب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في فاعِلية الأزمة بشكل عام سواءً بِالتَّسبب في ظهورها أو التسبب في استفحال نتائجها وجَعلِها أكثر كارثية. فمَثلاً: عند وقوع أزمات طبيعية لا دخل للإنسان فيها مثل الزلازل والفياضانات والمجاعات والأوبئة، فإن الدولة إذا كانت في مرحلة استقرار وهدوء أمني وسياسي ومن ثَمّ حالة اقتصادية ممتازة، فإن ذلك سيكسِبها قُدرة على حُسن التعامل مع هذه الأزمات والكوارث أو على الأقل التَّقليل من خَطرِها، وإذا كانت الدولة تمر بمرحلةٍ وحالةٍ عكس الحالة الأولى، وهي حالة الاضطراب الأمني والسياسي وطُغيان ظاهرة الحرب في أوساطها، فإن ذلك سيجعلها عاجزة عن مواجهة هذه الأزمات الطبيعية، وهو ما يجعل عواقِب هذه الكارثة في هذه الحالة وَخِيمة على الدولة والمجتمع. فمِعيار التعامل هنا مع الأزمات سواءً البشرية منها أو الطبيعية هو توفّر عُنصر الأمن والاستقرار وعَكسُه في حالة الحروب والفتن وعلى هذا نَقيسْ.

المُلفِت للانتباه هنا – رُبما– هو إطلاق مُصطلح (الكارثة) ضِمن عُنوان هذا المطلب على أزمة الفتن والاضطرابات السياسية أو على ظاهرة الحرب بصفة عامة، فكما هو معلوم فإن ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية هي ظاهرة ذات بُعد بشري، كما أن مصطلح (الكارثة) يُطلق عادة على الأزمات الطبيعية، فكيف أُطلِقه هنا على ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية ذات البعد البشري! في الحقيقة، لقد تَعمَّدتُ فِعل ذلك، لا لشيء إلا لِأُبين وأُكِّد للقارئ وِجهة نظري المتواضعة في هذا الموضوع، حين قلتُ بأن ظاهرة الفتن والاضطرابت السياسية أو الحروب بصفة عامة هي **أُمُّ الأزمات** الأخرى طبيعية كانت أم بشرية ولا تقِلّ خطورة عن الأزمات الطبيعية كالمجاعات والأوبئة، بل تفُوقها في أغلب الأحيان. إن حُروباً ومعاركَ وفِتناً تحصد عشرات الآلاف من البشر هنا وهناك في مدة زمنية وجيزة أو طويلة لجديرة بأن تُعدّ بِحقٍ أم الأزمات وأَخطرُها وأكثرها شناعة على الأمم والشعوب والدول، والأمثلة كثيرة عن هذا الأمر، ولك أن تعود إلى مختلف المصادر

[39] ابن خلدون، **المقدمة، المصدر السابق**، ص 376.

[40] **نفسه**، ص 376.

[41] **نفسه**، الصفحة نفسها.

التاريخية –وبشكل أدَقّ– تِلك المهتمة مِنها بالتاريخ السياسي والعسكري للدول المتعاقبة على بلاد المغرب ليتأكّد لك ذلك بسهولة، خاصة إذا عُولِم أن تهويل الأرقام وتضخيمها كانت من أبرز الهِوايات المُفضَّلة لدى جُزءٍ مُهم من المصادر التاريخية الوسِيطية!

وعَلى كُلٍّ، فقد ذكرتُ في المطلب الأول من هذا المبحث أن استعمال كلمة (أزمة) في المصادر الوسيطية نادِر وقليل جدا وهو ما لمستُه بالفِعل. بَيْدَ أنّه وعِند تصفُّحي لكتاب (سِراج الملوك) الذي هو "كِتاب في فن السياسة والحُكم وما يجب أن يكون عليه الرّاعي والرَّعية"[42] لصاحبِه الطّرطوشي (ت520هـ/1126م)، أَجِده يذكُر ظاهرة الحرب بمصطلح "أزمة الحروب"[43] مما يَدُلُّ على أنّ مصطلح (الأزمة) وإن أُوتي على ذِكره نادِراً في المصادر الوسيطية، إلا أنّ رَبط هذا المصطلح (الأزمة) بالظاهرة الحربية هنا في هذا المصدر التاريخي الوسيطي يَدلّ –بِوجهٍ من الأوجه– على خطورة أزمة الفتن والحروب ومختلف الفتن والاضطرابات السياسية، وأنّها –أي أزمة الحروب– لا تَقِلّ خُطورةً عن الأزمات الطبيعية والبشرية الأُخرى، بل هي أُمّ الأزمات كما أسلفتُ.

أَمّا بِخُصوص السؤال الرئيسي الذي طرحتُه في بداية هذا المطلب: **لماذا تم اختيار الفتن والاضطرابات السياسية كنموذج للأزمات البشرية التي حَلّت بالمغرب الأوسط دون غيره من النماذج؟** فأعتقد أن الإجابة على هذا السؤال تتمحور في عُنصرين أساسيين يدلّ كُلّ منهما على الحضور القوي لظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية أو لظاهرة الحرب بمختلف أبعادها وأشكالها وعلى طُغيانها على مجال المغرب الأوسط وعلى غيرِه من بُلدان المغرب خلال الفترة الوسيطة. هذا الحضور شمل كل الميادين المتعلقة بهذا المجال سواءً على صعيد الدولة ككَيان سياسي أو على صعيد المجتمع كأحد مُكوّنات الدولة.

العُنصر الأول: مَدى فاعلية الحرب في التَّحكم في سَيرورة الحركة التاريخية ومَدى تأثيرها على الإنسان ومُحيطِه:

يَرى أحد المنظِّرين الغربيين للظاهرة الحربية بأن "الحرب هي التي وَلدَت التاريخ، فالتاريخ بدأ في الواقع بكونه تاريخ المعارك المسلحة دون غيره، ولعله سيبقى دوماً تاريخ المعارك، ذلك أن الحرب هي في الوقت نفسِه أبرز المعالم التي نستند إليها في التأريخ وهي الحدود التي تدل على المنعطفات الكُبرى للحوادث شِئنا أَم لم نشأ، فبِالحرب كادت كل الحضارات

---

[42] الطرطوشي أبي بكر مُحَّد ابن الوليد الفهري (ت 520هـ/1126م)، **سراج الملوك**، تح: مُحَّد فتحي أبو بكر، تقد: شوقي ضيف، مج الأول، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1414هـ/ 1994م، ص 26 ـ 27 (من مقدمة المحقق).

[43] نفسه، ص 678.

المعروفة تزول، وبالحرب كادت كل الحضارات الحديثة تشق طريقها، وبالحرب تقوم أو تثبت ضُروب التَّفوق التي تصنع مجتمعا ما على هامَة الإنسانية زمناً متفاوتاً في الطُّول"[44]!

إن خُطورة الحرب على الدول الوسيطة أصبح من الأمور التي لا يرقَى إليها الشّك، فَيَكفي أن نُشير إلى أنّ أغلب المؤرخين يُقرنون بداية الدول ونهايتها بحدث عسكري. فنِهاية دولة المرابطين بَدأت في الأُفق بعد مقتل الأمير تاشفين بن علي على يد القوات الموحدية بمدينة وهران، والأمر نفسه ينطبِق على دولة الموحدين، ذلك أن هزيمة العقاب كانت إيذانا ببداية أُفول نجم هذه الدولة. وفي مُقابل حضور مسؤولية الحرب في قيام الدول وسقوطها لا نعثُر في مصادر المرحلة على ما يُفيد انهيار دولة ما بسبب جائحة أو كارثة طبيعية، وهكذا فإن إشكالية الحرب خلال العصر الوسيط بمنظور جديد يتجاوز السّرد الكرونولوجي للأحداث العسكرية إلى الحفر في نتائجها الديمغرافية والاقتصادية والنَّفسِية لكَفيلةٌ بالكشف عن مُعطيات جديدة ستُغني البحث التاريخي ولا شَكّ[45].

وبالإضافة إلى ذلك، فإن المصادر التاريخية وكذا الدراسات الحديثة تُجمع على أهمية الحرب في تاريخ دول العصر الوسيط، فالحرب أصبحت ظاهة مستشرية ودائمة[46]. وطبيعيٌّ فبسبب استشرائها وديمومتها فإن نتائجها وانعكاساتها على الإنسان ومحيطه تكون في أحسن أحوالها كارثية، سواءً على الصّعيد الاجتماعي أو الاقتصادي أو العمراني، هذا دون نِسيان "شَسَاعة المناطق المتضرّرة من نتائج"[47]هذه الحروب. والأمثلة كثيرة عن هذه الخاصيات التي ميزت الظاهرة الحربية في العصر الوسيط، فمثلاً خاصيتا الاستشراء والدَّيمومة التي مَيَّزت تاريخ المغرب الوسيط الحربي، يجدِهما المرءُ واضحة وجَلية في طغيان الظاهرة الحربية في كل الدول الوسيطية خاصة أثناء فترة الدراسة. مِن أجل التأكد من ذلك يكفي الرجوع إلى أُمّهات المصادر الوسيطية ذات التوجه السياسي خاصة تلك المهتمة بسيرة وأخبار الملوك والسّلاطين والأمراء وذِكر حملاتهم وحُروبهم، مثل كتاب (افتتاح الدعوة) للقاضي النعمان (ت 363هـ/974م) والذي كان "مُؤرخاً رسميا لدولة"[48] العُبيديين الفاطمية، إذ يعدّ كِتابه مادَّةً دسمةً لمختلف الحروب والحملات التي شَنّها الفاطميون على مختلف مناطق بلاد المغرب، ابتداءً من بداية الدولة إلى غاية 346هـ/957م تاريخ تدوين هذا الكتاب. والكِتاب الثاني هو كتاب (المن بالإمامة) لابن

---

[44] غاستول بوتول، **هذه هي الحرب**، تر: مروان القنواتي، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس، 1981م، ص 5 ـ 6.

[45] الحسين بولقطيب، **المرجع السابق**، ص 93.

[46] **نفسه**، ص 88.

[47] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[48] القاضي النعمان (ت 363هـ/974م)، **افتتاح الدعوة**، تح: فرحات الدشراوي، ط2، الشركة الوطنية للتوزيع، تونس و ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، الصفحة: د (مِن مُقدّمة المحقق).

صاحب الصلاة (ت بعد سنة 594هـ/1198م) أَحد الكُتاب المقرَّبين من البَلاط الموَحِّدي ما بين سنتي 557 و 594هـ/1161 ـ 1198م[49]. أيضاً كتاب (فيض العباب وإفاضة قدّاح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب) لابن الحاج النميري (ت بعد سنة 774 هـ/1373م)[50]، وعُنوان هذا الكتاب "يدلّ على مُحتواه: شَكلاً وجوهراً، صِياغةً وقالباً"[51]، وهو يَصِف رِحلة الحملة التي قام بها السلطان أبو عنان المريني (752ـ759هـ/1351ـ1357م) على المغرب الأوسط و إفريقية، سعياً منه لتوحيد بلاد المغرب ومُحاولة استرجاع التجربة الموحدية، وسَيراً منه على خُطى أبيه أبي الحسن المريني (731-752هـ/1331-1351م) الذي قام بحملة مشابهة لحملة ابنه أبو عنان. إضافة إلى غير ذلك من المصنفات والمؤلفات في هذا الصّدد.

ومما يدلّ أيضا على استشراء ظاهرة الحرب والفتن والاضطرابات السياسية ودَيمومتها، إقبال العلماء على تصنيف عِدَّةَ كُتبٍ في هذا المجال، أين "وضعوا في تدبير الحروب كُتباً ورَتَّبوا فيها ترتيباً"[52]، فظهَرت مُصنفات مُهتمّة بهذا المجال مثل كتاب الفتن للطرطوشي، والذي لعلّه تناول فيه الفتن التي سادت العالَمَ الإسلامي في ذلك الوقت[53] أي خلال القرن 6هـ/12م. أيضا كتاب "الحِيَل في الحروب وفتح المدائن وحِفظ الدُّروب" لمحمد ابن منكلي الناصري (ت بعد 778هـ/1376م)[54]، وغيرها من الكتب التي صُنّفت في هذا المجال[55].

---

[49] ابن صاحب الصلاة عبد الملك (ت بعد سنة 594هـ/1198م)، **المن بالإمامة**، تح: عبد الهادي التازي،ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، 1987م،ص ص 10 ـ 18 (من مقدمة المحقق).

[50] ابن الحاج النميري (ت 768 هـ/1367م) ، **فيض العباب وإفاضة قدّاح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد: مُحَّد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، 1990م، ص27.(من مقدمة الدارس لهذا الكتاب).

[51] **نفسه**، ص 16. (من مقدمة الدارس لهذا الكتاب).

[52] الطرطوشي، **المصدر السابق**، ص 678.

[53] **نفسه**، ص 34. (من مقدمة المحقق).

[54] لِنَفس المؤلِّف مصنفات أخرى في هذا الجانب بعضها منشور فيما لايزال بعضها الآخر مخطوطا، مثل: المنهل العذب لورود أهل الحرب، الأدلة الرسمية في التعابي الحربية، الرسالة المرضية في صناعة الجندية، الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن قتال البحر، التدابير السلطانية في سياسة الصناعة الحربية، وغيرها. ينظر: مُحَّد بن منكلي الناصري (ت بعد 778هـ/ 1376م)، **الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب**، درا و تح: نبيل مُحَّد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000م، ص 6. (من مقدمة المحقق).

[55] للمزيد من المصنفات في هذا المجال، ينظر: مقدمة الباحث: خميسي بولعراس في أطروحته: **فن الحرب بالغرب الإسلامي خلال عصري المرابطين والموحدين**، (رسالة دكتوراه ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة – الجزائر، 1434 ـ 1435هـ/ 2013 ـ 2014م)، ص ص: د ـ ذ ـ ر .

أمّا عن خاصية اتّساع المناطق المتضرّرة من الحروب فيمكن أن أَضرِب هنا مِثاليْن -على سبيل التَّوضيح لا الحصر- جَسَّدا هذه الحالة، ويتعلق الأمر بثورتيْ: أبي يزيد بن مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار ضد الفاطميين، والثانية ثورة بني غانية ضد الموحدين. ففي الأولى: وبالرغم من انطلاق شرارة الثورة من جبل الأوراس[56] إلا أنها - أي الثورة — شملت أجزاء واسعة من المغرب الأوسط وإفريقية، أيضا ثورة بني غانية والتي كان ابتدائها من مدينة بجاية[57] إلا أنها شملت بدورها أجزاءً واسعة من المغرب الأوسط وإفريقية. ولَكَ أن تتخيل حجم الضرر الذي سينجُم عن حروب هاتين الثورتين اللّتين استمرتا لعدة سنوات على مستوى جميع الأصعدة ديمغرافياً وعمرانياً واقتصادياً ضِمن رُقعة جغرافية واسعة كهذه!

العُنصر الثاني: كَوْنُ الحرب أحد الظواهر الاجتماعية التي لابد منها، أو: **جدلية الحرب بين الطّبيعة البشرية والظاهرة الاجتماعية والضَّرورة الإنسانية!**

على حَدِّ تعبير أحدِهم "فإن ظاهرة الحرب من طبع البشر، مُلازِمة لهم في أطوار حياتهم فلا يمكن فَصلُها عن العُمران"[58]، تُرى، إلى أي مدى يمكن مُسايرة هذا الطَّرح؟

يبدو للوَهلة الأولى أن هذا الطرح مُتأثر بطريقة أو بأخرى برأي ابن خلدون في الحرب، سُرعان ما يتأكد ذلك عند معرفة أنّ (عبد الله العروي) صاحِب هذا الطرح أوردَه في سِياق نقدِه لِفِكر ابن خلدون حول الحرب والجهاد. إذن، ماذا قال ابن خلدون أصلاً عن الحرب؟

في البداية، ذَكَر ابن خلدون أن "الحروب وأنواع المقاتِلة لم تَزَل واقِعة في الخليقة منذ أن براها الله"[59]، أي أن الحرب قديمة قدم الإنسان فهي ملازمة له منذ أن خلقه الله تعالى على حسب ابن خلدون. ويُضيف هذا الأخير قائلاً: بأن الحرب

---

[56] ابن حماد أبي عبد الله محمد بن علي (ت 628هـ/1231م)، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تح ودر : التهامي نقرة — عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، د ت ن، ص 54 — 55. سنوسي يوسف ابراهيم، **زناتة والخلافة الفاطمية**، مكتبة سعيد رافت، جامعة عين شمس، 1986م، ص 199.

[57] ابن عذاري أبي العباس أحمد بن محمد (ت بعد 712هـ/1312م)، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، حققه - وضبط نصه - وعلق عليه: بشار عواد معروف — محمود بشار عواد، مج: الثالث، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1434هـ/2013م، ص 276 وما بعدها.

[58] عبد الله العروي، **مفهوم العقل**، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء — المغرب/ بيروت — لبنان، 2001، ص 323.

[59] ابن خلدون، المقدمة، **المصدر السابق**، ص 334.

"أمرٌ طبيعيّ في البشر لا تخلو عنه أُمّة ولا جيل"[60]. ومِنه **فالحرب في هذه الحالة طبيعة بشرية** لا تختلف عن غيرها من الطبائع البشرية الأخرى!

غير أن هناك من يَرى رأياً مخالفاً تماماً لما ذهب إليه ابن خلدون، فصحيح بأن الحرب ملازمة للبشرية وأنه قد يُحتاج إليها دِفاعا عن حقوق الأُمّة أو مُساعدة حليف أو جار لها أو حل لمشكلة اجتماعية استعصت على الحلول السِلمية والوِدية. لكن بالرغم من كل هذا، إلا أن **الحرب ليست أمراً طبيعياً في البشر، وإنما هي ظاهرة اجتماعية يمكن القضاء عليها،** والآيات القرآنية تقرر هذه الظاهرة فقط، لا أنها أمر حتما لازما لابد من وقوعه، وإلا لما أفلحت الرِّسالات السَّماوية في غرس بُذور الخير واقتلاع جذور الشَّرّ من النّفوس إذا كانت الحرب طبيعة أصيلة، والمعروف أن الشّرائع لا تأتي بشيء يصادم الطبائع. ولهذا قال فقهاؤنا أن الحرب في ذاتها قبيحة لما فيها من قتل النفوس والتخريب والتدمير، لكن الجهاد في سبيل الله حَسَن لِغيره وهو إعلاء كلمة الله تعالى وحماية الدين الحق ومنع الفتنة، قال تعالى: "كُتِب عليكم القتال وهو كَرْهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تُحبّوا شيئاً وهو شَرٌّ لكم والله يعلم وأَنتم لا تعلمون" (سُورة البقرة، الآية: 216)، فلو كان القتال أمراً طبيعياً في النفوس لما قال القرآن "وهو كَرْهٌ لكم". هذا يعني أن الحرب – في نظر صاحب هذا الطّرح – مجرد ظاهرة اجتماعية وليست أمرا طبيعيا في البشرية[61].

في حين ذَهبَ البعض الآخر إلى اعتبار الحرب ظاهرة اجتماعية قَسْرية تفرِضُها الصِّراعات السياسية والحضارية بين الإرادات المتناقضة وترتكز إلى الصّراع المسلح مع وسائل السياسة الأخرى[62] وهو ما أَكَّده أحدُهم عندما رأى أن **الحرب ما هي إلا "ضَرورة اجتماعية** لمنع البغي ودفع الظّلم"[63]

وأَيّاً كانت هذه التَّخريجات صحيحة، فإنني هنا أَرى **أن الحرب ما هي إلا وسيلة بشرية من أجل تحقيق غاية إنسانية،** فهي وسيلة قد يَلجأ إليها الإنسان أو المجتمع أو الدولة من أجل تحقيق غاية ما، قد تكون هذه الغاية نشر دين ما كما هو حال الجهاد والفتوحات الإسلامية، أو قد تكون من أجل بناء مجد دولة على حساب أخرى، كما هو حال صراعات الدول المتعاقبة على بلاد المغرب خلال الفترة الوسيطة، فالغاية هنا قد تكون نبيلة وشريفة أو قد تكون العكس. وحتّى

---

60 **نفسه**، الصفحة نفسها.

61 وهب الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي – دراسة مقارنة** –، دار الفكر، دمشق، ط3، 1419هـ/ 1998م، ص 58 – 59. للمزيد حول هذا الطرح، ينظر: نفس هذا المرجع، ابتداءا من الصفحة 56 وما بعدها.

62 فائز صالح اللهيبي، **العلاقات الدولية في وقت الحرب في الفكر الإسلامي**، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد 2/14، مج :السابع، جامعة الموصل –العراق–، 1434هـ/ 2013م، ص ص 664 – 691.

63 وهب الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، المرجع السابق، ص 90.

السِّلم الذي هو ضِدّ الحرب ما هو في الحقيقة إلا وسيلة من وسائل رَدّ عُدوان العدوّ في إطار السياسة التي يقتضيها حسن التعامل معه وذرأ خطرِه، فالسّلطان أو الملِك له "أن يبدأ عدوّه باللَّين والمُسالمة والبَذل وطلب المواصلة والسّكون، فإن لم يفعل أو كان في الحال ما يقتضي ذلك، رجع معه إلى الكيد والحيلة وتشتيت الأصحاب، وتأليب الأعداء عليه، وتسليط الغُرباء له على عداوته وأخذ الأمور بما يتفق فيه القول دون الفعل، ولا يصِل معه إلى الحرب حتى تعوزه الحِيل كلها"[64] وهذا كله **"لأن الحرب يُنفق فيها من الأعمار وغيرها ينفق فيها من الأموال"**[65]، وفي ذلك "قالت الحكماء: إن العدوّ مثل الخُراج[66] الذي يُبتدأ في عِلاجِه بالتَّرطيب والتَّحليل والتَّسكين، فإن لم يُنجح بذلك رُجع منه إلى الكيّ وهو آخر العِلاج"[67]، وعليه فإن "الحرب [هي] آخر ما يجب استعماله"[68].

أخيراً، بقي أن أَقول أنه مادام الإنسان أو المجتمع عموما يعتبر عنصراً أساسيا في عملية الحرب باعتباره جندياً مُشاركاً فيها أو كسُكّان مدنيّين تُسلَّط عليهم تَبِعات هذه الظاهرة، فإن إفرازات أزمة الحرب في هذه الحالة تكون مدمِّرة على الإنسان ومحيطه، مما يجعل الانعكاسات الديمغرافية لهذه الحروب في الحالة الثانية أبشع وأكثر كارثية.

---

[64] الحضرمي: أبو بكر مُحَّد بن الحسن المرادي (ت 489هـ/1096م)، **كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة**، تح: مُحَّد حسن مُحَّد حسن اسماعيل – أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1424هـ/ 2003م، ص 61.

[65] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[66] الخُراج: الخَراج وما يخرج بالبدن من القروح، وعند الأطباء: تجمُّع صديدي محدود. مجموعة مؤلفين، **المعجم الوسيط**، **المرجع السابق**، ص 224 – 225.

[67] الحضرمي ، **المصدر السابق**، ص 61.

[68] **نفسه**، الصفحة نفسها.

المبحث الثاني: الديمغرافيا التاريخية : المفهوم، النشأة، الأهمية والقيمة التاريخية:

المطلب الأول: الدّيمغرافيا التاريخية : المفهوم والنشأة:

يُعتبر البحث في ميدان التّاريخ الديمغرافي للمغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط على وجه الخصوص، من المواضيع التاريخية الجديدة المهمة، ومن الحقول التاريخية الخِصبة التي لم تُسبر أغواره بعد. فالحضور القويّ للسُّكان في عملية صُنع الحدث التاريخي، وفاعِليته في هذا الجانب يقتضي من الباحثين والمؤرخين الاهتمام بمثل هكذا دراسات ومَواضيع، وذلك في سِياق دِراسة جدلية التَّأثير والتَّأثر بين السّكان والحَدَث التّاريخي.

أوّلاً: المفهوم[69]:

قبل التطرق لمفهوم: (الديمغرافيا التاريخية) لابُدّ أولّاً من التّعرف على مفهوم (علم الديمغرافيا) وذلك باعتبار أن الأول مشتق من الثاني. فالديمغرافيا Demography، أو عِلمُ السّكان هي الدراسة العِلمية للسّكان، وهي كلمة تتكون من مَقطعين إغريقيين هما Demos وتعني شعب أوسكان و Graphia وتَعني وَصْف، وبِذلك يكون معنى الكلمة بأكملها وصف السكان والكتابة عنهم. وأبسَط تعريف للديمغرافيا أنها علم إحصائي يهتم بدراسة حجم وتوزيع وتركيب السكان ومُكونات التَّغير الأُفقي والرَّأسي في هذه العناصر الثّلاثة مثل المواليد والوفيات والهِجرة ثم التَّغير الاجتماعي للفرد في المجتمع بصوَرِه المتعددة اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً.[70]

فبِفعل اهتمام عِلم السّكان بدراسة الإنسان بالدّرجة الأولى، كان لزاماً عليه الإنفتاح على علوم أخرى تدرس الإنسان من مختلف جوانبه، كالتّاريخ مثلاً، ومنه جاء علم الديمغرافية التاريخية أو تاريخ الديمغرافيا والدي يَدرُس المقدمات التاريخية لنموّ السكان وقوانينه وطبائعه، فهو علمٌ مستقلّ يدرس تاريخ نمو سكان العالم في مختلف المناطق والبلدان[71]. ومنه فَعِلم

---

[69] لأكثر تفاصيل عن التعريف بعلمي: الديمغرافيا والديمغرافيا التاريخية، يُنظر: مُحَّد حالي، **تطور الديمغرافيا التاريخية في سياق التاريخ الجديد،** دورية كان التاريخية، العدد الرابع والعشرون، يونيو 2014، ص ص 9 – 28.

[70] فتحي مُحَّد أبو عيانة، **دراسات في علم السكان،** دار النهضة العربية، د ت ن، ص 11

[71] بلمير بلحسن، **الديموغرافيا: منظومة من المعارف،** مجلة العلوم الإنسانية، ع 14، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1. الجزائر. ، 2000، ص ص 219 . 234.

الديمغرافيا التاريخية هو ذاك العِلم الذي يتمتَّع بنفس خصائص العِلم الأُمّ والذي هو الديمغرافيا مع اختصاص الأول في دراسة السكان وِفق نسق وسياق تاريخيَّيْن.

ولِذلك اعتبر جان بورجوا بيشا (Jean Bourgeois – Pichat) وهو أحد الديمغرافيين الديمغرافيا التاريخية فرعاً من الديمغرفيا يأخذ مادَّته من الماضي. ومِن جهته فإن المؤرخ فرنان بروديل (Fernand Broaudel) ذهب إلى اعتبار الديمغرافيا من التّخصصات المساعدة للتاريخ عندما تَعرّض لعلاقة التاريخ بالعلوم الإنسانية الأخرى. ومن هنا فالديمغرافيا التاريخية هي مظهر من مظاهر احتواء التاريخ لتلك العلوم، مما أدى إلى نشأة تاريخ اقتصادي وتاريخ جغرافي وجغرافيا تاريخية وديمغرافيا تاريخية وتاريخ اجتماعي. ومن ثَمّ أصبح المؤرخ عالم اقتصاد وسوسيولوجياً وأنتروبولوجياً وسِيكولوجياً وعالِم لسانيات وديمغرافياً. ومِنه يمكن القول بأن الديمغرافيا التاريخية تعمل على نقل المنهج الديمغرافي وتطبيقه في دراسة التاريخ الديمغرافي لساكنة مُعينة وموضوعها هو موضوع الديمغرافيا أي السّكان، إلا أن الاختلاف الأساسي ومصدر الاشكالات هو كَوْن الديمغرافيا التاريخية تدرُس الخصائص الديمغرافيا للسكان في الماضي، ومن هنا تختلف مصادرها وتقنياتها ومناهجها بالضرورة عن مَثيلاتها في الدراسة الديمغرافية العادية مع حضور التَّقدير الكَمّي في كُلٍّ منهما[72].

ثانيا: النَّشأة[73]:

نشأت الديمغرافيا التاريخية بالمفهوم الدّقيق في فرنسا خلال الخمسينيات، وذلك أَوّل الأمر على يد الديمغرافي لوِي هِنري (L.Henry) بالمعهد الوطني للدراسات الديمغرافية INED، لقد كان أول باحث ينتبه إلى أهمية الإحصاءات القديمة. في مرحلة ثانية جرى البحث في هدا المِضمار على نحوٍ مزدوجِ الاختصاص، فقد تعاون الديمغرافيون والمؤرخون لِوضع اللّبِنات الأساسية لهذا القِطاع التاريخي الجديد. تشهد على ذلك دراسة الباحث المذكور بتنسيقٍ مع المؤرخ فلوري (fleury) سنة 1956 حول (منهَج التّنقيب واستعمال الحالة المدنية القديمة) في فرنسا[74].

[72] مُحَمَّد حالي، **المرجع السابق**، ص 12.

[73] ما أُورده هَا هُنا في هذا الموضوع هو بشكل مختصر جِداً وذلك لأخذ فكرة عامة فقط عن هذا الموضوع، ومن أجل الاستزادة بشأن هذا الموضوع ومَعرِفة أكثر تفاصيل عنه، يُنظر: حمد حالي، **نفسه**، ص ص 9 – 28.

[74] مُحَمَّد حبيدة، **الديمغرافيا التاريخية من اللاإجرائية الكمية إلى المقاربة الكيفية** ، مجلة كنانيش، ع1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية . جامعة مُحَمَّد الأول . وجدة، المملكة المغربية، 1999، ص 11.

في السِتينيات تألَّقت الديمغرافيا التاريخية بصورة كبيرة[75]، حين أضحى علم الديمغرافيا يشكل علماً قائما بذاته، ولم يكن ذلك مُمكناً إلاّ بِفضل العمل الدَّؤوب للباحثين الذين كانت لهم مُيول لدراسة قضايا السكان حين توصلوا إلى إخراجها من العُزلة والتَّهميش العِلمي، وفتحوا لها كل أبواب جامعات العالم. ويرجِع الدّور الأساسي في هذا البُروز الديمغرافي إلى المدرستيْن الفرنسية والأنجلوسكسونية، المختلفتين من حيث المنهج والمتكاملتيْن من حيث الموضوع. وهكذا تطورت الديمغرافيا كأي عِلم آخَر، حيث تَفرّعت شُعبها وَكَثُرت تخصّصاتها المتميزة[76].

جاء الاهتمام بالديمغرافيا التاريخية من قِبل المؤرخين والديمغرافيين في غرب أوروبا في إطار الشروط التي هَيأت لِظهور (التاريخ الجديد) بَعد الحرب العالمية الثانية والتي تميزت بِمُساءلة أغلبية المجتمع ودعوتها إلى الفِعل في التّاريخ، ومن هنا كان (التاريخ الجديد) اقتصادياً واجتماعياً بالأساس في عالَم بدأ فيه التراجع الأوروبي يتأكد على كافة الأصعدة، ومن المعلوم أن مدرسة (الحوليات)[77] الفرنسية ظهرت كنمط استغرافي جديد في إطار (التاريخ الجديد) وفي الظروف المُشار إليها أعلاه، وكانت تدافع عن تاريخ منفتح على علوم الإنسان، فالعلوم الإنسانية بعضها مُساعد للبعض وضِمنها الديمغرافيا والتاريخ[78].

يُفهم من ذلك أن التطور التاريخي لعلم الديمغرافيا التاريخية جاء في سِياق انفتاح عِلم التاريخ على مختلف العلوم الأخرى لاسيما الإنسانية منها، وذلك كُلّه في إطار الثورة العلمية التي شنتها مدرسة الحوليات على المدارس التاريخية الأوروبية الكلاسكية وفق الرؤية التي تبنتها هذه المدرسة في تطوير الكتابة التاريخية الأوروبية المعاصرة، هذا يعني أن المدرسة التاريخية الفرنسية وبشكل أخص قد لعبت دوراً أساسيا في ظهور هذا العلم (الديمغرافيا التاريخية) ووضع أُسسه وتطوير مناهجه، هذا بالإضافة إلى المدارس الأوروبية الغربية الأخرى التي لعبت هي الأخرى دورا هاما في تقويم أُسس ومناهج هذا العلم[79].

---

[75] مُحَّد حبيدة، **المرجع السابق** ، ص 12.

[76] بلمير بلحسن، **المرجع السابق**، ص 219

[77] مدرسة الحوليات الفرنسية المشهورة والغنية عن التعريف والتي تأسست سنة 1929م، والتي دعت إلى الاهتمام بدراسة التاريخيْن الاجتماعي والاقتصادي أو التاريخ الجديد حسب تسميتها له على حساب جانب التاريخ السياسي والعسكري الذي سَمَّته هو الآخر بالتاريخ الكلاسكي. للمزيد حول هذه المدرسة ينظر: جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**، تر: مُحَّد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،، 2007، ص 84 وما بَعدها. أيضاً: وجيه كوثراني، **تاريخ التأريخ**، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ط -2 ،بيروت، 2013، ص 199 وما بَعدها.

[78] مُحَّد حالي، **المرجع السابق**، ص 13.

[79] لأكثر تفاصيل عن موضوع الإطار العام لظهور ونشأة عِلم الديمغرافيا التاريخية في فرنسا بشكل خاص وغرب أوروبا بشكل عام، يُنظر: مُحَّد حالي، **المرجع السابق**، ابتداءً من الصفحة 13 وما بعدها.

المطلب الثاني: الديمغرافيا التاريخية: الأهمية والقيمة التاريخيتيْن:

إنّ إدراك الموقع المميز الذي احتلته الديمغرافيا التاريخية في حَقل التاريخ يستدعي الإشارة إلى السّياق الإسطوغرافي العام الذي عرفَته السّاحة الفِكرية في أوروبا عامّة وفرنسا على وجه التحديد، إنه سِياق مدرسة الحوليات، فقد نشأت الديمغرافيا التاريخية ونَمَت في وقت تأكّدت فيه أبحاث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي[80]. هذه الأخيرة –أي مدرسة الحوليات– دعت إلى تاريخ جديد، بوصفِه تاريخاً شمولياً وبوصفِه تاريخاً كُلياًّ مع المطالبة بتغيير جِذري لكامل مجالات التاريخ[81]. فالتاريخ إذاً في نظَر فولتير هو التاريخ الاقتصادي والديمغرافي، وتاريخ التقنيات وتاريخ العادات، وليس فقط التاريخ السّياسي والعسكري والديبلوماسي. وهو أيضا تاريخ الناس، كل الناس، وليس فقط تاريخ الملوك والعظماء، إنه تاريخ البُنى وليس فقط تاريخ الأحداث، إنه تاريخ الحِراك يهتم بالتطورات والتغيرات وليس تاريخ الثبات يُقدَّم على غِرار اللَّوحة ، إنّه تاريخ تفسيري وليس تاريخاً سردياً وصفياً ودغمائياَ، في النهاية إنّه التاريخ الكُلّي[82].

لا أَحد يُنكر دَور السّكان وفاعِليتهم في صُنع الأحداث التاريخية والمشاركة فيها، ومنه كان لابد على الباحثين الاهتمام بالظواهر العامّة المتعلقة بِساكنة ما في الماضي. مِن هنا تأتي الأهمية والقِيمة العِلمية لعِلم الديمغرافيا التاريخية وذلك بدراسة الحَدث التاريخي من زاوية اجتماعية تسعى لِمعرفة العلاقة الجدَلية بين السّكان والحَدث التاريخي، وعلاقة التَّأثير والتَّأثر بينهما. وفي النهاية لا يمكن دراسة الماضي دون دراسة السكان بِحدّ ذاتهم كمّاً وكيفاً خِلال الحِقب الماضية.

لقد جاء الإهتمام بعلم الديمغرافيا التاريخية من باب اهتمام المؤرخين بوضعية السكان في الماضي من حيث تطوّرهم الديمغرافي إبّان مختلف الفترات التاريخية الغابرة من خلال معرفة أبرز المؤثرات المتحكمة في هذا التطور وكيفية تجاوب هذا التطور مع هذه المؤثرات ومن ثم معرفة دور الجانب السكاني في سيرورة الحركة التاريخية. وكما هو معلوم من أجل فهم تاريخ أي مجتمع ما ضِمن حيّز ومجال جغرافي مُعين لابد أولاً من دراسة التاريخ السكاني والوضع الديمغرافي لهذا المجتمع كي يتأتّى بعدَها للدَّارِس معرفة علاقتهم –أي السكان– بالزمان والمكان والحَدث التاريخي.

[80] مُحَمَّد حبيدة، **المرجع السابق**، ص 12

[81] جاك لوغوف، **المرجع السابق**، ص 80.

[82] **نفسه**، ص 100.

المطلب الثالث: إشكالات وتَحدّيات البحث في الدّيمغرافيا التاريخية للمغرب الأوسط: إشكالية نقص المُعطيات الإحصائية في المصادر الوسيطية أنموذجا:

إنّه ليس بالأمر الهيّن اقتحام مجالٍ كمجال البحث في التاريخ الديمغرافي لبلاد المغرب خِلا الفترة الوسيطة، والذي يعتبر من الميادين المثيرة للاهتمام والجديدة في مجال الدراسات التاريخية الأكاديمية –على الأقل في بلادنا– . فكما هو معلوم، فإن هناك علاقة تؤأمة وترابُط وتكامل بين الديمغرافيا كعِلم وبين الإحصاء كأَداة، إذ لا يستطيع أحد أن يتصور أن هناك بحثاً أو دراسة ديمغرافية بدون توفّر أو استعمال مُعطيات إحصائية.

فاستعمال المعطيات الإحصائية في الدراسات الديمغرافية رُبما يبدو سَهلاً أو على الأقل مُمكناً إذا كان الأمر متعلقٌ بالدراسات والأبحاث الخاصّة بِالوقت الرّاهِن أو المُعاصر، أما عندما يتعلق الأمر بالفترة الوسيطة من تاريخ المغرب الأوسط أو من تاريخ المغرب الإسلامي بصفة عامة، فإن الأمر يبدو في غاية الصعوبة والتّعقيد، إذ يُعتبر نُقص المادة الإحصائية في المَظان الوسيطية أحد أبرز المُعيقات التي تُواجه الباحث المهتمّ بِمثل هكذا دراسات.

وفي هذا السياق، سأُحاول تسليط الضّوء على هذا الجانِب والمتمثل في إشكالية نقص المادة الإحصائية في مؤلفات العصر الوسيط كأحد أهمّ الإشكالات والتحديات التي يُواجهها الباحث في ميدان الديمغرافيا التاريخية للمغرب الأوسط. وعلَيه: فِيم تتمثل أبرز مظاهر نُقص المُعطى الإحصائي في المصادر الوسيطية؟

أولاً: الإسطوغرافيا الوسيطية وشُحّ النّصوص الإحصائية المتعلقة بالجانب الديمغرافي:

إن المتأمل في التاريخ الديمغرافي للمغرب الإسلامي خِلال العصر الوسيط، يكتشف بسهولة أن الدراسات التاريخية التي تهتم بالحقل الديمغرافي تتميز بالمحدودية والإبتسار ، رغم أهمية هذا الحقل المعرفي في فهم آليات التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع المغربي. ويبرز هذا التقصير واضحا عند مقارنتها بالدراسات الأوروبية التي اتخذت مَنحىً تصاعدياً في هذا المجال ، إذ أصبحت إحصايات السكان وتوزيعهم حسب الأعمار والجِنس والمُدن والأنشطة المِهنية تُشكل عُنصراً جوْهرياً في بُنية البحث التاريخي الخاص بأوروبا الوسيطية[83].

[83] ابراهيم القادري بوتشيش، **أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديمغرافي بالمغرب في العصر الوسيط (دراسة حالة)**، مجلة كنانيش، ع1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية . جامعة مُحَّد الأول . وجدة، المملكة المغربية، 1999، ص 41.

فقِلّة الدراسات في هذا الميدان عَزَاه أحَد الباحثين[84] إلى استحالة العُثور على الوثائق الإحصائية الخاصة بالمنطقة. فإذا كانت الأرشيفات الأوربية سواءً في بَلديات المدن أو الكنائس أو المؤسسات الإدارية الأخرى لاتزال تحتفظ ببعض الوثائق التي تفيد في هدا المجال –وهو ما حَفّز الباحثين الغربيين على تناول الإشكالات الديمغرافية عن كَثَب– ، فإن الأرشيف المغربي يكاد يخلو بالمرّة من أي مُستند يرتكز عليه الباحث، وهو أمر يُردّ فيما نرى إلى تَوافُر تقنيات إحصائية في الحقبة الوسيطية لرصد عدد السكان، ومن ثم لانقتصر المسؤولية على المؤرخين فحسب، بل إن عدم تطور الإدارة المغربية أنذاك كان له ضِلعٌ في العَجز عن تقديم إحصائيات ولو تقريبية. وقد تكون كثرة أعداد السكان في بنية إدارية قَبَلية لم تسمح بضبطهم سياسياً فبالأحرى إحصائهم سبباً من أسباب هده المُعضِلة[85].

ويضيف باحث آخَر[86]في هذا الشّأن بأن أَعقَد المشاكل البحثية في هذا الميدان مُرتبطة بِقِلّة المصادر، وخاصة المحلية منها. وفي الواقع فإن هذه المشكلة يُواجهها الباحثون في تاريخ المغرب الوسيط عموماً، حتى أصبحت من القَضايا المألوفة والمسائل الكلاسيكية في مُقدمات الرّسائل والأطروحات، وفي الدراسات والأبحاث نظراً لِقِلّة اهتمام أسلافنا بأنواع التدوين المختلفة. ولذلك تُصبح مُحاولات الكشف عن تطورات بعض الظواهر الاجتماعية أو البشرية أو غيرِها عبر حقب طويلة –ولو نسبيا–كظاهرة التّطور الديمغرافي عَمَلاً من الصّعوبة بِمكان بسبب افتقار الدّول المغربية الوسيطة لِأَجهزة أو مؤسسات أو هياكل رَسمية مُستقرّة ودائمة تستنِد –لسبب او لاخر– إلى إجراء إحصائي مُوثَّق للسّكان أو اعتماد كنانيش الحالة المدنية –التي لم تظهر قَبل القَرن العشرين– مِمّا أَدّى إلى غِيابٍ شِبه تامّ لِوثائق أو احصائيات رَسمية وجَعَل بِالتَّالي البحث في هذا الجانِب الهامّ من تاريخنا غائباً أو شِبه غائب[87].

فالمَسألة الدّيمغرافية في العَصر الوسيط وكَغيره مِن الحِقَب التاريخية لا تخلُو من مَزالق، حتى إن المتكلم والباحث فيها يُنعت أحياناً بِالمُغامر، مِن هنا جاء نعتُنا للموضوع ب:(المسألة) لِاستِعْصَاء حَلّها حتى يومِنا هذا. لكن ما قلناه لا يعني أنه تَهَرُّبٌ مِن البحث أو نظرة تشاؤمية تَغلِق الباب أَمام الاجتهاد، بل بِالعكس فمُعظم المواضيع المطروحة على البحث التاريخي اليوم تُحتِّم على الباحثين الخوض في المسألة الديمغرافية. إلا أَنّ الخَوضَ هنا لا يعني الدّخول في تَخمينات سَهْلة أو

---

[84] **نفسه**، ص 41.

[85] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[86] محمد استيتو، **الأزمة الديمغرافية في تاريخ المغرب الحديث**، مجلة كنانيش، ع1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية . جامعة محمد الأول . وجدة، المملكة المغربية، 1999، ص ص 113- 114.

[87] **نفسه**، الصفحتَيْن نفسهما.

افتراضات اعتباطية، بل يَعني الاستغلال المُتبصر لِأدنى الإشارات والتّقديرات والأرقام الوَارِدة في مختلف المصادر لِتكوين استنتاجات موضوعيّة تجعلهم يقاربون المَسألة[88].

بِالرّغم من كل هذا، فإن مَسألة الخَوض في التاريخ الديمغرافي للمنطقة عموماً يبقى في كُلّ الأحوال مُجرّد محاولة أو بِالأَحرى مُغامرة على حَدّ تعبير أحد الباحثين[89]، وأَنّ أَقصى ما يمكن أن يَتوصّل إليه الدَّارس لا يَتعدّى نُصوصاً تتضمّن بعض الأرقام التَّقريبية التي قد تُساعد في إضاءة بعض المساحة من هذا الجانب المعقد في الدراسات التاريخية المغربية الوسيطية[90]*

ثانيا: أنواع النصوص الإحصائية المُقدَّمة في الإسطوغرافيا الوسيطية:

يَرى أحد الباحثين المهتمين بالمسألة الديمغرافية بالمغرب الإسلامي[91] بأن النصوص المتداولة في المصادر الوسيطية يمكن تقسيمها إلى قسمين: **نصوص انطباعية، ونصوص رقمية**، وعلى هذا المِنوال دَرَجت باحثة أُخرى[92] إلى تصنيف المادّة الإحصائية المُتعلِّقة بالدّراسة الديمغرافية إلى **إحصاءٍ يُعبَّر عَنه بالأرقام أو الوصف**.

أ. نصوص انطباعية:

---

[88] مُحَّد حجاج الطويل، **المسألة الديمغرافية: نحو منهجية ديمغرافية محاولات إحصائية (العصر الوسيط نموذجا)**، مجلة كنانيش، ع1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة مُحَّد الأول ـ وجدة، المملكة المغربية، 1999، ص 19.

[89] مُحَّد استيتو، **المرجع السابق**، ص 113.

[90] ابراهيم القادري بوتشيش، **أثَر قِيام الدول، المرجع السابق**، ص 41.

* **ملاحَظة أُخرى مهمّة**: تتعلَّق بالطّريقة التي انتهجتُها في التَّهميش (غير التهميش لأوّل مَرّة) والتي تخُصّ المؤلِّف (مَرجِعاً كان أو مَصدَراً) الذي اعتمدتُ على أكثر من مؤلَّف له هذه الدراسة، فإنّني في طريقة تهميشِه أتَّبعُ الطّريقة التالية: إسم المؤلِّف، عبارة بسيطة من عنوان الكتاب، المرجع السابق، ص. (كمثال على ذلك، ينظر التهميش رقم 90 أعلاه)، وذلك لتمييز عنوان الكتاب المستخدَم لذات المؤلِّف في هذا الموضِع عن غيره المستخدَم في موضِعٍ آخر من هذا البحث. أما إذا اعتمدتُ على مؤلَّفٍ واحدٍ فقط لشخص ما فإنّني اعتمدت الطريقة العادية والمعروفة: إسم المؤلِّف، المرجع السابق، ص.

[91] **نفسه**، ص 42.

[92] حليمة بنكرعي، **الدراسة الديمغرافية بالبوادي المغربية في الفترة مابين 1459 . 1541 بادية الواجهة الأطلنطية أنمودجا**، مجلة كنانيش، ع1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة مُحَّد الأول ـ وجدة، المملكة المغربية، 1999، ص 93.

ويُقصد بها النّصوص التي لاتَنطِق بِلُغة الأرقام لكنها تُعطي انطباعاً تَشكّلَ في ذِهنية المؤرخ، وغالباً ما تكُون –أي هذه النّصوص– مُفيدة في مَعرفة حجم ساكنة المغرب كثرةً أو قِلّة، رغم أنّها لا تُفصح عن أرقام إحصائية، ومع أنّ هذه النّصوص تتّسِم بالعُمومية وعدم الدِّقة لكنها تَكشف عن الخُطوط العَريضة للتّطور الديمغرافي، في هذا السّياق تأتي نُصوص المؤرخين والرّحالة والبُلدانيّين لاعطائِنا بعض التَّصورات العامّة عن الوَضع الديمغرافي[93].

وكَمِثالٍ على ذلك، يُحَدِّثُ القاضي النُّعمان عن مَعركة الأربُس سَنة 296هـ/909م بَين جيش أبو عبد الله الشّيعي والأغالبة قائلاً: " وقُتل من الفَريقين خَلقٌ كثير"[94] دَلالةً على كثرة ضَحايا هذه المعركة. والأمثلة كثيرة في هذا الجانِب وإنَّما سُقتُ هذه العِبارة الانطباعية على سبيل المِثال لا الحَصر ولِتقريب الصّورة فقط.

ب. نصوص رقمية:

تتميز هذه النّصوص بأنها أكثر أهمية لما تتضمنه من أرقام إحصائية تقريبية خاصّة إذا التزم الباحث بمراجعتها ومقارنتها تجنباً للسّقوط في مَزالق مبالغات المؤرخين. والحقّ أن بعض المصادر التاريخية تتضمن بين طيّاتها بعضاً من هذه النّصوص الرقمية التي يمكن للباحث استثمارها من خلال فَرَضيات موضوعية وتحليلية للوصول إلى نتائج أقرب إلى الدّقة[95].

وكَمِثال على ذلك، يُقدم حَسن الوَزّان مُعطيات ديمغرافية مُهمّة عن عَددٍ من المدن كَ: **وهران** التي بها سبعة آلاف كانون[96] و**بجاية** ثمانية آلاف[97] وغيرِها ...، والأمثلة عَديدة في هذا الجانِب أيضاً وإنَّما سُقتُ فقط هذين النّصيْن الرَّقميين لِتقريب الصّورة ليس إلاَّ.

وحَصيلة القول، أن هذين الصِّنفين من النّصوص الانطباعية والرّقمية رغم أهميتهما في إضاءة الجوانب المُعتِمة من التاريخ الديمغرافي، فإنها تبقى تقريبية فحسب، ولا تَرقَى إلى المستوى الحقيقي للاحصاءات الدّقيقة التي تعكِس واقع سكان بلاد المغرب، لكنها مع ذلك تحمل بعض الدّلالات حول التّطور الديمغرافي، وتسهم في رَسم مُنحنيات هذا التطور[98].

---

93 ابراهيم القادري بوتشيش، **أثَر قِيام الدول، المرجع السابق**، ص 42.

94 القاضي النعمان، **المصدر السابق**، ص 229.

95 ابراهيم القادري بوتشيش، **أثَر قِيام الدول، المرجع السابق**، ص 46.

96 حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، تر: مُحَّد حجي ومُحَّد الأخضر، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان–، ط2، 1983، ص 30.

97 حسن الوزان، **نفسه**، ج2، ص 50.

98 ابراهيم القادري بوتشيش، أثَر قِيام الدول، **المرجع السابق**، ص 49.

3. الإسطوغرافيا الوسيطية وأزمة الرقم:

إن علم الديمغرافيا -كما هو مَعلوم- يعتمد على الإحصاء والأرقام، وعندما يعتمد الباحث في التاريخ الديمغرافي أرقاما أو يُقدّر أعداد السكان بِدون مُبرّرات معقولة فإن أرقامه تظل بدون مِصداقية، ولا تترتب عنها نتائج يُعتد بها من النَّاحية العِلمية. وقِيام باحث معين بتصوّر وتقدير أرقام وإحصاءات، والاعتماد عليها في البحث لا يمنع باحثا آخَر من تقديم أرقام أُخرى مُخالِفة لها، مما يُحوّل البحث في هذا المجال إلى نوع من التّخمين والحَدْس[99].

ذلك بالرغم من أن الكثير من المصادر الوسيطية وغيرها تختزن بعض الإشارات الإحصائية والتقديرات اللفظية عن عدد السكان: قبائل وبطون واتحادات قَبلية، وعن المدن والأسواق وعدد المساكن والفنادق والحمامات وغيرها من المرافق العمومية، وعن الجنود والمعارك وعدد القتلى والأسرى والسبايا مما يمكن اعتباره معطيات أو مؤشرات، إذا تم ضبطها وتوحيد قراءتها وإخضاعها للنّقد التاريخي، يمكن القول إننا سنقترب أكثر من وضع اليات إن لم نقل منهجية للبحث في الديمغرافيا التاريخية[100].

لكن هناك من يرى بأن أكبَر مَطبَّة تواجه مختلف البحوث التي تهتم بمختلف وحدات البحث التي تستهدف البحث في ميدان التاريخ الحضاري خاصة الشقين الاقتصادي والاجتماعي لمنطقة الغرب الإسلامي، تكمُن في شُحّ النصوص المصدرية الخاصة بهذا الجانب، وكذا الفَقر المُدقع في مجال الأرقام والإحصائيات[101]، الشيء الذي جَعَل أحد الباحثين[102] يُقرّ بأن المعطيات المرقمة حول الخاصيات الديمغرافية نادرة، ومَهما يَكُن من أمر فإنها تُوفّر لنا معطيات تقريبية ستمكننا حتماً من الحُصول على فكرة لا غِنى عَنها عن هذا الموضوع.

وتجدُر الإشارة هنا إلى أَنّ المصادر الوسيطية أو التي تحدَّثت عن العصر الوسيط وَردت فيها بعض الإحصائيات المُشجعة، لكن بعض الدَّارسين وخاصّة مِنهم الأجانب الذين يحاولون طَمْس كُلّ ما هو لامِع في تاريخنا العربي الإسلامي عموماً، ويُقلِّلون مِن أَهميتها ويتَشكّكون في صِحتها حتى لو كانت من مصادر غير عربية أحياناً. ومَعلوم أن أَيّ بحث جادّ

---

[99] عثمان المنصوري، **بعض قضايا البحث الديمغرافي في الفترة الحديثة (القرن 16م نموذجا)**، مجلة كنانيش، ع1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية . جامعة محمد الأول . وجدة، المملكة المغربية، 1999، ص 83.

[100] محمد حجاج الطويل، **المرجع السابق**، ص 20.

[101] ابراهيم القادري بوتشيش، **النوازل الفقهية في الأطروحات الجامعية: التوجهات، الإضافات المعرفية والإشكالات المنهجية**، عصور جديدة، ع 16 . 17، جامعة أحمد بن بلة، وهران . الجزائر . ، 2014- 2015، ص 48.

[102] ابراهيم جدلة، **المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي**، وحدة البحث: الجنوب الغربي، التاريخ والاثار والتراث والمجتمع، جامعة قفصة . تونس . ،2010، ص 37.

عليه أن يستغلّ جميع العناصر والمؤشّرات التي تساعد في أخذ صورة ولو أَوّلية عن حجم السكان وتوزيعهم الجغرافي شَرِيطة إخضاع المادّة للنّقد التاريخي[103].

أخيراً، ما يمكن قوله في نهاية هذا المبحث أن للديمغرافيا التاريخية أهمية كبيرة في حَقل الدراسات التاريخية، فهي تُعتبر أحد أَهمّ العُلوم المساعِدة للتاريخ والتي لم تَنَل بعد حَظّها الكافي من الدراسة والاهتمام من طرف الباحثين والمؤرخين. إذ يمكن من خلالها تسليط الضوء على مواضيع كثيرة مُتعلِّقة بالتاريخ الاجتماعي لبلادنا، ولعلّ موضوع التطور الديمغرافي للمغرب الأوسط وتاريخه الديمغرافي بشكل عام أفضل مثال على ذلك.

كما أن أهم ما ميز المعطيات الإحصائية في الأسطوغرافيا الوسيطية هو قِلّتها وعَدم حضورها كثيراً في الكتابات المصدرية، وهو ما يُصعِّب على الباحث الوُلوج إلى دراسة التاريخ الديمغرافي لبلادنا. وبالرغم من اعتبار هدا الأمر أَحد أَهمّ العوائق التي تُواجه الباحث في هدا الميدان، إلاّ أنّ هذا لا يعني استحالة العثور على المؤشرات الإحصائية في المادة المصدرية، ولا يعني أيضاً عدم التطرق بتاتاً لمثل هذه المواضيع طالما أن هناك بعض المعطيات الرقمية بين ثنايا المصادر التاريخية التي وبالرغم من قلتها وصعوبة تعاطيها واستغلالها، إلا أنها تَظلّ حافزاً مهماً يمكن اتخاده كنقطة بداية للبحث في هذا المجال الفَتِي في حقل الدراسات التاريخية الوسيطية لِبلادنا.

[103] مُحَّد حجاج الطويل، **المرجع السابق**، ص 19.

الفصل الأول: الفتن والاضطرابات السياسية بالمغرب الأوسط: قِراءة في العوامل والمظاهر

المبحث الأول: العوامل المتسببة في مختلف الفتن والاضطرابات السياسية بالمغرب الأوسط

المطلب الأول: العامل الديني: الصراعات المذهبية

المطلب الثاني: العامل الاجتماعي: الصراعات القَبَلية

المطلب الثالث: العامل الاقتصادي: الصراع على الأراضي الفلاحية والرعوية/ الصراع حول الطرق والمراكز التجارية/ كثرة الضرائب والجبايات

المبحث الثاني: مظاهر الاضطراب السياسي بالمغرب الأوسط خلال الفترة مَدار الدَّرس

المطلب الأول: الصدامات العسكرية المباشرة بين الدول والقبائل

المطلب الثاني: حصار الأمصار والمدن

المطلب الثالث: الثورات والانتفاضات

المطلب الرابع: ظاهرة تسارع قيام وسقوط الدول

المبحث الأول: العوامل المتسببة في مختلف الفتن والاضطرابات السياسية بالمغرب الأوسط

المطلب الأول: العامل الديني: الصراعات المذهبية

لَطالما كانت بلاد المغرب أرضاً خِصبة لِظُهور العديد من التّيارات والمذاهب الدّينية مُنذ فترات مُبكرة من تاريخها، وقد نَجَم عن ظُهور هذه التيارات المذهبية صِدامات ومُواجهات عنيفة بين أصحاب هذا المذهب أو ذاك. فمَثلاً عند الحديث عن الفترة القديمة من تاريخ بلاد المغرب كانت الحرَكة الدُّوناتية[104] في القَرن الرابع الميلادي خير مثال على ذلك. حيث تُعتبر هذه الحرَكة بمثابة تجسيدٍ فِعلي لظاهرة الصّراع المذهبي الكَنسي الذي قام بين الكَنيسة الإفريقية المحليّة والكَنيسة الكاثوليكية المدعومة رسمياً من الإمبراطورية الرّومانية، إذ استمرت بَعضاً من فُصول هذا الصّراع إلى غاية فترة قريبة من الفُتوحات الإسلامية .

ويبدو أن بلاد المغرب قد حافظت على تقاليدها في مَسألة احتضانها للعديد من التيارات المذهبية المعارضة لمذهب السُّلطة المركزية في الحِقبة الوسيطة أيضاً، بل وحتى منذ فترات مُبكرة من تاريخها الوسيط.

فبَعد استتباب حركة الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب، دَخَلت هذه الأخيرة مرحلة جديدة من مراحل الحكم الإسلامي عليها، ألا وهي مرحلة الولاة التي لعب فيها سوء إدارة بعض الوُلّاة الأمويين على بلاد المغرب دوراً بارزاً في ظهور النّواة الأُولى لِبداية صُعود نجم حركة المذاهب الإسلامية على بلاد المغرب[105]. وهو ما هَيّء الظروف المناسبة لظُهور المذاهب الخارجية (الصفرية والإباضية) وانتشارها ضِمن مجالات واسِعة من بلاد المغرب،

---

[104] نِسبةً إلى دوناتوس الأكبر (Donatus) الذي أعطى اسمه لهذه الحركة، والذي كان أسقفا للكنيسة الإفريقية المحلية بقرطاج في القرن 4م. عن هذه الحركة ينظر: عولمي الربيع، **الصراع الدوناتي الكاثوليكي في المغرب القديم (من خلال كتابات القديس أوغسطين) (311 – 411م)**، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج3، ع5، جامعة الوادي – الجزائر، جوان 2017، ص 266 وما بعدها. محمد البشير شنيتي، **أضواء على تاريخ الجزائر القديم**، دار الحكمة، الجزائر، 2003م، ص ص 174 – 186.

[105] للمزيد عن موضوع سوء إدارة الولاة الأمويين على بلاد المغرب، ينظر: عبد العزيز فيلالي، **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**، ط2، دار الفجر، القاهرة، 1999م، ص 44 وما بعدها.

وفي هذا السّياق حمَّل أحد الدّارسين[106] عُمّال بني أمية مسؤولية ظُهور الحركة الخارجية بالمغرب. كما وأدّى ظهور هذه الحركة إلى اندلاع "الثّورة المغربية"[107] ضدّ السلطة الأموية بدمشق على وُلّاتها ببلاد المغرب سنة 122هـ/740م[108] مع استمرار ثورات صُفرية وإباضية أخرى لاحقة[109].

ساهمت هذه الثورات والانتفاضات في التّعجيل بانفصال وِلاية المغرب عن السلطة المركزية بالمشرق أي عن الأمويين ومن بعدهم العباسيون، فقد أسفرت الثورات الصفرية ابتداءً من سنة 122هـ/ 740م في تأكيد الانفصال النهائي للمغرب الأقصى وجُزءٌ واسعٌ من المغرب الأوسط عن المشرق بظهور إمارة برغواطة (128-455هـ/ 740- 1063م) بمنطقة تامسنا[110] بالمغرب الأقصى سنة 128هـ/ 745م، ودولة بني مدرار (140-296هـ/ 757-909م) بسجلماسة[111] سنة 140هـ/757م، كما أفرزت الثورات الإباضية على الوُلّاة العباسيين بالقيروان قيام الإمارة الرُستمية بتاهرت سنة

---

[106] موسى لقبال، **المغرب الإسلامي**،ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 155.

[107] عبد العزيز فيلالي، **العلاقات السياسية، المرجع السابق**، ص 44.

[108] عن هذه الثورة يمكن الرجوع –على سبيل المثال– لِ: ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 52.

[109] للمزيد عن الثورات الصفرية بالمغرب الإسلامي، ينظر: مُحَمَّد بن عميرة، **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 67 وما بعدها. محمود اسماعيل عبد الرازق، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري**، ط2، دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب، 1406هـ/1985م، ص 62 وما بعدها. وعن الثورات الصفرية، ينظر: مُحَمَّد بن عميرة، **المرجع نفسه**، ص 93 وما بعدها. و: محمود اسماعيل عبد الرازق **المرجع نفسه**، ص 82 ما بعدها.

[110] منطقة أو إقليم تامسنا: منطقة بالمغرب الأقصى ممتدة من نهر سَلا إلى نهر أم الربيع أي ما يعادل المنطقة التي تسكن فيها حاليا قبائل الشاوية وزعير. وكانت في الأصل موطناً لزناتة وزواغة حتى نزل بها طريف صاحب ميسرة المطغري. وتامسنا كلمة بربرية بلهجة زناتة ومعناها البسيط الخالي، وقد أُطلق على البسيط الممتد على ساحل المحيط من الرباط إلى الدار البيضاء الذي يسمى الآن بالشاوية. وهو الآن تكسوه الزروع والعمارات ولكنه بالأمس كان أرضاً من سدرة وعليق ترعى فيه الأغنام. وقد سُمي أحد أبواب مدينة الرباط بهذا الإسم (باب تامسنا) وهو الذي تمتد منه الطريق الذاهبة إلى الدار البيضاء وقد هدم أخيراً. يُنظر: عبد الوهاب بن منصور، **قبائل المغرب**، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، 1388هـ/ 1969م، ص 323. أحمد مختار العبادي، **في تاريخ المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، د ت ن، ص 278 (الهامش رقم 5). مُحَمَّد طالبي وإبراهيم العبيدي، **البرغواطيون في المغرب**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999، ص 80 (التهميش رقم 15). شنعة خديجة، **برغواطة قراءة جديدة في إشكالية صدها للتعريب**، مجلة مدارات تاريخية، جوان 2019، ص ص 233-246 (التهميش رقم 7).

[111] سِجِلْماسَةُ: بكسر أوله وثانيه، وسكون اللام، وبعد الألف سين مهملة: مدينة جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، وهي في منقطع جبل دَرَن، وبين سجلماسة ودرعة أربعة أيام. وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب ولأهلها جرأة على دخولها. يُنظر: الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، **معجم البلدان**، مج3، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م، ص 192.

160هـ/777م، والأغالبة (184-296هـ/ 800-909م) بإفريقية سنة 184هـ، دون نسيان الأدارسة (172-375هـ/ 789-985م) بوَليلي[112] سنة 172هـ/ 789م.

هذا الوضع السّياسي الأخير أَنتجَ خريطة مذهبية مُتنوعة ومُعقَّدة في نفس الوقت على مستوى وضع بلاد المغرب السياسي والمذهبي. لكن المُلفت للنَّظر في الأمر هاهُنا أنه وبالرغم من التَّعدد المذهبي لبلاد المغرب في هذه الفترة ما بين زيدية (علوية) وخارجية (صفرية/إباضية) وسنية (حنفية/مالكية)، بالرغم من كل هذا التعدد المذهبي، إلا أن الفترة التي أَعقبت فترة تأسيس واستقرار هذه الدول المختلفة ابتداءً من منتصف القرن2هـ/8م إلى غاية ما بعد منتصف القرن3هـ/9م، كانت من أبرز فترات التعايش السلمي المذهبي بين مختلف دول وقِوى المغرب خلال القرون الهجرية الأولى من العصر الوسيط[113] – هذا إذا ما تَمّ استثناء فترات الانشقاقات المحلية الإباضية المذهبية لدولة بني رستم – . حتى وإن كانت هناك صِدامات مذهبية بين دول بلاد المغرب، فإنها ليست بتلك الصّورة السّيئة التي ستكون عليها لاحِقاً بعد هذه الفترة.

لكن سُرعان ما تنقضي فترة التعايش السِّلمي المذهبي هذه. فما إن حَلّ الرُّبع الأخير من القرن 3هـ/9م، إلا وقد تجدّدت بالساحة السياسية لبلاد المغرب تِلك الصدامات المذهبية العنيفة بين مختلف القِوى السياسية. فبعد سنتين فقط من وفاة الإمام الرستمي أبي اليقظان مُحَمّد بن أفلح (261 – 281هـ/ 875-894م) –والذي أَراه آخر الأئمة الرستميين الأقوياء–، إلا وكانت مَوقعة مانو (283هـ/897م)، تلك الموقعة العنيفة التي دارت رحاها بجبل نفوسة بين إباضيي هذا الجبل والدولة الأغلبية، وكان من بين ما أسفرت عنه أن وَصَل عدد قتلى الإباضية إلى اثني عشر ألفاً[114].

---

[112] وَليلي: مدينة بالمغرب قُرب طنجة. لما دخل إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ المغرب ناجياً من وقعة فَخّ حصل بها سنة 172هـ في أيام الرشيد وأقام بها إلى أن مات مسموما في قِصّة طويلة في سنة 174هـ. يُنظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان، المصدر السابق**، مج5، ص 384.

[113] وإلا، فكيف يُفَسّر سِرّ استمرار وُجود وتعايش هذا العدد المعتبر من الدول لفترة زمنية تقارب القرن والنصف! هذا مع الأخذ بعين الاعتبار خلافاتها المذهبية الحادّة وموالاتها السياسية المختلفة والمتعددة. وفي هذا الصدد خلصت إحدى الدراسات بأن هذا العصر بأكمله كان عصر تسامح مذهبي بين دول هذه الفترة. فالأئمة الرستميين على سبيل المثال كان عندهم التسامح الديني سمة بارزة في علاقاتهم بمختلف المذاهب الأخرى التي كانت تعيش في كنف دولتهم. كما رحّب بنو أمية المالكيون في الأندلس بالإباضيين في بلادهم، حيث شدّ عدد من علماء تاهرت الإباضية رِحالهم إلى الأندلس واتصلوا بعلمائها، كما عاش عدة آلاف من الإباضيين في دولة بني مدرار الصفرية بسجلماسة بكل حرية. ينظر: فوزية لزغم، **التسامح المذهبي في الدولة الرستمية**، مجلة الخلدونية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص، جامعة ابن خلدون، تيارت – الجزائر – ، أكتوبر 2009، ص ص 62 – 74.

[114] أبو زكريا: يحي بن أبي بكر(ت 471هـ/ 1079م)، سِير الأئمة وأخبارهم، تح وتع: اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1399هـ – 1979م، ص 104.

وفي نفس هذه الفترة، وفي الشَّق الغَربي من دولة بني الأغلب، وبعيداً عن أعين هذه السلطة، وضِمن المجالات الجبلية الكتامية الوَعرة، كانت عملية التّحضير السِّري لبداية بزوغ مذهب جديد على الساحة المذهبية لبلاد المغرب جارية وقائمة على قَدَمٍ وساق من طرف أبي عبد الله الشيعي (الدّاعي)[115] الذي عرف جيداً كيف يستميل قبيلة كبيرة بحجم كتامة إلى هذا المذهب. سُرعان ما ستنجح هذه العملية، لتدخُل بَعدها بلاد المغرب حَلَقة جديدة من حلقات الصراعات المذهبية حين دَخل المذهب الإسماعيلي ساحة هذا الصراع لِيحِلّ ضيفا جديدا له وزنه وثِقله وسط هذا الصّراع الذي كانت تفاصيله تدور في أغلب أحيانه ما بين: سني(حنفي- مالكي)/إسماعيلي أو إسماعيلي/خارجي(إباضي- وَهْبي- نُكَّاري). لِتستمر بعدها هذه الصراعات إلى فترات لاحِقة من تاريخ بلاد المغرب امتدت إلى ما بعد قيام الدولة الزيرية.

وفي الفترة الزيرية – الحمادية، سَيستمر العامل المذهبي -كما كان دَأبُه- في نسج خيوط ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية وتأجيجها والتسبب في إذكائها وانتشارها. حديثي هنا عن القُدوم الهلالي لبلاد المغرب، فبعد القطيعة الزيرية للمذهب الإسماعلي الفاطمي التي قام بها المعز بن باديس (406 – 453هـ/1015 – 1062م)[116]، كانت النتيجة اجتياح

---

[115] أبو عبد الله الشيعي (ت 298هـ/ 911م): أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن مُحَمَّد بن زكريا المعروف بالشيعي القائم بدعوة عبيد الله المهدي جد ملوك مصر. وقصته في القيام بالغرب مشهورة، وهو من أهل صنعاء اليمن، وكان من الرجال الدُّهاة الخبيرين بما يصنعون. فإنه دخل إفريقية وحيداً بلا مال ولا رجال ولم يزل إلى أن مَلَكها. ولما مَهَّد القواعد للمهدي (أبو عبيد الله الفاطمي) ووَطَّد له البلاد وأقبل المهدي من المشرق وعجز عن الوصول إلى عبد الله المذكور وتوجه إلى سجلماسة وأحس به صاحبها اليسع آخر ملوك بني مدرار فأمسكه واعتقله، ومضى إليه أبو عبد الله وأخرجه من الاعتقال وفَوَّض إليه أمر المملكة. اجتمع به أخوه أبو العباس أحمد وكان هو الأكبر، أعني أحمد، وندَّمه على ما فعل وقال له: تكون أنت صاحب البلاد والمستقِل بأمورها وتُسلمها إلى غيرك وتبقى من جملة الأتباع وكَرّر عليه القول. فندم أبو عبد الله على ما صنع وأضمر الغدر، واستشعر منهما المهدي، فدسّ عليهما من قتلهما في ساعة واحدة، وذلك في منتصف جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائتين بمدينة رقادة بين القصرين رحمهما الله تعالى. يُنظر: ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحد بن أبي بكر (ت 681هـ/ 1282م)، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تح: إحسان عباس، مج2، دار صادر، بيروت، د ت ن، ص 192.

[116] ابن خلدون ، **المصدر السابق**، ج 6، ص 19. ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج 8، ص 295. ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 274.

هِلالي لهذه المنطقة نَتَج عنه حروبٌ طاحنة بين الوافدين الجُدد ضِدّ الزيريين ومن بعدهم بنو عمومتهم الحماديون، هذا من جهة، وضد القبائل المحلية الأخرى والتي كانت زناتة أبرزها من جهة أخرى، حيث ستستمر فصول هذا الصراع الأخير إلى غاية قُرون لاحقة.

ورغم أن الصراع الهلالي ضد القِوى السياسية والكُنفدراليات (الاتحادات) القبَلية في بلاد المغرب كان ذا طابع قبَلي بالدرجة الأولى، إلا أن هذا لا يعني نِسيان أو تجاهُل دَور العامل المذهبي في ذلك، والذي كان السبب الرئيسي في بزوغ هذا الصراع. إذ أَعتقد أنّه لَوْلا القطيعة المذهبية التي أعلنها المعز بن باديس ضد الفاطميين بمصر لما حدث هنالك جفاء بين حلفاء الأمس الزيريين والفاطميين والذي أدى في النهاية إلى قيام الفاطميين بابتعاث القبائل الهلالية إلى المعز الزيري كعِقاب مِنهم (الفاطميين) له على تمرّده.

و مُواصلةً مع دور العامِل المذهبي في تأجيج وإثارة ظاهرة الفتن و الاضطرابات السياسية فإني سأَصِل أخيراً إلى الفترة الموحدية ودخول المغرب الأوسط مع غيره من مجالات بلاد المغرب ضمن إطار دولة الموحدين، دخول موحدي لهذه البلاد اتّسم أحياناً بمواجهات وصدامات عنيفة مع العناصر المحلية، مع ما اتّسم به من حالات سِلمٍ أحياناً أُخرى.

وبالوُصول إلى الفترة التي تَلَت سُقوط الدولة الموحدية، يكون عصر الصراعات المذهبية –في نَظرِي– قد وَلّى وأدبر، فينتهي بذلك دور العامل المذهبي في إثارة النَّعرات والصراعات السياسية والعسكرية، إذ طَغى العامل القَبلي المتمثّل في الصراعات القبلية على جانب الصراعات المذهبية. وأكبر دليل على ذلك، امتناع يغمراسن بن زيان (633 – 681هـ/1235 – 1282م) عن ادِّعاء النَّسب الشَّريف له ولأُسرته الزّيانية من أجل شَرعَنة مَسألة قيام دولته بتلمسان والمغرب الأوسط واستقلاله عن الخِلافة الموحدية بمراكش، وذلك عندما سُئل عما إذا كانت له رغبة في ذلك[117]. ولم يدَّع السلاطين الزيانيون النَّسب الشريف –في نَظرِي– إلّا بعد أن خارَت قِواهم وتضعضعت دولتهم وكثر الطامعون في أخذها وعصَفت بها رياح الثورات والانتفاضات من كل جانب[118]، وهذا –على ما أعتقِد– من أجل تبرير وشَرعَنة مَسألة تربُّعهم

[117] "وسُئِل مِنه [أي يغمراسن بن زيان] القول بالشَّرف وإثبات نَسبه إليه، فقال: إن كان المراد شرف الدنيا فهو ما نحن فيه، وإن كان القصد شرف الأخرى فهو عند الله سبحانه ". يُنظر: ابن خلدون: يحي أبو زكريا (ت 780هـ/1379م)، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تح:عبد الحميد حاجيات، ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص 225.

[118] شَفيعي في هذا ما ذَكَره يحي ابن خلدون عندما قال أن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم جميعا) نَزيل مدينة وَليلي ومؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى هو جدّ السّلطان الزياني: أبي حمو موسى الثاني (760 – 791هـ/1359 – 1389م). يحي ابن خلدون، **نفسه**، ج2، ص 15.

على عرش تلمسان والمغرب الأوسط في محاولة منهم لإبعاد الطامعين في العَرش هنا وهناك، عندما عجزوا عن فرض سُلطتهم بالسّيف والقوة العسكرية والحِنكة السياسية والدَّهاء الدبلوماسي كما فعل جدُّهم يغمراسن.

أنا هنا لست أُحاول رصد تلك الصراعات والصِّدامات العسكرية بين القبائل ومختلف القوى السياسية التي كان للعامل المذهبي دور في إذكائها، وإنما ما يهمّ هنا أن أُبيّن أن العامل المذهبي كان أهم الأسباب الفاعِلة في نُشوب حروب واضطرابات سياسية وعسكرية بين مختلف القوى المتصارعة، هذه الحروب والاضطرابات التي كانت النتائج الديمغرافية والعُمرانية الكارثية أبرَز إفرازاتها، إن معاركَ مثل **معركة القَرن**[119] التي راح ضحِيتها ما يقارب 180 ألف قتيل[120] أو قبلها **معركة بقدورة**[121] التي راح ضحيتها نحو 10 آلاف قتيل[122] ومعركة مانو[123] التي أسفرت بدورها على نحو 12 ألف

[119] معركة القَرْن: سُميت بهذا الاسم نِسبةً إلى اسم مكان وقوعها (القَرْن) وهو موضع قريب من القيروان. حدثت هذه المعركة بين الجيش الأموي بقيادة: حنظلة بن صفوان الكلبي، الوالي الأموي على إفريقية ما بين سنتي: 124 و127هـ/ 742- 745م ضدّ جيوش الخوارج الصفرية المنتفضين على الأمويين بقيادة: عُكَّاشة الصفري الخارجي الذي أُسر بعد هذه المعركة وقُتل. وانجلت هذه المعركة عن هزيمة الخوارج وانتصار الأمويين، حيث وصل عدد قتلى الخوارج الصفرية بعد هذه المعركة إلى نحو 180 ألف قتيل حسب روايات المصادر. عن هذه المعركة، يُنظر: الرقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية والمغرب**، تق وتح وتع: مُحَّد زينهم مُحَّد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1414هـ – 1994م، ص ص 68 – 72. ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن مُحَّد (ت بعد سنة 712هـ/ 1312م)، **البيان المُغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمَغرب**، تح و ض و تع: بَشَّار عَوَّاد معروف و محمود بَشَّار عَوَّاد، مج1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1334هـ/ 2013م، ص ص 88 – 90.

[120] الرقيق القيرواني، **نفسه**، ص 72.

[121] معركة بَقْدُورَة: معركة حدثت سنة 123 أو 124هـ/ 741 أو 742م شمال المغرب الأقصى وبالضبط بموضع يقال له: بقدورة، على ضِفاف وادي سَبْو، بين الجيش الأموي ببلاد المغرب تحت قيادة: كلثوم بن عياض القشيري الذي تَولّى ولاية إفريقية والمغرب سنة 123هـ/741م، ضد الخوارج الصفرية تحت قيادة: خالد بن حميد الزناتي. وانجلت هذه المعركة عن هزيمة الجيش الأموي ومقتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري قائد العساكر العربية بالقيروان، إضافة إلى مقتل ثلث الجيش الأموي البالغ عدده قبل المعركة 30 ألف مقاتل (أي مقتل 10 آلاف مقاتل). عن هذه المعركة، يُنظر: مجهول: **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذِكر أُمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم**، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1410هـ/ 1989م، ص ص 36 – 39. ابن القوطية (ت 367هـ: 977م)، **تاريخ افتتاح الأندلس**، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1410هـ/ 1989م، ص 40. مُحَّد بن عميرة، **المرجع السابق**، ص ص 72 – 75.

[122] مجهول، **أخبار مجموعة**، **المصدر السابق**، ص 39. ابن القوطية، **المصدر السابق**، الصفحة نفسها. مُحَّد بن عميرة، **المرجع السابق**، ص ص 74- 75.

[123] معركة مانو: جرت هذه المعركة بين إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الأمير الأغلبي الذي حكم بين سنتي: 261 و 289هـ/ 875 و 902م، وبين أهل جبل نفوسة الإباضية في سنة: 283هـ/ 896م بموضعٍ يُقال له: مانو، وهو قصر قديم بين قابس وطرابلس. وأسفرت هذه المعركة عن تَعرُّض الجانب الإباضي لهزيمة كاسحة كانت نتيجتها: 12 ألف قتيل. عن هذه المعركة، يُنظر: الدرجيني: أبو العباس أحمد

قتيل[124]، إلى جانب غير ذلك من المعارك الأخرى التي تُدلّل بشكل واضح على مدى تأثير العامل المذهبي وفاعليته ودوره في اندلاع الكثير من الفتن والاضطرابات السياسية التي أطلّت على بلاد المغرب من كل جانب خاصة في القرون الخمسة الأولى من الهجرة، وتدلّ أيضا على الآثار السيئة على الصعيد الديمغرافي لهذه المعارك ذات البُعد المذهبي، بالرغم من ما تحمله بعض الأرقام المُقدمة في الأسطوغرافيا الوسيطية من تهويل وتضخيم ومبالغات.

المطلب الثاني: العامل الاجتماعي: الصراعات القبلية

ينبغي هنا أثناء التطرق إلى موضوع دور العامل القَبَلي في إثارة الحروب والفتن والاضطرابات السياسية في بلاد المغرب الأوسط وفي غيره من بلاد المغرب أثناء فترة الدراسة، ينبغي محاولة تتبع بُذور هذه الظاهرة وبداياتها الأولى. وهو ما يجعلني في هذه الحالة مُضطراً إلى الرّجوع زَمنيا قليلاً إلى الوراء قبل بداية فترة البحث وبالضبط إلى البدايات الأولى لدخول بلاد المغرب للحِقبة الوسيطة وانضمامها للدولة الإسلامية الكبرى في المشرق مُنذ فترة الفتوحات الإسلامية وما يلي هذه المرحلة.

في اعتقادي، أنّ البِدايات الأولى لِتَدخُّل العامل القبَلي في الجانب السياسي والعسكري يرجِع إلى مرحلة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وبالضّبط ما بين وِلايتيْ عُقبة بن نافع الفِهري الأولى والثانية، ابتداءً من سنة 50 هـ/670م وصولاً إلى سنة 63هـ/683م تاريخ استشهاد عقبة في معركة تهودة. إذ تخلَّلت فترة حُكمه هذه تعيين أبي المهاجر دينار على رأس ولاية المغرب ما بين سنتي 55 و 62 للهجرة/ 575-682م. فالمصادر التاريخية تكاد تُجمع على الخِلاف الذي حدث بين الواليَيْن عقبة وأبي المهاجر، و هو خِلاف على ما أَعتقد أنه كان ذا أبعاد قبلية بالدرجة الأولى – طبعا مع أبعاد أخرى- . إذ يُمكن التماس البُعد القبَلي في ذلك فيما ذكره المالكي عن شكوى عقبة بن نافع ليزيد بن معاوية (60-64هـ/ 680-683م) بصنيع أبي المهاجر دينار به عندما حَلّ والياً على المغرب سنة 55هـ/675م حيث" أخَذ عُقبة بن نافع فحبَسه وضَيَّق عليه، فبلغ خبرَه مُعاوية فكتب إلى أبي المهاجر يأمره ويُعفيه مما صَنع من ذلك، فأطلقه أبو المهاجر...فمَضى –أي

بن سعيد (ت 670هـ)، **طبقات المشائخ بالمغرب**، تح وطبع: ابراهيم طلاي، ج1، مطبعة البعث، قسنطينة –الجزائر-، د س ن، الصفحة 87 وما بعدها. أبو زكريا: يحي بن أبي بكر(ت 471هـ/ 1079م)، **سِير الأئمة وأخبارهم**، تح وتع: اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1399هـ – 1979م، ص 103 وما بعدها و ص 107 (الهامش رقم 1). الباروني: سليمان باشا ، **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، مر: مُحَّد علي الصليبي، دار الحكمة، لندن، 2005، ص 332 وما بعدها.

[124] الدرجيني، **المصدر السابق**، ج1، ص 89. أبو زكريا، **المصدر السابق**، ص 104. الباروني، **المرجع السابق**، ص 335.

عُقبة– وهو حَنِق على أبي المهاجر...وتوجه إلى الشّام"[125] من أجل مُلاقاة الخليفة الأموي بدمشق وبَثّ شكواه له حيث قال له عقبة: "لما فتحتُ إفريقية وبنيتُ مسجد الجماعة بَعَثْتم **عبدَ الأنصاري** فأهانني وأساء عزلي"[126]. ومن المعلوم أن عقبة بن نافع "قُرشي"[127] أي أنه ينتمي إلى قبيلة قريش أعظم قبائل العرب وأشرفها فكيف يتلقى هذه المعاملة من أبي المهاجر دينار الذي هو في الأصل "مَولَى لِمَسْلَمَة بن مُخَلَّد الأنصاري"[128] الوالي الأُموي على مصر والمغرب (خلال عهدي: معاوية وابنه يزيد ما بين سنتي: 47 إلى غاية وفاته سنة 62هـ/ 667-682م)[129] فَشَقّ عليه في نفسه –على ما يبدو– أن يتلقّى هذه المعاملة السيئة من أبي المهاجر دينار، فما كان من عقبة بعد تعيينه على المغرب للمرّة الثانية إلا أن عامَله بالمثل[130] له ولِكُسيلة الأوْرَبي الذي أسلَم لما وَلي أبو المهاجر إفريقية وحَسُن إسلامه والذي هو من أكابر البربر وأبعدهم صيتاً وصاحِب أبا المهاجر والذي بإسلامه تَبِعه نَفَرٌ كبير من قومه[131]، هذا بالرغم من أن هناك من يرى " أن إسلام قبيلة أوربة وزعيمها كُسيلة لم يكن نهائياً فلم يكن سِوى إسلامٌ مَرحليٌّ...ولم يرتبط البربر بالإسلام عقيدةً وشريعةً وإنما كان إيمانهم سَطحياً سُرعان ما تَحَوَّل بِعودة أسلوب عقبة بن نافع الجديد"[132].

وأنا هنا لا أَبغي الخوض في حيثيات وتفاصيل هذا الخلاف بين عقبة وأبي المهاجر الذي قُلت أنه كانت له –على ما بَدا لي– أبعاد قَبلية –مع الأبعاد الأخرى طبعاً–. لكن ما أودّ أن أُشير إليه أنّ هذا الخِلاف كَلَّف الكثير لمشروع فتح بلاد المغرب خلال مُدَّة زمنيةٍ قاربت الثلاث عشرة سنة (50-63هـ/ 670-683م) أمام اندلا ع عدة حروب ومعارك كان يمكن تجنّبُها لولا هذا الخِلاف، ولا أدلَّ على ذلك من ارتداد البربر عن الإسلام بعد إسلامهم في فترة أبي المهاجر دينار. كما أن

---

[125] المالكي أبي بكر عبد الله بن محمّد، **رياض النفوس**، تح: بشير البكوش و مر: محمّد العروسي المطوي، ج1،ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1414هـ/1994م، ص 33.

[126] المالكي، **نفسه**، ص 33 – 34.

[127] الذهبي: شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان (748هـ/1347م)، **سير أعلام النبلاء**، تح: محمّد نعم العرقوسي و مأمون صاغرجي، ج3، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت ، 1402هـ/1982م، ص 532.

[128] ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 46.

[129] عن ترجمة الوالي: مَسْلَمَة بن مُخَلَّد الأنصاري، يُنظر: الذهبي، **المصدر نفسه**، ج3، ص ص 424 – 426. الزِّرِكلي: خير الدين، **الأعلام**، ج7، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ص 224.

[130] ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 48.

[131] عبد الحميد حسين حمودة، **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح الإسلامي وحتى قيام الدولة الفاطمية**، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 1428هـ/ 2007م، ص ص 165-166.

[132] بشير يزير، **القبائل البدوية في المغرب الأوسط من بداية الفتح إلى نهاية القرن الثاني الهجري – أوربة أنموذجا –** ، (مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة2 –الجزائر– ، 2012 – 2013م)، ص 64.

هذا الخِلاف تسبّب بطريقة غير مباشرة في استشهاد كِلا القائدين (عقبة و أبي المهاجر) في معركة تهودة سنة 63هـ/683م، بقي أن أَقول أخيراً حول هذه النقطة، أنه وبالرغم من كل ما ذكرتُه، فإن هذا لا يُنقِص أبداً من بُطولات هذين القائدين الكبيريْن ودورُهما البارِز والكبير في حرَكة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وافتخارنا واعتزازنا بهما كأحَديْ أبرز القادة الفاتحين المسلمين لبلاد المغرب.

وبالانتقال إلى المرحلة المُوالية: مرحلة الوُلّاة، يمكن القول أنّ لجَانِب التّعصب القبَلي والصراعات القبلية دوراً مباشراً في استفحال ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية وانتشارها على نِطاق واسع من بلاد المغرب. وفي ذلك يشرح أحد الدارسين قائلاً: أنّ" عَصر الوُلاة اتَّسَم بِعِدّة مَظاهر كُبرى هي: تَفشِّي الرُّوح العصبية والعنصرية بين القبائل العربية، وانتشار المذهب الخارجي (الصُّفري والإباضي) بين المغاربة واندلاع الثورات المغربية العديدة التي قامت ضدّ بعض الولاة العرب وسياستهم التّعسفية، والتي انتهت بقَطيعة أهل المغرب للدولة الأموية وخُروج المغربين الأوسط والأقصى عن السلطة المركزية في دمشق ووُلاتها في إفريقية"[133]. وفي رأيي فإن عصر الولاة هذا لم يَتَّسِم –على الصعيد السياسي- إلا بخاصية وحيدة تمثلت في: "**تَفَشِّي الروح العصبية والعُنصرية**" كما يسميها نفس الدّارس، هذا التعصب الذي يكون أحياناً بين القبائل العربية فيما بينها (ما بين يمنية وقيسية)، وأحيانا أخرى يكون ضد الأجناس الأخرى غير العربية والذين كان يُطلق عليهم تسمية: (المَوالي) ، حيث يمكن تبرير اعتقادي ورأيي هذا بالقول بأن العُنصرين الآخريْن والمتمثلين في انتشار المذهب الخارجي وكثرة الثورات والانتفاضات المحلية –من وجهة نظري- ما هما في الحقيقة إلا إفرازات ونتائج للعُنصر الأول المتمثل في استفحال ظاهرة التعصب القبلي عند بعض وُلاة ورِجال الدولة الأموية ببلاد المغرب.

في رأيي، إنّ أكثر المغالطات التي يقع فيها بعض المؤرخين القُدماء منهم والمُحدَثين أن ينسبوا بداية الانتفاضة المحلية ببلاد المغرب سنة 122هـ/640م إلى انتشار المذهب الخارجي بين أوساط القبائل المغربية. صحيح أنه كان من بين أهمّ الأسباب في ذلك، لكنني أَرى هنا بأن هذا المذهب لم يكن السبب الرئيسي والمباشر في اندلاع هذه الانتفاضة، إذ لم يكن العامل المذهبي في هذه الحالة سِوى تلك القَطرة التي أفاضت الكأس، بل أَذهب إلى الاعتقاد أن العامل الرئيسي في كل ذلك هو العامل القَبَلي كما أسلفت.

وبانتهاء مرحلة الولاة ودخول بلاد المغرب مرحلة قيام واستقرار العديد من الدول المنتشرة هنا وهناك في رُبوع هذه المنطقة، شهدت هذه الأخيرة مرحلة استقرار –نسبي- هدأت فيه –نوعا ما- ظاهرة الفتن والاضطراب السياسي والنزاعات المذهبية والقبلية، لكن هذا لا يعني غياب هذه الخاصية بشكل نهائي عن بلاد المغرب. وبما أن موضوع بحثي مُنصبّ حول

[133] عبد العزيز فيلالي، **العلاقات السياسية، المرجع السابق**، ص 42.

بلاد المغرب الأوسط، فسأخذ مثالاً متعلقاً بهذه المنطقة، فأول تصدُّع داخلي في البيت الإباضي بتيهرت كان عقِب وفاة الإمام عبد الرحمن بن رستم (160-171هـ/ 777-787م) وتعيين ابنه عبد الوهاب (171-208هـ/ 787-823م) خلفاً له. وهو ما أدَّى إلى انتفاضة النُّكَّارية[134] الذين أنكروا على عبد الوهاب إمامته هذه. وفي ذلك يذكر أحد الدارسين[135] أن الدَّافع الاجتماعي المتمثل في البُعد القبلي إضافة إلى الدَّافع الاقتصادي، كان من أبرز مُحرِّكي هذه الانتفاضة، "وهكذا فما قيل عن الأسباب والدوافع التي أوجدت الشقاق بين يزيد بن فندين والإمام عبد الوهاب سياسية أو مذهبية، فلا يمكن إغفال الدوافع الاقتصادية والاجتماعية"[136]لهذه الحركة.

أما الدولة الفاطمية التي أعقَبت هذه الدول، فقد عرَفت كيف تلعب جيداً على أوتار العصبية القَبَلية والانتماء القَبَلي في أوساط قبائل بلاد المغرب. فَسَخَّرت هذا الجانب من أجل الحفاظ على وجودها وقوتها وسط هذا التَّشعُّب القبلي، فقَرَّبت كتامة في البداية واستمالت إليها صنهاجة فيما بعد، وحاولت إخضاع زناتة بالوِد تارة[137] وبالسيف والقوة تارة أخرى. فكان العامل القَبَلي المصبوغ بالصِّبغة المذهبية أكثر العوامل التي أَجَّجت الظاهرة الحربية في هذه الفترة وساهمت بشكل كبير في استفحالها وكثرتها.

وفي الفترة الزّيرية/الحمادية، فإن الصراع القبلي سَيستمر ويَكثُر ويزداد تشعُّباً عَمّا كان عليه في السابق. ومن أشكال هذا الصراع: الصراع الصنهاجي–الصنهاجي: بين الزيريين والحماديين، وقبل ذلك، الصراع الصنهاجي–الزناتي: بين الزيريين ومن بعدهم الحماديون ضد الزناتيين، ثم يتأجج هذا الصراع القبلي أكثر فأكثر بعد التّوافد الهلالي على المنطقة، لتشهد هذه الأخيرة صراعا من نوع آخر، فتارةً يكون الصراع بين الوافدين الجُدد ضِدّ القبائل المحلية من صنهاجة وزناتة، وتارة أخرى يكون فيما بين القبائل الهلالية نفسَها.

---

[134] النُّكَّار: هم أتباع يزيد بن فندين أبو قدامة النكاري، وسُمُّوا بالنُّكَّار لأنهم أنكروا إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن وثاروا ضده، ولقد تطورت هذه الفِرقة التي انسلخت عن الإباضية الأُم. يُنظر: ابن الصغير (ق3هـ/9م)، **أخبار الأئمة الرستميين**، تح وتع: مُحَّد ناصر وابراهيم بحاز، د د ن، د م ن، ص 37 (الهامش رقم: 33).

[135] جودت عبد الكريم يوسف، **الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9–10م)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.س.ن، ص ص 458- 460.

[136] جودت عبد الكريم يوسف، **نفسه**، ص 460.

[137] حاوَل الخلفاء الفاطميون أن يكسبوا بعض القبائل الزناتية إلى صفِّهم للحَدّ من شِدّة مُعارضة زعيمها ابن خزر، فَوَلُّوا (أي الخلفاء) زناتياً مَكناسياً على تيهرت، على أن المنطقة ظَلّت تُظاهِر الخِلاف والعَداء وترفُض المذهب الشّيعي رفضاً كاملاً. بوبة مجاني، **المذهب الإسماعيلي والقيادات الدينية والعسكرية الكتامية في المرحلة المغربية**، مقال ضمن كتاب جماعي: من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي، تقديم وتنسيق: بوبة مجاني، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة – الجزائر –، 2007، ص 86.

كما وتعتبر ثورة بني غانية (580-633هـ/ 1184-1236م) بالمغرب الأوسط وإفريقية في العصر الموحدي أفضل تجسيد فِعلي للانتفاضات والحروب المذهبية المصبوغة بالطّابع القبلي. فَفِي "سَنة 80[5هـ] خرَج الميورقيون بَنو غانية من جزيرة مَيورقة قادمون [نحو] مدينة بجاية"[138]وهم بقايا "الملثمين الذين كانوا بالمغرب"[139]، وينتمون إلى "قبيلة مسوفة"[140]الصنهاجية، "فاجتمع[لهم] سليم ورياح ومَن هناك من العرب وانضاف إليهم التُّرك...فكثُر جمعهم...وكُلّهم كَارِهٌ لدولة الموحدين، واتَّبعوا جميعهم علي ابن اسح[ا]ق الملثم...وانقادوا إليه ولقَّبوه بأمير المسلمين"[141]، حيث كان "هذا أول اختلال وقع في دولة المَصامدة"[142].

واستمر العامل القبلي في دوره وفاعليته في الجانب السياسي بعد سقوط العرش الموحدي، فقام بنو حفص بإفريقية وبنو زيان بالمغرب الأوسط وبنو مرين بالمغرب الأقصى وبنو الأحمر بالأندلس. إذ أعتقد أنّه ومن خلال أسماء هذه الدول والإمارات يتبين مدى حضور القبيلة وفاعليتها في صُنع الأحداث السياسية في بلاد المغرب، فأسماء هذه الدول كلها أسماء تنتمي إلى كُونفدراليات (اتحادات) قبلية متعددة والتي من خلالها تأسست ومن خلالها أيضا تحارب أعداءها وتحافظ بها على وجودها وسط هذا الوضع السياسي المتأزم المغذَّى بعنصر الصراع القبلي. وأَرى أن هذه النقطة بالذات المتمثلة بصَبغ الدول الوسيطية بالطّابِع القَبَلي لا أمرّ عليها مرور الكرام، فهذه الخاصية لم تمتز بها الدول التي أعقبت الدولة الموحدية، وإنما امتازت بها مُعظم الدول الوسيطية تقريباً، فغالِبا ما توجد هنالِك دُوَلٌ تحمل أسماءً ذات بُعد قَبَلي مثل: الدولة الزيرية، الدولة الحمادية، الدولة الزيانية والدولة المرينية وغيرها...، وقلَّما توجد دُوَل ذات بُعد دِيني أو حتى مذهبي، فلا تكاد تسمع مثلا: بالدولة الإباضية أو الدولة المالكية أو الدولة الإسماعيلية...، أو حتى دُوَلاً باسم المنطقة التي أُسِّست عليها كما هو الحال اليوم، وحتى عندما تكون هناك دولة لها أبعاد دِينيّة أو عَصَبيّة دِينيّة مثل: الدولة الإدريسية والفاطمية والمربطية والموحدية، فإنها لم تكن لِتُقام وتُؤسَّس لولا وجود القبيلة التي هي عَصَب وسبب وُجودها وحتى استمرارها. فدولة الأدارسة مثلا قامت على يد قبيلة أوربة، ودولة العُبيديين الفاطمية قامت على أكتاف قبيلة كتامة واستمرت بدعم صنهاجة، والمرابطين بسَواعِد

[138] المراكشي: أبي مُحَّد عبد الواحد بن علي، **المُعجب في تلخيص أخبار المغرب**، شرحه واعتنى به: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1426هـ/2006م، ص 195.

[139] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج10، ص 128.

[140] المراكشي، **المصدر السابق**، ص 195.

[141] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج10، ص 136.

[142] المراكشي، **المصدر السابق**، ص 195.

اللَّمتونيين، والموحدين بسَواعِد المصامدة. وهذا يُذكِّر بنظرية ابن خلدون التي ترى "أن الملك والدولة إنما يحصلان بالقَبيل والعَصبية"[143].

من هُنا، يتبيّن أن عُنصر الصراع القَبَلي كان أحد أهمّ العوامل التي ساهمت بشكل مُباشر وغير مُباشر في استشراء الظاهرة الحربية وتأجيج ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية في بلاد المغرب مُنذ فترات مُبَكّرة من تاريخ بلاد المغرب الوسيط، وُصولاً إلى الفترات اللاَّحِقة والأخيرة من هذه الحِقبة.

المطلب الثالث: **العامل الاقتصادي** : الصراع على الأراضي الفلاحية والرعوية/ الصراع حول الطُّرق والمراكز التّجارية/ كثرة الضّرائب والجِبايات

بِالعودة قَليلاً إلى الفترة القديمة من تاريخ بلاد المغرب القديم، هُناك من يرَى أن لِثورة الريفيين (الدَّوَّارين)[144] التي تحالفت مع الحركة الدُّوناتية (الدّينية المذهبية) والتي اندلعت ضدّ روما وكنيستها الكاثوليكية، أنها كانت تمثل إحدى الثورات الشَّعبية الباكِرة في التاريخ، فهي لم ترتكز على خلفية قَبَلية أو عِرقية مُعينة أو فِئوية ضَيِّقة. كما أن نشاطها كان مُوجَّها ضد الفئة الأرستقراطية الثرية المستحوذة على السلطة والمسيطرة على الإنتاج الاقتصادي، وضد النظام السياسي الذي كان يستمد نفوذه من ذلك التمايز الطبقي، ومن التركيب الاقتصادي المجحف، فالقاسم المشترك بين الثوار تمثل في التجانس الاجتماعي وفي التقارب في الأوضاع الاقتصادية والإحساس الجماعي بالقسر والهوان[145].

هذا يعني أن العامل الاقتصادي المتمثل في الإجحاف الضريبي المُمارَس من قبل الإدارة الرومانية إضافة إلى التمايز الطبقي بين البرجوازيين الرومان مُلّاك الأراضي الزراعية الكبرى وبين الطبقة الكادحة من العمال الذين ينتمي إليها معظم السكان والقبائل المحلية. ضِف إلى ذلك سوء الأحوال الاقتصادية للعنصر السكاني المحلي ببلاد المغرب القديم، كل هذا كان

---

[143] ابن خلدون، **المقدمة، المصدر السابق**، ص 193.

[144] ثورة قام بها سكان بلاد المغرب المحليين في الفترة القديمة من تاريخ هذه المنطقة ضد السلطة الرومانية في القرن 4م، وذلك بعد تأزّم الحالة الاقتصادية للسكان المحليين نتيجة سوء سياسة الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي للاستيطان الروماني. عن هذه الثورة، ينظر: عمران عبد الحميد، **الديانة المسيحية في المغرب القديم –النشأة و التطور–(430–180م)**، (أطروحة دكتوراه،، جامعة منتوري –الجزائر–، 1432 – 1433هـ/2010-2011م)، ص 239 وما بعدها.

[145] مُحَّد البشير شنيتي، **أضواء على تاريخ الجزائر القديم، المرجع السابق**، ص 184.

قد شكَّل أبرز العوامل الاقتصادية التي مَثَّلت البواعث الحقيقية والعميقة للانتفاضة المحلية لسكان بلاد المغرب. ولم تكن حُلَّتها المذهبية التي كَسَتها والمتمثلة في الحركة الدوناتية، إلا وسيلة من أجل الانتفاضة على السلطة الرومانية التي جرَّت بحالة بلاد المغرب الاقتصادية إلى الحضيض، والتي ظَلَّت تمارِس أشنع الممارسات الاقتصادية السيئة في حق المجتمع المحلي لبلاد المغرب.

لكن كل هذا لا ينفي دور العامل الديني في ذلك، والمتمثل في قيام الحركة الدوناتية المحلية ضد المذهب الكاثوليكي الرسمي لروما الإمبراطورية.

وثورة الريفيين هذه (ذات الأبعاد القبلية والاقتصادية) والمتحالفة مع الحركة الدوناتية (ذات البعد الديني المذهبي)، إضافة إلى دور العامل الاقتصادي مع العامل القبلي في تحريك شرارة هذه الثورة تُذَكِّرني تماما بالانتفاضة المحلية الخارجية ببلاد المغرب في بداية الفترة الوسيطة سنة 122هـ/740م. إذ أَعتقد أن هاتيْن الثورتيْن وإن اختلفتا في الفترة الزمنية والأهداف السياسية والعقائدية (الدينية/المذهبية)، إلا أنهما تشابهتا كثيراً في العوامل والأسباب المحركة لها وحتى في الظروف والنتائج[146].

ودائماً مَع القرن 4م، فإن ثورة الريفيين (الدوارين) لم تكن وحدها من اتصف بهذه الخاصية، بل نجد أيضا في نفس الفترة ثورة فيرموس[147] ومن بعده حرب أخيه جيلدون سنة 398م[148]ضد السلطة والإدارة الرومانية. إذ أعتقد أن هاتين الثورتين أو الانتفاضتين المحليتين قد لعب فيهما –أيضاً– العامل الاقتصادي المصبوغ بالطابعيْن الدِّيني والقبَلي دورا رئيسيا في نشوبهما.

[146] بالمناسبة، هناك –إلى حدٍّ ما– من يُسايرني في هذا الطرح: "...في الواقع أن وضعية القرن الثامن م/ [2هـ] تُشبه إلى حدٍّ كبير حالة القرن [الرابع] حينما خرجت الكنيسة الدوناتية على الكَثلكَة". عبد الله العُروي، **مُجمل تاريخ المغرب**، ج1، ط5، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 1996، ص 140.

[147] نِسبة إلى الأمير فيرموس ابن نبول Nebul، كان مواليا للرومان ثم ثار ضدهم في ظروف غامضة. يبدوا أن للوضع الاقتصادي والسياسي دَخْل كبير فيها، استمرت ثورته من عام 372 – 375م كابَد فيها الرومان متاعب شتّى. محمد البشير شنيتي، **حول الدوناتية وثورة الريفيين بنوميديا خلال القرن الرابع الميلادي**، مجلة الأصالة، ع 60 – 61، ص 40 (الهامش رقم41) . شملت هذه الثورة الإطار المكاني الممتد من جيجل ولمباز شرقا إلى قرطنة "تنس" والشلف غربا وأوزيا والمسيلة جنوبا. محمد الهادي حارش، **ثورة فيرموس 372 – 375م**، مجلة الدراسات التاريخية، ع7، جامعة الجزائر2، 1993، ص 11.

[148] للمزيد عن هذه الحرب، ينظر: عمران عبد الحميد، **المرجع السابق**، ص 276 وما بعدها.

اتَّضَح إذن أن العامل الاقتصادي المتمثل في التَّعسُّف الجبائي وسوء السياسات الاقتصادية للدولة المركزية، كان من الدوافع الرئيسية في اندلا ع الانتفاضات والثورات المحلية في بلاد المغرب القديم. أي أن العامل الاقتصادي –طبعا مع غيره من العوامل– قد لعب دورا مهما في إذكاء الظاهرة الحربية واستفحالها منذ فترات تعود إلى ما قبل الفترة الوسيطة من تاريخ بلاد المغرب، ولقد ضربتُ بعض الأمثلة التي تعود للفترة القديمة وبالضبط في الفترة الرومانية، فهل اتَّسمت بلاد المغرب بهذه الخاصية أيضا خلال الفترة الوسيطة من تاريخها؟

الإجابة ببساطة: نعم، فلطالما كان العامل الاقتصادي المحرّك الأساسي لمعظم الحروب والفتن التي حلت ببلاد المغرب الأوسط وغيره من بلاد المغرب خلال الحقبة الوسيطة، ثم إنه –إذا ما تم استثناء الفتوحات الإسلامية التي تحمل رسالة الإسلام الإلهية– من ذا الذي يتصور أن هناك حروبا ومعارك على مستوى تاريخ الأمم والشعوب دون أسباب أو أهداف اقتصادية؟ بعبارة أخرى، على مَرّ الأزمنة والعصور كان الاقتصاد ولا زال وسيزال المحرك الأساسي لصناعة الحروب البشرية الدُّنيوية سواءً باعتباره أحد أسبابها، أو باعتبار أن هناك أسباباً اقتصادية يرجى تحقيقها من حرب ما! إذ أعتقد أن هذا الأمر يعتبر حقيقة تاريخية شِبه ثابتة!

فكانت البداية مع مرحلة الولاة التي لعب فيها العامل القبلي ذو الصِّبغتين الاقتصادية والمذهبية دوراً كبيراً في بروز الظاهرة الحربية وانتشارها على نطاق واسع من بلاد المغرب. إذ كانت السياسة المالية الجائرة من قِبل بعض الولاة الأمويين سواءً في المجال الضريبي المجحف أو في مجال الغنائم الحربية أبرز الدوافع الاقتصادية في الانتفاضات المحلية المغربية ضد السلطة الأموية.

في الفترة الموالية، وفي رأي أحدهم[149]، فإن الكثير من المصادر تُجمع على أن الفترة التي أعقبت سقوط الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م) ببلاد المغرب الأوسط، وقيام الخلافة الفاطمية بالمغرب الأدنى عرفت تحولات اقتصادية واجتماعية أسفرت عنها ثورة فجّرها الطرف الذي تضرر منها وهم المالكية والخوارج، خصوصا أمام توزيع الخلفاء الفاطميين للأراضي التي صودرت على رجال الدولة من الكتاميين والصقالبة وغيرهم، فاتَّسَمت الفترة بكثرة الحروب والفتن مع ما رافقها من ضُروب الاستلاب والغصب والتعدي.

ولا مَناص للباحث في ميدان دراسة أسباب حركة المعارضة في بلاد المغرب في عهد الفاطميين من وضع العامل الاقتصادي ضِمن العوامل الرئيسية في تحريكها، وكثيراً ما كانت تلك الثورات تنطوي على أبعاد اقتصادية كامنة وإن ظهرت

---

[149] نوال بلمداني، **نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (4-5هـ/10-11م)**، (أطروحة الدكتوراه، جامعة وهران – الجزائر-، 1434-1435هـ/2013-2014م)، ص 70.

بطابع آخَر، فقد كان لهذا العامل أثره الفعال في دفع أهل بلاد المغرب إلى الثورة على الفاطميين، ويشهد على ذلك سوء الأحوال الاقتصادية التي أوردتها كتابات المؤرخين[150].

وبالحديث عن دور جانب الصراع على الأراضي الزراعية والرعوية في بث الظاهرة الحربية في العصر الوسيط، هناك من يرى أن استمرار العداوة بين قبيلتي صنهاجة وزناتة خلال العهد الفاطمي والذي أخذ فيما بعد صبغة دينية بالدرجة الأولى، كان سببه الرئيسي هو الصراع حول المناطق الرعوية، فاستغل الفاطميون الوضع وأَجَّجوا الصراعات القبلية إلى صراعات إبادة، خاصة بعد شعورهم بعدم جدوى سياسة جعفر بن علي بن حمدون[151] وفشله في الوقوف في وجه زناتة، التي ظلّت تُؤرِّق الدولة الفاطمية بثورتها ورفضها لسلطتها، الأمر الذي جعلها ترمي بهذه المسؤولية على عدوّ زناتة اللدود قبيلة صنهاجة وزعيمها زيري بن مناد، والذي أنشأت له ولاية على حدود ولاية جعفر وجعلت قاعدتها أشير[152] من أجل محاولة وضع حدٍّ لتحركات زناتة في هذه المجالات المهمة على الصعيد الاقتصادي: زراعيا ورعويا وحتى تجارياً.

وقد اهتم الفاطميون بالسياسة الجِبائية اهتماما كبيرا إلى جانب سياسة مصادرة الأموال بشتى الذرائع، والنظام الجبائي الفاطمي معروف بإرهاقه للسكان وخاصة سكان الريف وقد كان اشتداد وطأته عليهم سلاحا فعّالا عرف كيف يستعمله أبو يزيد (صاحب الحمار) في انتفاضته ضد الحكم الفاطمي، مُعتمدا بالخصوص على سكان المناطق الريفية[153].

وعند الحديث عن دور الجانب التجاري في إثارة الفتن والاضطرابات السياسية والظاهرة الحربية بصفة عامة، هناك العديد من الأمثلة التاريخية التي تُجسد هذه الخاصية، فمثلاً: هناك من يذهب إلى أن الصراع العنيف بين الأمويين

---

[150] فاطمة بلهواري، **الفاطميون وحركات المعارضة في بلاد المغرب الإسلامي**، دار المسك للطباعة والنشر، د م ن، د س ن، ص 137.

[151] جعفر الأندلسي ممدوح ابن هانئ (ت 364هـ/ 975م): أبو علي جعفر بن علي بن أحمد بن حمدون الأندلسي صاحب المسيلة، وأمير الزاب من أعمال إفريقية، كان سخيا كثير العطاء مؤثراً لأهل العلم، وكان أبوه علي قد بنى المسيلة، وهي معروفة بهم إلى الآن. وكان بينه وبين زيري بن مناد جدّ المعز بن باديس إِحَنٌ ومُشاجرات أفضت إلى القتال، فتواقعا وجرت بينهما معركة عظيمة، فقُتل زيري فيها. ثم قام ولده بلكين مقام أبيه، واستظهر على جعفر المذكور، فعلِم أنه ليس به طاقة، فترك بلاده ومملكته وهرب إلى الأندلس، فقُتل بها في سنة أربع وستين وثلاثمائة. ابن خلكان، **المصدر السابق**، ج1، ص 360.

[152] بلمداني نوال، **السلطة والقبائل الرعوية بمجالات المغرب الأوسط دراسة في العلاقة (القرن الرابع هجري/العاشر الميلادي)**، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، ع1،مج1، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس –الجزائر–، 2015م، ص 176. نقلاً عن: بوبة مجاني، **النظم الإدارية للخلافة الفاطمية في مرحلتها المغربية خلال العصر الفاطمي (296–362/909–973م)**، دار بهاء الدين، الجزائر، ط1، 2009، ص 280.

[153] الحبيب الجنحاني، **السياسة المالية للدولة الفاطمية**، مجلة الأصالة، ع 49 – 50، 1977م، ص 56 – 57.

والفاطميين كان في الأصل من أجل السيطرة على مسالك تجارة الذهب في بلاد السودان والمغرب الإسلامي، فقد كانت السيطرة على مسالك تجارة الذهب هي العامل الأساسي الذي يكمن وراء ذلك الصراع الذي استمر طويلا بين قرطبة والمهدية، وهو الصراع الذي يبرز في عالم الأحداث بين صنهاجة وزناتة، فلم يكن –على ما يبدو– صراعا قبليا كلاسكياً كما نقرأ ذلك في كثير من المراجع، بل صراع من أجل السيطرة على المسالك الحساسة لتجارة الذهب[154]. وفي ذلك تضيف إحدى الدراسات أن الصراع الفاطمي الأموي كان صراعا يدور في الواقع حول الطرق التجارية والرغبة في احتكارها[155]. ومنه فإن الحملات الفاطمية المختلفة في بلاد المغرب لم تكن تهدف إلى مجرد توسع جغرافي وحسب، أو إلى السيطرة العسكرية على مناطق جغرافية جديدة يحكمها ولاة يُعيَّنون من طرف السلطة المركزية، بل تهدف بالخصوص إلى تدعيم النفوذ السياسي، والسيطرة على مراكز حساسة تقع على مسالك تجارة الذهب والرقيق مثل: سجلماسة – فاس، تاهرت – بلاد الزاب – إفريقية، أو السيطرة على مدن المرافئ المرتبطة بالتجارة الصحراوية[156].

وحتى حركة تأسيس المدن في هذه الفترة كانت لها علاقة بمسألة الصراع حول المسالك والمراكز التجارية ومحاولة تأمينها تَبعاً لأماكن تأسيس هذه المدن. فعِند الحديث عن مدينة المسيلة على سبيل المثال، هناك من يرى أن اختيار مكان هذه المدينة الفاطمية الجديدة لم يكن بمحض الصُّدفة، بل إن هناك جانبا استراتيجيا مرتبطا بعامل اقتصادي له مساس بتأمين المسلك التجاري: سجلماسة – تلمسان – بلاد الزاب – إفريقية، لأن المسلك الشمالي مُهدَّد من الأمويين وحلفائهم، والمسلك الصحراوي الجنوبي يسيطر عليه الخوارج وبطون قبيلة زناتة بصفة عامة[157].

وبعد انقضاء الفترة الفاطمية، ووفقا لأحد الدارسين[158] فإنّه من بين نتائج القدوم الهلالي السليمي إلى بلاد المغرب أنها قد أصابت في الصميم شبكة الطرق الجنوبية بكل من إفريقية والمغرب الأوسط بصفة لا رجعة فيها، وأدت أيضا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى بداية ابتعاد القوافل عن هذين الإقليمين باتجاه الغرب (أي نحو المغرب الأقصى)، وأدت إلى تكثيف العلاقات التجارية للمنطقة (بلاد المغرب) مع الغرب الأوروبي على حساب الشرق الأوسط (المشرق) وفق تعبير

---

[154] الحبيب الجنحاني، **السياسة المالية للدولة الفاطمية، نفسه**، ص 58-59.

[155] محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء –المغرب–، 1987م، ص 15.

[156] الحبيب الجنحاني، **المجتمع العربي الإسلامي –الحياة الاقتصادية والاجتماعية–**، عالم المعرفة - مطابع السياسة، الكويت، رجب 1426هـ/سبتمبر 2005م، ص 268 – 269.

[157] الحبيب الجنحاني، **المجتمع العربي الإسلامي، نفسه**، ص 271.

[158] محمد القبلي، **المرجع السابق**، ص ص 15 – 16 – 17.

ذات الدارس. هذا الأخير يرى أيضاً القُدوم الهلالي لبلاد المغرب الأدنى والأوسط قد صادف ظهور حركة قوية مُتوثِّبة بأقصى الجنوب الغربي للمنطقة (أي المرابطون)، فاستفادت القوافل واستفادت الحركة المرابطية على السواء، فقد استفادت الدولة المرابطية من كل ذلك أيما استفادة، وتحكمت في تجارة الذهب العالمي أنذاك، فقد كان من الطبيعي أن يشتدّ التنافس بين مختلف العصبيات حول هذه التجارة من جهة، ثم تحاول العصبيات المتغلبة من جهة أخرى إخضاع أكبر مجال طرق ممكن من المنطقة، هذا العامل الاقتصادي كان وراء التجربة النموذجية التي قام بها الموحدون، وهو نفسه كان وراء المحاولات الحفصية والزيانية فيما بعد[159].

في المرحلة التي تَلِي الدولة الموحدية، أعتقد أن في محاولة السلطان الزياني الأول ومؤسس دولة بني زيان يغمراسن بن زيان (633-681هـ/ 1236-1282م) إخضاع كل من مدينتي: سجلماسة وبجاية إلى مناطق نفوذ دولته الفَتيّة، ضمن محاولته توسيعها غربا وشرقا وجنوبا، كان سببه العميق تجاريا، حتى وإن بدا العامل السياسي والقَبَلي –ظاهريا- هو السبب في ذلك. فممّا لا يخفى على أحد المكانة التجارية العظيمة والمهمة لهاتين المدينتين الاستراتيجيتين سواءً على مستوى التجارة البرية أو البحرية، فسجلماسة هي بوابة الولوج إلى بلاد السودان الغربي المعقل التاريخي للذَّهب والعبيد، والموطن التجاري الهام الذي تسيل له لعاب معظم كبار التجار في تلك الفترة، وكُلّنا يعرف الدور الذي تمتعت به مدينة سجلماسة على مستوى الطريق التجاري الرابط بين بلاد المغرب وبلاد السودان منذ فترات مبكرة من تاريخ بلاد المغرب الوسيط، وبالضبط من تاريخ تأسيسها سنة 140هـ/757م، وصولا إلى فترات لاحقة من هذا العصر امتدَّت إلى غاية القرن 8هـ/14م، ومنه فرغبة يغمراسن إخضاع هذه المدينة ليس بمحض الصدفة، وإنما كان العامل الاقتصادي أبرز دوافع هذه الرغبة[160]. أما بجاية

---

[159] محمد القبلي، **المرجع السابق**، ص ص 15 – 16 – 17.

[160] تَحَكَّم عرب المنبات (إحدى قبائل المعقل) في سجلماسة لأنها كانت في مجالاتهم ومُنقلب رحلتهم، ثم أعلنوا تبعيتهم ليغمراسن بن زيان، وسيطرت المنبات على هذه المدينة وتحكمهم فيها جعل منها منطقة نفوذ زياني. وقد مارست هذه القبائل (عرب المنبات) مراقبتها على الطرق التجارية منذ ذلك التاريخ ووجهتها من سجلماسة في اتجاه تلمسان، فأصبحت مناطق نفوذهم صلة وصل بين إفريقيا السوداء وميناء هنين شمال العاصمة الزيانية. كما أصبحت بذلك إحدى المفاتيح المهمة لاقتصاد المغرب في العصر الوسيط في يد بني عبد الواد الذين استفادوا في سيطرتهم على سجلماسة من انشغال المرينيين بالصراع من أجل القضاء على الموحدين. حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1418هـ/1997م، ص 202 – 203. / راجع أيضا رواية ابن أبي الزرع حول قضية تبعية سجلماسة ليغمراسن بن زيان لمدة تقارب 11 سنة: "...سنة اثنين وستين وستمئة، فقام بها عرب المنبات بدعوة يغمراسن بن زيان، وبعثوا إليه ببيعتهم، فبعث إليها عاملا من بني عبد الوادي. فلم تزَل بيد يغمراسن بن زيان إلى أن دخلها عليه أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق [المريني] في آخر يوم من صفر سنة ثلاث وسبعين وستمئة (الإثنين 3 شتنمبر1274م)". ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص 297.

فهي دون شكّ أبرز المدن التجارية الساحلية لبلاد المغرب، خصوصا عند الحديث عن التجارة الخارجية البحرية في الفترة الوسيطة، وعلاقة هذه المدينة بالتجارة البحرية مع مدن جنوب أوروبا[161].

وفي الأخير ومن خلال هذا العرض المبسط، يتّضِح للقارئ دور العامل الاقتصادي (الزراعي/الرعوي، الضريبي، التجاري) في نسج خيوط الصراعات السياسية والحربية وتحريكها وتأجيجها منذ الفترات القديمة من تاريخ بلاد المغرب وصولا إلى مختلف مراحل الفترة الوسيطة من هذه البلاد. هذا بالرغم من ربط الظاهرة الحربية – ظاهريا- بعوامل وأسباب أخرى وإغفال الجانب الاقتصادي الذي كان أبرز محرك لمعظم الأحداث السياسية لبلاد المغرب الوسيط.

[161] كانت هذه المدينة (بجاية)...خلال عدة قرون، واحدة من الحواضر الجهوية لإفريقيا الشمالية وواحدة من الموانئ الأكثر نشاطا منذ بنائها في 460هـ/1067م، لم تفقد مكانتها إلا مع الغزو الإسباني سنة 1510م. دومينيك فاليرين، **بجاية ميناء مغاربي (1067 – 1510)**، تر: علاوة عمارة، مجلة معالم، ع7، الجزائر، 2016م، ص 20.

المبحث الثاني: مظاهر الاضطراب السياسي بالمغرب الأوسط:

ساهم عُنصر انتشار ظاهرة الاضطراب السياسي وطُغيان الظاهرة الحربية في معظم فترات بلاد المغرب الأوسط الوسيط وفي غيره من بلاد المغرب، في بروز عدة مظاهر حربية كانت ناتجة عن استشراء ظاهرة الاضطراب السياسي على نِطاق واسع ضمن أوساط دول وقبائل بلاد المغرب حيث كانت هذه المظاهر في أغلبها ملحقات تابعة لمختلف المشاريع السياسية والحملات العسكرية التي قامت بها مختلف القوى السياسية ضد قوى أخرى. وسأحاول فيما يلي إبراز أهم تلك المظاهر.

المطلب الأول: كثرة الصراعات العسكرية المباشرة بين الدول والقبائل:

بداية لابد من التنويه إلى أن محاولة الرّصد الكرونولوجي لمختلف المعارك والحروب التي شهدها مجال المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة يعتبر من الأمور الصعبة إن لم تكن مستحيلة، لكثرة وتعدد هذه الصدامات والمواجهات. ولهذا فأنا لا أبتغي هنا الرصد الكرونولوجي لكل معارك المغرب الأوسط لصعوبته كما قلتُ، وإنما أكتفي بذِكر بعض النماذج عن هذه المواجهات والصدامات بين مختلف القوى السياسية أثناء فترة الدراسة، خاصة تلك التي يكون لها انعكاس ديمغرافي كبير.

لقد بدأتُ فترة هذا البحث سنة 280هـ/893م، تاريخ بدء المشروع الإسماعيلي الفاطمي على بلاد المغرب، بحلول أبو عبد الله الشيعي وسط قبائل ومجالات كتامة. فما إن مضت 9 سنوات فقط من هذا التاريخ، حتى بدأت مرحلة بناء الدولة، فمِن المعروف أن الدولة الفاطمية قامت بالسيف والقوة، ولهذا بدأت مشروع بناء دولتها بمواجهات عسكرية عنيفة مع الدولة الأغلبية، فكان الاستيلاء على ميلة 289هـ/ 903م، ثم سطيف سنة 291هـ/ 904م، بلزمة 293هـ/ 906م، طبنة 293هـ/ 906م، تيجس 294هـ/ 907م، مجانة 294هـ/ 907م ، قالمة 295هـ/ 908م، بونة 295هـ/ 908م ، وانتهاءً بسقوط رقَّادة المعقل الأخير للأغالبة سنة 296هـ/ 909م[162].

[162] بخصوص سُقوط هذه المدن في قبضة الدعوة الإسماعيلية بقيادة أبي عبد الله الشيعي، يُراجَع: مُحَّد بن عربة، **بلاد كتامة في ظل الصراع بين الجماعة الإسماعيلية والإمارة الأغلبية**، مجلة الحوار المتوسطي، ع2، مج9، جامعة سيدي بلعباس – الجزائر –، سبتمبر 2018م، ص ص 236 – 247./ أيضا: مُحَّد الطالبي، **الدولة الأغلبية التاريخ السياسي 184-296هـ/800-909م**، تع: المنجي الصيادي، مرا: حمادي الساحلي، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1415هـ -1995م، ص ص 706-769.

وكانت أكبر وأشرس معركتين في مرحلة هذا الصراع الأغلبي الفاطمي، معركتي كيونة[163] سنة 292هـ/905م، والأربس سنة 296هـ/909م، فعن المعركة الأولى (معركة كيونة)، تُورد أحد المصادر[164] ما يلي:"...وذلك أن عبد الله [الداعي] لما علم بخروج العسكر إليه، وكثرة من معه من وجوه الرجال وأنجاد الرجال والموالي وما معه من العُدّة وآلات الحرب، ارتاع لذلك وأخذ في حشد كتامة...فاجتمع له منهم ما لا يحصى...**فكانت بينهما ملحمة عظيمة، تطاعنوا فيها بالرّماح حتى تحطمت، وتجادلوا بالسيوف حتى تقطعت من أول النهار إلى آخره** ثم انهزم ابراهيم، ووقع القتل في أصحابه، فانهزم **وقُتل كثير منهم** ونجا باقيهم واشتغلت كتامة بالغنيمة..."

وعن المعركة الثانية (الأربس)، يورد مصدر آخر[165]: "...فالتحم القتال...**وانتشر القتال بالفحص،** وأخذ الناس بعضهم بعضا، و**كانت معارك عظيمة مُواقَفَةٌ شديدة، وقُتل من الفريقين خَلقٌ كثير، وأقام القتال بينهم من أول النهار إلى وقت صلاة العصر...**".

إن مثل هذه الأوصاف الخطيرة والمروِّعة، تُنبئ بشكل واضح عن مدى خطورة مثل هذه الصدامات العسكرية المباشرة بين مختلف القوى السياسية في بلاد المغرب. إن عبارات مثل: **"فكانت بينهم ملحمة عظيمة، تطاعنوا فيها بالرّماح حتى تحطمت، وتجادلوا بالسيوف حتى تقطعت من أول النهار إلى آخره"**، وعبارات مثل:" **فالتحَم القتال...وكانت معارك عظيمة... وأقام القتال بينهم من أول النهار إلى وقت صلاة العصر"**، إضافة إلى غيرها من العبارات، تؤدي بي إلى القول أن مثل هكذا صدامات ومواجهات كانت غاية في العنف والقسوة، واستُعملت فيها كل الأساليب الممكنة من أجل النيل من العدو وتحقيق النّصر عليه. ولم يُقتصر هنا على الاستعداد المادي للجيوش المعبَّأة والمشاركة في هذه المعارك من تدريب وعتاد وعدة، بل تُجاوَز ذلك إلى التهيئة النفسية قبل دخول غمار المعركة، فجيشٌ "يُقاتِل بالرماح حتى تتحطم وبالسيوف حتى تتقطع من أول النهار إلى آخره"، أكيد أنه تم العمل جيداً على إعداده وتهيئته ذهنيا ونفسيا من قِبل أبي عبد الله الداعي والدعاة الإسماعيليين الآخرين الذين سبقوه من قبل وذلك في سبيل تحقيق مختلف الأهداف السياسية والمذهبية التي ظلت تُراوِد مخيلة دُعاة ومُؤسسي الحركة الإسماعلية منذ وقت طويل. هذا بالرغم مما تحمله المصادر الوسيطية من أوصاف مُبالغ فيها ضِمن الكثير مما تُورده حول المعارك والصدامات الموجودة بين ثَنايا صفحاتها، إما من أجل تلميع

[163] تسمى حاليا ب"القرارم" وهي تتبع ولاية ميلة، وكانت في تلك الفترة ضمن مجالات قبيلة أجانة الكتامية. محمد بن عربة، **المرجع السابق،** ص 245.

[164] ابن عذاري، **البيان، المصدر السابق،** ج1، ص 181.

[165] القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة، المصدر السابق،** ص 229.

صورة جيش ما وإظهاره بصفة البطل الأسطوري الذي لا يُقهر ولا يُهزم في أي معركة مهما كان الظَّرف والحال، أو للتعبير عن الحِقد الدَّفين ضد جيش آخر وإظهاره بصفة الجُبن والمكر والخديعة والمتعطش دائما لسفك الدماء، وكِلا الأوصاف في كِلتا الحالتين لا تَعدُوان أن تكون نِكاية في الأعداء ليس إلاَّ، وليس من أجل سرد حقيقة تاريخية بشكل يمتّ للحقيقة والحِيادية بصِلة!

استمرت المواجهات العنيفة في المرحلة اللاحقة بعد تأسيس الدولة الفاطمية المدعومة من كتامة ثم صنهاجة من بعد، وهو في الحقيقة –على ما أعتقد– لا يعدو إلا أن يكون سِوى صِراع استراتيجي حضاري بين مصالح قرطبة (الأمويين) والمهدية (الفاطميين). فعندما عجزت هاتان الخلافتان عن حسم مواجهاتهما بطريقة مباشرة، عَمَدا إلى استعمال الطريقة غير المباشرة والمتمثلة في حروب الوكالة، باستعمال القبائل المغربية المحلية من أجل حماية مصالح كل دولة، والتي هي مصالح اقتصادية بالدرجة الأولى، فاصطنعت كل دولة بعض الكونفدراليات القبلية من صنهاجة وزناتة من أجل هذا الغرض.

لقد نجَم عن هذه الاستراتيجية المتبعة من قِبل الأمويين والفاطميين بأن أصبحت بلاد المغرب وبشكل أكبر بلاد المغرب الأوسط حلبة صراع بين القوتين عن طريق حُلفائهما من القبائل، فشَنَّ الفاطميون العديد من الحملات العسكرية ضد القبائل المتحالفة مع أمويي الأندلس ابتداءً من سنة 296هـ/906م تاريخ تأسيس دولتهم، إلى غاية رحيلهم إلى مصر والمَشرق سنة 362هـ/973م. وهو الأمر نفسه الذي سيمتاز به الوضع السياسي في هذه المنطقة في الفترتين الزيرية والحمادية باشتداد الحرب بين صنهاجة وغريمها التقليدي زناتة وتوالي الحملات الصنهاجية على مضارب هذه القبيلة (زناتة) ضمن مجالات المغربين الأوسط والأقصى.

لقد كان الدخول الهلالي لبلاد المغرب الأوسط عن طريق معركة فاصلة بين الحماديين والوافدين الجدد، والتي هي معركة سُبيبة سنة 457هـ/1065م، التي مُني فيها الأمير الحمادي الناصر بن علناس (481-498هـ/1089-1105م) بهزيمة نكراء وبخسائر فادحة على مستوى كل الأصعدة، ولعل الخسائر البشرية كانت أفدحها. حيث تذكر المصادر التاريخية[166] أن عدد من قَضَى في هذه الموقعة من صنهاجة وزناتة قد بلغ **ال 24 ألفاً**. إن هذا الرقم وبالرغم مما يحمله من مبالغة وتهويل من طرف هذه المصادر إلا أنه يعطي انطباعاً عن شراسة هذه المعركة وعلى نتيجتها الديمغرافية السلبية والكبيرة.

[166] ابن الأثير، الكامل، **المصدر السابق**، ج8، ص 373. النويري، **المصدر السابق**، ج24، ص 123.

أما الموحدون وبعد أن سيطروا على بجاية عاصمة الحماديين سنة 547هـ/1152م، لم يتمكنوا من السيطرة على المغرب الأوسط إلا بعد أن أخضعوا القلعة والتي دخلوها "عُنوةً"[167] في ذات السنة، وتم إضرام النار في مساكنها، وقيل إن عدد القتلى بلغ **18 ألفاً** وامتلأت أيدي الموحدين بالسبي والغنائم[168]. وطبعاً –وكالعادة– فأنا أَتحفظ عن قَبول هذا الرقم المُهول والمبالَغ فيه من طرف المصادر، لكنه وكما جرت العادة فهو يعطي صورة عامة عن النتائج الديمغرافية السيئة والكبيرة لهذا الاقتحام الموحدي للمدينة.

كذلك هو الشأن بالنسبة للدولة الزيانية، فبعد قيامها سنة 633هـ/ 1236م على يد يغمراسن بن زيان فإنها دخلت في صراع مرير مع جيرانها من جهتي المشرق والمغرب، سواءً ضد بقايا الموحدين ثم من بعدهم المرينيين غربا وضد الحفصيين شرقا. إذ خاضت عدة حروب وصراعات طاحنة مع مختلف هذه القوى سواءً في فترة يغمراسن بن زيان (633-681هـ/ 1236-1282م) أو في فترة ابنه عثمان (681-703هـ/ 1282-1304م) وصولا إلى الحصار الطويل على تلمسان من قِبل المرينيين[169].

من هنا، ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن هذه الصدامات والمواجهات العسكرية المختلفة والمتعددة بين مختلف القوى السياسية لبلاد المغرب ككل والمغرب الأوسط على وجه الخصوص. قد اتَّسمت بِعِدَّة خصائص أهمها: العنف والشراسة والقسوة، كما أن النتائج الديمغرافية الكارثية كانت من أبرز تبِعاتِها.

المطلب الثاني: حِصار الأمصار والمدن:

لا مَحِيد للدول الوسيطية وجيوشها الجرارة في إطار عملياتها العسكرية الكثيرة والمتعددة عن استخدام أسلوب الحصارات العسكرية كأحد الأساليب العسكرية التي تقتضيها الحملات العسكرية، خاصة عند تحصُّن الطّرَف الآخر المعادي داخل أسوار المدن والحصون والقلاع الحصينة والمنيعة، أو المناطق الجبلية الوعرة، فكان لابد في هذه الحالة من استخدام أسلوب الحصار. هذا التكتيك العسكري الذي اعتبره أحد الباحثين[170] من أقدم الوسائل الحربية، فهو أسلوب هجومي تُتخذ فيه

[167] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 236.

[168] ابن خلدون، **نفسه**، ج6، ص 316.

[169] للمزيد عن هذه الصراعات، ينظر: عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**،ج1،موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص ص 21 – 29.

[170] خميسي بولعراس، **المرجع السابق**، ص 71.

مستويات المواجهة بين الطرفين ومدى توفر آليات مقاومة الحصار وخطط إحكامه لإنجاحه وفرض الاستسلام على العدو وجعله يستسلم بأقل الخسائر، وهو من الأساليب الجيدة لفتح المدائن حسب قول ذات الباحث.

إن ما يدلّ على انتشار هذا الأسلوب والتكتيك الحربي بشكل كبير في معارك الدول الوسيطية لبلاد المغرب الأوسط وغيره من بلاد المغرب، استعماله من طرف السلطة المركزية وأيضا حتى من الثوار والمعارضين لها. فعند الحديث عن السلطة والدولة المركزية، يمكن أخذ مثال عن الدولة الموحدية التي جعلها أحدهم[171] متفوقة كثيرا في فن الحصار، حيث كانت أمنع المدن تتحطم أمام آلات الحصار والقذف التي يستعملونها، إذ يعتبر الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (541-558ه/ 1146-1163م) بنوع خاص أُستاذاً في هذا الفن الحربي، وكان يستعين بتأييد العناصر حينما عجزت شجاعة الجند وآلات الحصار، ففي حصار فاس التي قاومت أسوارها المنيعة كل جهوده، استعان على إسقاطها بمياه النهر وذلك بأن سلطها على المدينة بعد أن حجزها حينا في خزانات كبيرة ثم أطلقها فجأة في مجاري صناعية على أسوار المدينة، وأحرق وأسقط أبراج وهران بواسطة نار محرقة يؤيدها قصف الآلات، وافتتح المهدية بوسائل مماثلة وحطم جدرانها التي بلغ من سمكها أن كان يسير عليها فارسان متجاوزان، واستطاع الموحدون أيضا الإستيلاء عنوة على مراكش وذلك بالرغم من قلاعها المنيعة وسكانها الكثيرين، واستولى الموحدون في الأندلس على كثير من القلاع، وسقط في أيديهم كثير من القلاع الواقعة في أصعب المنحدرات والمفاوز الجبلية وذلك بفضل آلات حصارهم العنيفة التي كانت تقذف كتلا هائلة من الحجارة وكُرات ملتهبة من الحديد[172].

غير أن هذا لا يعني أن استعمال هذا الأسلوب الحربي كان مقتصراً على الدولة الموحدية دون غيرها، فقد كان شائعا بقوة أيضا عند غيرها من الدول الأخرى، سواءً تلك التي سبقتها مثل الدولة الفاطمية والزيرية والحمادية، أو الدول التي أتت من بعدها مثل الدولة الزيانية والمرينية. فعند الحديث عن الدولة الفاطمية –مثلا–، فإن أبا عبد الله الشيعي استعان بكثرة بهذا الأسلوب الحربي أثناء حروبه ضد الأغالبة في إطار بناء الدولة العبيدية، وسأحاول في هذا الجدول ذِكر المدن التي استولى عليها الفاطميون عن طريق الحصار:

---

[171] يوسف أشباح، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، تر وتعل: مُحَّد عبد الله عنان، ج2، ط2، مكتبة الخانجي بالقاهرة، القاهرة، 1417ه/1996م، ص 246.

[172] يوسف أشباح، **نفسه**، الصفحة نفسها.

الجدول رقم 01: يمثل المدن التي استولى عليها الفاطميون عن طريق الحصار:

المدينة التي تعرضت للحصار	تاريخ وقوع الحصار	مدة الحصار	الصفحة
ميلة	شوال 289هـ	لم يذكر	711-706
سطيف	النصف الثاني من سنة 291هـ	40 يوم	733
طبنة	آخر ذي الحجة 293هـ	لم يذكر	745
بلزمة	منتصف سنة 294هـ	لم يذكر	748
قلعة دار ملول	لم يذكر	لم يذكر	749
قلعة ميدرة (حَيدَرة)[173]	جمادى الثانية 295هـ	لم يذكر	759
حصن القصرين	لم يذكر	لم يذكر	761

المصدر: من إنجاز الطالب بالاعتماد على: محمَّد طالبي، الدولة الأغلبية، المرجع السابق.

أما إذا ما تمّ الحديث عن استخدام هذا الأسلوب الحربي عند مختلف الثائرين ضد السلطة المركزية، فيمكن ضرب مثالٍ عن ذلك بثورة بني غانية بالمغرب الأوسط وإفريقية على الحُكم الموحدي. ففي ثورتهم الطويلة التي دامت لعقود وبالضبط من سنة 580هـ/1184م إلى غاية 631هـ/1234م أو 633هـ/1236م (حسب الروايات)، سيطروا على عدة مدن وقرى ضمن مجالات ثورتهم، فكان أسلوب حصار المدن مطبقا ومجسدا عندهم في مشروعهم السياسي العسكري الرامي إلى محاولة إعادة إحياء دولة أجدادهم المرابطين وإعادة بعثها من جديد، فمثلا: في سنة 581هـ/ 1185م، قام علي بن غانية بحصار مدينة

---

[173] تقع حاليا بالأراضي التونسية بالقرب من الحدود التونسية الجزائرية، وهي مركز للجمارك على الطريق الرابط بين تبسة والقلعة الجرداء على بعد 7 كلم من الحدود الجزائرية. محمَّد طالبي، الدولة الأغلبية، **المرجع السابق**، ص 759 (الهامش رقم 3).

قسنطينة حصاراً مُطوقاً فشل –بالرغم من ذلك– في اقتحام هذه المدينة المستعصية خاصة بعد وصول الجيوش الموحدية المحاربة لهم، حيث تسبب هذا الحصار بوضع كارثي للمدينة وسكانها[174].

غير أني أود أن أُشير من خلال وجهة نظري المتواضعة، أن هناك عدة أنواع من الحصارات المستعملة في الحملات العسكرية للدول الوسيطة في بلاد المغرب. فمن حيث الشكل والأسلوب المتَّبَع، هناك أولا: الحصار العسكري العادي المباشر، كما هو الحال عند حصار المدن والحصون والقلاع وغيرها من المراكز والتجمعات السكانية، وهذا النوع من الحصارات واضح ولا يحتاج لأمثلة. أما النوع الثاني، فهو: الحصار الاقتصادي لمختلف المراكز السكانية والمتبوع بحملة عسكرية مباشرة على هذه المراكز (**يُنظر: الشكل رقم 1**)، وذلك بالقيام بحصار اقتصادي لمركز سكاني ما (قد يكون مدينة، أو قرية، أو قبيلة أو إقليم جغرافي سكاني...)، وذلك من أجل ضرب وإضعاف وقطع الإمدادات الاقتصادية الاستراتيجية والمعيشية لها من تجارة وزراعة ومأكل ومشرب وغيرها من الضروريات، قصد إضعافها وإنهاكها ماديا (اقتصاديا) وجسديا ومعنويا (نفسيا)، ثم مباشرة الحملة العسكرية المباشرة عليها. يمكن ضرب مثال على هذا النوع من الحصارات بما قام به أبو عبد الله الشيعي أثناء حركة توسعاته ضد الأغالبة ضد مدينة **بلزمة** حيث "كان –أي أبو عبد الله الشيعي– [يخرج] إليها عساكره مرة بعد أخرى، كل ذلك يقاتلونه ويدفعونه، و**كان يخرج إليهم العساكر في أوان زراعتهم فيأتي عليها، فعل ذلك بهم ثلاث سنين، حتى انقطع الطعام من أيديهم، وزحف إليهم فحاصرهم**...وقاتل أهل بلزمة قتالا شديدا، ودافعوا مدافعة عظيمة ونصب عليهم أبو عبد الله الدبابات والأبرجة فأحرقوها، **ولم يصل إليهم إلا من شدة الجهد وغلبة الجوع عليهم**...وافتتحها أبو عبد الله عنوة"[175]. أي أن أبا عبد الله لم يكن ليستطيع أن يقتحم هذه المدينة التي استعصت عليه وعلى قواته، إلا بَعد أن فرَض عليها حصارا اقتصاديا لمدة ثلاث سنوات متبوعا بحصار عسكري، حيث تمثل الحصار الاقتصادي الذي سبق ذلك كله، في القيام بحملات عسكرية على مزارع وبساتين سكان المدينة المتواجدة خارج أسوارها في أوان النُّضج والحَصاد لإفساد الإنتاج[176] لمدة ثلاث سنين، وهو ما سهَّل المأمورية على أبي عبد الله في اقتحام المدينة عَقِب شِدَّة وطأة المجاعة التي تعرَّضت لها بسبب الخطّة التي أقدم عليها الداعي بحصارها اقتصاديا.

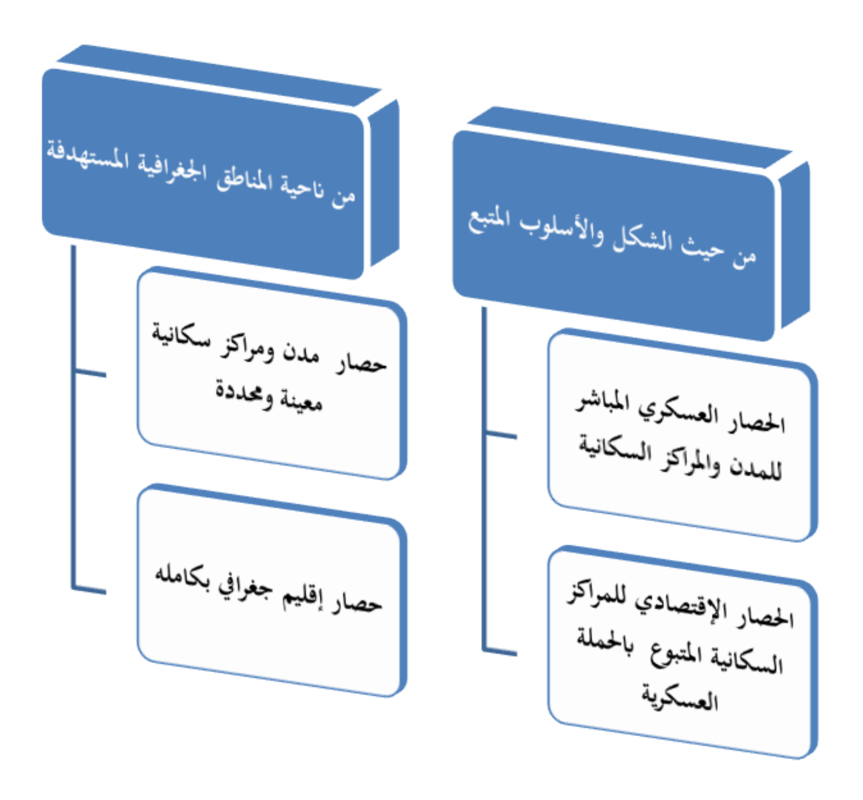
---

[174] ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – قسم الموحدين –** ، تح: مُحَّد ابراهيم الكتاني – مُحَّد بن تاويت – مُحَّد زنيبر – عبد القادر زمامة – ، دار الغرب الإسلامي، بيروت،/ دار الثقافة، الدار البيضاء، 1406هـ/ 1985م، ص 178 – 179.
ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 327.

[175] القاضي النعمان، **المصدر السابق**، ص 178 – 179.

[176] ينظر: موسى لقبال، **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية من تأسيسها إلى غاية القرن الخامس هجري (11م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص 286.

الشكل رقم 1 : أنواع الحصارات العسكرية المستعملة في الحِقبة الوسيطة:



المصدر: من إنجاز واجتهاد الباحث بعد استقراء وتحليل مختلف النصوص المصدرية الوسيطية ذات العلاقة بموضوع الشكل.

أما من ناحية المناطق الجغرافية المستهدفة، فإن هناك نوعيْن أيضا، قد يكون العنصر المستهدف من حصار مدينة أو قلعة أو حصن معين ومحدد بشكل عادي، أو قد يكون المستهدف من الحصار إقليم جغرافي واسع بكامله (**يُنظر: الشكل رقم 1**). حيث يمكن مُلامسة هذا النوع الأخير من الحصار فيما قام به الخليفة الفاطمي أبو القاسم بن عبيد الله على أبي يزيد مخلد بن كيداد بجبل أوراس قُبيل بدء ثورته، حيث "يذكُر الدرجيني (ت 670هـ/ 1272م) أن **جيوش الخلافة الفاطمية حاصرت أبا يزيد بجبل أوراس سبع سنين**[177] قبل إعلان ثورته على الفاطميين، وذلك يعني أن أبا يزيد كان محاصَراً في جبل أوراس منذ أن أطلق فرسان زناتة سراحه عُنوة من سجن توزر سنة 324هـ/936م، حتى إعلان ثورته سنة 331هـ/ 943م، وهذا احتمال ليس ببعيد عن الحقيقة، إذ أن هذه المنطقة صعبة المسالك، ولم يكن من السهل اقتحامها،

[177] سنوسي يوسف ابراهيم، **زناتة والخلافة الفاطمية**، المرجع السابق، ص 200. نقلاً عن: الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد (ت 670هـ/ 1272م)، **طبقات المشائخ بالمغرب**، تح وطبع: ابراهيم طلاي، ج2، مطبعة البعث، قسنطينة –الجزائر–، د س ن، ص 98 – 99.

وكانت خارجة عن طاعة الفاطميين حتى ذلك الوقت لأن أول من أخضعها لطاعة الفاطميين الخليفة الفاطمي المعز لدين الله سنة 342هـ/953م"[178].

المطلب الثالث: انتشار الثورات والانتفاضات:

تُعتبر قضية السلطة وما فيها من إغراءات وامتيازات وصلاحيات ممنوحة لشخص السلطان أو الملك أو الحاكم بشكل عام، من الأمور التي جعلت من هدف الوصول إلى هذه المنزلة والمكانة حُلما يُراود مُخيلة كل قائد عسكري أو زعيم سياسي أو شيخ قبيلة أو قاضيا مرموقا أو أي شخص عادي له طموح للوصول إلى السلطة، حتى ولو كان شخصا عاديا من عامّة الناس. فطبيعي وبسبب تربُّع الحاكِم على رأس سُلّم الطبقات الاجتماعية للدول الوسيطية وحيازته لجميع السلطات بمختلف أنواعها بشكل مطلق دون أن ينازعه في ذلك أي أحد، جعلت من كل هذا ومن محاولة الوصول إلى السلطة وإلى هذه المكانة من الأولويات والأحلام التي يسيل لها لُعاب كل من له طموحات سياسية ترقى إلى ذلك. في الحقيقة وفي اعتقادي لطالما كان هذا العامل من أبرز الدوافع الرئيسية وراء اندلاع ثورات وتمردات متعددة هنا وهناك ضِمن مجالات المغرب عبر تاريخه الوسيط، والتي طالما أيضا سعت إلى تحقيق حلمها والمتمثل في الوصول إلى السلطة بشتى الطرق.

وجدير بالذكر، فإنني أذهب إلى القول أنه لا يوجد هناك عصر تميَّز بقِلّة الثورات والانتفاضات ضد السلطة دون غيره من العصور، بل على العكس من ذلك كانت هذه الظاهرة (الانتفاضات والثورات) آخذة في النشاط خلال معظم فترات تاريخ بلاد المغرب الوسيط. وهذا ما يجعل من مَهمة محاولة الرصد الكرونولوجي لهذه الظاهرة أيضا في غاية الصعوبة شأنها في ذلك شأن باقي مظاهر الاضطرابات والفتن السياسية الأخرى، وذلك بسبب كثرتها وتشعُّبها واستفحالها بشكل يدعو إلى الدَّهشة والاستغراب!

تعدّدت الوسائل التي ينتحلها الثائرون ضد السلطة المركزية، كما تعددت أيضا الدوافع والأسباب المحركة لها، فتارة يكون العامل الديني والمذهبي وسيلة جيدة ومفضلة من أجل إعلان التمرد، وأحيانا أخرى يكون لجانب الصراعات القبلية وكذا صراعات القوى السياسية فيما بينها ضِلع في انتشار ظاهرة الثورات والانتفاضات والتمردات، دون نسيان العامل الاقتصادي الذي كان العامل الخفي في تحريك هذه الظاهرة. وسأحاول تِبيان كل ذلك فيما يلي.

1 – العامل الديني (المذهبي): من أبرز الوسائل التي يستخدمها الثّوار لإعلان مشروع الثورة:

[178] سنوسي يوسف ابراهيم، **المرجع السابق**، ص200.

من أجل شَرعنة مشروعهم السياسي، ومن أجل كسب المزيد من الأتباع والأنصار، يقوم الثوار والمنتفضون ضد السلطة بتقديم مُبرِّر من أجل ذلك، وغالبا ما يكون هذا المبرر دينيا (مذهبيا)، وذلك باللعب على أوتار العاطفة الدينية لدى العامة من أجل استمالتهم ومحاولة كسب أكبر قدر ممكن من المؤيدين.

أولاً: اللعب على أوتار الجانب المذهبي:

يمكن أن يكون في ثورتيْ صاحب الحمار وبني غانية أفضل مثال عن قضية استغلال جانب الصراع المذهبي في بلاد المغرب في شقّ عصا الطاعة على السلطة الحاكمة وإعلان التمرد عليها. ففي ثورة صاحب الحمار وللمرة الأولى تَناسى الخوارج الإباضية والسُنّة المالكيون بشكل مؤقت خِلافاتهم المذهبية وضغائنهم السياسية من أجل محاولة استئصال العدو المشترك بينهما من الوجود، والمتمثل في الدولة العُبيدية ذات الشرعية الإسماعيلية الشيعية، خاصة إذا عُلِم "أن السياسة المذهبية التي سَلَكها الخلفاء الفاطميون في المرحلة المغربية بصفة عامة جعلت نجاح الدعوة الإسماعيلية وتقوية السلطان الفاطمي هو الهدف الأول والأخير. مما أعطى لهذه السياسة والصبغة الاستبدادية والميكيافلية أن اتخذوا أسلوب القهر والعنف في محاربة وطمس مذاهب أهل المغرب مستغلين مختلف الوسائل من أجل إزالتها وإحلال المذهب الإسماعيلي محلها، مما ترتَّب عن ذلك وضع داخلي مُتردّ وقيام ثورات متتالية ضدهم، بالرغم من تعدّد واختلاف أسبابها وأهدافها وتباينها بين عهد خليفة وآخر من حيث القوة والضعف ومن حيث نتائجها، فإنها في مجموعها كانت تمثل رفضا وسخطا على سياسة الفاطميين العامّة"[179].

أما ثورة الملثمين الموارقة، فقد عملت بدورها على استغلال عُنصر الاختلاف المذهبي بين السلطة الموحدية ذات المذهب الموحدي التومرتي، وبين أغلبية السكان ذَوِي المذهب المالكي السني من أجل شق عصا الطاعة وإعلان التمرد على الدولة الموحدية. وفي هذا السياق يورد أحد الدارسين[180] قائلاً بأن الثورات العنيفة غالبا ما تحدُث عند تغيير بين حاكم وآخر في الأمم الإسلامية، وهو ما حدث فعلا عند الحديث عن ثورة بني غانية، فما كاد الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور(580-595هـ/ 1184م-1199م) يعتلي العرش عَقِب وفاة أبيه: أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (558-580هـ /1163-1184م) في شنترين بالأندلس، إلا ووَثَب علي بن إسحاق سليل القائد المرابطي الشهير بابن غانية، فاستولى –بمعاونة أنصاره الكثيرين– على الأسطول الأندلسي الراسي في ميورقة، وشحنَه بالمرابطين وأهل الجزائر الشرقية، وأبحر من ثغور الجزائر الشرقية إلى بجاية من ثغور الجزائر (المغرب الأوسط)، فاستولى عليها دون مقاومة وأخرج منها واليها القاضي

[179] فاطمة بلهواري، **الفاطميون وحركات المعارضة، المرجع السابق**، ص 53.

[180] يوسف أشباح، **المرجع السابق**، ص 77.

سليمان بن عبد الله حفيد أمير المومنين (عبد المؤمن بن علي)، وأمر أن يُدعى في الخطبة للخليفة العباسي الناصر لدين الله (575-622هـ/ 1179-1225م)، واستطاع أن يضرم نار الثورة ضد الموحدين في جميع المناطق المجاورة[181].

كما ويمكن أن يكون في "سعي أبي يوسف يعقوب المنصور(580-595هـ/ 1184م-1199م)، إلى إحلال المذهب الظاهري محل المذهب المالكي"[182] في بلاد المغرب سببا في تأجيج ثورة بني غانية ذات البعد المذهبي واستمرارها لعقود رغم الرد الموحدي العنيف ضدها بسبب تأييد المالكية وخاصة الفقهاء منهم لها. فإقدام أبي يوسف يعقوب المنصور على "إحراق كتب المذهب"[183] المالكي وسعيه الحثيث من أجل محاولة "محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث"[184] جعلت البعض يذهب إلى القول أن السياسة المذهبية الحريصة على إحلال المذهب الظاهري محل المذهب المالكي، تُعبّر عن رغبة لدى خلفاء الموحدين في تجاوز الشرعية المالكية التي بقيت على ولائها للمرابطين وأدّت إلى الكثير من الاضطرابات في الدولة، خاصة ثورة بني غانية التي كانت بمثابة رفض لمهدوية ابن تومرت ووفاء لدولة صنهاجة اللثام، إذ عَبّرت عن صورة من الصراع المذهبي والسياسي والقَبلي. هذا ورغم تقديم المنصور الموحدي لهذا التوجه في صورة الخيار الفقهي والاجتهاد الديني الخالص، كما قد يبدو لأول وهلة من خلال المبررات التي قدمها لسياسته هذه، فإنه لا يمكن قراءتها خارج الظروف التي كانت تمر بها الدولة وطبيعة علاقاتها مع الفقهاء والعامة الرافضة للمبادئ الموحدية[185].

كما تجدر الإشارة -في هذا السياق- أن ثورة بني غانية لم تكن وحيدة الثورات ذات البعد المذهبي التي واجهت دولة الموحدين على امتداد فتراتها التاريخية، بل تعددت تلك الثورات التي جعلت من الستار المذهبي غطاءً لها أو وسيلةً من أجل إعلان مشروع الثورة ، سواءً قبل ثورة بني غانية هذه أو بعدها. ويمكن ملامسة ذلك — على سبيل المثال – قبل فترةٍ سبقت ثورة الميارقة بمدّة وجيزة، وبالضبط في فترة بداية تَوَلِّي والد يعقوب المنصور: أبي يعقوب يوسف (558-580هـ/1163-1184م) الخِلافة، "فلم تكد تمضي سَنَة على توليته حتى نهض بغمارة ثائر صنهاجي يدعى مرزدغ،

---

181 يوسف أشباح، **المرجع السابق** ، ص ص 77 – 78.

182 حسين بوبيدي، **بلاد المغرب الإسلامي بين التعايش والصراع المذهبي قراءة في الاستغلال السياسي والتأثير العقدي الفقهي**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج 11، ع1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة –الجزائر-، 2018، ص 219.

183 عبد الواحد المراكشي، **المصدر السابق**، ص 202. حسين بوبيدي، **بلاد المغرب الإسلامي بين التعايش والصراع المذهبي**، **المرجع نفسه** ص 220.

184 عبد الواحد المراكشي، **المصدر نفسه**، ص 204. حسين بوبيدي، **بلاد المغرب الإسلامي بين التعايش والصراع المذهبي** ، **نفسه**، الصفحة نفسها.

185 حسين بوبيدي، **بلاد المغرب الإسلامي بين التعايش والصراع المذهبي**، **المرجع السابق**، الصفحة نفسها.

فاستولى على تازا وضرب السّكة باسمه، وبايعته قبائل غمارة وأوربة وصنهاجة غير أن جيش الموحدين قضى على حركة هذا الثائر الذي حُمل رأسه إلى أبي يعقوب، ثم ظهر ثائر آخر هو سبع بن منغفاد من غمارة وذلك سنة 561هـ [1166م]، فلم ينجح الموحدون في إخضاعه بقيادة أبي حفص الهنتاني، حتى اضطر أبو يعقوب إلى محاربته بنفسه ثم قتله وبعث برأسه إلى مراكش...[حيث] تُعدّ ثورة غمارة تعبيراً عن غضبها على زحزحة المذهب المالكي عن مكانته"[186].

ثانيا: ادِّعاء النُّبوءة والمَهدوية: من أهم وسائل الثُّوار لاستمالة قلوب المؤيدين من العامة وغيرِهم:

من الظواهر التي صاحبت انتقال سكان بلاد المغرب إل الإسلام، ظهور مُدَّعي النبوة خلال القرون الأولى للهجرة الذين قاموا بوضع تشريعات حاولوا بها مضاهاة التشريعات الإسلامية ومحاكاة القرآن الكريم[187]. ولهذا كان ادعاء النبوة من القضايا التي برزت في فترة مبكرة من تاريخ بلاد المغرب الوسيط، حيث كان ذلك من أهم الوسائل التي انتهجها الثوار في سبيل إعلان التمرد على السلطة المركزية، أو من أجل الاستقلال بكيان سياسي مَحَلِّي قصد الانفصال عن الدولة المركزية الكبرى. وكان الأسلوب المتبع من قبل الثوار والمنتفضين والمتمثل في ادّعاء النبوة والمهدوية الوسيلة المُثلى من أجل كسب قلوب العامّة من مختلف القبائل قصد انضمام أكبر قدر ممكن منهم إلى صفوف الثورة. وأكبر مثال على ذلك يمكن ملاحظته في ملوك وزعماء دولة برغواطة (125-455هـ/743-1063م) بداية بطريف أبو صالح (عاش في ق 2هـ) وابنه صالح (127-174هـ/744-790م)، وغيرهما من الملوك الذين خلفوهم على رأس هذه الدولة، والذين ادعى معظمهم النبوة والمهدوية أيضا، كما واشتغلوا أيضا على السّحر والكَهانة[188].

كما وتُحدِّث المصادر[189] عن ادِّعاء "حاميم بن مَنّ الله" النبوءة ببلاد غمارة في "سنة ثلاث عشر وثلاثمئة بجبل حاميم المشتهر به قريباً من تطوان، واجتمع إليه كثير منهم وأقرّوا بنبوّته، وشرع لهم الشرائع والديانات من العبادات والأحكام وصَنع

[186] ابراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء –المغرب-، 1420هـ/2000م، ص 269.

[187] اسماعيل سامعي، **مُدعو النبوة في بلاد المغرب الإسلامي تحدي واستجابة**، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج18، ع1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطنة –الجزائر-، 2003م، ص 127.

[188] للمزيد عن زعماء وملوك برغواطة وقضية ادعائهم النبوة والمهدوية واشتغالهم على السحر والكهانة، ينظر: ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 276-280. أيضا: اسماعيل سامعي، **المرجع السابق**، ص 131-137.

[189] البكري: أبو عبيد (ت487هـ/1094م)، **المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ت ن، ص 100.ابن أبي الزرع الفاسي، **الأنيس المطرب، المصدر السابق**، ص 98-99. ابن خلدون، **نفسه**، ج6، ص 288. وانظر كذلك ما ذكره الأستاذ اسماعيل سامعي عن هذا الموضوع: اسماعيل سامعي، **نفسه**، ص 141-142.

لهم قرآناً كان يتلوه عليهم بلسانه...وكان يُلقّب بالمفتري...وقُتل في حروب مصمودة بأحواز طنجة"[190]. وكان ظهور حاميم هذا وادّعاؤه النّبوة فرصة جيدة لمحاولة كسب وِدّ أُمويي الأندلس في إطار الصراع الفاطمي الأموي على هذه المنطقة[191].

أيضا يذكر ابن أبي الزرع أنه في "سنة سبع وثلاثين ومئتين قام رجل مؤذّن بناحية تلمسان يدعي النبوءة وتأوّل القرءان على غير وجهه وتأويله، فاتّبعه خلق كثير من الغوغاء وكان من بعض شرائعه أنه ينهي عن قصّ الشَّعر وتقليم الأظافر...ويقول لا تبديل ولا تغيير لخلق الله، فأمر أمير تلمسان بالقبض عليه فهرب وركب البحر من مرسى هنين إلى بلاد الأندلس، فشاع بها خبره وأمره فتبعه من سفهاء الناس أمة عظيمة، فبعث إليه ملك الأندلس، فاستتابه فلم يتب، فقتله وصلبه وهو يقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله[192]. وفي هذا السياق ظهر متنبئون آخرون، منهم متنبئ ادعى النبوة بجبال الأوراس وتسمى بالناصر لدين الله، قال عنه ادريس عماد الدين القرشي: "أتى بمخرقة كثيرة وألوان كثيرة استمال بها العامة"[193].

وعند الحديث عن قضية ادِّعاء المهدوية، فيمكن القول أنه وبعد نجاح مشروع مهدوية أبي عبيد الله المهدي[194] الإسماعيلي ومهدوية ابن تومرت الموحدي[195] (اللذين ادّعيا المهدوية)، فتح ذلك المجال أمام كل شخص وقبيلة كانت

---

[190] ابن خلدون، **نفسه**، الصفحة نفسها.

[191] اسماعيل سامعي، **المرجع السابق**، ص 141-142.

[192] ابن أبي الزرع الفاسي، **الأنيس المطرب**، **المصدر السابق**، ص 96. أنظر اسماعي سامعي، **نفسه**، ص 146-147.

[193] اسماعيل سامعي، **نفسه**، ص 147، نقلاً عن: إدريس عماد الدين القرشي، **عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار**، تح: مصطفى غالب، ج5، دار الأندلس، بيروت، د ت ن، ص 207.

[194] أبو عبيد الله المهدي (297-322هـ/ 909-934م): وهو مما يزعم قومه والمُثبثون لنسبه: أبو مُحَمَّد عبيد الله بن جعفر بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن مُحَمَّد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويدفع ذلك أضداده، والله أعلم بصحته. بُويع برقادة يوم الجمعة الحادي والعشرون لربيع الأول سنة سبع وتسعين ومائتين، وتأتّى له بالمغرب مُلك كبير، فبنى القصور ورتب السياسة و أحكم التدبير...شَرَع في بناء المهدية المنسوبة إليه...تُوفي منتصف ربيع الأول سنة اثنين وعشرين وثلاثمئة. لسان الدين ابن الخطيب: الوزير أبي عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي (ت776هـ/1374م)، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام**، تح: سيد كسروي حسن، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1424هـ/ 2002م، ص ص 232 – 233. ابن الأثير، **المصدر السابق**، مج 6، ص 446 وما بعدها. الزركلي، **المرجع السابق**، ج4، ص 197.

[195] ابن تومرت (ت 524هـ/ 1130م): تَسَمَّى بالمهدي وهو صاحب الدعوة الموحدية ومؤسس دولتها (الموحدية) التي أنهت الدولة المرابطية، عن سيرته بالتفصيل، يُنظر: عبد الواحد المراكشي، **المصدر السابق**، ص 136 وما بعدها. ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6،

تتطلّع إلى السلطة، وذلك بالسير على خطى هذين الزعيمين السياسيين اللذين لبسا ثوب المصلحين الدّينيين كمطية للوصول إلى السلطة وتحقيق ذلك الحلم الذي طالما سعى إليه كل شخص أو قبيلة قصد تحقيق العديد من المكتسبات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي حرمتهم منها الدولة المركزية.

فكان ادّعاء المهدوية في هذه الحالة من الوسائل الممكن انتهاجها من أجل إعلان السخط والتذمر على سوء الإدارة المركزية وتعسفها إضافة إلى استئثار السلطة بمكتسبات هذه الأخيرة دون مشاركة الأطراف الأخرى المساهمة في تأسيس وبناء هذه السلطة أو الأطراف الأخرى التي تنازعها البقاء على الحكم. وهو ما يمكن ملامسته فِعلاً في تصفية أبو عبيد الله المهدي لأبي عبد الله الشيعي مع بعض الشخصيات الهامّة التي كان لها الدور الكبير في قيام الدولة الفاطمية، وكان سبب هذه التصفية اعتراض هؤلاء الشخصيات على استئثار أبي عبيد الله المهدي لوحده بالسلطة وعدم إشراكه هذه الشخصيات للامتيازات السياسية والاقتصادية الكبرى للدولة خصوصا وأنهم قد بذلوا مجهودات جبّارة في سبيل قيام الدولة الفاطمية وأنهم في الأساس البُناة الحقيقيون لها كما قد يفهم ذلك من بعض المصادر[196]. وكان لا بُدَّ من رد حاسم لأنصار الداعي اتجاه هذا التصرف الخطير الذي أقدم عليه أبو عبيد الله المهدي، فثارت بعض القبائل الكتامية عل إثر ذلك، و"أقاموا [على أنفسهم] غُلاماً حدثاً...**فزعموا أنه المهدي**، ثم نحلوه النبوة وزعموا أن الوحي يأتيه وأن الكتب من الله تنزل عليه، ونصّبوا له دعاة كدعاة أبي عبد الله، يتكلمون بمثل ألسنتهم وعلى ترتيبهم، وقالوا: أبو عبد الله حي لم يمت وأباحوا الزنا والمحارم وجاؤوا بتخليط عظيم، وأطبق عامة من ببلد كتامة على ذلك وزحفوا إلى ميلة فأخذوها وذلك كله بمدة قريبة..."[197]. ورغم التحامل الذي يظهر واضحا من قبل هذه المصادر التي تُناصر الفاطميين على هذه الانتفاضة الكتامية باعتبارها معارضة للدولة الفاطمية، إلا أن جزءً مهما مما ذكر عن هذه الثورة يمكن الأخذ به، خصوصا إذا عُلم أن قضية المهدوية أصبحت عقيدة راسخة في نفوس الكتاميين بعد اعتناقهم للمذهب الإسماعيلي وتأسيسهم للدولة الفاطمية القائمة على مهدوية أبي عبيد الله المهدي.

ص 301 وما بعدها. ابن الخطيب، **أعمال الأعلام، المصدر نفسه**، ج2، ص 398 وما بعدها. الزركلي، **المرجع نفسه**، ج6، ص 229.

[196] القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة، المصدر السابق**، ص 317. الداعي إدريس عماد الدين (ت872هـ/1488م)، **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار**، تح: مُحَّد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان ، 1985م، ص 181 وما بعدها.

[197] القاضي النعمان، نفسه، ص 324-325. راجع أيضا رواية الداعي ادريس، **نفسه**، ص 190-191. ينظر أيضا: **اسماعيل سامعي، مدعوا النبوة**، المرجع السابق، ص 147.

2– العامل السياسي والقَبلي ودوره في تحريك الثورات والانتفاضات:

أعتقد أن الدولة الفاطمية وبالرغم من إخضاعها لإفريقية وباقي أجزاء بلاد المغرب بعد مدة يسيرة من تأسيسها، إلا أنّ الجزء الغربي من رقعة هذه الدولة (المغرب الأوسط والأقصى) كان في غاية الاضطراب والتأزم السياسييْن، خاصة في مدينة تيهرت والمناطق المجاورة لها، وذلك بسبب كثرة الثورات والتمردات التي تظهر بين الفينة والأخرى داخل هذه المدينة وأحوازها ضد السلطة الفاطمية الممثلة في وُلّاتها المتمركزين بمدينة تيهرت. وهو ما جعل أحد الدارسين[198] يُقرّ بأن الصراع حول هذه المدينة وأرباضها كان يكتسي في هذه الفترة طابعا سياسيا ومذهبيا فضلا عن الطابع القبلي، إذ أن البتر وبدو زناتة تضايقوا كثيرا من الحاميات الكتامية وولاة الفاطميين من كتامة وعجيسة وصنهاجة لأنهم تصوروا أن هدف السياسة الفاطمية هو إذلال البتر بواسطة أعدائهم البرانس وهو التطور الذي أعطى المقاومة طابعا حاداً.

وهو الأمر الذي جعل نفس الدارس يذهب إلى القول بأن نتيجة الحكم الفاطمي في تاهرت كانت فاشلة لأنها لم تُوجِد الاستقرار، ولم تُعبِّر عن نفسها في غير الحروب والفتن والثورات المستمرة، وقد ظهر أثناءها عجز جهاز الدولة عن مواجهة حركة المعارضين لضعف ولاتها وقلة خبرتهم أمام الأحداث الكبرى[199]، وإذا تم التدقيق قليلا في هذه النقطة الأخيرة القائلة بأن ضعف الولاة الفاطميين على هذه المنطقة وقِلَّة خبرتهم أمام الأحداث الكبرى كان وراء عجز جهاز الدولة الفاطمية عن إخضاع هذه المناطق الثائرة ضدها بشكل نهائي ودائم، وكان وراء استمرار تجدد الانتفاضات والثورات المحلية ضد سلطة الفاطميين ممثلةً في واليها على تيهرت، إذ أعتقد أنه طرحٌ قد جانب الصواب قليلاً بوجهٍ من الأوجه مع كافّة احترامي لصاحبه.

إذ أنني هنا أرى رأيا مغايرا –ربما– لهذا الطرح، فاستعصاء إخضاع الفاطميين لهذه المنطقة واستمرار معارضتها إلى جانب أجزاء واسعة من المغرب الأوسط امتدت من الزاب شرقا إلى تلمسان غربا ويضاف إلى ذلك المغرب الأقصى، كان مَردُّه إلى العامل القبلي المحلي الرافض كُليا للفاطميين والقبائل التي تدعمها من كتامة وصنهاجة، إضافة إلى بُعد بؤر التوتر هذه عن العاصمة المركزية الفاطمية بإفريقية. فالخلفاء الفاطميون المعروفون بدهائهم السياسي الكبير والمنقطع النظير لم يكونوا ليختاروا على منطقة حسّاسة كهذه ورافضة لسلطتهم السياسية والمذهبية وُلاةً ضِعافاً وقليلي الخبرة! بل أعتقد أن السبب وراء استمرار معارضة تيهرت وأحوازها ومناطق أخرى متعددة في الجزء الغربي من الدولة الفاطمية للسلطة المركزية كان مَردُّه إلى الأسباب التي ذكرتُها، خاصة إذا عُلم أن نفس الدَّارس لَمَّح في مناسبة أخرى إلى طرح مغاير تماماً لطرحه الأول، حين

[198] موسى لقبال، **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، المرجع السابق**، ص 363.

[199] **نفسه**، ص 364.

أَقرّ أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا ليجرؤوا أن يعينوا كل من هَبّ ودَبّ على وِلاية هذه المدينة، بل كانوا يُعيّنون عليها أقوى وأخلص قادتهم، بسبب مكانتها الاستراتيجية (على مستوى كل الأصعدة) في تلك الفترة[200].

وبسبب الأهمية التي تمتّعت بها مدينة تيهرت، استمر النزاع من أجل السيطرة عليها طوال الفترة الفاطمية ببلاد المغرب بين الأطراف المتنازعة عليها، وغذّى النزاع من أجلها طابع الحياة السياسية حتى بعد رحيل الفاطميين إلى مصر، وكان يتصدر النزاع من البرانس كتامة وأحلافها ثم صنهاجة، أما من جانب البتر فتصدر النزاع زناتة بفرعيْها البارزيْن: مغراوة وبني يفرن كما أسهمت مكناسة في عصر سيادة موسى ابن أبي العافية[201] بدور كبير في حركة الصراع العنيف من أجل الظفر بميزات موقع تيهرت خِدمة للأمويين في قرطبة[202].

وكان انتشار الثورات المتعددة المُغذاة بالطابع السياسي والقبلي سِمة بارزة قبل وبعد الفترة الفاطمية. فمثلا عند الحديث عن الموحدين، تجدهم بأنهم عانوا الأمرين بسبب انتشار هذا النوع من الثورات، فتأسيس الدولة الموحدية على أكتاف المصامدة وأيضا اتساع رقعتها الجغرافية الهائلة، إضافة إلى مذهبها الموحدي الجديد في ساحة المذاهب المغربية آنذاك، كل هذا ساعد على اشتداد وطأة حركة المعارضة السياسية ذات الأبعاد المختلفة ضد هذا الكيان السياسي القوي. فظهرت على إثر ذلك الثورات ذات العامل القبلي ضد المصامدة، وذات الطابع السياسيي الراغبة في الاستقلال عن الإمبراطورية الموحدية، إضافة إلى العوامل الأخرى التي ساهمت في تأجيج حركة المعارضة ضد هذه الدولة، فكَثُرت الثورات والانتفاضات ضد الموحدين بل وتعددت هنا وهناك طِوال حقبة دولتهم من عهد عبد المؤمن بن علي (541-558هـ/1146-1163م) أوّل خلفائها وصولا إلى آخرهم أبو دبوس الواثق بالله (665-668هـ/1267-1270م)، حيث

---

[200] "وطالما احتفظ الفاطميون بمركزهم القوي في تاهرت، كان بتر زناتة رغم حركات الشغب والتخريب، لا يجدون ثغرة ينفدون منها للنَّيْل منهم ومن **وُلاتهم الأقوياء، وإدراك المهدي وخلفائه لأهمية المدينة**، في أية معركة ناجحة ضد زناتة وغيرها من البتر المعادين، هو الذي أملى عليهم **اختيار نخبة من أخلص قادتهم ورجالات كتامة** للإشراف منها على حركات البتر وعلى الجزء الغربي من الدولة الفاطمية الذي اتَّسع حتى مشارف طنجة وواحات الصحراء ومراكز العلويين وبني صالح أمراء نكّور. ومن بين الولاة: أبو حميد دواس بن صولات اللهيصي، وعروبة بن يوسف الملوسي، ومصالة بن حبوس المكناسي". موسى لقبال، **دور كتامة، المرجع السابق**، ص 344-345.

[201] موسى ابن أبي العافية: وِفقاً لابن أبي الزرع هناك خلاف في تاريخ وفاته، في سنتي: 341هـ/ 952م أو 328هـ/940م، وهو أحد أشهَر قادة وأمراء قبيلة مكناسة، سيطر على أجزاء واسعة من المغرب الأقصى بل وامتدت سيطرته إلى غاية تلمسان ومجالات قريبة من تيهرت بالمغرب الأوسط وذلك في مستهل (الرُّبع الأول) القرن 4هـ/ اواخر القرن 9م وبداية القرن 10م، حارب الأدارسة ووَالى الفاطميين بدايةً ثم انقلب عنهم ووَالى الناصر الأموي (300-350هـ/ 912-962م) بالأندلس، لمزيد من التفاصيل عن حياته، يُنظر: ابن أبي الزرع الفاسي، **الأنيس المطرب، المصدر السابق**، ص ص 83 – 86. الزركلي، المرجع السابق، ج7، ص ص 323 – 324.

[202] موسى لقبال، **دور كتامة، المرجع السابق**، ص 344.

كان هذا السبب –أي الثورات– أهم عامل ساهم في إضعاف الدولة الموحدية الشاسعة الأطراف وتبديد حكمها، وهو الطرح الذي تُسايرني فيه إحدى الدراسات[203] التي تطرقت إلى أسباب وتداعيات سقوط الدولة الموحدية.

3- العامِل الاقتصادي: السبب الخفي وراء اشتعال فتيل الثورات:

سبق وأن قلت أن العامل الاقتصادي هو أهم سبب فاعل في تحريك مختلف الصراعات والحروب والتمردات العسكرية، فالاقتصاد هو عصب الحياة المادية البشرية، ولهذا فإن مختلف الحروب وإن كان ظاهرها بسبب العوامل السياسية والقبَلية والمذهبية، إلا أن السبب الخفي والكامن وراءها هو العامل الاقتصادي، وأين هي تِلكمُ القوة السياسية التي لا تحارب من أجل تحقيق مكاسبها الاقتصادية ومحاولة الحفاظ على مكتسباتها ومصالحها الاستراتيجية الاقتصادية سواءً في المجال الزراعي أو الرعوي أو التجاري وغيرها من القطاعات والأنشطة الاقتصادية الأخرى! ولهذا كان العامل الاقتصادي –على ما أعتقد دائما– المُحرِّك الأساسي أو على الأقل أهم محرِّكات مختلف الحروب والثورات والانتفاضات التي دارت رحاها في بلاد المغرب خاصة في الفترة مدار بحثي هذا.

والأمثلة عديدة عن ذلك، وسأضرِب بعضها، تذكر المصادر[204] أن أول اعتراض وانتفاضة قام بها المؤسسون الحقيقيون للدولة الفاطمية سنة 299هـ/912م كأبي عبد الله الشيعي و أخيه أبي العباس وشيخ المشايخ: هارون بن يونس (هو أحد القادة الكتاميين) ضد سياسة المهدي التي أبعدتهم عن الحكم والسلطة، وحرمتهم أيضا من مختلف المكاسب الاقتصادية من مناصب رفيعة وقصور واقطاعات للأراضي وغيرها من المكاسب المغرية التي كانوا يطمحون إليها ويحلمون بها، خاصة بعد المجهود الكبير الذي قاموا به في سبيل تأسيس أو إقامة الدولة الفاطمية.

ومما يدل على حضور العامل الاقتصادي في إشعال فتيل ثورة صاحب الحمار، هو أنه وبعد فشل هذه الثورة إثر هزيمة صاحبها أمام القوات الفاطمية ووقوعه في أَسْر الخليفة الفاطمي إسماعيل المنصور (334-341هـ/946-953م)، سأله هذا الأخير عن السبب الذي جعله يثور ضد الدولة الفاطمية، فكانت إجابة أبي يزيد بما يلي: "هذه القَبَّالات (الضرائب) التي

---

[203] إذ يُقرأ في هذه الدراسة ما يلي: "حفل تاريخ الدولة الموحدية بالفتن والتمردات والثورات فلم يخل قُطر ولا عصر في هذه الدولة من هذه الفتن **التي اعتُبرت العامل الأساسي في سقوط الدولة**". صديقي عبد الجبار، **سقوط الدولة الموحدية دراسة تحليلية في الأسباب والتداعيات**، (مذكرة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان –الجزائر–، 1434-1435هـ/2013-2014م)، ص 107.

[204] القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة، المصدر السابق**، ص 317. يُنظر أيضا: رواية الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين، المصدر السابق**، ص ص 180-191.

فيها الجور على المسلمين فَقُمت مُنكراً لذلك، أريد إصلاح أمور الناس"[205]. أي أن الضرائب الكثيرة التي فرضها الخلفاء الفاطميون ورغبة أبي يزيد في تغيير الوضع الاقتصادي السّيء للمجتمع نتيجة سوء السياسة الضريبية والمالية للفاطميين، كانت أبرز الدوافع التي أدَّت إلى اندلاع هذه الثورة.

وفي سنة 580هـ/1184م، انتفَض العرب بإفريقية وهزموا الموحدين، كما قاموا على إثر ذلك بأسر اثنيْن من كبار القادة الموحدين هما: أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن وأخوه أبو علي، "وانتهى الخبر إلى أبي يعقوب (الخليفة الموحدي)، فأرسل إلى أولئك العرب فطلبوا مالا اشتطوا فيه غاية الاشتطاط، ثم إن الأمر تقرّر بينهم وبين الموحدين على ستة وثلاثين ألف مثقال. فلما أُخبر بذلك أبو يعقوب، استكثر المال وقال: هذه أيضا مَضرّة أخرى، فإن أعطيناهم مثل هذا لمال تقوّوا به على ما يريدونه من الفساد، ثم اتفق رأيهم على أن يضربوا لهم دنانير من الصُّفر مموّهة، فعلوا ذلك وأرسلوا بها إليهم، فأطلقوا أبا علي وأبا موسى ومن كان معهما من خدمهما وحاشيتهما"[206]. هذا يعني أن الدافع الاقتصادي المتمثل في رغبة حصول هذه القبائل المتمردة على مبالغ مالية كبيرة كان وراء تمردها على السلطة، حيث تم استرضاؤهم كما تُبيّن بالمبلغ المالي الذي طلبوه بغض النظر عما إذا كان مُزوَّراً في الحقيقة أم لا.

المطلب الرابع: ظاهرة تسارع قيام وسقوط الدول:

لِتَكُن نظرية ابن خلدون والتي أشرت سابقا حول الدول والقائلة أن هذه الأخيرة لها أعمار كما البشر، وتمر بثلاثة أجيال كل جيل 40 عاما، أي ما يعادل 120 سنة لكل دولة[207]، لتكن هذه النظرية أساسا ومعياراً أستخدمه لتقييم ودراسة ظاهرة تساقط وقيام الدول التي ظهرت هنا وهناك ضمن مختلف مجالات بلاد المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة. تُرى إلى أي مدى تجسدت هذه النظرية على مستوى تاريخ قيام وسقوط هذه الدول؟

سأحاول في هذا الجدول ذِكر بداية أو تأسيس الدول على مختلف مجالات المغرب الأوسط، أو أيضا تبعية هذا الأخير لدول خارج مجاله، ثم ذِكر تاريخ سقوط هذه الدول المحلية بالمغرب الأوسط أو تاريخ انتهاء هذه التبعية للدول الخارجية بتأسيس وقيام دول أخرى على حسابها، ثم ذكر عُمر كل دولة لأُقارنها مع نظرية ابن خلدون التي أشرتُ إليها أعلاه:

[205] الداعي إدريس، **نفسه**، ص 447.

[206] عبد الواحد المراكشي، **المصدر السابق**، ص 198.

[207] للمزيد عن هذه النظرية، ينظر: ابن خلدون، **المقدمة**، **المصدر السابق**، ص 213 وما بعدها.

الجدول رقم 02: يمثل مُدّة حكم الدول التي تتابعت على المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة:

الدولة	تاريخ التأسيس أو بداية التبعية	تاريخ السقوط أو انتهاء التبعية	مُدة الحُكم
الدولة الفاطمية	296هـ/909م	362هـ/973م	72عام
الدولة الزيرية	362هـ/973م	405هـ/1014م أو408هـ/1017م	43 عام
الدولة الحمادية	405هـ/1014م أو408هـ/1017م	547هـ/1152م	142عام
الدولة الموحدية	547هـ/1152م	633هـ/1236م	86 عام

المصدر: من إنجاز واجتهاد الباحث.

لقد بدأت فترة هذا البحث سنة 280هـ/893م، لكنني لم آتِ على ذِكر الدولة الرستمية في هذا الجدول لأن معظم فترة هذه الدولة كانت خارج إطار فترة الدراسة، وأنه ابتداءً من سنة 280هـ/893م ، لم يبق من عمرها سِوى 16 سنة فقط. كما و آثرتُ عدم ذكر أو التطرق للدولة الزيانية في هذا الجدول لأن فترة البحث متوقفة سنة 706هـ/1307م أي في المرحلة الأولى من عُمر هذه الدولة.

لاحظتُ أنه ومن خلال هذا الجدول عدم تطابق أعمار الدول مع نظرية ابن خلدون، إذ كانت كلها أقل من سنة 90 سنة ما عدا حالة واحدة والتي هي حالة الدولة الحمادية، هذه الأخيرة التي وبالرغم من عمرها المديد الذي قارب القرن والنصف (142 سَنة)، أي بزيادة 22 سنة عن نظرية ابن خلدون. إلا أن فترات حكم هذه الدولة مضطربة وليست عادية، إذ ابتداءً من سنة 457هـ/1065م أي من تاريخ وقوع معركة سبيبة وهزيمة الحماديين ضد القبائل الهلالية المدعومة من الزيريين، ونتيجة لهذه المعركة دخلت القبائل الهلالية المغرب الأوسط، واجتاحت معظم أراضي الدولة الحمادية، وهو ما ساهم في تضاؤل حكم وأراضي الحماديين الذين تركزت سيطرتهم ابتداءً من هذا التاريخ على المجالات الساحلية والشمالية دون سِواها من المجالات الداخلية والجنوبية من دولتهم كالحضنة والزاب وورجلان، ولا أدلَّ على ذلك من نقل عاصمة دولتهم من المناطق الداخلية إلى ساحل البحر، وكان السبب في ذلك انتشار مختلف القبائل الهلالية في المناطق الداخلية والجنوبية، وهو ما عسَّر على الحماديين سهولة التحكم في هذه المناطق.

يمكن تعليل انتشار ظاهرة قيام وسقوط الدول بشكل متسارع دون بلوغ الـ120 سنة وفقا للنظرية الخلدونية، إلى عامل انتشار ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية ضمن مجالات منطقة المغرب الأوسط وفي غيرها من مجالات بلاد المغرب

بصفة عامّة، وكثرة القبائل والأسر والشخصيات الراغبة في الوصول إلى السلطة والاستقلال بالحكم عن الدول والقِوى الأخرى.

ومنه ومن خلال هذا الطرح لا بأس من استحضار إحدى الدراسات التي خلُصت إلى فرضية قائلة بأن مسار التطور الديمغرافي للدول المغاربية خلال العصر الوسيط سار على قاعدة انخفاض عدد السكان في بداية تأسيس الدول وارتفاعه إبَّان فترة توطيد حكمها، أي أثناء فترة الاستقرار، ثم انخفاضه من جديد في مرحلة هَرَمها وضُعفها[208].

وإذا دُقِّق قليلا في الجدول المشار إليه آنفا، يتبيَّن أن أعمار هذه الدول قصيرة جدا، وهذا ما يجعل من فترات استقرار هذه الدول قليلة جداً. وهو ما يُقلِّلُ بدوره من فرضية انتعاش نسبة السكان، وبالتّالي انخفاض هذه النسبة (نسبة السكان) أثناء فترات الاضطراب السياسي والحربي بتسارع قيام وسقوط هذه الدول، وهو ما سيؤثر –لا محالة– سلباً على التطور الديمغرافي والسكاني لهذه الدول، أي تضرره وانخفاضه جرَّاء استفحال مختلف الحروب التي كان الهدف من ورائها تأسيس دولة ما أو إسقاط أخرى كانت قائمة.

---

[208] ابراهيم القادري بوتشيش، **أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديمغرافي، المرجع السابق**، ص 49.

الفصل الثاني: الآثار المباشرة وغير المباشرة للاضطرابات السياسية على سكان المغرب الأوسط:

المبحث الأول: الآثار المباشرة

المطلب الأول: كثرة القتلى

المطلب الثاني: التراجع الديمغرافي

المطلب الثالث: الفراغ السكاني للمدن والبوادي

المطلب الرابع: الأَسْر والاسترقاق

المبحث الثاني: الآثار غير المباشرة

المطلب الأول: الهجرات و التهجير

المطلب الثاني: الخراب العمراني للمدن والبوادي

المطلب الثالث: سوء وتراجع الحالة الاقتصادية

المطلب الرابع: المجاعات والأوبئة

المطلب الخامس: الحرب وتأثيرها على ذِهنية مجتمع المغرب الأوسط

إن الإنسان وكل ما يحيط به يتأثر بشكل سلبي من ظاهرة الحرب، سواءً بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، من بعيد أو من قريب، بداية يكون التأثير أول الأمر على الإنسان بحدّ ذاته.

فالحرب إن لم تُؤثر على الإنسان فعلى من تؤثر؟ فالإنسان هو من يصنعها ويؤطرها ويشارك فيها، وهو أيضا العُنصر الأساسي الفاعِل فيها، وهو مع ذلك في الوقت نفسه فإنه يعد أول المتضررين من هذه الحرب التي يصنعها بنفسه أو يفرضها غيره عليه من بني الإنسان. إنها معادلة مُعقدة ويصعب تقبلها، لكنها أيضا -على ما أعتقد- ظاهرة وحقيقة تاريخية مؤكدة لا مَفرّ منها، خاصة عندما يكون سبب الحرب تافهاً جدا ولا يرقى حتى إلى أن يكون سببا وبشكل أخصّ تلك الحروب التي تُغذِّيها النَّعرات العصبية القَبَلية فوق غيرها من العوامل والأسباب، عندها تكون النتائج كارثية!

أما المتضرر الثاني من الحرب فهو كل ما يحيط بالإنسان ويتعلق به على الصعيد النفسي والاجتماعي والاقتصادي والعمراني، باختصار على كل الأشياء والمجالات المتعلقة بالإنسان وبنمط حياته اليومي. وهذا يعني أن الإنسان في النهاية مستهدف ومتضرر من تبعات الحروب في كِلتا الحالتين: المباشرة وغير المباشرة، وإن شِئتَ قُلتَ بأنه الخاسر الأكبر في كِلتا الحالتين، وهو ما سأحاول تِبيانه فيما يلي عن طريق استقراء بعض الأحداث والقضايا التاريخية المتعلقة بالمغرب الأوسط وحتى بغيره من بلاد المغرب في الفترة مدار الدرس وفي الفترة الوسيطة عموما.

المبحث الأول: الآثار المباشرة

المطلب الأول: كثرة القتلى:

من نتائج الحروب والمعارك، وقوع القتلى سواءً بين الطرفين المتحاربين أو بين السكان المدنيين العزل، ولهذا ف"إن كلّ حرب تعرض لنا مظاهر كثيرة، إنما يهمنا منها مظهر واحد نستطيع أن نرى فيه جوهر الظاهرة، ذلكم هو **القتل الجماعي المنظم الغائي، لأنه لا حرب دون قتل**، فللحروب جميعا بالنتيجة آثار سكانية ولو أنها تزيد الوفيات زيادة شاذّة"[209]، يفهم من هذه النقطة الأخيرة خاصيتان تميزان علاقة الحرب بالسكان و تأثير الأول على الثاني:

- ✓ أولا: لا حرب دون حدوث قتل أو سقوط قتلى.
- ✓ ثانيا: مَظهر القتل الجماعي المنظم الذي تُخلِّفه الحروب والفتن والاضطرابات السياسية كانعكاس مباشر لهذه الظواهر على السكان وعلى الجانب الديمغرافي بصفة عامّة.

[209] غاستون بوتول، **هذه هي الحرب، المرجع السابق**، ص 59.

وفي هذا السّياق، ذهب أحدهم[210] إلى اعتبار أن كلاًّ من الحرب والجوائح الطبيعية قد تبادلتا الأدوار لتعصفا في النهاية بالوضعية الديمغرافية لبلاد المغرب. وفي ذلك يمكن استحضار ما أورده ابن خلدون في هذا الصدد أين عبّر عن هذه الثنائية بين الحرب والجائحة الطبيعية وأدوارها في المرحلة الوسيطة في إطار حديثه عن المراحل المتأخرة من عمر الدولة التي يكثر فيها القتلى والموتان بسبب انتشار المجاعات أو انتشار ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية[211].

وفي كلّ الأحوال، وأمام استفحال الظاهرة الحربية فإن انعكاسات الحرب على الصعيد الديمغرافي تكون كارثية، وهذا ما يجعل من مَهمّة إحصاء عدد قتلى كل معركة على حِدة يعد أمرا مستحيلا بسبب غياب المعطيات الإحصائية في المصادر الوسيطية. وهذه النقطة بالذات قد أشرتُ إليها سابقاً في الفصل التمهيدي، وحتى وإن وُجدت بعض المؤشرات الإحصائية المبعثرة هنا وهناك بين ثنايا المصادر الوسيطية بشكل شحيح ومقتضب جدا، فإنها لا تعدو أن تكون مجرد نصوص وصفية انطباعية تفتقر إلى الدقة، وفي بعض الأحيان تفتقر أيضا إلى الصحة والمصداقية خاصة عندما تحمل هذه النصوص مختلف عبارات المبالغة والتهويل والتضخيم أو التقليل والتصغير في كَمِّ وحجم الخسائر لدى طرف ما أو موقعة ما، وهذه الخصائص معروفة تقريبا لدى الباحثين، وتكاد يمتاز بها جزء مُهمّ من المصادر الوسيطية بسبب قُرب مُؤلفّيها من دَهاليز وأروِقة الحُكم ومن بلاط السلطة الحاكمة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يصعب إحصاء عدد قتلى معظم الحروب والمعارك التي دارت رحاها في المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة وفي غيرها من فترات العصر الوسيط، وهذا الأمر مَردّه إلى استفحال الظاهرة الحربية والانتشار الكبير لظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية بمختلف أبعادها وتجلياتها وأشكالها خلال الحقبة الوسيطة.

غير أنه يفهم من خلال ما دُوِّن في المصادر الوسيطية –خاصة السياسية منها– حول مختلف معارك وحروب المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة وبشكل أخص خلال الفترة مدار الدرس، أن عدد قتلى الحروب كان كارثيا وفي أفضل الحالات يكون مرتفعا.

وفيما يلي جدول يعطي القارئ بعض النماذج عن نصوص مصدرية تدل على ارتفاع عدد قتلى الحروب والمعارك والحملات والصراعات العسكرية بين مختلف الدول والقِوى خلال الفترة مدار البحث.

---

[210] حميد تيتاو، **المرجع السابق**، ص 309.

[211] أنظر: حميد تيتاو، **نفسه**، ص 347 (الهامش رقم3). نقلاً عما أورده ابن خلدون بخصوص ذلك:"...**ثم إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول**، والسبب فيه [هو]: أما المجاعات، فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر، بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات **أو الفتن الواقعة**...**لهرم الدولة**...وأما كثرة الموتان، فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه، **أو [ل]كثرة الفتن لاختلال الدولة، فيكثر الهرج والقتل**، أو يكون [بسبب] وقوع الوباء...". ابن خلدون، **المقدمة**، **المصدر السابق**، ص 376.

جدول رقم 03: **يُوضّح نماذج من النصوص المصدرية التي تدلّ على ارتفاع عدد قتلى الحروب والمعارك:**

النص	الحدث والسنة أو الفترة	المصدر والصفحة
"...ثم انهزم إبراهيم، **ووقع القتل في أصحابه** فانهزم، **وقُتل كثير منهم**..."	معركة كيونة بين الأغالبة وجيش أبو عبد الله الشيعي سنة 292هـ/905م.	ابن عذاري، البيان، ج1، ص 181.
"...وزحف أبو عبد الله إلى بلد بجوار تارهرت[212]، **فتتبع عشائرها وقتل منهم قتلا كثيرا**..."	حملة أبي عبد الله الشيعي على المغرب الأوسط سنة 298هـ/911م.	الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ص 180.
"...كانت وقعة بين عساكر عبيد الله وبين زناتة، **قتل فيها من زناتة خلقا كثيرا**..."	في إطار الصراع الفاطمي الزناتي سنة 299هـ/912م.	ابن عذاري، البيان، ج1، ص 191.
"...ودخلت العساكر تيهرت...**فقتلوا الرجال** وسبو النساء والذرية...**وبلغ عدد القتلى بها ثمانية آلاف رجل**..."	اقتحام الفاطميين لتيهرت سنة 299هـ/912م.	ابن عذاري، البيان، ج1، ص 191.
"...واستمرت الهزيمة عليهم سائر يومهم، **فاستلحِموا**، ومكثث عظامهم ماثلة بمصارعم عصورا..."	الحرب بين زيري بن مناد ضد مُحَّد بن الخير زعيم مغراوة في بداية النصف الثاني من ق4هـ/10م.	ابن خلدون، العبر، ج6، ص 204.
"...ولما وصل المنصور إلى كتامة، حاربوه **فظفر بهم وقتلهم واستأصلهم**..."	ضِمن أحداث ثورة أبي الفهم الخرساني الداعي ببلاد كتامة ضد المنصور الزيري سنة 378هـ/988م.	ابن عذاري، البيان، ج1، ص 263.
"...ورحل باديس من الغد فنزل في مناخ فلفل، **وقتل من زناتة في ذلك**	ضمن حروب الزيريين ضد	النويري، نهاية

[212] خطأ مصدري أو مطبعي، الصَّواب هو: تَاهرت أو تِيهرت.

اليوم تسعة آلاف رجل[213] **سوى من قتل من البربر**..."	زناتة سنة 389هـ/999م.	الأرب، ج24، ص 105.
ووقع **فيهم القتل**...**وكان مبلغ من قتل** من صنهاجة وزناتة **أربعا وعشرين ألفا**..."	معركة سبيبة سنة 457هـ/1065م بين الهلاليين والحماديين.	ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 373.
"...ودخلها عبد المؤمن فلقيه أهلها بالخضوع والإستكانة، فلم يقبل ذلك منهم **وقتل أكثرهم**..."	اقتحام الموحدين لتاجرارت بتلمسان سنة 539هـ/1145م.	النويري، نهاية الأرب، ج24، ص 161.
"...**ودخل وهران بالسيف وقتل من فيها**، فلم يشعر أهله إلا والسيف قد أخذهم..."	اقتحام الموحدين لوهران سنة 539هـ/1145م.	النويري، نهاية الأرب، ج24، ص 161.
"...أن العطش انتهى بالناس إلى أن **مات في اليوم الواحد الثلاثون والأربعون بين نساء ورجال**، ولما خرجوا انطرحوا على الماء حتى مات بعضهم لما روي، وبعد ذلك حكم عبد المؤمن قبحه الله بقتلهم **فاستؤصلوا عن آخرهم**..."	حصار الموحدين لوهران واقتحامهم لها سنة 539هـ/1145م.	ابن عذاري، قسم الموحدين، ص 22.
"...**فقُتل أهل البلد**...**وكان عدة من قتل مائة ألف**..."	اقتحام الموحدين لأقادير التلمسانية سنة 541هـ/1146م بعد حصارها لمدة سنة.	النويري، نهاية الأرب، ج24، ص 162.
"...**وقَتل فيها** (تيهرت) **كثير من الملثمين**..."	في إطار حروب الموحدين ضد بني غانية في بداية ق7هـ/13م.	ابن خلدون، العبر، ج6، 375.
"...فالتحم الحرب وكثر الأهوال، فهُزم يغمراسن ...**وقتل من بني عبد**	معركة إيسلي بين الزيانيين	ابن أبي الزرع، روض

[213] يُراجَع بخصوص هذا الرقم رواية ابن عذاري: "وقتل في ذلك اليوم نحو **سبعة آلاف** من زناتة". ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 272. وأيًّا كان عدد القتلى صحيحا عند كِلا المصدرين سواءً تسعة آلاف أو سبعة آلاف، فإن الرقميْن المقدميْن كبيريْن جدا بالرغم مما يحمله النصان من مبالغة في عدد القتلى هذا.

الوادي وبني راشد خلق كثير، وقتل جميع من كان في محلته من الروم..."	والمرينيين سنة 670هـ/1272م	القرطاس، 310.

إن مِثل هذه العبارات مع ما تحمله من قسوة ودموية وبطش، تدُلّ عن مدى هول الأمر ورَوْعه، وعن مدى استعمال آلة القتل والبطش والتنكيل والتقتيل المنظم والجماعي على الطّرف المنهزِم أثناء صِراع مختلف القوى خلال مراحل متعددة من فترة الدراسة. وتكون الفاجِعة أكثر فداحةً عندما يكون هذا التقتيل الممارس من قبل الجيوش الغازية مُوجَّهاً للسكان المدنيين البُسطاء العُزَّل، عندها ستكون الفاجعة أليمة، ويكون عدد القتلى مرتفعا جداً.

إن هذه الأوصاف والأرقام المقدَّمة من طرف المصادر، تدل بشكل واضح على حضور عنصر التقتيل في مختلف المواجهات والصدامات. وبالرغم من ما تتصف به المصادر الوسيطية من تضخيم ومبالغة للأرقام وحتى للعبارات والأوصاف، إلا أنها تعطي صورة واضحة عن الحضور الكبير والقوي للأعداد الهائلة للقتلى نتيجة استفحال الظاهرة الحربية عبر مختلف فترات الدراسة، وهذا الأمر يمكن ملاحظته بسهولة من خلال ما أوردتُه في الجدول أعلاه.

المطلب الثاني: التراجع الديمغرافي:

غالباً ما يكون هناك تأثير سلبي لظاهرة الحرب على تطور مَسار النُّمو الديمغرافي لمنطقة ما أو قبيلة ما أو دولة ما بإحداث اختلال مفاجئ لهذا النمو، عن طريق انخفاضه أو حتى انقطاعه بشكل استثنائي ومفاجئ نتيجة للظاهرة الحربية دائما. خاصة عندما تكون النتائج الديمغرافية لفتنة أو اضطراب سياسي ما كبيرة وكارثية، وهو ما سيتسبب حتما في بروز ظاهرة التراجع الديمغرافي كانعكاس مباشر للظاهرة الحربية على مسار النمو السكاني.

ـ مظاهر التراجع الديمغرافي كانعكاس مباشر للظاهرة الحربية:

طبيعي أمام كثرة ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية التي عصفت بكيان المغرب الأوسط أثناء فترة الدراسة، أن يكون هناك تراجعٌ وتقهقرٌ ديمغرافيٌ عَقِب انتهاء كل حرب ضمن رقعة جغرافية وفترة زمنية معينتين. سآخُذ مِثالاً عن مدينة **طبنة** في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حيث تحدَّث ابن حوقل في البداية عن ازدهار حالة هذه المدينة في الفترة السابقة، ثُمّ عَرَّج بالحديث في فترة زيارته لها (القرن 4هـ/10م) عن الوضع المُزري لهذه المدينة: اقتصاديا وعمرانيا وديمغرافيا، حيث يقول بأن هذه المدينة "كانت عظيمة كبيرة البساتين والزروع...وافرة الماشية...فحدث بين [أهلها] البغي والحسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض، وأتى على نِعمهم فصاروا بعد السّعة والدّعة إلى الضيق والذِّلة والصّغار والشّتات

والقِلّة..."[214]، ولأضَع خطيْن عريضين تحت هذه الكلمة الأخيرة: (القِلَّة) التي تدل عن مدى التراجع والتقهقر الديمغرافيين اللذين لحقا بالمدينة.

من خلال ما أورده ابن حوقل عن هذه المدينة أستطيع القول أنها –أي هذه المدينة– وبعد ازدهارها العمراني والحضاري الكبير في الفترة الأغلبية باعتبارها عاصمة الزاب، انقلبت أوضاعها رأساً على عَقِب في القرن الموالي (ق4هـ/10م) أثناء المرحلة الفاطمية والزيرية بفِعل تواتر الفتن والاضطرابات السياسية عليها ووقوعها ضمن مختلف الصراعات السياسية والقبلية وبشكل أخص صراع الفاطميين ومن بعدهم الزيريون ضد زناتة، فتراجَع على إثر ذلك نسيج هذه المدينة العمراني والاقتصادي ومن ثم الديمغرافي.

لكن مع ذلك يصعُب التصديق بهذه الرواية التي تنص على تبدُّل أوضاع هذه المدينة رأسا على عقِب وفي مدة زمنية وجيزة وقياسية، خصوصا إذا أُخِذ بعين الاعتبار ما ذكَره البكري في القرن الخامس الهجري/11م حول هذه المدينة، حين قال بأنه "ليس من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها"[215]. بالرغم أنه –أي البكري– يُقرّ في نفس الوقت بأن المدينة كانت تشهد ما بين الفينة والأخرى حرباً بين سكان هذه المدينة والذي هم في الغالب من "العرب والعجم [إذ يحدث]بينهم الإختلاف والحرب"[216]، ويعود ويؤكد ذلك في موضع آخر بقوله: "وإذا كانت الحرب بين العرب والمولدين استمدّ العرب بِعرب تهودا وسطيف، واستمدّ المولدون بأهل بسكرة وما والاها"[217].

ومهما يكن من أمر، فإن كِلا المصدرين (ابن حوقل والبكري) يُجمعان على وجود ظاهرة الحروب والفتن التي دائما ما تندلع بين سكان المدينة. وأكيد أن وقوع مثل الصراعات والاضطرابات سيُؤثّر سلباً على ديمغرافية هذه المدينة وعلى نسبة نموها الديمغرافي عبر مختلف الفترات الزمنية التي تشهد هذه الصراعات.

ووِفقاً لكلام أحد المصادر، فإن **جبل الأوراس** بالرغم مما فيه "من المياه الغزيرة والمراعي الكثيرة والعمارة الدائمة"[218]، وأيضا أهله الذين كانوا "مستطيلين على من جاورهم من البربر وغيرهم"[219]، إلا أنهم –أي أهله–"هُلكوا وأتى الله بُنيانهم من القواعد"[220]. وعبارة **"هُلكوا"** يمكن اعتبارها علامة على التأثير السلبي للحروب والفتن التي شهدها هذا الجبل على جانبه الديمغرافي، وتأتي في مقدمة هذه الفتن والحروب ثورة صاحب الحمار التي كانت انطلاقتها من هذا الجبل.

[214] ابن حوقل، **المصدر السابق**، ص 85.
[215] البكري، **المصدر السابق**، ص 51.
[216] **نفسه**، ص 50.
[217] **نفسه**، ص 51.
[218] ابن حوقل، **المصدر السابق**، ص 84.
[219] **نفسه**، ص 84-85.
[220] **نفسه**، ص 85.

ويُقرأ في أحد النصوص الجغرافية المتأخرة[221] أن مدينة **مستغانم** "كان لها في القديم حضارة كبيرة وسكان كثيرون، لكن الأعراب يكثرون من مضايقتها منذ أن بدأت سلطة ملوك تلمسان تضعف، حتى إنها **فقدت ثُلثي أهلها في وقتنا الحاضر**، ومع ذلك لا تزال تضم ألف وخمسمائة كانون". وعِبارة **"فقدت ثُلثي أهلها في وقتنا الحاضر"** تعطي فكرة عن مدى فداحة الأمر على صعيد الوضعية الديمغرافية لهذه المدينة[222]، كما أن هذه الشهادة الحية المقدمة من هذا النص الجغرافي تدل على مدى اختلال الوضع الديمغرافي لهذه المدينة وانتكاسته. فهو –أي هذا النص- يعطي مثال حي عن التراجع الديمغرافي غير الطبيعي والقياسي نتيجة استفحال ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية المتمثلة أساسا في ضعف السلطة المركزية بتلمسان وعجزها عن حماية وتأمين مدنها وأقاليمها، وكذا انعدام الأمن بفعل تسلّط الأعراب على مختلف المراكز السكانية.

ورغم تَعلُّق هذا النص المصدري بفترة متأخرة عن فترة دراستي، إلا أنه يعطي فكرة عامة عن مدى مساهمة الظاهرة الحربية في تراجع نسبة النمو والتطور السكاني لمختلف مناطق ومجالات المغرب الأوسط، وأيضا مساهمة هذه الظاهرة بشكل مباشر في الزيادة غير الطبيعية في نسبة الوفيات ومن ثم التأثير على حالة النمو الديمغرافي لهذه المنطقة.

ويبقى أفضل مثال عن مدى قدرة ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية والظاهرة الحربية بصفة على النَّسف بديمغرافية مركز سكاني ما، هو ما حدث لمدينة تلمسان أثناء الحصار الذي تعرّضت له في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجريين. حين ساهم هذا الحصار في الإخلال بالوضعية الديمغرافية لهذه المدينة عن طريق تراجع أو توقّف غير عادي في نسبة الولادات وارتفاع قياسي في نسبة الوفيات أثناء هذا الحصار، مما جعل هذه المدينة تصبح " **خالية من سكانها الذين كان عددهم يفوق مائة وثلاثون ألف نسمة على أكثر تقدير، ولم يبق فيها إلا بضع مئات"**[223]، مما يدل على هول الأمر وفداحته، وهذا الموضوع بالذات سأتطرق له بشيء من الدقة والتفصيل في الفصل الموالي.

المطلب الثالث: الفراغ السُّكاني للمدن والبوادي:

لقد سبق وأن قلتُ في بداية هذا الفصل أن الحرب تؤثر على الإنسان وكل ما يحيط به، ومن بين الأشياء المحيطة بالإنسان والتي تتأثر بشكل مباشر بالظاهرة الحربية: مجاله الجغرافي الذي يحيا فيه حياته المعيشية العادية والاقتصادية وغيرها،

---

[221] حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 32.

[222] يُنظر: ابراهيم لحسن و عمار غرايسة، **جوانب من ديمغرافية المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) خلال فترة نهاية العصور الوسطى وبداية الفترة الحديثة من خلال كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان الفاسي المعروف ب:ليون الإفريقي (ت بعد 957هـ/ 1550م)**، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج35، ع1، قسنطينة-الجزائر، جوان 2021م، ص ص 1338-1405 (ص 1352).

[223] عبد العزيز فيلالي، **بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط**، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، 2014م، ص 130.

حيث يكون هذا المجال بشقّيْه الحضري والبدوي واللذيْن يستوطنهما الإنسان عُرضة سهلة لانعكاسات الظاهرة الحربية على الإنسان والمجتمع ومحيطهما.

ولعل أهم انعكاس سلبي لظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية على الإنسان عادة ما يكون على الصعيد الديمغرافي والعمراني مما ينجم عن ذلك اختلالٌ واضحٌ لديمغرافية مختلف المجالات الحضرية والبدوية التي يكون تموقعها الجغرافي ضمن مجالات الصراع السياسي والعسكري بين مختلف القوى السياسية والكونفدراليات القبلية. وهو ما سيتسبب على إثر ذلك في فراغ المدن والبوادي من ساكنته نتيجة هجرتهم التي غالبا ما يكونون مجبرين أو مضطرين إليها بحثا عن الأمان الذي فقدوه في معاقلهم القديمة، دون نسيان مسألة تهجيرهم القسري من قبل سلطة أو قوة ما نحو مناطق جديدة، أو قد يكون هذا الفراغ نتيجة حروب الإبادة التي قد تحدث نتيجة الصراعات السياسية والعسكرية بين مختلف القوى المتطاحنة هنا وهناك، وسأعطي أمثلة عن كلّ ذلك فيما يلي.

- الحرب كمسبب رئيسي لظاهرة فراغ المدن والبوادي من السكان:

في الحقيقة، هناك عدة عوامل وأسباب أخرى تؤدي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى فراغ مختلف المجالات الحضرية والبدوية من ساكنتها، ولا يقتصر ذلك على عامل الظاهرة الحربية فحسب، فقد يكون الجفاف والقحط –مثلا– أحد العوامل المتسببة في ذلك أيضا، إضافة إلى ظاهرة المجاعات والأوبئة، إلى غير ذلك من العوامل والأسباب الفاعلة في ذلك. لكنني هنا غَلَّبت العامل السياسي المتمثل في الظاهرة الحربية كفاعل رئيسي في ذلك، فإلَامَ يُعزى تغليبي لهذا العامل في قضية تسبّبه في فراغ المدن والبوادي من السكان دون غيره العوامل؟

هناك إجابتان رئيسيتان لهذا السؤال، تتمثل **الإجابة الأولى** في مَظهر القتل الجماعي للسكان والذي تخلفه المعارك والحروب وهو ما سيساهم في تناقص تدريجي لنسبة ساكنة مختلف المجالات وبالتالي فراغها التام من السكان مُستقبلاً. وكَمِثالٍ عن ذلك: عندما قدم العرب الهلالية بداية الأمر لبلاد المغرب إذ "حَلُّوا [ب]أرض **برقة** وما والاها ووجدوا **بلاداً كثيرة المرعى خالية من الأهل** لأن زناتة كانوا أهلها **فأبادهم** المعز فأقامت العرب بها واستوطنتها"[224]، أي بالرغم من خصب هذه الأراضي وكثرة مراعيها إلا أنها أضحت خالية تماما من السكان بسبب الحروب السابقة التي استعرت نيرانها بين صنهاجة وزناتة، ووقوع مختلف مجالات هذه القبائل ضمن مجالات الصراع الدموي بين هاتين الفئتين، مما نتج عن ذلك التراجع التدريجي لنسبة وحجم ساكنة هذه المنطقة إلى حد الفراغ التام والإبادة بشكل نهائي.

وقبل ذلك، يمكن أن يكون في حروب الدولة الفاطمية وصراعاتها المتكررة والمتواصلة ضد القبائل المناوِئة لها بعض الأمثلة على ذلك، ففي حروب القائم ضد زناتة بالمغرب الأوسط، قَصَد هذا الخليفة الفاطمي ابتداءً من سنة 315هـ/927م مدينة **الحميز** التي هي "مدينة لبني مسرة أهل بيت بني خزر، **فأصابها خاوية، من أهلها خالية**"

[224] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج8، ص 296. ينظر أيضا: النويري، **المصدر السابق**، ج24، ص 117.

بالرغم من أنها –أي هذه المدينة– تقع "في موضع أنيق كثير الأشجار والأنهار"[226]. وفي السياق ذاته وبالضبط أثناء ثورة صاحب الحمار ضد الفاطميين، "عَظُم القتل بضواحي إفريقية [حتى] **خَلَت القُرى والمنازل**"[227].[225]

كما أنني أجد في الخُطوة التي أقدم الموحدون عليها بنقل العرب الهلالية من مناطق انتشارهم بالمغرب الأوسط وإفريقية نحو المغرب الأقصى له علاقة بهذا الشأن، فكانت البداية مع عبد المؤمن بن علي (541-558هـ/1146-1163م) "الخليفة الموحدي...الأول الذي دشَّن بنفسه مسلسل استقدام القبائل الهلالية وتوزيعها [في المغرب الأقصى] سنة 555هـ/1161م"[228]، أيضاً حفيده يعقوب المنصور(580-595هـ/ 1184م-1199م) الذي قام بنفس الخطوة بنقل جزء من أهم القبائل العربية الهلالية من مواطنها بإفريقية والمغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى وخاصة إلى "بسائط **تامسنا**" وفقا للتعبير الخلدوني[229]. وتأتي هذه الخطوة التي أقدم عليها الموحدون بنقل هذه القبائل وتهجيرها لهذه المنطقة بالضبط بسبب الفراغ السكاني الحاد الذي تعاني منه منطقة تامسنا بالمغرب الأقصى نتيجة الحروب بينهم وبين المرابطين، حين شَنّ أبو بكر بن علي زعيم المرابطين حملة كبيرة على معاقل البرغواطيين بتامسنا أين "استأصل شأفتهم ومحا أثر دعوتهم من المغرب"[230] وذلك سنة 450هـ/1058م.

ويضيف أحد الجغرافيين مُوضِّحاً بخصوص ذلك: "**وهكذا أَخَذ عدد سكان تامسنا يتناقص إلى أن قُضي عليهم نهائيا في ظرف عشرة أشهر، ويُقدر عدد الهالكين بمليون نسمة رجالاً ونساءً وأطفالا، ورجع الملك اللمتوني إلى مراكش...بعد أن ترك تامسنا مأوى للأسد والذئاب والبوم**"[231]! **وهو ما جعل منطقة تامسنا تظل مهجورة لمدة مائة وثمانين سنة** إلى أن قام الخليفة الموحدي يعقوب المنصور بنقل بعض من القبائل الهلالية من إفريقية إلى هذه المناطق الخالية[232].

من ذلك يتبين أن ظاهرة القتل القتل الجماعي والتي قد تصل إلى حد الإبادة والاستئصال السكاني كما تبين أعلاه، والتي تُسببها مختلف الحروب والفتن والاضطرابات السياسية من أهم الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى تناقص تدريجي

---

[225] الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين**، **المصدر السابق**، ص 225

[226] الداعي إدريس، **نفسه**، ص 225.

[227] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج7، ص 21.

[228] مُحَمَّد القبلي، **الدولة والولاية والمجال بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء –المغرب–، 1997م، ص 46.

[229] ينظر: ابن خلدون، **المصدر نفسه**، ج6، ص 40 و ص 37 من نفس المصدر. ينظر أيضا: حسن الوزان، **المصدر السابق**، ج1، ص 47.

[230] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 244.

[231] الوزان، **المصدر السابق**، ج1 ص 196.

[232] الوزان، **نفسه**، ج1، ص 196.

لساكنة ما حتى تصل في أكثر الأحيان إلى إبادة شعوب وقبائل بكاملها بسبب الظاهرة الحربية، خاصة تلك المناطق التي تقع ضمن مناطق الصراع العسكري.

الإجابة الثانية للسؤال الذي طرحتُه سابقا تتمثل في عدم توفر عنصر الأمن بين مختلف المناطق نتيجة الاضطراب السياسي وانتشار الحروب والفتن، فيَقوم السكان وبشكل أخص أولئك الذين تكون مناطق استقرارهم واستيطانهم عرضة للظاهرة الحربية بالهجرة من أوطانهم بحثا عن الأمن الذي فقدوه فيها.

مِن المعلوم أنّ الأمن أمر أساسي في حياة الإنسان، وهو كذلك من أهم شروط الاستقرار البشري وشرط أساسي لمزاولة أي نشاط إنساني، اجتماعيا كان أو اقتصاديا أو أياً كان، لذلك حرصت المصادر التي اهتمت بالعمران الإسلامي على ضرورة مراعاة عنصر الأمن في قضية بناء وتشييد المدن الإسلامية الجديدة. فمن بين الأمور التي يجب مراعاتها في ذلك: "اختيار مكان ممتنع إما على هضبة متوعرة من الجبال أو باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف تحصينها"[233]، ولهذا بُنيت قلعة بني حماد – مثلا– "في جبل عظيم، وهي حصينة منيعة لا تُمكّن بقتال"[234]، وكذلك الشأن بالنسبة لمدينة أشير التي تقع "بين جبال شامخة محيطة بها"[235]. دون نِسيان ضرورة "تحصين منازل [المدن المشيدة] من الأعداء والذّعار"[236]، وذلك ب"إدارة سياج الأسوار على المدينة"[237]، كل هذا من أجل توفير عنصر الأمن الذي هو شرط أساسي للحياة البشرية.

وطبيعي وبسبب ما تُخلفه الحروب والاضطرابات السياسية والفتن من الهلع والخوف في صفوف السكان نتيجة انتشار عنصر اللّأمن، وهو ما يؤدي بهؤلاء السكان إلى ترك مناطق سكناهم سَعياً منهم للنجاة بأنفسهم والحصول على الأمن بعيدا عن المجالات التي تكون عادة لقمة سائغة للغزاة والمتحاربين. وهو ما حَدَث فِعلاً للسكان المجاورين لمدينة أشير، حيث وفَوْر انتهاء زيري بن مناد من بناء هذه المدينة سنة 324هـ/ 936م، "**قصَدها أهل تلك النواحي طلبا للأمن والسلامة** فصارت مدينة مشهورة"[238]، وأكيد فبسبب غياب عُنصري الأمن والسلامة بسبب استعار نار

[233] ابن الأزرق أبي عبد الله (ت896هـ/1492م)، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تح وتع: علي سامي النشار، ج2، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية،1978م، ص 277.

[234] مجهول (ق 6هـ/12م)، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتع: سعد زغلول عبد الحميد، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد –العراق–، د.س.ن، ص 167.

[235] مجهول، **الاستبصار**، **نفسه**، ص 170.

[236] ابن أبي الربيع شهاب الدين أحمد بن محمد (ت 272هـ/885م)، **سلوك المالك في تدبير الممالك**، تح: عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز آل سعود، دار العاذرية للنشر والتوزيع، الرياض، 1431هـ/2010م، ص 152.

[237] ابن الأزرق، **المصدر السابق**، ص 277.

[238] الحموي، **المصدر السابق**، مج1، ص 203.

الحروب القبلية بين صنهاجة وزناتة، ووقوع أراضيهم ضمن مجالات هذا الصراع، هو الذي أدى بهم إلى ترك مناطق استقرارهم السابقة، والقدوم إلى أشير لاستيطانها والإقامة بها.

المطلب الرابع: الأسرى والسبايا:

إلى جانِب القتلى والجرحى والمعطوبين والأرامل، فإن الحروب كانت غالبا ما تُخلِّف إلى جانب هؤلاء: فئة الأسرى والمسبيين كانعكاس مباشر للظاهرة الحربية بشكل خاص على المشاركين في هذه الظاهرة أو القريبين من دوائرها وعلى الجانبيْن الاجتماعي والديمغرافي للمغرب الأوسط بشكل عام.

أ. أسرى أم سبايا...ما الفرق؟

كثيرا ما يقع بعض الباحثين والدارسين في الخلط أو الجمع بين فئتي الأسرى والسبايا دون التفريق والتمييز بين المصطلحيْن.

فالأسير في اللغة: الأَخِيذ، والمقيد، والمسجون وجمعه: أُسَراء وأُسارى و أَسارى وأَسرى[239]، نقول أَسَرَ فلانٌ فلاناً: شده وثاقا وهو مأسور وأُسر بالإسار أي بالرباط[240]، ومنه أن الأسير سمي بهذا الاسم نِسبة إلى: الإسار الذي يعني القيد، ويكون حَبْل الكِتَافِ، وكانوا يشدونه بالقِدّ، فسمي كل أخيذ أسير وإن لم يُشد به[241]. وعُموما فإن الأسير هو: المأخوذ في الحرب[242] أي على: من يأخذ في حرب أو معركة ويستوي في هذه الكلمة (الأسير) المذكر والمؤنث[243] بمعنى أن كلمة أسير تستعمل للدلالة على الرجل والمرأة، كما تلحق بالكلمة علامة التأنيث فيقال: أسيرة[244].

---

239 الفيروز أبادي، **المصدر السابق**، ص 343.

240 الخليل بن أحمد الفراهيدي، **المصدر السابق**، ج1، ص 68.

241 ابن منظور، **المصدر السابق**، ص 78.

242 مجموعة باحثين، **المعجم الوسيط**، **المرجع السابق**، ص 17.

243 أحمد مختار عمر، **المرجع السابق**، مج1، ص 91.

244 بشاري لطيفة بن عميرة، **الرق في بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى رحيل الفاطميين (ق 1 – 4هـ/7 – 10م)**، (أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2007 – 2008م)، ص 115. وانظر أيضا: الفيومي المقري: أحمد بن محمد بن علي (ت770هـ/1369م)، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**، تح: عبد العظيم الشناوي، ط2، دار المعارف، القاهرة، د.س.ن، ص 14.

أما مصطلح السَّبي: فصحيح أنه يقصد به الأسر[245] إلا أن السبي يقع على النساء خاصة[246] وسَبَيْتُ النساء سبياً وسباء، ووقع عليهن السباء وهذه سبية فلان: للجارية المسبية[247]، ومنه: فالأسير يُقصد به الأسر الذي يقع على الرجال والنساء والصبيان، وقد اختصّت كلمة السبي في الاصطلاح الفقهي أيضا بالنساء والصبيان[248].

يُفهم من كل ذلك أن هناك فرقا بين كَلمتيْ: الأسر والسبي، فالأسرى هم الذين يؤخذون في الحروب والمعارك المباشرة، أي من الجنود المشاركة في المعارك، أما السبايا فيطلق في الغالب على النساء والأطفال المقبوض عليهم نتيجة الحروب والغزوات.

لكن القاسِم المشترك بين الكلمتين (الأسرى والسبايا) هو أنهما يصنفان ضمن الغنائم حسب نصوص الأحكام السلطانية[249]، كما ويمكن اعتبارهما أيضا من فَيْئِ الحروب، لأن هناك من يرى بأن "الغنيمة [هي] ما نيل من أهل الشرك عنوة والحرب قائمة، والفيء ما نيل منهم بعد أن تضع الحرب أوزارها"[250].

ب. الأسرى والسبايا وحضورهم المُرادف للحروب:

لقد كان أمام مختلف الجنود المقاتلين المشاركين في العملية الحربية وحتى غير المشاركين الذين تشملهم هذه الظاهرة بطريقة أو بأخرى، لقد كان أمامهم خياران اعتُبرا من أهم الانعكاسات السلبية المباشرة للحروب في الفترة الوسيطة وهما: إما القتل أو الأسر والسبي. ولهذا فبسبب اعتبار هذين العُنصرين من أهم غنائم ومكاسب الظاهر الحربية، اهتمت مختلف المصادر الوسيطية –خاصة المهتمة منها بتاريخ المعارك والحروب– أيما اهتمام بهذين المكسبين اللذيْن تعد الحروب والمعارك أهم مصدر لهذه الثروة. ولهذا، إلى جانب الاهتمام بعدد قتلى كل معركة أو حملة عسكرية، كان يتم بعدها مباشرة الاهتمام بعدد وكمّ الأسرى والمسبيين.

فبسبب طغيان الظاهرة الحربية واستشرائها في الفترة مدار الدرس وفي الفترة الوسيطة عموما، ذهب أحدهم[251] إلى الاعتقاد بأن مَصير الإنسان من جرّاء هذه الحروب بدا أكثر مأساوية. ففَضلاً عن القتل الذي يُعتبر مرادفا طبيعيا لأيّة

---

[245] بشاري لطيفة بن عميرة، **المرجع نفسه**، ص 82.

[246] الأزهري: أبو منصور مُحَّد بن أحمد (ت370هـ/981م)، **تهذيب اللغة**، تحق: أحمد عبد العليم البردوني – مراجعة: علي مُحَّد البجاوي، ج13، الدار المصرية للتأليف والترجمة – مطابع سجل العرب، القاهرة، د.س.ن، ص 100.

[247] الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد (ت 538هـ/1144م)، **أساس البلاغة**، تحقيق: مُحَّد باسل عيون السود، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان–، 1419هـ/1998م، ص 436.

[248] بشاري لطيفة بن عميرة، **المرجع السابق**، ص 82.

[249] ينظر: بشاري لطيفة بن عميرة، **المرجع السابق**، ص 83.

[250] الفيومي، **المصدر السابق**، ص 455.

[251] حميد تيتاو، **المرجع السابق**، ص 325.

حرب، كانت كل حملة عسكرية أو غارة تذيل في نصوص الفترة المدروسة بالإشارة إلى مقدار ما غنمه المنتصر من الطرف المنهزم من أسرى وسبايا إما في عبارات انطباعية مجرّدة أو على شكل أرقام وأعداد.

ومن أجل التأكد من مدى حضور عُنصري الأسر والسبي إلى جانب القتل كأبرز نتائج للظاهرة الحربية في مختلف المصادر الوسيطية، سأحاول في الجدول الآتي ذكر نماذج عن النصوص التاريخية التي تدل على ذلك:

الجدول رقم 04: يمثل عيّنة من النصوص المصدرية الدَّالة على حضور عُنصري الأسر والسبي نتيجةً للظاهرة الحربية:

النص الدال على حضور الأسر والسبي نتيجة الحروب	الحادثة والسنة	المصدر والصفحة
"تَحوَّل أبو عبد الله الداعي في بلاد البربر...وقتل الرجال وأخذ الأموال، **وسبى الذرية**"	حملة أبي عبد الله الشيعي على قبائل المغرب الأوسط سنة 298هـ/911م	ابن عذاري، البيان، ج1، ص 189.
"وانهزموا مدبرين واتبعتهم الخيول، يقتلون **ويأسرون**"	في إطار حملة القائم (الخليفة الفاطمي) على المغرب الأوسط سنة 316هـ/928م	الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين، 221.
"...وقد فني ما بأيديهم (أي الجيش الفاطمي) من الطعام والعلف، لكثرة الجموع والعساكر والخيول والكراع والرقيق **والأسارى**..."	في إطار حملة القائم (الخليفة الفاطمي) على المغرب الأوسط سنة 316هـ/928م	الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين، 229.
"...وقد **رجعوا من بلاد الروم بغنائم جليلة**...وذكر أن **عدد ما سبو من الروم يزيدون عن نيف وثمانية عشر ألف نفس**..."	إحدى غزوات أسطول صقلية الفاطمي لبلاد الروم سنة 318هـ/930م	الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين، 231.
"...وسرَّب أبو يزيد جيوشه في نواحي إفريقية، فشنوا الغارات **وأكثروا السبي** والقتل **والأسر**..."	ضمن أحداث ثورة أبي يزيد صاحب الحمار(333هـ-	ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7،

	336هـ/945-948م)	.20
"...وقتل منهم خلق كثير **وأُخذ أُسارى كثيرة**..."	في زحف عطية بن زيري المغراوي على تيهرت في إطار صراعه مع الزيريين سنة 389هـ/999م	ابن عذاري، البيان، ج1، ص 271.
"... فقُتل أكثر أهل البلد ونهبت الأموال **وسُبيت الذراري والحرم وبِيع من لم يُقتل بأبخس الأثمان**..."	اقتحام الموحدين لأجادير التلمسانية سنة 541هـ/1146م.	النويري، نهاية الأرب، ج24، ص 162.
"...نهض إلى توجين...**وسبى حرم أولاد مُحَّد بن عبد القوي** (زعيم بني توجين)،ثم صرفهن إلى قومهن..."	حملة السلطان الزياني أبي سعيد عثمان بن يغمراسن على بني توجين ببلاد الونشريس سنة 687هـ/1288م	يحي ابن خلدون، البُغية، ج1، 230.(تح حاجيات).

ملاحظات حول الجدول:

من خلال ما ورد في هذا الجدول، يمكن استنتاج الملاحظات التالية:

أ) مدى حضور ظاهرة الأسر والسبي كمرادف أساسي للظاهرة الحربية بمختلف أبعادها وأشكالها وتجلياتها.

ب) من خلال ما ورد في الجدول أستطيع القول بأن أعداد الأسرى والمسبيين كانت كبيرة ولا تقل عن أعداد قتلى الحروب التي غالبا ما تكون هي الأخرة كبيرة وكارثية.

ت) في غالب الأحيان، يكون السيناريو المتبع من الجيوش المنتصرة عقِب كل حرب هو: **قتل الرجال وسبي النساء والأطفال** إضافة إلى نهب الأموال وتخريب المنشآت وحرقها وتدميرها. وهذه الظاهرة المتمثلة في استبقاء النساء والأطفال وتعرض العنصر الرجالي للقتل بصفة أكبر من غيره من الفئات المجتمعية الأخرى، ستؤدي لامحالة إلى اختلال واضح في مكونات مجتمعات بلاد المغرب خلال الفترات التي تطغى فيها الظاهرة الحربية، كما وتكون المجتمعات الأكثر تعرضا للظاهرة الحربية بالضرورة أكثر تعرضا لهذا الإختلال الديمغرافي الذي يمس تركيبتها وفئاتها العُمرية والنوعية.

ث) في بعض الأحيان، يتم تدعيم بلاد المغرب بعناصر جديدة تتمثل في الأسرى والسبايا المجلوبين من الخارج في إطار الحروب التي تدور خارج نطاق بلاد المغرب، كما حدث في حالة السبي الذي جلبه الجيش الفاطمي ممثلا في أسطوله بصقلية أثناء إحدى غزواته لبلاد الروم، حيث سُبي ما يزيد عن **ال 18 ألف فرد**، وتم جلبهم إلى المهدية، وهذا العدد الضخم من الأسرى والسبايا يمكن أن يكون له تأثير إيجابي على النسيج الديمغرافي والاجتماعي لبلاد المغرب.

ويبدو أن ظاهرة جلب الأسرى الأجانب إلى بلاد المغرب خاصة الأوروبيين منهم، استمرت إلى غاية القرون اللاحقة من العصر الوسيط، ففضلاً عن هذا المثال الذي سُقته والمتعلق بالفترة الفاطمية أي في القرن 4هـ/10م، هنالِك أيضاً حضور كبير للأسرى الأوروبيين في الدولة الزيانية، "حيث تشير الرسائل المتبادلة بين ملوك أوروبا وسلاطين بني زيان [على استمرار هذه الظاهرة]، كتلك الرسالة التي وردت إلى أبو تاشفين من السلطان (جاقما الثاني) يطلب منه سراح الأسرى الأراغونيين، فردّ عليه قائلا: وما أشرتم إليه بتسريح ما عندنا من الأسرى لا يمكن أن يكون، كما لا يمكن أن نطلب منكم تسريح ما عندكم من أسرى المسلمين لأنكم تعلمون أن ما عمر بلادنا إلا الأسرى وأكثرُهم صُنّاع متقنون في جميع أنواع الصناعات...لأن ذلك يُخل ويُعطل ما يُحتاج إليه من أنواع الصنائع"[252]. مما يدل على كثرة جموع هؤلاء الأسرى في الدولة والمجتمع الزيانيين من جهة، ومن جهة أخرى يدل على استخدام هذه الفئة في ميدان حركة البناء والصناعات والحرف بسبب مهارتهم أولا وبسبب أجرتهم الرخيصة والمنعدمة في أكثر الحالات مقارنة بالعامل الحرّ الذي يتطلب أجرا مرتفعا.

وفي هذا السياق، فإن الأعداد الهائلة لهؤلاء الأسرى والمسبيين تجعلني أتساءل عن مصيرهم وعن حالهم ومآلهم بعد أن تم أسرهم وفقدوا حريتهم نتيجة الحروب والفتن والاضطرابات السياسية؟

من خلال ما ورد في الجدول أعلاه، وفي حالة لم يتعرض هؤلاء الأسرى للقتل، ولم يتم افتداؤهم من قِبل دولهم أو أهاليهم وأسرهم، فإن مصير هؤلاء الأسرى على الأرجح –وبحسب اعتقادي– يمكن أن يشمل حالتيْن رئيسيتين:

الحالة الأولى: قد يتم بيعهم كما في النقطة التي أشار إليها النويري بشأن اقتحام الموحدين لأجادير التلمسانية سنة 541هـ/1146م، أين تم "بيع من لم يُقتل بأبخس الأثمان" على حدّ تعبير النويري[253].

الحالة الثانية: سيتم استخدام هذه الفئة في حركة التشييد والبناء ومختلف الصنائع والحرف كما أُشِير إليه أعلاه وهو ما يعني استرقاقهم، وبالتالي سيتصفون بنفس الخصائص التي تشمل الرقيق والعبيد والإماء. وفي هذا الإطار تذكر إحدى

[252] قويدر عباس، **الجيش في العهد الزياني (633–962هـ/ 1235–1554م)**، (أطروحة شهادة دكتوراه، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس –الجزائر-، 2015-2016م)، ص 176.نقلاً عن: مختار حساني، **تاريخ الدولة الزيانية**، ج2، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م، ص 97.

[253] يُنظر الجدول في الصفحة السابقة.

الدراسات المتخصصة في موضوع الرق ببلاد المغرب والأندلس[254] أن "**الحرب تبقى الرافد الأساسي من بين الروافد الأخرى للاسترقاق** في بلاد المغرب والأندلس خلال القرنين 5-6هـ/ 11-12م، وتتابع بقية الروافد بعدها من حيث الأهمية"، وأنا بدوري أُقرّ بذلك وأعتقد بأن هذه الخاصية لم تتميز بها هذه الفترة فحسب، بل امتازت بها كل فترات العصر الوسيط.

[254] عبد الإله بنمليح، **الرق في بلاد المغرب والأندلس**، الانتشار العربي، بيروت –لبنان–، 2004م، ص 127.

المبحث الثاني: الآثار غير المباشرة

لقد كانت مختلف الشرائح السكانية المُعرّضة للظاهرة الحربية تُعاني الأمرين نتيجة استفحال ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية بين مختلف مجالات المغرب خلال الفترة مدار الدراسة وفي غيرها من فترات العصر الوسيط، فإن لم تكن مختلف الآثار المباشرة للحروب المتمثلة أساسا في القتل والسبي وغيرها تهدد الإنسان، فإن هذا الأخير سيكون لا محالة مُهدَّد من هذه الحروب عن طريق آثارها غير المباشرة الكثيرة والمتعددة كالهجرة والمجاعات والأوبئة والخراب العمراني وتراجع الوضع الاقتصادي إلى غير ذلك من الآثار.

المطلب الأول: الهجرات والتهجير:

إن حركة الهجرة الداخلية والخارجية التي عرفتها بلاد المغرب عموما وبلاد المغرب الأوسط بصفة خاصة لا يمكن تجاهلها باعتبارها ظاهرة اجتماعية عاشتها مختلف القبائل، سواءً باعتبارها كنمط للحياة وما انطوت عليه من أبعاد وآثار، أو كانت نتيجة أسباب وظروف سياسية ومذهبية واجتماعية، وفي كلتا الحالتين تبقى هذه الظاهرة أحد أهم الأحداث التي عاشها سكان الغرب الإسلامي في العصر الوسيط[255].

إذ تُعتبر الهجرة من بين أهم الانعكاسات غير المباشرة للحروب على الصعدين الاجتماعي والديمغرافي، كما تعد ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية من بين أهم العوامل المباشرة التي تتحكم في مختلف التحركات البشرية والقبلية في العصر الوسيط، وبالتالي التحكم في مناطق إستقرار السكان وتوزيعهم ورسم الخريطة البشرية لمنطقة ما خلال هذه الفترة، وذلك عن طريق جعل السكان مضطرين إلى ترك مناطق سُكناهم نحو مناطق آمنة جديد هروبا من ويلات الحرب، أو عن طريق تهجيرهم من طرف قوة ما بشكل مباشر وقسري نحو مناطق جديدة.

أ. هجرة أم تهجير؟ قراءة في معنى الهجرة وأقسامها:

الهِجرة أو الهُجرة (بالكسر أو الضم) تعني الخروج من أرض إلى أخرى[256]، و الهِجرة بالكسر: تعني أيضا مفارقة بلد إلى غيره[257]، كما أن الهِجرة أو المهاجرة من أرض إلى أرض تعني ترك الأولى للثانية[258]، هذا من الجانب اللغوي، أما من

---

[255] بخدة الطاهر، **الهجرة في المغرب الأوسط واقعها وآثارها من منتصف القرن السادس إلى أواخر القرن الثامن الهجري / ق12-14م**، (أطروحة دكتوراه، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، الجزائر، 1437-1438هـ/ 2016-2017م)، ص 20.

[256] الفيروز أبادي، **المصدر السابق**، ص 495.

[257] الفيومي، **المصدر السابق**، ص 634.

الجانب الاصطلاحي فيقصد بها: انتقال فرد أو جماعة من منطقة إلى أخرى داخل بلده أو خارجه إما بصفة دائمة (هجرة استيطان)، أو بصفة مؤقتة (هجرة عودة)، وذلك بصورة إرادية أو قسرية[259].

وضِمن هذا السياق، ذهبت إحدى الدراسات[260] إلى القول أن الحديث عن الهجرة يكون في إطار جانبين أساسيين هما الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية. وفي كلتا الحالتين، نجد هناك الهجرة القسرية والهجرية الطّوعية، في حين أن هناك دراسة أخرى[261] تطرقت إلى شكل آخر من أشكال الهجرات والتي هي الهجرات الاضطرارية التي تكون بسبب القلاقل والاضطرابات السياسية.

أما أنا فأعتقد أنه وعند الحديث عن الفتن والاضطرابات السياسية في بلاد المغرب الوسيط وعلاقتها بالهجرة، فلا وجود إلا لحالة ونوع واحد من الهجرات ، والتي هي **التّهجير** الذي قد يَتَّخِذ طابعا مباشرا أو غير مباشر، وذلك بإبعاد السكان عن مناطق سكناهم عبر إجبارهم على ترك بلدانهم وأوطانهم بشكل مباشر أو غير مباشر. وأعتقد أن هذه الظاهرة تَخُصّ تقريبا كُلّ الكوارث والأزمات الطبيعية والبشرية، حيث تُعدّ الظاهرة الحربية أهمّها.

فحالة تهجير السكان بشكل مباشر تكون عندما تقوم سلطة أو قبيلة أو قوة سياسية بإجلاء السكان بشكل مباشر من مواطن استقرارهم إلى مواطن جديدة بعيدة عن ديارهم وذلك أثناء فتنة أو اضطراب سياسي ما، ويكون ذلك قَصد تحقيق مكتسبات سياسية. وسأحاول ضرب بعض الأمثلة على ذلك في العُنصر الموالي.

أما التهجير غير المباشر فيكون بسبب اشتداد ظاهرة الفتن والاضطراب السياسي وما تسببه هذه الظاهرة من انتشار كبير للخوف والهلع بين السكان وانتشار جو اللاأمن في المجالات التي تكون عُرضة للظاهرة الحربية، وبالتالي ستقوم هذه الظروف المضطربة الناتجة عن الظاهرة الحربية بتهجير سكان المجالات الحربية بشكل غير مباشر عن طريق اضطرار هؤلاء السكان إلى الهجرة قصد النجاة بأنفسهم بعيدا عن ويلات الحرب ونتائجها الوخيمة من قتل وسبي وأسر...إلخ. وقَصد العثور على عنصر الأمن الذي افتقدوه في مجالاتهم، ويكون هذا النوع من الهجرات –في الغالب– قصد تحقيق مكتسبات اقتصادية في الأساس، ويكون ذلك بُغية العثور على مناطق آمنة للاستقرار، وبالتالي التفرغ لممارسة أنشطتهم المعيشية والاقتصادية العادية من زراعة وتجارة بالدرجة الأولى، بشكل آمن ودون أي تهديدات. وسأحاول إعطاء بعض الأمثلة عن ذالك فيما يلي.

---

[258] الرازي: محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666هـ/1268م)، **مختار الصحاح**، مكتبة لبنان، بيروت، 1986م، ص288.

[259] بخدة الطاهر، **المرجع السابق**، ص 18.

[260] عميور سكينة، **ريف المغرب الأوسط في القرنين 5 و 6هـ/11 و 12م. دراسة اجتماعية واقتصادية**.، (مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة2 –الجزائر-، 1433- 1434هـ/ 2012- 2013م)، ص 18.

[261] رشيد يماني، **الهجرة الإضطرارية بين المغرب والأندلس خلال القرن 8هـ/14م**، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج2، ع2، أكتوبر 2019م، ص ص 37-70.

ب. قراءة في بعض مظاهر التهجير الناتج عن الحروب:

صحيح أن هناك عدة عوامل متعددة تؤدي إلى تهجير السكان وإبعادهم عن مناطق سكناهم، كأزمات القحط والجفاف والزلازل والفياضانات وغيرها، فهذه الأزمات هي كلها طبيعية في الأساس، لكن عند الحديث عن دور الأزمات البشرية في ذلك، أجد أن في ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية والظاهرة الحربية بصفة عامة العُنصر الأول دون منازع في تهجير السكان وإجلائهم عن مناطق سكناهم نحو مناطق جديدة بعيدة أو قريبة، إذ يعد ذلك في نظري من أهم الانعكاسات غير المباشرة للحروب على الصعيد الديمغرافي، كما يعد أيضا من أهم تبعات الحروب على الإنسان والمجال. لقد ذكرتُ في العُنصر السابق أنّ الحروب تؤدي إلى شكلين من ضُروب التهجير الممارس على السكان، أي بشكل مباشر وغير مباشر، وسأحاول ذِكر بعض الأمثلة عن ذلك فيما يلي.

- **التهجير المباشر:**

في إطار الصراع الفاطمي الزناتي، أقدم الخليفة المهدي (297-322هـ/ 909-934م) على اتخاذ إجراءات تحصينية تمثّلت في تأسيس قاعدة عسكرية متقدمة في بلاد زناتة ليحتمي بها من خطرها (زناتة) وهي مدينة **المحمدية** (المسيلة) في سنة 315هـ/927م أو 313هـ/ 925م (على اختلافٍ في الرّوايات)، والتي أُسست على أرض قبيلة بني كملان إحدى فروع قبيلة هوارة التي تَدين بالمذهب الخارجي الإباضي النكاري وقام بنقل بني كملان النّكار إلى فحص القيروان لكي تسهل مُراقبتهم، حيث كان المهدي يهدف من وراء هذه السياسة إلى محاولة إفراغ الأرض من سكانها[262] المناوئين والمعارضين لجهاز الحكم الفاطمي.

كان هذا عن **المسيلة**، وهو الحال نفسه بالنسبة لمدينة **أشير** التي شُيّدت سنة 324هـ/936م من طرف زيري بن مناد الصنهاجي[263]، فما إن تمت عملية بناء هذه المدينة حتى خرج زيري "إلى طبنة والمسيلة وحمزة، فنقل منها وجوه الناس إلى

---

[262] بوبة مجاني، **دراسات إسماعيلية**، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، 2002-2003، ص 162. مصطفى بن عريب، **مجتمع المغرب الأوسط المتغيرات والعلائق (من القرن الرابع الهجري إلى سقوط دولة الموحدين 668هـ/ 1269م القرن العاشر القرن الثالث عشر الميلادي)**، (مذكرة ماجستير، جامعة مُحَّد بوضياف، المسيلة –الجزائر-، 2016-2017م/ 1437-1438هـ)، ص 63. المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/1441م)، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، مُحَّد حلمي مُحَّد أحمد، ج1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية –لجنة إحياء التراث الإسلامي-، القاهرة –مصر-، 1416هـ/1996م، ص 72. ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج7، ص 36.

[263] زِيرِي بن مَنَّاد الصَّنهاجي (ت360هـ/971/): هو أوّل من مَلَك من أهل بيته الصنهاجيين بالمغرب الأوسط. وهو الذي بنى أشير وإليه تُنسب، وبَنى ابنه بلقين (بلكين) بأمره مدن: مليانة، الجزائر والمدية. وكان زيري موالياً للخلفاء الفاطميين الإسماعليين، حيث قدَّم لهم خدمات عسكرية كبيرة ومهمة تمثلت أبرزها في محاربته لزناتة أعداء الفاطميين والموالين للأمويين في الأندلس إضافةً مساهمته الفعالة في قضاء

مدينتَ[ه] أشير، فعُمّرت...وامتلأت البلد بالعلماء والفقهاء والتجار وتسامع الناس بها"[264]. كما أنه وفي سنة 343هـ/954م قام يعلى بن مُحَّد بن صالح اليفرني بدخول "مدينة وهران ومَلكها ثم نَقل أهلها إلى مدينته المعروفة (**إفكان**)[265]...[بعد أن] خرَّب مدينة **وهران** ثانية وحَرقها"[266]

وبالعودة مرة أخرى إلى الفاطميين وسياستهم مع قبائل المغرب الأوسط، فإن المنصور عندما توَلَّى الخِلافة (334-341هـ/946-953م)، سيتتبع سياسة عسكرية جديدة اتجاه قبيلة كتامة، وذلك لأن جيوش صاحب الحمار كادت أن تُقوّض أركان الدولة في عهد سابقه الخليفة القائم بأمر الله، فتكوَّن اقتناع لديه أن جيش صاحب الحمار لن يهزمه إلا جيش قوي وشديد الوَلاء للخلافة، ولن يكون ذلك إلا بعودة كتامة إلى العمل العسكري في بلاد إفريقية. ولهذا وأثناء عودته من المغرب الأوسط بعد انتصاره على صاحب الحمار سنة 336هـ/948م، فَرَض على أربعة عشر ألف بيت كتامي بنواحي مدينة **سطيف** الانتقال إلى مصره الجديد لتعميره وهو مدينة المنصورية (صَبْرة)[267]، لأن كتامة بعد نكبتها وتصفية قيادتها في فتنة الداعي وأخيه، تفرقت في أرجاء المغرب وأغلبيتها عادت إلى موطنها الأصلي[268].

إن هذا المثال الأخير الذي سُقتُه، والمتمثل في نقل المنصور الفاطمي للسكان الكتاميين بمدينة **سطيف** وما حولها بإجبار 14 ألف بيت منهم على الانتقال من مواطن سكناهم بسطيف إلى مدينة **المنصورية** بإفريقية، يعتبر من بين النقاط التي لايجب المرور عليها مرور الكرام، إذ يعتبر -في نظري- أفضل مثال عن ظاهرة التهجير القسري الذي يمارَس بشكل

الفاطميين على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري(333هـ-336هـ/945-948م)، وهو ما قَرَّبه أكثر من الفاطميين الذين ولّوه على تاهرت وأعمالها. قُتل زيري في مواجهةٍ مع جعفر بن علي الأندلسي والي الفاطميين على الزاب والذي انتفض ضدهم (أي الفاطميين) وتحالَف مع زناتة وذلك سنة 360هـ/971م. يُنظر: لسان الدين ابن الخطيب، **المصدر السابق**، ج2، ص ص 319 – 320. ابن خلكان، **المصدر السابق**، ج2، ص 343. الزركلي، **المرجع السابق**، ج3، 63.

[264] النويري، **المصدر السابق**، ج24، ص 88. عميور سكينة، **المرجع السابق**، ص 227.

[265] فكَّان أو إفكان: "...ومدينة فكان كانت سوق قديمة من أسواق زناتة، فمَدَّنها **يعلى بن مُحَّد بن صالح اليفرني**، وكان ابتداء تأسيسه لها سنة ثمان وثلاثين وثلاث مابة، وارتحل إليها أهل المعسكر من أهل تاهرت ويلل وشاطئ بني واطيل ووهران وقصر الفلوس، فعمرت وتمدّنت وعظمت...". ينظر: البكري، **المصدر السابق**، ص 79.

[266] البكري، **نفسه**، ص 71.

[267] صبرة: مدينة متصلة بالقيروان، بناها الخليفة الفاطمي المنصور: إسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله سنة 337هـ/949م، واستوطنها وسماها **المنصورية**. وهي منزل الوُلاة إلى حين خرابها ونقل إليها معد بن إسماعيل (المعز لدين الله الفاطمي) أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات. يُنظر: البكري، **المصدر السابق**، ص 25. ياقوت الحموي، **المصدر السابق**، ج3، ص ص 391 – 392.

[268] بوبة مجاني، **دراسات إسماعيلية**، **المرجع السابق**، ص 162-163. "...وارتحل (المنصور) يوم...الأحد إلى مدينة سطيف، فأقام بها ثلاثين يوما، **وفرَض على كتامة أربعة عشر ألف بيت يوافون المنصورية فيسكنون فيها** وأقام هذه المدة لانتظارهم...ورحل أمير المؤمنين من مدينة سطيف...فانتهى إلى مدينة ميلة...وأقام تسعة أيام، وفيها **وافته حشود كتامة وعيالهم فأنفذهم إلى إفريقية** مع عبيده وأوليائه...". ينظر: الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب**، **المصدر السابق**، ص ص467-468.

مباشر على السكان خاصة المدنيين منهم بسبب تبِعات جوّ الفتن والحروب والاضطراب واللااستقرار السياسي الذي شهده المغرب الأوسط خلال الفترة مدار الدرس.

وإذا قمتُ بعملية بسيطة سأجد أن مجموع من تم نقله أو إجلاؤه من الكتاميين سيبلغ 140 ألف شخص إذا ما احتسبتُ 10 أفراد لكل بيت، كما ويمكن أن يبلغ 70 ألف شخص إذا ما احتسبتُ 5 أفراد لكل بيت، وفي كِلتا الحالتين فإن الرقم الحاصل ضخم جدا ويصعُب تصوّره.

وهذا الرقم الكبير لعدد الأفراد المهجَّرين من مواطنهم في هذه الحادثة يُقدّم صورة واضحة عمَّا يمكن أن يتسبب فيه هذا النوع من التهجير الناجم عن ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية في إحداث اختلال هائل في النسيج الديمغرافي للمغرب الأوسط خلال القرن 4هـ/10م وفي غيره من الفترات، حيث تم إجلاء جُلّ ساكنة سطيف وما حولها من ساكنتها وإجبارهم على النزوح والاستقرار في مدينة ومنطقة أخرى بعيدة تماما عن مكان استقرارهم القديم. فلَك أن تتخيل حجم الفراغ السكاني الذي سيخلفه تهجير 70 ألف شخص–على أقل تقدير– في تلك الفترة من منطقة ما، وإجباره على الاستقرار في منطقة أخرى بعيدة تماما عن مضاربه الأصلية والقديمة! لك أن تتخيل حجم الفراغ والاختلال الديمغرافيين الذي سيصيب منطقة سطيف بشكل خاص ومجالات المغرب الأوسط القريبة من هذه المنطقة بشكل عام، إنني أعتقد حقا أنها لمن بين المتغيرات الديمغرافية الخطيرة التي يمكن للظاهرة الحربية أن تتسبَّب فيها وتؤثر من خلالها سَلبا على الإنسان والمجال وعلى التِّعداد السكاني والديمغرافي للمنطقة إبَّان تلك الفترة وإبان الفترات التي ستتبعها.

ولم يكن انتهاج هذا النوع من التهجير المباشر للسكان الناجم عن الفتن والحروب مُقتصراً على الفترة الفاطمية فحسب، بل تواصَل انتهاجه في غيرها من الفترات سواءً تلك التي سبقتها أو تلتها. ومن المنصور الفاطمي إلى المنصور الزيري تتوالى عمليات التهجير القَسري للسكان بشكل مباشر طبعا، وستكون دائما كتامة ضحية هذا التهجير، إذ يذكُر أحد المصادر التاريخية[269] أنه "في سنة ثمان وسبعين وثلاث مئة، تحرّك أبو الفتح المنصور بعساكره إلى بلاد كتامة، فمرّ على ميلة، وأمر بخرابها وهدم سورها **وأمَر أهلها بالمسير منها إلى باغاية، فاجتمعوا وساروا إليها**".

كما أنه وفي سنة 398هـ/1008م، اختطّ مُؤسس الدولة الحمادية: حمّاد بن بلكين (405–419هـ/1014–1028م) مدينته القلعة "**ونَقَل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة...ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها**...[إلى أن] استبحرت في العمارة واتسعت في التمدن، **ورحَل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد** طلاب العلوم وأرباب الصنائع لِنَفاق أسواق المعارف والحِرف والصّنائع بها"[270].

---

[269] ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 263. راجع أيضا رواية البكري المشابهة لهذه الرواية: البكري، **المصدر السابق**، ص 63–64.

[270] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 227. عميور سكينة، **المرجع السابق**، ص 227.

لقد سبَق وأن تحدثت عن الخُطوة التي أقدم عليها الخلفاء الموحدون بنقل جزء مهم من القبائل الهلالية المنتشرة بشرق المغرب الأسط وإفريقية وإنزالهم بالمناطق التي تشهد نوعا من الفراغ السكاني بالمغرب الأقصى كمنطقة تامسنا[271]، وأعتقد أن هذه الخطوة التي أقدَم عليها الموحدون جاءت قصد تحقيق عدة أهداف، من بينها:

- ✓ تعمير المناطق التي تشهد فراغا سكانيا بالمغرب الأقصى خاصة في بسائط منطقة تامسنا كما قلتُ، وهو سبب ثانوي على ما أعتقد.
- ✓ لتكون هذه القبائل قريبة من أعين السلطة الموحدية بالمغرب الأقصى، وبذلك تتمكن –أي السلطة الموحدية– من إنهاء مختلف القلاقل السياسية التي لطالما كانت تتسبب فيها هذه القبائل بمواطن استقرارها القديمة البعيدة عن مركز الخلافة الموحدية، وأعتقد أن هذا السبب السياسي والعسكري والاستراتيجي هو أهم سبب في هذا الإجلاء والتهجير.
- ✓ دون نسيان سبب عسكري واستراتيجي آخر متمثل في رغبة الموحدين في تدعيم جيشهم بعناصر جديدة لها باع طويل وشدة وبأس في الحروب من جهة، ومن جهة لإعادة التَّوازن للجيش الموحدي الذي يتشكل غالبيته من قبائل مصمودية في الأساس، خاصة في بداية عُمر الدولة.

- **التهجير غير المباشر:**

يذكُر البكري بخصوص مدينة **المسيلة** أنه يوجد بقربها "جبل عُجَيْسة وهوارة وبني بُرزال، ولهم كانت أرض المسيلة"[272]، وهذه العبارة الأخيرة "ولهم كانت أرض المسيلة" تدل على أن هذه الأرض لم تعد ملكهم في زمن البكري (في ق5هـ/11م)، فهُجِّروا وأبعدوا عنها بطريقة غير مباشرة جراء الفتن والاضطرابات السياسية التي عصفت بهذه المنطقة، بدءً من مطلع القرن 4هـ/10م إلى غاية فترة البكري (ق 5هـ/11م)، وذلك بدايةً بالصراع الزناتي الفاطمي المدعوم من صنهاجة مرورا بثورة صاحب الحمار إلى الصراع الصنهاجي الزيري/الحمادي، وصولاً إلى توافد القبائل الهلالية للمنطقة واحتمالية طردها لهذه القبائل المستقرة بهذه المنطقة ودحرها نحو الغرب. وفي هذا السياق يذكر ابن خلدون ان اختطاط الحماديين للقلعة كان بجبل كتامة "وهو جبل عُجيسة وبه لهذا العهد (في ق8هـ/14م) قبائل عياض من عرب هلال"[273].

كما ويذكُر البكري أيضا بشأن **قلعة بني حماد** أنها "قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة، وتمصَّرت عند خراب القيروان، **انتقل إليها أكثر أهل إفريقية**..."[274]، فانتقال أكثر أهل إفريقية على حدّ تعبير البكري إلى هذه المدينة –على ما أعتقد– لم يكن طوعياً ولا بمحض الصّدفة، حتى وإن بدَت هذه الهجرة –ظاهريا وشكليا– أنها طوعية، وإنما أعتقد أيضا أن هذا

---

[271] راجِع في خصوص ذلك المطلب الثاني من المبحث الأول لهذا الفصل.

[272] البكري، المغرب، **المصدر السابق**، ص 59. عميور سكينة، **المرجع السابق**، ص 226.

[273] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 227.

[274] البكري، **المصدر السابق**، ص 49.

الكمّ الهائل من السكان هُجِّر بطريقة غير مباشرة نتيجة تأزّم الوضع السياسي والأمني ومن ثم المعيشي والاقتصادي بإفريقية عقب الاجتياح الهلالي لها بدءً من سنة 443هـ/1051م، فهاجر على إثر ذلك هؤلاء السكان محاولين النجاة بأنفسهم بالانتقال إلى القلعة بحثاً عن الأمن والأمان وسعة الرزق ورغد العيش الذي ربما سيجدونه في "بلاد بني حماد لكونها جبالا وعرة يمكن الامتناع بها من العرب، فعمرت بلادهم (بلاد حماد) وكثرت أموالهم"[275].

لكن تفاؤل ابن الأثير صاحب هذا النص الأخير، لم يكن ليستمر طويلا، فهذا الأمن الذي وجده سكان إفريقية في القلعة، والرخاء الذي تمتعت به هذه المدينة عقب هذه الهجرة التي أحدثت وضعا عمرانيا وديمغرافيا واقتصاديا في غاية الازدهار للقلعة، لم يكن كل ذلك ليستمر بدوره طويلاً، إذ سرعان ما سينقلب حال ومصير القلعة وما حولها إلى ما يشبه حال القيروان وإفريقية، وذلك بعد معركة سُبيْبَة سنة 457هـ/1065م بين الحماديين والهلاليين وتخريب القلعة وما حولها من طرف الهلاليين[276]، وستكون الوِجهة الجديدة للسكان وللسلطة الحمادية معاً نحو **بجاية** التي هي بدورها "عُمِّرت بخراب القلعة" على حسب قول أحد الجغرافيين[277].

المطلب الثاني: الخراب العمراني للمجالات الحضرية والبدوية:

الخراب في اللغة هو ضد العمران[278]، والحرب هي ضد السّلم. وأنا أعتقد أن حركة التشييد والبناء الحضاري والعمراني لا تتم إلا في مرحلة السّلم وتوفر عُنصر الأمن، وإن غاب هذا الأخير فلا مجال للإنسان أن يبني أو يشيد عمرانه وحضارته. ورغم أن ابن خلدون في مقدمته وبالضبط في الفصل المعنون ب: "الظلم مؤذن بخراب العمران" قد رَبط الخراب العمراني لأُمّة ما بسوء السياسة المالية والاقتصادية الذي يمارسه الملك على رعيته من شطط جبائي واحتكار وغيره[279]، إلا أنه لا

---

[275] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج8، ص 372. عميور سكينة، **المرجع نفسه**، ص 228.

[276] للمزيد عن هذا التخريب الهلالي للقلعة، ينظر: ابن خلدون، **المصدر السابق** ، ج6، ص 27. ينظر أيضا: بوقاعدة البشير، **الصراع العسكري وخراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296– 547هـ/ 909– 1152م**، (رسالة ماجستير، المدرسة العليا للأساتدة، بوزريعة . الجزائر . ، 2012-2013م)، ص 206 وما بعدها.

[277] الإدريسي: أبو عبد الله، محمّد بن محمّد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (ت 560هـ/1165م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/ 2002م، ص 261.

[278] عبد الأحد السبتي، **علامات المدينة المغربية في الأدب الجغرافي الوسيط: في دلالات الخراب**، مقال ضمن أعمال المائدة المستديرة :التاريخ واللسانيات . النص ومستويات التأويل . مراكش 25 . 26 ماي 1990، تنسيق وتقديم: عبد الأحد السبتي، منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية بالرباط . جامعة محمّد الخامس . ،المملكة المغربية، 1992، ص 15. الفيروزآبادي، **المصدر السابق**، ص 78. حميد تيتاو، **المرجع السابق**، ص 535 (الهامش رقم1).

[279] عن ذلك، ينظر: ابن خلدون، **المقدمة، المصدر السابق**، ص ص 353 -358. ينظر كذلك: عبد الأحد السبتي، **نفسه**، ص 24-25.

يمكن إغفال دور الصراعات العسكرية بين مختلف الدول والقِوى السياسية خلال الفترة مدار الدرس وخلال الفترة الوسيطة عموما في خراب العديد من مراكز الاستيطان السكاني والبشري وطمس مختلف المعالم العمرانية ببلاد المغرب، وبالتالي الإخلال بالوضع العمراني ومن ثم الديمغرافي لهذه المنطقة. هذا وبالرغم مما يمكن مُلامسته من "عملية تضخيم الخراب من خلال تضخيم العمران السابق"[280] من قِبل المصادر الوسيطية، إلا أنه وعند استقراء مختلف هذه المصادر سيجد المرء أن هناك خراباً بالفعل ناتجاً عن ظاهرة الفتن والحروب والصراعات العسكرية[281].

وسأحاول في الجدولين الآتيين إبراز مَدى حضور التخريب العمراني للجيوش والمعارك أثناء فترات الفتن والحروب والقلاقل السياسية التي عرفها المغرب الأوسط، عن طريق عيّنة من النّصوص المصدرية الدّالة على ذلك، مع محاولة إبراز مدى حضور المدن والقرى المخرَّبة في المصادر الجغرافية خلال فترة الدراسة:

الجدول رقم 05: يُبرِز من خلال عيّنة من النصوص المصدرية مَدى حضور آلة التخريب العمرني التي طالت مختلف مراكز التجمعات السكانية نتيجة الصراعات والمواجهات:

النص الدال على التخريب	الحادثة والسنة إن وجدت	المصدر
"...**وخُرِّبت وهران وأضرمت نارا**..."	في إطار الصراع بين القبائل المجاورة لوهران سنة 297هـ/910م.	البكري، المغرب، ص 70.
"...وقَتل الرجال وأخذ الأموال سبى الذرية **وأحرَق بعض المدن بالنار**..."	حملة أبي عبد الله الشيعي على قبائل المغرب الأوسط سنة 298هـ/911م	ابن عذاري، البيان، ج1، ص 189.
"...ودخلت العساكر تيهرت...**وحرَقوا المدينة بالنار**"	الاقتحام الفاطمي لتيهرت سنة 299هـ/912م.	ابن عذاري، البيان، ج1، ص 191.
"...وقصد منه مدينة الحميز...**فأمر بهدم سور المدينة وقطع أشجارها، وأقام بها حتى فرغ الناس من هدمها**..."	حملة الخليفة الفاطمي القائم على المغرب الأوسط ابتداءً من سنة 315هـ/927م إلى غاية 316هـ/928م.	الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص 225.

[280] عبد الأحد السبتي، **نفسه**، ص 16.

[281] بإمكان الرّجوع إلى إحدى الدراسات المتخصصة في هذا الموضوع، أي دور الصراعات العسكرية في خراب المدن بالمغرب الأوسط في العصر الوسيط وبالضبط فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين/10-12م، وهذه الدراسة هي للباحث: بوقاعدة البشير، تحت عنوان: **الصراع العسكري وخراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296- 547هـ/ 909- 1152م**، (مرجع سبق ذِكره).

"...وذكر أن **عدد ماخُربت من القرى على يديه في إفريقية ثلاثون ألف قرية**..."	ثورة صاحب الحمار (333هـ-336هـ/945-948م)	الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 101.
"...**وخرَّب مدينة وهران ثانية، وحرَقها وبقيت كذلك سنين**..."	تغلب يعلى بن صالح اليفرني على قبيلة ازداجة وعلى مدينة وهران سنة 343هـ/954م	البكري، المغرب، ص 71.
"...تحرك أبو الفتح المنصور بعساكره إلى بلاد كتامة فمر على ميلة **وأمر بخرابها، وهدم سورها...وكان المنصور في هذه الحركة لا يمر بمنزل ولا قصر ولا دار إلا أمر بهدمه**..."	ثورة أبي الفهم ضد الزيريين سنة 378هـ/988م.	ابن عذاري، البيان، ج1، ص 263.
"...**وخربها** يوسف بن حماد ابن زيري، واستباح أموالها وفضح حرمها..."	تخريب أشير سنة 440هـ/1048م	البكري، المغرب، ص 60.
"...فنازلوها (أي: القلعة)، **وخرّبوا جَنَبَاتها وأحبطوا عروشها**، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار، **ثم طبنة والمسيلة فخربوها** وأزعجوا ساكنيها، **وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا** أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير، **وغوروا المياه، واحتطبوا الشجر**، وأظهروا في الأرض الفساد...	في إطار الدخول الهلالي للمغرب الأوسط عَقِب معركة سبيبة سنة 454هـ/1062م	ابن خلدون، العبر، ج6، ص 27.
"...غزا أشير وافتتحها **وخربها**..."	غزو الوالي المربطي بتلمسان لأشير، في إطار الصراع الحمادي المرابطي	ابن خلدون، العبر، ج7، ص 75.

"...وابن غانية في فتنته مع الموحدين، **خرب عمرانها واجتث شجرها وغور مياهها**..."	في إطار الصراع بين الموحدين وبني غانية في منطقة أريغ و واركلا	ابن خلدون، العبر، ج7، ص 64.

وفيما يلي جدول يوضح عيِّنة من المدن الخرِبة التي خُرّبت أثناء فترة الدراسة:

الجدول رقم 06: يمثل نماذج عن المدن المخرّبة أو التي خُربت أثناء فترة الدّراسة:

المدينة	نص التخريب أو الخراب	المصدر
هاز	"...قرية كانت عظيمة، **فخُربت**..."	ابن حوقل، صورة الأرض، ص 86.
جيجل	"...وهي **الآن خراب مُهدَّمة الديار مُثلمة الأسوار**، ليس بها ساكن ولا يقربها قاطن..."	الإدريسي، النزهة، ج1، ص 268.
تامدفوس (قرب مدينة الجزائر)	"...وتامدفوس **مرسى حسن عليه مدينة خراب وأكثر سورها قد تهدم**..."	الإدريسي، النزهة، ج1، ص 258.
البطحاء	"...كانت البطحاء مدينة كبيرة متحضرة جدا وآهلة بالسكان...**لكنها خُرِبت أثناء الحروب التي استعرت بين ملوك تلمسان وبعض أقاربهم من جبل ونشريس**...ونتج عن ذلك أنه **لا يُرى اليوم من البطحاء سوى أُسُس جدران**..."	حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص 27-28.
تقدمت	**...ثم خُربت تقْدِمَت أثناء الحروب التي شنها عليها خليفة القيروان الشيعي عام 365هـ [976م]، حتى لم يعد الزائر يشاهد بها الآن سوى آثار الأسس**..."	حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص 41.

من خلال الجدول الأول يتبين مدى حضور عُنصر التخريب العمراني للمدن والقرى وغيرها من المراكز السكانية الحضرية منها والبدوية، بسبب اجتياح الجيوش والحملات العسكرية لها في إطار الصراع السياسي والعسكري بين مختلف القوى السياسية في المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة.

وللإشارة فقط، فإن كلمة تخريب المذكورة في الجدول الأول لا تحمل فقط المعنى الضيق لهذه الكلمة، وإنما شملت معناها الواسع، أي كُلّ الكلمات والعبارات التي تحمل في مفهومها ومعناها دلالة التخريب، مثل الحرق والهدم والنهب وغور المياه، وإفساد المحاصيل والأراضي الزراعية وتبديدها، أي كل التجاوزات السلبية الناتجة عن الاجتياحات والحملات العسكرية والتي من شأنها أن تُضرّ بالمجالات العمرانية والمراكز السكانية. وبإمكان الرجوع إلى الجدول رقم (5) حيث ضُربت العديد من الأمثلة عن هذه الظواهر.

أما في الجدول الثاني، يتبين الحضور القوي للمدن والقرى الخربة التي خربت أثناء فترة الدراسة، من خلال عينة من هذه المدن التي استقيتُها من المصادر الجغرافية التي غالبا ما تهتم بظاهرة الخراب العمراني للمدن والقرى. وتبقى دائما الحروب والفتن والاضرابات السياسية أبرز مسبب لظاهرة خراب المدن، وتحويلها من مدن كبيرة ومتحضرة وآهلة بالسكان إلى خراب وأطلال تبكي ماضيها الزاهر.

لكن ما يمكن قوله في شأن علاقة الحروب بالخراب العمراني ، هو أنه بالرغم من الوضع السلبي والكارثي الذي تخلفه الظاهرة الحربية على الجانب العمراني بطمس وتخريب معالم مدن وقرى بأكملها ومحوها تماما، إلا أن الحروب قد يمكن أن تؤدي دورا يحمل نوعا من الإيجابية للجانب العمراني، وذلك ببروز وتأسيس مدن وحواضر جديدة كبيرة ومزدهرة كبديل لتلك المدن المخربة نتيجة للظاهرة الحربية. فمدينة **قلعة بني حماد** –على سبيل المثال– "تمصّرت عند خراب **القيروان**، [و] انتقل إليها أكثر أهل إفريقية"[282]، أيضا مدينة **بجاية،** هي الأخرى "عُمِّرت بخراب **القلعة**"[283]، وكذلك الشأن بالنسبة لمدينة **تلمسان** التي "كانت مدينة صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب **أرشكول**"[284] عَقِب انتهاء سيطرة الدولة الأموية بالأندلس على سواحل بلاد المغرب خلال القرن5هـ/11م[285]. وهذه الخاصية لم تتميز بها مدن المغرب الأوسط فحسب، بل شمل ذلك مختلف المدن الأخرى المشيدة عبر مجالات بلاد المغرب على غرار مدينة **رقادة** عاصمة الأغالبة التي تراجعت مكانتها بعد أن انتقل عنها أبو عبيد الله الفاطمي نحو عاصمته الجديدة المهدية سنة 308هـ/920م[286] التي وبِدورِها –أي

---

[282] البكري، **المرجع السابق**، ص 49. نقلاً عن: عبد الأحد السبتي، **المرجع السابق**، ص 21.

[283] الإدريسي، **المصدر السابق**، ج1، ص 261. نقلاً عن: عبد الأحد السبتي، **نفسه**، ص 21.

[284] حسن الوزان، **المصدر السابق**، ج2، ص 17.

[285] حسن الوزان، **نفسه**، ج2، ص 17.

[286] "...فلما انتقل عنها (أي رقادة) عبيد الله إلى المهدية، **دخلها الوَهن وانتقل عنها ساكِنوها، ولم تزل تخرُب شيئا بعد شيء** إلى أن وَلّى معدّ بن إسماعيل (أي المُعزّ) **فخَرَّب ما بقي منها وعفا آثارها وحَرَث منازلها ولم يبق منها غير بساتينها**...". البكري، **المصدر السابق**، ص 27. يُنظر أيضا: ياقوت الحموي، **المصدر السابق**، ج3، ص ص 55 – 56.

المهدية- تراجعت بعد انتقال الخليفة الفاطمي الثالث المنصور: إسماعيل بن القائم (334-341هـ/946-953م) إلى عاصمته الجديدة **صبرة** (المنصورية) سنة 337هـ/949م[287]، كما ويُورد البكري عن مدينة **سجلماسة** التي بُنيت سنة 140هـ/757م أنه "وبعمارتها خَلَت مدينة **ترغة** وبينهما يومان وبعمارتها خَلَت **زيز** أيضاً"[288]. انطلاقاً من هذه النماذج التي أوردتُها حول دور الحروب في بروز مدن جديدة في غاية الازدهار على حساب مدن أخرى مندثرة أو مخرّبة أو متراجِعة حضارياً، أَجِد أحد الباحثين[289] يُسمِّي هذه الظاهرة بتِكرار صورة التَّعاقب من طرق النصوص المصدرية، ويرتبط التعاقب هنا، بتعاقب عصبيات حاكمة أنشأَت مراكز حضرية جديدة وِفق الظرفية الاستراتيجية[290].

المطلب الثالث: سوء وتراجع الوضع الاقتصادي:

غالباً ما يكون الجانب الاقتصادي أحد أهم الأسباب الفاعِلة في اندلاع الحروب والمعارك بين مختلف القِوى، كما ويكون أيضا هذا الجانب أيضا —في الغالب- أحد أهم البُنى التي تتأثر بالظاهرة الحربية بشكل مباشر وغير مباشر. فضَرْب اقتصاديات العدوّ من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها من بين الأمور المستهدفة في الحملات العسكرية كون هذا الجانب يندرج ضمن الاستراتيجيات العسكرية المُتَّبَعة قصد إنهاك العدو اقتصاديا وبالتالي سهولة إخضاعه عسكريا وسياسيا.

وبالحديث عن الانعكاسات السلبية غير المباشرة لظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية عموما على الوضع الاقتصادي في المغرب الأوسط وفي غيره من بلاد المغرب الأوسط، فإن المصادر —لا سيما الجغرافية منها- قَدّمت صورة واضحة عما يمكن أن تُخَلِّفه الحروب والصراعات العسكرية على الوضع الاقتصادي. فعَن مدينة **طبنة** يُورِد ابن حوقل أنها "كانت عظيمة كبيرة البساتين...وكانت وافرة الماشية...**فحدث بينهم البغي والحسد**، إلى أن أهلَك الله بعضهم ببعض، وأتى على نِعمهم، **فصاروا بعد السعة والدعة إلى الضيق والذلة والصغار والشتات والقلة**، مشردين في البلاد، مُطرحين في كل جبل وواد..."[291]، أي أنه وبسبب جو الاضطرابات والصّراعات التي نشبت بين أهل مدينة طبنة، تبدّل حال هذه المدينة الاقتصادي والعمراني والديمغرافي، من حالة مزدهرة ومنتعشة إلى حالة كارثية لا سيما على الصعيد الاقتصادي.

وبسبب وُقوع **تيهرت** في منطقة التَّماس والصراع السياسي والعسكري بين الأمويين والفاطميين وبين مختلف الكونفدراليات القبَلية في القرن4هـ/10م، فإنه وعلى ما بدا فإن هذه المدينة قد دفعت الثمن غاليا وتراجع وضعِها

---

[287] "...واتخذ [المنصور] مدينة صبرة واستوطنها بعده ابنه معدّ (أي المُعزّ) **وخَلَت أكثر أرباض المهدية وتهدمت**". البكري، المصدر نفسه، ص 31.

[288] البكري، **نفسه**، ص 148. نقلاً عن: عبد الأحد السبتي، **المرجع السابق**، ص 21.

[289] عبد الأحد السبتي، **المرجع نفسه**، ص 21.

[290] عبد الأحد السبتي، **نفسه**، ص 21.

[291] ابن حوقل، **المصدر السابق**، ص 85.

الاقتصادي والعمراني بشكل رَهيب، ف"قد **تغيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا** (ق10/4م) **فقراء بتواتر الفتن عليهم** ودوام القحط **وكثرة القتل والموت**"[292]، وكذلك الأمر بالنّسبة للمجالات الكتامية التي ساءت حالتها الاقتصادية والعمرانية في نفس الفترة، بِفِعل صِراعها مع الزيريين وتكرّر الحملات الزيرية على مجالاتها[293].

تواصَل دور الحروب والفتن في الإخلال بالوضع الاقتصادي أثناء الفترة الحمادية، حيث شهدت هذه الدولة اجتياح هائل للقبائل الهلالية لأراضي هذه الدولة وقبل ذلك لأراضي أبناء عمومتهم الزيريين. فالاكتساح الهلالي لبلاد المغرب الذي يراه أحدهم[294] على أنه "كارثة سياسية واقتصادية لم يسبق لها مثيل"**!** أكيد أنها أفضت إلى كثير من الإفرازات والانعكاسات والنتائج، ويهمنا منها النتائج الاقتصادية التي أجمعت مختلف المصادر[295] على أنها سيئة للغاية.

كما ساهمت ثورة بني غانية في ضرب اقتصاد الدولة الموحدية بضربات قوية ومؤثرة على كل المستويات: زراعيا وتجاريا وعلى مستوى الخَرَاج والنفقات، فهذه الثورة –وكما هو معلوم- استمرت لعقود وشملت أجزاء واسعة من المغرب الأوسط وإفريقية، الأكيد أنها أثرت سلبا على الجانب الاقتصادي الموحدي[296]. ولم تنتهِ هذه الثورة إلا وقد دخلت الدولة الموحدية طور الاحتضار، حيث كان عُنصر اندلاع الثورات المحلية ضدها أهم العناصر التي ساهمت في تراجع وضعها الاقتصادي ومن ثم السياسي والعسكري، ولعل ثورة بني غانية كانت أهم تلك الثورات. هذا دون نسيان معركة حصن العقاب التي أفرزت وضعاً سياسياً واقتصادياً متأزماً لبلاد المغرب ككل، وهذا الوضع السياسي والاقتصادي المتأزم سيساهم بعدها في إعادة رسم خريطة سياسية جديدة لمغرب ما بعد الموحدين.

المطلب الرابع: المجاعات والأوبئة:

غالبا ما تُصنَّف المجاعات إلى جانب الحروب والفتن والاضطرابات السياسية من بين أهم الكوارث والأزمات التي تعصف بالإنسان وتتسبَّب له في خسائر فادحة في الأرواح ومختلف البنى والأنشطة المادية المتعلقة بالإنسان، لكنني أعتقد

---

[292] ابن حوقل، **المصدر نفسه**، ص 93.

[293] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[294] الهادي روجي إدريس، **الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن العاشر إلى القرن 12م**، نقله إلى العربية: حمادي الساحلي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت –لبنان-، 1992م، ص 245.

[295] يُنظر على سبيل المثال: ابن خلدون، **المصدر السابق، ج1(المقدمة)**، ص 188 وما بعدها، و **ج6**، ص 18 وما بعدها. أيضا يمكن الرجوع لِ: ابن أبي دينار: أبي عبد الله الشيخ مُحَمّد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت 1101هـ/1690م)، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ/1690م، ص 82-83. ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 316 وما بعدها.

[296] للمزيد عن موضوع أثر بني غانية على اقتصاد الدولة الموحدية، ينظر: واعظ نويوة، **أثر ثورة بني غانية على الدولة الموحدية 580 – 1184م/ 633هـ – 1235م**، (مذكرة ماجستير ، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة –الجزائر-، 2007-2008م)، ص 83 وما بعدها.

أنه وفي غالب الأحيان كانت أزمة الحروب والفتن السياسية كثيرا ما تتسبب في ظهور أزمتي المجاعات والأوبئة وهو ما يعني تضاعُف كبير في حجم الانعكاسات الديمغرافية لهاتين الأزمتين.

أ. **الحرب كمسبب رئيسي للمجاعات والأوبئة:**

- **المجاعات:**

لا تحدُث المجاعات والأوبئة دائما بسبب الآفات السماوية وحدها، بل قد يكون دور الإنسان كبيرا في تفشيها وتفاقُمها، إن لم يكن هو نفسه سببا مباشراً لها في بعض الحالات، خاصة أثناء الحروب والفتن واضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية[297]، فالحروب تساهم في تفاقم المجاعات والأوبئة إن لم تساهم في خَلقها[298]، وعليه فإن مجاعات المغرب الوسيط لم تكن ناتجة عن التقلبات المناخية فقط، بل ساهم فيها فعل الإنسان كذلك بفعل الحروب والفتن السياسية[299]. انطلاقا من كل ذلك يمكن القول بأن تدهور الوضع السياسي بسبب الحروب والفتن يعد من بين الأسباب البشرية في وقوع أزمة المجاعات[300].

وإذا كانت الزراعة قوام الحياة بالمغرب الأوسط[301]، فإن أي خلل يصيب هذا القطاع الاقتصادي الإنتاجي الحساس نتيجة لأي سبب كان، فإن هذا يعني توقع ندرة الأطعمة الاستهلاكية بالسوق قريبا وبالتالي غلاء أسعارها ومن ثَمّ تَوقّع شبح مجاعةٍ يَلُوح بالأفُق قريباً.

لطالما كانت الحروب والفتن بكل مظاهرها وأبعادها أحد أهم تلك الأسباب التي تهدد القطاع الفلاحي والزراعي في العصر الوسيط، وفي هذا الإطار تذكر إحدى الدراسات[302] المتخصصة بهذا الشأن نقلا عن إحدى الدراسات الغربية[303] أنه "عندما لا تُصبح الحقول طوال سنوات متعددة سوى مسرح للمعارك أو مجرد ممر لعبور وحدات المحاربين التي تعيش من المنطقة وتمارس فيها سياسة الأرض المحروقة، فإن الأمر ينتهي بالفلاحين إلى الانصراف عن الاهتمام بمزروعاتهم أو إلى عدم الاهتمام إلا بالحدّ الأدنى الذي يكفيهم للغذاء".

---

[297] أسكان الحسين، **المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب**، الأيام الوطنية العاشرة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الجديدة –المغرب–، أكتوبر 2002، ص 133.

[298] **نفسه**، ص 143.

[299] نشاط مصطفى، **التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني**، مجلة أمل، مج6، ع17، 1999م، ص6.

[300] مزدور سمية، **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588–927هـ/ 1192–1520م)**، (مذكرة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة –الجزائر–، 1429-1430هـ/2008-2009م)، ص 73.

[301] خالد بلعربي، **المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني**، دورية كان التاريخية، العدد الرابع، يونيو 2009، ص 21.

[302] خالد بلعربي، **نفسه**، الصفحة نفسها.

[303] **Mols (R),** Introduction de la démographie historique des villes d'Europe du (XIV au XVIII siècle)**, T2, Louvain, Belgique, 1954 p460.**

ويؤكد ابن خلدون ذلك بقوله أن المجاعات والموتان تكون نتيجة "قَبض الناس أيديهم عن الفَلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العُدوان في الأموال والجِبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة"[304]، فهذه الأخيرة –أي الدولة– وبسبب ما يقع في عمرها الأخير من الفتن والاضطرابات السياسية أثناء هَرَمِها وضُعفها، فإنها ستقِف عاجزة أمام مواجهة مشكل امتناع الناس عن ممارسة الزراعة نتيجة عدم توفر الظروف الملائمة من انتشار لعنصر اللاأمن وظاهرة الشطط الجبائي وغيرها، فيقلّ على إثر ذلك الإنتاج الزراعي إلى أن "يشمل الناس الجوع"[305]. ولهذا تَقرَّر عند أحد الدارسين[306] أن المجاعات لا تهبط من السماء بغتة بل تنشأ على الأرض من خلال تفاعل عوامل حاسمة ذات طبيعة سوسيو–سياسية مع عوامل طبيعية كالمناخ، وكان دور الإنسان حاسما في تفاقم حِدَّتها، ولهذا أيضا كانت الأزمات السياسية على حد تعبير نفس الدارس[307] هي التي تُخلِّف أزمات الخُبز وليس العكس.

- **الأوبئة:**

أما الأوبئة، فبالرغم من أنها تندرج ضمن الآفات السماوية، إلا أنه يمكن أن تكون الحروب أحد أسبابها[308]، وأنا أعتقد أن الحروب وجوّ الاضطراب السياسي بصفة عامة إن لم يكونا أحد الأسباب الفاعِلة في هذه الظاهرة بشكل مباشر، فإنه على الأقل يمكن أن يكونا أحد الأسباب الفاعلة فيها بشكل غير مباشر عن طريق استفحال نتائجها الديمغرافية السلبية إلى درجة كبيرة. يمكن تَعليل ذلك بالاستئناس بما ذَكرته إحدى الدراسات المتعلقة بهذا الجانب، إذ يُقرأ ضمن هذه الدراسة أنه و "خلال فترات الاستقرار السياسي يتمكن السكان من التغلب على الآفات السماوية ومن تلطيف حِدَّتها وتقليص وتيرة تِكرارها بِعدّة طُرق...في حين يفشلون في ذلك أثناء فترات الاضطراب السياسي خاصة في الفترات الانتقالية"[309].

وأُسطِّر سطرين عريضين تحت تلك الجملة الأخيرة من هذه الفقرة التي هي: **"في الفترات الانتقالية"**، إذ يذكُر حَسَن الوزّان أن الوَباء يظهر "في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات أو خمس عشرة أو خمسة وعشرون سنة، وعندما يأتي يذهب بالعديد من الناس"[310]، وهذه الفترات يمكن أن تكون –في المجمل– مدة حكم السلاطين والأمراء والحكام أي **الفترات الانتقالية** من حاكم لآخر أو من دولة إلى أخرى، إذ –في الغالب– لا تمر **فترة الانتقال** هذه بشكل عادي، إذ يجب أن يتخللها –غالباً– نوعٌ من الفتن والاضطرابات السياسية والتي بدورها تساهم في حدوث المجاعات والأوبئة أو على

[304] ابن خلدون، **المقدمة، المصدر السابق**، ص 376.

[305] ابن خلدون، **نفسه**، ص 376.

[306] أسكان الحسين، **المرجع السابق**، ص 150.

[307] أسكان الحسين، **نفسه**، ص 151.

[308] مزدور سمية، **المرجع السابق**، ص 118.

[309] أسكان الحسين، **المرجع السابق**، ص 136.

[310] الحسن الوزان، **المصدر السابق**، ج1، ص 85. نقلاً عن: أسكان الحسين، **نفسه**، ص 136.

الأقل تفاقم نتائجها[311] على البلاد والعباد لاسيما على الصعيد الديمغرافي، " وكلما تزايدت الحروب والفتن، إلا وترتفع وتيرة معدلات تكرار المجاعات والأوبئة وتتضاعف حِدّة الآثار المُترتّبة عنها"[312].

ب. أزمات المجاعات والأوبئة وتزامُنها مع حالة الفتن والحروب: قراءة في بعض المظاهر

يَستحيل أن تكون هناك حروب أو فتن واضطرابات سياسية دون أن تُخلف أثراً سلبيا على الأوضاع العامة —خاصة الاقتصادية منها– للمنطقة التي شهدت هذه الظاهرة، وحتى على المناطق القريبة والبعيدة منها والتي ترتبط معها بعلاقات اقتصادية رصينة. ولهذا فإن اكثر الآثار السلبية للحروب على الصعيد الاقتصادي، هي وقوع أزمتي المجاعة والأوبئة نتيجة تردي الأوضاع الاقتصادية بسبب الظاهرة الحربية.

إن محاولة الرصد الكرونولوجي لظاهرة المجاعات والأوبئة خلال فترة الدراسة يعد من الأمور الصعبة والمعقدة، بسبب طول فترة الدراسة نوعا ما، وبسبب كثرة وتعدد حدوث هاتين الظاهرتين. ولهذا لستُ هنا لرصد هذه الظاهرة كرونولوجياً بقدر ما أنا هنا لإعطاء عَيّنة من هذه الظاهرة والتي لها علاقة بالمغرب الأوسط، مع إبراز دورها في إحداث نتائج ديمغرافية كارثية والخلل بالوضع الديمغرافي عن طريق دورها في إحداث شرخ كبير في عدد القتلى والضحايا، وبشكل أخص التركيز على تلك المجاعات المتزامنة مع حالة الحروب والفتن والاضطرابات السياسية.

لقد تعددت مظاهر حدوث أزمتي المجاعات والأوبئة أثناء كل فتنة سياسية أو بعدها مباشرة، وذلك ما يمكن فهمه من خلال المصادر الوسيطية. فخلال ثورة صاحب الحمار (333هـ-336هـ/945-948م)، وبسبب استمرار أحداث وحروب ومعارك هذه الثورة لسنوات بين الثوار والسلطة الفاطمية، إضافة إلى شساعة مساحة مناطق هذه الثورة بالمغرب الأوسط وإفريقية، فإن هذا الوضع السياسي المتأزم ساهم في تضعضع الوضع الاقتصادي، وبشكل أخص على الصعيد الزراعي وهو ما يعني حدوث المجاعة وانتشارها نتيجة لذلك، وأضحى "من أفلَته السيف أهلَكه الجوع" حلى حد تعبير أحد المصادر[313].

وفي القرن المُوالي، ونتيجة لاشتداد وطأة الفتن والاضطرابات السياسية التي عصفت بالمغرب بسبب الأحداث التي نجَمت عن الاجتياح الهلالي وما أعقبه من صراعات سياسية وقَبَلية، فإن ذلك كُلّه هَيّأ الظروف بأن تكون "بإفريقية مجاعة عظيمة وجهد مفرط"[314] وذلك في سنة 447هـ/1055م.

---

[311] يُنظر: أسكان الحسين، **نفسه**، ص ص 135 – 136.

[312] أسكان الحسين، **نفسه**، ص 144.

[313] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج7، ص 21.

[314] ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 321.

أما **بجاية** وما حولها من مناطق، فإنها أصيبت بنكسة سياسية واقتصادية أثناء انطلاق شرارة ثورة بني غانية وفتنتهم ضد الموحدين من هذه المدينة ابتداءً من سنة 580هـ/1184م، إلى حدّ أن "انتهبت زُروعها وغلاتها، وقلّت خيراتها وعدمت مرافقها وأقواتها، وألمّ بالرَّعية الحَيْف وتَقسَّمهم الجلاء والسيف"[315]، هذه الوضعية الكارثية أدت إلى حدوث المجاعة وازدياد الوباء حتى عم الناس الموتان[316]، "وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء، فكانوا يصبحون في الخرب وفي سكك المدينة زمرا أمواتا ذكورا وإناثا"[317].

هذه الصورة الكارثية والمروعة التي رصدها هذا النص المصدري، تعبر لنا بشكل جلي عن مدى هول الكارثة، وبالرغم مما يحمله هذا النص من مبالغة وتهويل، إلا أنه يعطي مثالا عَمَّا يمكن أن تخلفه الحروب والاضطرابات السياسية من انعكاسات ديمغرافية سلبية هائلة، تؤدي إلى حصد أعداد كبيرة من الضحايا والقتلى في وقت وجيز نتيجة تعرضهم للقتل بسبب المواجهات العسكرية والحربية، أو نتيجة المجاعة والوباء الناجمين بدورهما عن الحروب. وهذا يعني أن تزامن هاتين الكارثتين (الحروب إضافة إلى المجاعات والأوبئة) على الجانب الاجتماعي لمنطقة ما له آثار أقل ما يقال عنها أنها وخيمة، لاسيما على الصعيد الديمغرافي الذي سيشهد نزيفا حادا نتيجة لذلك، وهو بالذات ما تفطّن إليه أحد الباحثين[318] عندما ذهب إلى اعتبار أن المجاعات والأوبئة تتفاقم آثارها خلال فترات الفتن والحروب.

المطلب الخامس: نظرة عن بعضٍ من مظاهر تأثيرات الحروب على ذِهنية مجتمع المغرب الأوسط:

لقد سَبق وأن تحدثتُ عن الانعكاسات المباشرة وغير المباشرة للظاهرة الحربية على ساكنة بلاد المغرب عموما وعلى ساكنة المغرب الأوسط على وجه الخصوص، وكل هذه الانعكاسات مادية يمكن أن يلمحها الدَّارس بسهولة بالغة. غير أن هناك انعكاسات أخرى يصعب ملاحظتها ولا يمكن الوصول إليها إلا من خلال النظر إلى مجتمع الظاهرة الحربية من عدة جوانب، حديثي هنا عن الانعكاسات المعنَوية للحروب على صعيد ذِهنية ونفسانية الأفراد والمجتمعات.

أ. تأثير الحرب على المِخيال الشّعبي:

تُعدّ الحرب من أقسى الصدمات التي يتلقاها الفرد والمجموعة وتدخل اضطرابا على مجرى الحياة العادي، إذ يصبح الإنسان في وضع عصيب يتكسّر فيه الإيقاع الرّتيب للحياة اليومية وينتُج عنه وضع سلوكي ونفسي جديد رُبما دامت

315 ابن عذاري، **المصدر السابق**، قسم الموحدين، ص 180-181. نقلاً عن: أسكان الحسين، **المرجع السابق**، ص 143.

316 ابن عذاري، **المصدر نفسه**، قسم الموحدين، ص 181. أسكان الحسين، **نفسه**، ص 143. مزدور سمية، **المرجع السابق**، ص 127.

317 ابن عذاري، **نفسه**، قسم الموحدين، ص 181. أسكان الحسين، **نفسه**، ص 143.

318 الحسين أسكان، **نفسه**، ص 143.

مخلفاته وآثاره بعد انتهاء الحرب لمدة تطول أو تقصر، وتحتفظ الذاكرة الجماعية طِيلة أجيال ذكرى أهوال وفظائع الحرب[319].

إن صورة الحروب المروِّعة وتكرار ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية واستمرارها على نطاق واسع خلال فترة الدراسة وخلال معظم فترات الحقبة الوسيطة، كل هذا كفيل بأن يرسم صوراً شتى في المخيال الشعبي لمجتمع المغرب الأوسط الوسيط، ويؤثر سلبيا بشكر مباشر وغير مباشر على ذاكرته الجماعية.

إن أفضل مجال يمكن أن يُلمَح فيه تأثير الحروب على المخيال الشعبي لمجتمع المغرب الأوسط وعلى ذاكرته الجماعية، هو في مجال نسج الأساطير والقصص المرعبة حول أماكن معينة، وهذا كُلّه نتيجة حالة الخوف والهلَع التي تنشرها الحروب عندما تَعصف بمكان ما. يذكُر البكري[320] أنه "في الطريق إلى بسكرة [يوجد هنالك] جبل يُعرف بزيغيزي في وسطه كهف فيه رجل قتيل لم يغيره مر الزمان وتقادم الدهور، تفضُّ جراحه دماً كأنما قتل منذ يومين، وتُخبر الكافّة أنهم لا يعلمون متى قُتل قِدما، وقد نقله أهل تلك النواحي، ودفنوه بأفنيتهم تبركاً به، ثم لم ينشبوا أن وجدوه في الكهف على حاله"[321]، حيث يذكُر البكري نقلاً عن مصادره في هذه القصة، أن هذا الرّجُل المقتول موجود هنالك في هذا الكهف حتى "قبل فُتوح إفريقية"[322].

وإذا كانت هذه القصة الأسطورية "يُحدِّث [بها] ثِقات أهل تلك الناحية"[323] على حد تعبير البكري، فما بالك بعامّة تلك الناحية وبسطائهم وجُهَّالهم! ويفهم من قول البكري "أن هذا الرجل المقتول موجود هنالك حتى قبل فتوح إفريقية" أن نسج مثل هذه القصص والاعتقادات قديم ومُتأصِّل في مجتمع المنطقة منذ فترات قديمة وليست متعلقة فقط بأحداث العصر الوسيط. كما وأعتقد أيضا أن مثل القصص والأساطير الآتية من نسج الخيال الشعبي كانت تنتشر بين السكان وتحافظ عليها الذاكرة الشفوية الجماعية للأفراد والمجتمعات بفعل تواتر ظاهرة الحروب والفتن واستمرارها على مر الأزمنة والعصور، فمنطقة بسكرة والزاب بصفة عامة شهدت على مر تاريخها القديم والوسيط فتناً واضطرابات سياسية عديدة

---

[319] بلقاسم الطبابي، **الموت بمصر والشام في العهد المملوكي**، (رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، تونس، 1996/1997م)، ص 294. حسيبة عمروش، **إنعكاسات الحروب في السلوك والذهنية لمجتمع المغرب الأوسط في العهد الزياني (633-962هـ/ 1235-1555م)**، (أطروحة دكتوراه طور ثالث ، جامعة محمد بوضياف، المسيلة –الجزائر-، 1439-1440هـ/ 2017-2018م)، ص 121.

[320] عن هذا النص المصدري المأخوذ عن البكري وتحلِيله الذي يليه مباشرة، يُنظر: لحسن ابراهيم، **نماذج عن المعتقدات الشعبية الخيالية والخرافية لعامة المغرب الأوسط – مساهمة في دراسة تاريخ ذهنية عامة المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط–** ، مقال ضمن كتاب جماعي بعنوان: أضواء على فئات الظل والمجالات المهمشة بالمغرب الأوسط في عصره الوسيط، تنسيق وإشراف: رضا بن النية و خالد حموم، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2 – الجزائر، ألفا للوثائق للنشر والتوزيع، قسنطينة –الجزائر، 2022، ص 151 وما بعدها.

[321] البكري، **المصدر السابق**، ص 53.

[322] **نفسه**، ص 53.

[323] **نفسه**، ص 53.

ساهمت في استفحال الظاهرة الحربية وتأجيجها على مستوى هذه المنطقة، وهو ما ساهم كما قلتُ في نسج هكذا رِوايات وأساطير[324].

وفي فترة متأخرة عن فترة هذ البحث، وأمام انتشار ما يُعرف بظاهرة التّصوف الشعبوي، مع ما يوازيه من تأزم للوضع الأمني والسياسي واشتداد وطأة الفتن والاضطرابات السياسية، فتح ذلك المجال أمام تألّق الفكر الكرامي الخُرافي الصوفي بالمغرب الأوسط. فهذا الفِكر الكرامي الصوفي الناتج أصلا عن التصوف الشعبوي كان -على تعبير أحد الباحثين-[325] قد "أخَذ أبعاداً خطيرة وصارت الكرامة تحمل مدلولا واضحا وبرهانا قويا على قداسة الشيخ، الأمر الذي جعل المخيلة الشعبية تعتقد في الشيخ الكثير من الاعتقادات لتُضفي عليه هالة من الصفات الأسطورية، وكثيراً ما يحدث ذلك بعد وفاة الشيخ".

وفي الحقيقة، فإن الأمثلة كثيرة عن هذا الطرح، مثل ضريح مُحَّد بن عمر الهواري[326] الذي كان بإمكانه أن يضمن حماية مدينة وهران من النصارى وحتى إذاية هؤلاء النصارى إذا ما اقتربوا من قبره على حسب تعبير أحد المصادر المناقبية[327]! بل ويُذكَر في أحد النصوص الأخرى أن دخول الإسبان لوهران سنة 915هـ/1509م كان بِسبب "دعاء الشيخ الهواري عليها، وذلك أن أهل وهران بغوا على ولده...وقتلوه ظُلما وعُدوانا"[328]، حيث دعا الشيخ مُحَّد بن عمر الهواري على مدينة وهران بدعائه الشهير الذي نصُّه ما يلي: "روحي يا وهران الفاسقة، يا كثيرة الجور والبغي والطّارقة يا ذات الأهل الباغية السارقة، إنّي بِعتك بالبيعة الموافقة لنصارى مالقة والجالقة، إلى يوم البعث والتالقة، مهما ترجعي فأنت الطّالقة"[329]!

---

[324] يُنظر: ابراهيم لحسن، **نماذج عن المعتقدات الشعبية الخيالية والخرافية لعامة المغرب الأوسط**، المرجع السابق.

[325] كرطالي أمين، **الفقهاء والحياة السياسية بالمغرب الأوسط خلال القرنين (9-10هـ/ 15-16م)**، (مذكرة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، 1434-1435هـ/ 2013-2014م)، ص 37.

[326] مُحَّد بن عمر الهواري (751-843هـ/ 1350-1439): أحد المتصوفة الذين برزوا في فترة حياته، أصله من نواحي مدينة مستغانم وعاش واستقر في وهران، رحل إلى بجاية وفاس ثم إلى المشرق لأداء فريضة الحج، ثم عاد واستقر بوهران، من أهم تلامذته: أبو إسحق ابراهيم التازي (ت866هـ)، ينظر: ابن صعد: مُحَّد الأنصاري التلمساني (ت 901هـ/1496م)، **روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**، مراجعة وتحقيق: يحي بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2009، ص 11 وما بعدها (من مقدمة المحقق). أيضا: ص 35 وما بعدها من نفس المصدر. يمكن الرجوع أيضا إلى: أحمد بابا التنبكتي (ت 1036هـ/1627م)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكتاب، طرابلس، ط2، 2000م، ص 516 وما بعدها.

[327] كرطالي أمين، **المرجع السابق**، ص 37، نقلاً عن: أحمد بن قاسم البوني (ت1139هـ/1726م)، **الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة**، تقديم وتحقيق: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة –الجزائر- ، 1428هـ/ 2007م، ص 142-143.

[328] الآغا بن عودة المزاري (ت 1315هـ/1897م)، **طلوع سعد السعود**، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت –لبنان- ، 1990م، ص 74

[329] الآغا بن عودة المزاري، **نفسه**،ج1، ص 74.

كما أن الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي الملياني (ت927هـ/ 1521م)[330] وبعد ذهابه إلى وهران وتعظيم أهلها له أشد التعظيم، أثار ذلك حفيظة السلطة الزيانية التي جدّت في طلبه، فعلِم الشيخ ذلك وارتحل من وطنه[331]، فما كان من هذا الشيخ إلا أن دعا على الزيانيين بما نصُّه ما يلي: "شوّشونا شوّشهم الله من البحر والبر فلم يَكُ إلّا قليل حتى شوّش الله بني زيان البحر بالكَفرة فأخَذوا وهران، ومن البَرّ الأتراك فأخذوا تلمسان"[332]!

إن مثل هذه النصوص –وغيرها كثير– والممزوجة بعُنصر الإثارة والتشويق وإبراز الخوارق التي تميز النصوص المناقبية والمهتمة بالفكر الكرامي بصفة عامة، تدل عن مدى تغلغل الفكر الصوفي الشعبوي داخل المجتمع، كتعبير عن مدى قدرة الشيخ المراد الترجمة له على التخفيف من وطأة الاضطرابات السياسية التي عصفت بالمغرب الوسيط من كل الجوانب، وعلى دوره في حماية المدن والمناطق من العدوان الخارجي، وعلى قدرته أيضا –في اعتقادهم– على التسبب في أي هجوم للفئات التي تتعرض له. وهذا يدل على المكانة التي اكتسبها هؤلاء المتصوفة في المجتمع، إذ أضحت عامّة المجتمع وطبقاته الدنيا –بشكل أخص– تُصدِّق كل ما يُمليه عليهم الشيخ الصوفي من مِثل هذه القصص والأشياء الخارقة وغير العادية، وهذا كله بسبب انتشار عنصر الخوف واللأمن بين أوساط السكان والمجتمع نتيجة تأزم الوضع السياسي واضطرابه وكثرة الفتن والحروب.

ب. الحرب وحضور مظاهرها في المناسبات والقيم والسلوكات:

بِسبب طُغيان الظاهرة الحربية وحضورها القوي في أحداث دول ومجتمعات العصر الوسيط، انعكس ذلك بشكل مباشر وغير مباشر على السلوكات اليومية والمعاشية للسكان وعلى احتفالاتهم وأعيادهم، وأيضا في العادات والتقاليد العامّة للمجتمع.

ب.1. حضور مظاهر الحرب في الأعياد والاحتفالات:

وِفقاً لإحدى الدراسات[333] فإن الحضور المكثَّف للحرب في بنيات المجتمع المغربي وتنظيماته خلال العصر الوسيط طبع الحياة الاجتماعية بالطابع الحربي والعسكري، وكانت القيم الناتجة عن "تفشّي الظاهرة الحربية واتساع نطاقها"[334] من القِيَم المجتمَعية البارزة في تلك المرحلة، إذ ووفقا لذات الدراسة فقد كان للحرب دور هام في صياغتها وصقلها في الذهنية

[330] عن تاريخ وفاة هذا الشيخ، يُنظر: الآغا بن عودة المزاري، **نفسه**،ج1، ص 74 (الهامش رقم:2).

[331] الآغا بن عودة المزاري، **نفسه**، ص 74.

[332] **نفسه**، ص 74.

[333] حميد تيتاو، **المرجع السابق**، ص 434.

[334] حميد تيتاو، **نفسه**، ص 433.

والسلوك الجماعيين، تَجلَّت في جُملة من المظاهر والعادات. بل إن المتأمل في مجموع المادة المصدرية المتوفرة لا يجد صعوبة واضحة في تحديد امتدادات الحرب وترسُّباتها في مجتمع امتزجت فيه مظاهر الحياة المدنية بالحياة العسكرية، إن على مستوى اللّباس أو على مستوى المظاهر الاحتفالية وأشكال التَّسلية واللّعب[335].

في الحقيقة، إن المتأمل في أشكال الاحتفال والتَّسلية ومظاهرها لا يستطيع أن ينكر الحضور المكثف للحرب فيها، إذ لا تمر مناسبة دون أن يتم فيها استعراض الخيل أو السلاح كقيمة حاضرة لا في أوقات الصراع الجِدّي فحسب، بل في مناسبات اللّهو والمرح أيضا[336] وكذا في المناسبات الدينية وغيرها. فعلى سبيل المثال هناك حضور لهذه الظاهرة في مواكب السلطة الحاكمة وخروجها لأداء إحدى الشعائر الدينية، يُورِد العُمري (ت749هـ/1348م) في مسالِكه أن السلطان الحفصي يكون خروجه وركوبه إلى صلاة العيدين أو إلى سفر في موكب مَهيب ومليء بالعديد من البروتوكولات والممارسات والمظاهر التي تدل على حضور مظاهر الحرب وإبراز قيمها، بل يمكن ملاحظة حضور هذه المظاهر حتى عند خروجه لأداء صلاة الجمعة إلى غير ذلك من الأنشطة العادية لهذا السلطان[337]، وكذلك الأمر بالنسبة للمرينيين[338].

أما العامّة فبدورها منسجمة مع مثل هذه المظاهر الاحتفالية، ف"في ليلة العيدين أو ليلة ورود السلطان [أبو الحسن المريني] على حضرته، ينادي والي البلد في أهلها بالميز، ومعناه: أن أهل كل سوق يخرجون ناحيةً ومع كل واحد منهم قوس وآلة سلاح متجمِّلين بأحسن الثياب"[339].

أما **تلمسان** الزيانية، فقد كانت تُقام صلاة العيد بها بالملعب الذي يقع خارج أسوار المدينة أمام باب القرمادين، يحضرها المسلمون من مختلف الأعمار والفئات الاجتماعية، يتقدّمهم السلطان الزياني، في موكب حافل، ويشترك فيه الحرس والجيش بزيهم المميز، ويخرج الناس لرؤية الموكب بلباس جديد وقلوب فرحة[340].

هذا وهناك احتفالات مدَنية أخرى لها علاقة بالظاهرة الحربية كسباق الخيل والمبارزة وغيرها، مثل تلك الاحتفالات التي عرفتها مدينة تلمسان الزيانية والتي تتسم بالطابع المدني للترفيه عن النفس والتسلية، فقد كان سكان المدينة يخرجون كل

---

[335] حميد تيتاو، **نفسه**، ص 434.

[336] **نفسه**، ص 438.

[337] العُمري: ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحي (ت749هـ/1348م)، **مسالك الأبصار في ممالك الأبصار**، تح: كامل سلمان الجبوري، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م، ص ص 69-71.

[338] العمري، **نفسه**، ج4، ص 111. نقلاً عن: حميد تيتاو، **المرجع السابق**، ص 439.

[339] العمري، **نفسه**، ج4،ص 111. نقلاً عن: حميد تيتاو، **نفسه**، ص 439.

[340] عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، ج1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ص 272.

عشية إلى ملعب الخيل بظاهر المدينة، لمشاهدة سباق الخيل ومبارزة الفرسان ويتجولون في البساتين ويتمتعون بمناظرها الخلابة[341]، كما كانت سباقات الخيل حاضرة حتى في أيام الاحتفالات بالزفاف والأعراس[342].

انطلاقاً من كل هذه الأمثلة، يتبين مدى حضور مظاهر الظاهرة الحربية في الاحتفالات والمناسبات والأعياد سواءً الدينية منها أو اليومية، مثل مظهر خروج الأجناد والعساكر في موكب السلطان أثناء خروجه لأداء صلاة العيدين وحتى في صلاة الجمعة، إضافة إلى مظهر مبارزة الفرسان وسباقات الخيل واستصحاب العامة للأسلحة وآلات الحرب في هذه الاحتفالات والمناسبات، إضافة إلى غيرها من المظاهر التي تدل عن مدى "تغلغل الحرب في بنى المجتمع المغربي وذهنيته"[343] في الحقبة الوسيطة بصفة عامة.

ب.2. قيم وسلوكات أخرى:

إضافة إلى كل ما ذُكر سابقا، فقد تميز المجتمع المغربي الوسيط بقيم وسلوكات أخرى نتيجة استفحال الظاهرة الحربية وتأثيرها على بنية المجتمع بمختلف فئاته وشرائحه، مثل: "سيادة قيم الشجاعة والفروسية والتمسك بروح الجماعة وإفناء الذات في خدمتها، فضلا عن عادات الثأر وحفظ الجوار وتبجيل الذكور وإهمال الإناث والتصغير من شأنهن، وكلها قيم جاءت انعكاسا أمينا لتفشي الظاهرة الحربية واتساع نطاقها، وعكست رغبة المجتمع في تطويع ظروف الواقع معها والتكيف مع مستجداتها، وهو ما تمظهر بشكل جلي في مجموعة من السلوكات الاجتماعية التي مثلث تجليات مادية لهذه القيم وترسيخا لها على مستوى الواقع العَيَاني المُعاش"[344].

وإذا تم التَّسليم بالحضور القوي للطابع القَبَلي والبَدوي لمجتمع بلاد المغرب خلال الفترة الوسيطة، أجِد أن هذه الأوصاف المذكورة أعلاه أقرب ما تكون -في أغلب الأوجه- إلى خصائص المجتمع البدوي، خاصة قيم: الشجاعة، الفروسية، الأخذ بالثأر، الخشونة والتمسك بالروح الجماعية. هذه الأخيرة يراها أحد الباحثين[345] أنها من بين القيم السائدة في البادية، طبعا مع ذِكر ذات الباحث لخصائص أُخرى تسود المجتمع البدوي، ككَرم الضّيافة، البساطة، الفِطرة، الصبر، الحَياء والحِشمة وغيرها[346]. لكن ما يهم هنا تِلك القيم التي لها علاقة بالظاهرة الحربية، والتي تعطي صورة واضحة عن تَشبُّع

---

[341] عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العصر الزياني، المرجع نفسه**، ج1، ص 285.

[342] عبد العزيز فيلالي، **نفسه**، ص 291.

[343] حميد تيتاو، **المرجع السابق**، ص 441.

[344] حيد تيتاو، **المرجع نفسه**، ص 433-434.

[345] ابراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين -المجتمع -الدهنيات -الأولياء**، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت -لبنان-، 1993، ص 119.

[346] ابراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المرجع نفسه**، ص 119.

المجتمع بمثل هذه القِيم والسلوكات والمظاهر بشكل عام، وهي في النهاية تدل -بطريقة أو بأخرى- على تأثير الحرب على ذهنية المجتمع خلال العصر الوسيط.

الفصل الثالث :دراسة عامة للتطور الديمغرافي للمغرب الأوسط في ظل الفتن والاضطرابات السياسية

المبحث الأول: العَهدَان الفاطمي والزيري: من الازدهار الديمغرافي في القرن الثالث الهجري إلى تراجعه في القرن الرابع الهجري (ق 9 و 10م)

المطلب الأول: مظاهر الازدهار الحضاري والديمغرافي للمغرب الأوسط في القرن 3هـ/9م من خلال اليعقوبي

المطلب الثاني: ابن حوقل شاهد على تراجع الوضع الحضاري والديمغرافي للمغرب الأوسط خلال القرن 4هـ/10م

المطلب الثالث: حروب وصراعات الفترة (280-398هـ/893-1008م) ودورها في التراجع الديمغرافي للمغرب الأوسط

المبحث الثاني: المغرب الأوسط ومرحلة التذبذب الديمغرافي: بين التراجع والاستقرار (398-580هـ/1008-1184م)

المطلب الأول: صراعات الفترة ومحدودية انعكاساتها الديمغرافية السلبية مقارنة بالفترة السابقة (280-398هـ/893-1008م)

1. الحملات الزيرية على الحماديين
2. الدخول الهلالي للمغرب الأوسط ومسألة تباين تأثيراته الديمغرافية: بين السلب والإيجاب
3. الصراع الحمادي المرابطي
4. الهجمات النورمانية على سواحل المغرب الأوسط
5. السيطرة الموحدية على المغرب الأوسط وضريبته الديمغرافية الكبيرة

المطلب الثاني: لماذا تم اعتبار هذه المرحلة (398-580هـ/1008-1184م) مرحلة تذبذب للوضع الديمغرافي للمغرب الأوسط (بين التَّراجع والانتعاش)؟

ـ المبحث الثالث: المغرب الأوسط وتجدّد حالة التراجع الديمغرافي (580-707هـ/1184-1307م)

المطلب الأول: ثورة بني غانية وبداية التراجع الديمغرافي (580-630هـ/1184-1233م)

المطلب الثاني: مشروع تأسيس وتوطيد أركان الدولة الزيانية (ما بين سَنتيْ 627و698هـ/1230-1299م) ودوره في استمرار التراجع الديمغرافي للمغرب الأوسط

المطلب الثالث: الحصار المريني لتلمسان (698-706هـ/1299-1306م): قراءة وصفية تحليلية لانعكاساته الديمغرافية الكبيرة

- أولاً: المجاعة بتلمسان كانعكاس مباشر للحصار
- ثانياً: الحصيلة الديمغرافية للحصار

المبحث الرابع: هل يمكن الحديث عن نسبة –ولو تقديرية– لعدد سكان المغرب الأوسط خلال الفترة مدار الدّراسة (280-706هـ/893-1307م)؟

المبحث الأول: العهدَان الفاطمي والزيري: من الازدهار الديمغرافي في القرن الثالث الهجري إلى تراجعه في القرن الرابع الهجري (ق 9 و10م):

أَقصِد هنا بالقرن الثالث الهجري/ق 9م بداية هذا القرن إلى غاية السنة الثمانين منه (سنة 280هـ/893م) تاريخ بداية هذا البحث، حيث سبق وأن نبَّهتُ إلى أن هذه السنة مَثَّلث مُنعرجا خطيرا في إعادة رسم الخريطة السياسية والمذهبية ومن ثمّ الديمغرافية لبلاد المغرب، وذلك عَقِب بداية تأزّم أوضاع الحُكم في دولة الرستميين بعد هذا التاريخ بسنة (أي سنة 281هـ/894م) إضافة إلى بداية المشروع الفاطمي ابتداءً من سنة 280هـ/893م. على عكس السنوات الثمانين الأولى من هذا القرن (من سنة 200 إلى سنة 280هـ/816-893م) التي كانت من بين أهم أَأْمَنِ الفترات الزّمنية التي عاشتها بلاد المغرب ككل سواءً على الصعيد السياسي أو المذهبي، وهو ما انعكس إيجابا على الجوانب الحضارية والاقتصادية والديمغرافية للمنطقة.

كما وتعدّ كتب الرحلات والجغرافيا من بين أهم المصادر التاريخية التي يُمكن أن تعطي الدارِس صورة شاملة وعامّة عن البلد المُراد التّعريف به، فهذه المصادر تتضمن معلومات عديدة متعلقة بالسياسة والاقتصاد والسكان والثقافة...وغيرها، فَضلاً عن تاريخ وجغرافية هذه المنطقة. إنها حقا معلومات مُهمّة وشاملة وشِبه متكاملة، وتتخذ هذه المعلومات أهمية كبرى ودِقّة كبيرة في حالة ما إذا كان صاحب هذا المصدر الجغرافي من الذين زاروا المنطقة ومَرّوا بها أو عاينوها أو عاشوا فيها لفترة زمنية معينة.

انطلاقاً من كل هذه الأوصاف التي تتميز بها كتب الرحلات والجغرافيا عن غيرها من المصادر التاريخية، آثرتُ الاعتماد عليها بشكل أكبر في التّعرف على الوضع الديمغرافي للمغرب الأوسط خِلال القرنين 3و4هـ/9-10م، وذلك من خلال الاعتماد على ما دُوِّن عند كلٍّ من اليعقوبي بخصوص القرن 3هـ/9م وابن حوقل في القرن 4هـ/10م.

المطلب الأول: مظاهر الازدهار الحضاري والديمغرافي للمغرب الأوسط في القرن 3هـ/9م من خِلال كتاب البلدان لليعقوبي:

يُعتبر اليعقوبي[347] من أوائل الجغرافيين والرّحالة المسلمين الذين أَسّسوا لهذا الصنف من العلوم والمعارف الإسلامية الذي تتميز به الحضارة الإسلامية بشكل عام في الفترة الوسيطة، ولهذا "جاء مصنَّفه: كتاب البلدان، أقدم مصدر جغرافي وأوثقه"[348] في هذا المجال.

[347] هو أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب الأصبهاني الإخباري الشهير باليعقوبي، وبابن واضح. وكان يُقال له: مولى بني العباس، ومولى بني هاشم لأن جده كان من موالي المنصور الخليفة العباسي، وكان اليعقوبي بحّاثة في التأريخ وأخبار البلدان، ساح البلاد شرقا وغربا، ودخل بلاد فارس وأطال المقام في بلاد أرمينية وكان فيها سنة 260هـ/ 874م، ودخل الهند أيضا

تظهر أهمية كتاب (البُلدان) لليعقوبي لأوّل وهلة عند قراءتنا لمقدمته التي يذكر فيها جميع ما تضمنه مصنفه من أخبار البلدان التي ترجم لها على مستوى مختلف المجالات: التاريخية، الجغرافية، الاقتصادية والسكانية وحتى الجوانب الدينية والثقافية، كما وذكر اليعقوبي كيف استطاع جمع معلومات كتابه التي كانت في أغلب الأحيان، إما معاينة عن طريق أسفاره الطويلة، أو عن طريق مساءلته للناس في المواسم وغيرها، أو عن طريق السّماع من ثِقات أهل الأمصار[349].

وتبرز أيضا أهمية مصنف اليعقوبي هذا، في كونه قد زار معظم البلدان التي تطرق لها في كتابه حسب ما يفهم من مقدمة محقق هذا الكتاب[350]. وبخصوص المغرب الأوسط وبلاد المغرب عموما، فقد زارها بعد سنة 260هـ/874م[351]، وبذلك يكون ابن واضح اليعقوبي أقدم رحالة وجغرافي مَشرقي زار المنطقة في القرن الثالث للهجرة/9م[352].

يُعتبر وَصْف اليعقوبي للبلاد الغربية وخاصة المغرب الأوسط أهم النصوص الجغرافية التي تقدم لنا صورة بشرية لشمال المنطقة التي تعبرها القوافل التجارية في القرن الثالث الهجري/9م، وتظهر تلك الصور متنوعة من المراكز إلى المدن وما يعمرها من الفئات الإثنية المتعددة بالإضافة إلى الإمارات القبلية التي تتحكم في جهات المنطقة[353]. ومِنه، فاليعقوبي في كِتابه (البلدان) يعتبر وثيقة وصفية مُعاصرة[354] للأوضاع العامة لبلاد المغرب في القرن الثالث الهجري/9م.

وفيما يلي أهم الملامح التي تميز الوضع الحضاري والديمغرافي للمغرب الأوسط من خلال اليعقوبي:

والأقطار العربية، فالشام فالمغرب إلى الأندلس. ينظر: اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 284هـ/897م)، **البلدان**، وضع حواشيه: مُحَّد أمين ضنَّاوي، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان–، ص 5 (من مقدمة المحقق).
اختُلِف في تاريخ وفاته، حيث يذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء أنه كان سنة 284هـ/897م، في حين أن هناك من يرى أنه كان حيا سنة 292هـ/905م، والبعض الآخر يرى أنه توفي في هذه السنة أي 292هـ/905م. ينظر (على التوالي): ياقوت الحموي الرومي، **معجم الأدباء إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب**، تحقيق: إحسان عباس، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت –لبنان–، 1993، ص 557. اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي، **تاريخ اليعقوبي**، تح: عبد الامير مهنا، مج1، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت –لبنان–، 1431هـ/2010م، ص 5 (من مقدمة المحقق). اليعقوبي، **البلدان**، **المصدر السابق**، ص 5 (من مقدمة المحقق).

[348] اليعقوبي، **البلدان**، **نفسه**، ص 3 (من مقدمة المحقق).

[349] عن ذلك كله، ينظر: اليعقوبي، **نفسه**، ص 9.

[350] لمعرفة البلدان التي طافها وزارها اليعقوبي، ينظر: اليعقوبي، **نفسه**، ص 5 (من مقدمة المحقق).

[351] **نفسه**، الصفحة نفسها (من مقدمة المحقق).

[352] موسى لقبال، **زناتة والأشراف الحسنيون في مجال تلمسان والمغرب الأوسط**، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ع26، ص 93.

[353] هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي**، ج2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1415هـ/ 1995م، ص 92.

[354] **نفسه**، ص 80-81.

أ. **التعايش السياسي والمذهبي والقبلي:**

قد لا يُحتاج إلى عَناءٍ كبير عند تَصفّح ما كتبه اليعقوبي عن المغرب الأوسط إلى استنتاج أن هناك تعددا وتعايشا سياسيا ومذهبيا وقبليا (عِرقيا) بين مختلف القِوى والمراكز السياسيية التي دَوّنها في مُصنَّفه، ولم يذكُر بتاتا أن هناك صراعاً بين مختلف هذه القِوى، إلا في حالة واحدة فقط ووحيدة والتي هي عِند حالة ذِكره ل"رَجلٍ من هوارة يقال له ابن مسالة الإباضي [الذي هو] مخالف لابن أفلح [الرستمي] [و] يُحاربُه"[355].

وسأحاول في هذا الجدول ذِكر مختلف الإمارات والمراكز السياسية بالمغرب الأوسط خلال ق 3هـ/9م والتي رصدها اليعقوبي في كِتابه:

الجدول رقم 07: يمثل الإمارات والممالك والمراكز السياسية بالمغرب الأوسط خلال ق 3هـ/9م التي رصَدها اليعقوبي في كتابه البلدان:

إسم الإمارة أو المملكة أو المركز السياسي	المركز أو العاصمة (أهم المدن)	القبائل التابعة	المذهب ونمط العيش
بنو مسالة	مدينة الجبل – يلل	هوارة	خوارج إباضية...لها زرع وقرى وعمارات وزروع وأشجار
مملكة العلويين (بنو سليمان	مدينة هاز	بنو يرنيان الزناتيون، زناتة زواوة	شبه معتدلة وهم أصحاب عمارة وزرع (إنتماء متنوع)
إمارة بني مصادف (حصن مصادف)	بلد واسع (رعاة)	بنو دمر من زناتة	خوارج إباضية (شراة)...بلد زروع وموانئ
مملكة ابن مُحَّد بن جعفر	مدينة متيجة (البليدة حاليا) (حصن بن كرام)	لم يحددها اليعقوبي	لم يذكر، ولعلهم متنوعو الانتماء سُنّة وخوارج، (بلد زرع وعمارة)

[355] اليعقوبي، **البلدان**، **المصدر السابق**، ص 195.

مملكة بني مُحَّد بن سليمان	مدينة مذكرة (مليانة حاليا) ومدينة الخضراء (عين الدفلى)	لم يذكرها اليعقوبي	لعل مذهبهم يغلب عليه التشيع المعتدل والسنة
إمارة عيسى بن إبراهيم	سوق ابراهيم (قرب الأصنام) على مصب نهر يسلي	لم يحددها اليعقوبي	مستقرون وتجار ومتنوعو المذهب
إمارة تلمسان	تلمسان وضواحيها	مكناسة – مطماطة	خوارج وهؤلاء أنصاف رحل فمنهم المزارعون والتجار

المصدر: مجتمع المغرب الأقصى، ج2، ص 95. (بتصرف من الطالب من خلال كتاب البلدان لليعقوبي، ص ص 190 – 196).

وللتّذكير فقط، فإن هذه الإمارات والمراكز السياسية المذكورة في هذا الجدول، تشمل فقط المنطقة الممتدة من نواحي المسيلة إلى تلمسان وضواحيها، أي يضاف إلى كل هذه المراكز السياسية: إقليم الزاب والذي يشتمل على عدة مدن مهمة وكبيرة، ففضلاً عن "طبنة مدينة الزاب العظمى و[التي] هي في وسط الزاب، وبها ينزل الوُلّاة"[356]، هناك أيضاً مدنٌ أخرى لا تقل أهمية عن هذه المدينة وهي: باغاية، تيجس، ميلة، سطيف، بلزمة، نقاوس، مقرة...إلخ[357].

وانطلاقا من هذا المجال الواسع لإقليم الزاب لم يذكُر اليعقوبي سِوى خِلافيْن سياسيين شهدهما هذا الإقليم، الأول يخص مدينة بلزمة وأهلها الذين هم " قوم من بني تميم موالي لبني تميم، وقد خالفوا على ابن الأغلب في هذا الوقت"[358] ومدينة أحة التي "خالف أهلها [أيضا] على بني الأغلب وكان من خالفه قوم من هوارة يقال لهم بنو سمعان وبنو ورجيل وغيرهم"[359]، وأيضا الحصون القريبة من مدينة مقرة التي "بها قوم من بني تميم من بني سعد يقال لهم بنو الصمصامة خالفوا على ابن الأغلب...وظفَر ببعضهم فحبَسهم"[360]. غير ذلك، فلم يذكُر اليعقوبي عن أَيّ نَوعٍ من الصّراعات سياسيةً كانت أم مذهبية أم قَبَلية، وهذا يَدلُّ أن هناك حقّاً تعايشاً بين هذه المدن والمجالات بالرغم من هذه الاختلافات الهائلة فيما

[356] اليعقوبي، **البلدان**، **المصدر السابق**، ص 190.

[357] عن هذه المدن، ينظر: **اليعقوبي**، **نفسه**، ص 190 – 191.

[358] **نفسه**، ص 190.

[359] **نفسه**، ص 191.

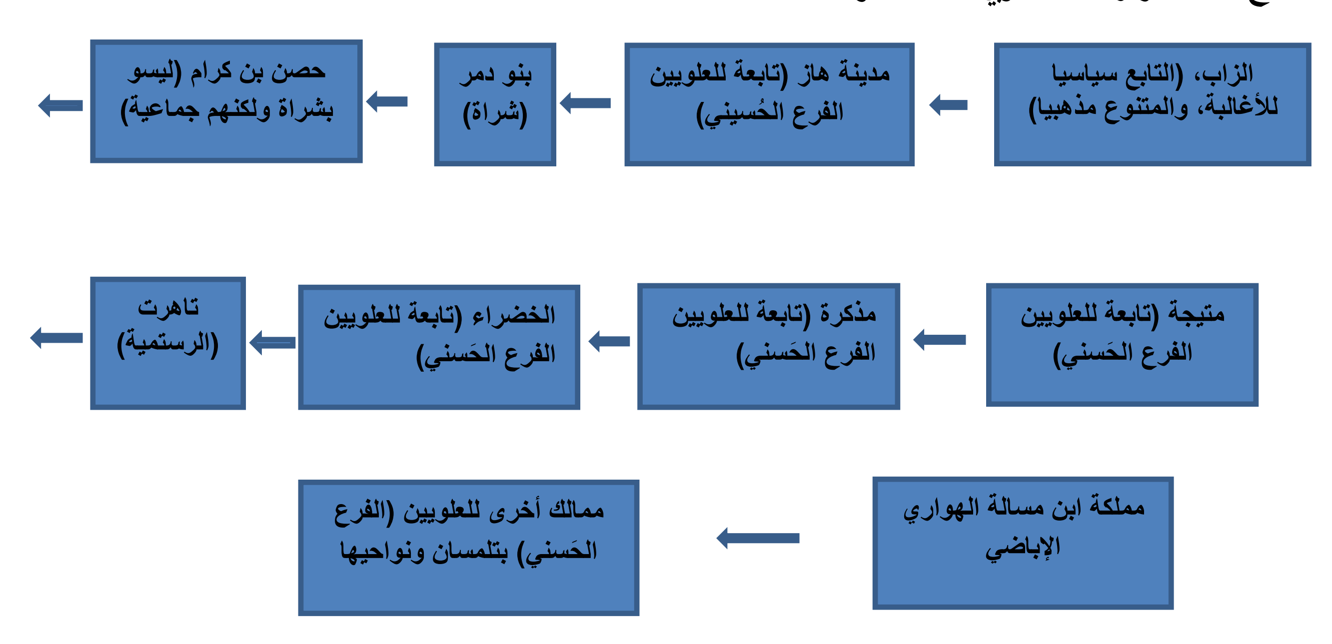
[360] **نفسه**، ص 191.

بينها، خاصة عند الحديث عن منطقتي الزاب والأوراس ذات الأغلبية الإباضية والواقِعة ضِمن المجالات الأغلبية أو قريبة منها لكنها مع ذلك تحمل في مُعظمها ولاءً لتيهرت الرّستمية.

وبالمناسبة، فإن هذا التعدد التعايش السياسي والمذهبي والقَبلي الذي أتحدث عنه لم يكن يختص بالدول والإمارات والمراكز السياسية فحسب، بل اختصت به حتى المدن والمجالات المحيطة بها، مثل مدينة باغاية التي "بها قبائل من الجند وعجم من أهل خرسان، وعجم من عجم البلد من بقايا الروم، حولها قوم من البربر من هوارة بجبل يقال له أوراس"[361]. أيضا مدينة مقرة "أهلها قوم من بني ضبة وبها قوم من العجم وحولها قوم من البربر يقال لهم كزبرة، وقوم يقال لهم سارسة"[362].

يمكن أن يَتَبَيَّن مدى التعدد والتنوع في القوى والمراكز السياسية والمذهبية والقبلية التي ذَكَرها اليعقوبي من خلال تَتبّع خط سَيْر رِحلته في طريق المغرب الأوسط وِفق الشكل الآتي:

الشكل رقم 02: يمثل مدى التعدد والتنوع في المراكز السياسية والمذهبية والقَبَلية بالمغرب الأوسط خلال ق 3هـ/9م من خلال تتبع خط سير رحلة اليعقوبي ببلاد المغرب:



المصدر: من إنجاز الطالب بالاعتماد على كتاب البلدان لليعقوبي، المصدر السابق، ص ص 190-192 و 195-198.

---

[361] **نفسه**، ص 190.

[362] **نفسه**، ص 191.

إنه لمن المُلفِت للانتباه حَقّاً رُؤية هذا الكمّ من التَّنوع والتَّعدد السّياسي (أغلبي-رستمي-علوي) والمذهبي (حنفي/مالكي-إباضي-زيدي) والقبَلي (بربر-عرب-روم-فرس...). والمُلفِت أكثر هو ذاك التعايش السلمي الذي كان سائداً بين هذه الأطياف في هذه الفترة (ق3هـ/9م) دون حدوث صِراعات دموية وعنيفة كتلك التي حدثت في القرن المُنصرم (ق2هـ/8م) أو التي ستحدث بعد ذلك في القرن الموالي (ق4هـ/10م).

أكيد أن جَوّ التعايش السلمي هذا بين مختلف هذه القوى سيؤدي -لا محالة- إلى سيادة عنصر الأمن وهو ما سيشجّع مختلف الجماعات السكانية والقَبَلية بالمغرب الأوسط على التفرغ للعيش والاستقرار وممارسة أنشطتهم الاقتصادية من زراعة وتجارة وغيرها بشكل مريح وفي ظروف أحسن من حالة الحرب. الأمر الذي سَينعكِس إيجاباً على الوضع الاقتصادي والعمراني للمغرب الأسط في هذا القرن (ق3هـ/9م). ذلك ما سَأُحاول تِبيانه فيما يلي:

ب. الازدهار الاقتصادي:

- ✓ **على الصَّعيدَيْن الزراعي والرعوي:**

ذكر اليعقوبي في كثير من الأحيان بعض العبارات والإشارات التي تدل على الازدهار الزراعي والرعوي بالمغرب الأوسط. صحيح بأنه لم يُفصِح عن معلومات في غاية الدِّقة والتَّفصيل عن هذا الجانب بسبب تميز أسلوبه بالتلخيص والاختصار، إلا أنه قَدَّم بعض العبارات التي تدل على ذلك، مثل قوله عند حديثه عن **ميلة** ومنطقتها: " وهذا البلد كله عامِر كثير الأشجار والثمار وهم في جبال وعيون"[363]، أيضا يُضيف قائلاً بخصوص مدينة **هاز** ومنطقتها: "...وهم أصحاب عمارة وزرع وضرع..."[364]، نفس الشيء بالنسبة ل**مجالات بني دمر** حين قوله: "...في بلد زرع مواش"[365]، أيضا بِخصوص مملكة ابن مسالة الإباضي: "...ولها مزارع وقرى وعمارات وزرع وأشجار..."[366].

الجدول رقم 08 : يمثل عيّنة من النصوص الدّالة على الإزدهار الزراعي والرعوي للمغرب الأوسط خلال ق3هـ/9م من خلال اليعقوبي:

العبارات الدالة على الإزدهار الزراعي والرعوي	المنطقة	الصفحة

[363] اليعقوبي، **البلدان**، **المصدر السابق**، ص 190.

[364] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[365] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[366] **نفسه**، ص 195.

"...وهذا البلد كله **عامر كثير الأشجار والثمار** وهم في جبال وعيون..."	المجالات الكتامية (ميلة-جيجل-سكيكدة...)	190
"...كثيرة العمارة و**الثمر**..."	مدينة نقاوس	190
"...وهم أصحاب عمارة **وزرع وضرع**..."	هاز ومنطقتها	191
"...وهم...في **بلد زرع ومواش**..."	بنو دمر/ مملكة مصادف بن جرتيل	191
"...وهو **بلد زرع** وعمارة..."	متيجة ومنطقتها	191
"...ويتّصل [بالخضراء] مدن كثيرة وحصون وقرى **ومزارع**..."	الخضراء ومنطقتها	192
"...ولها (أي مدينة يلل) **مزارع** وقرى وعمارات **وزرع وأشجار**..."	مدينة يلل	195

المصدر: من إنجاز الطالب بالاعتماد على: اليعقوبي، البلدان، المصدر السابق.

هناك جُملة من الأسباب والامكانات الطبيعية والبشرية التي ساعدت على ازدهار هذه الحركية الزراعية والرعوية بالمغرب الأوسط في هذه الفترة، حيث عدّدها أحد الباحثين[367] فيما يلي:

العوامل والإمكانات الطبيعية: الموقع الجغرافي الاستراتيجي والمميز، توفر المساحات الزراعية والرعوية إضافة إلى خصوبة التربة والمناخ الملائم.

العوامل والامكانات البشرية: توفُّر اليد العاملة، النظام الزراعي الذي عرف به المغرب الأوسط كَتنظيم مِلكيات الأراضي الزراعية والرعوية وتقسيمها إلى أنواع وتطوير أساليب الري والمساقاة، إضافة إلى غير ذلك من العوامل.

إلا أنني أعتقد أن السَّبب الرَّئيسي وراء هذا الازدهار تمثَّل في توفّر عنصر الأمن الناجم عن الاستقرار السياسي –النسبي– الذي شهدته المنطقة. فَنُقص الحملات العسكرية بسبب انحسار جو الفتن والاضطرابات السياسية في هذه الفترة،

[367] ينظر: بحلولي سليمان، **الدولة السليمانية والإمارات العلوية في المغرب الأوسط 173-342هـ/789-954م**، تق: غازي الشمري، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م، ص ص 139-145.

يعد أهم عنصر مشجع على عنصر الاستقرار والتفرغ لممارسة مختلف الأنشطة الاقتصادية من زراعة وتجارة ورعي وغيرها على حساب الأنشطة الحربية التي تعرقل حركة النُّمو والتطور الاقتصادي والعمراني والديمغرافي.

- ✓ **على الصعيد التجاري:**

رغم أن وثيقة الجغرافي اليعقوبي تغطي المناطق التي تعبرها طرق المسالك التجارية القوافلية[368]، إلا أن المعلومات التجارية للمغرب الأوسط عند اليعقوبي تكاد تكون مُنعدمة. غير أنه يُوجد في المعلومات الاقتصادية الأخرى التي قدّمها اليعقوبي ما يُقِيم دليلاً على أن الجانب التجاري للمغرب الأوسط كان مُزدهراً أيضاً في هذه الفترة، أَلمس ذلك مثلاً عند حديثه عن المراسي المتواجدة بسواحل المغرب الأوسط، مِثل **مَرسى فَرُّوخ**[369] الذي "ترسو به مراكب تاهرت"[370] ، إضافة إلى مَراسي أخرى على غِرار **مراسى جيجل وإسكيدة (سكيكدة)**[371]وغيرها.

ومِنه فإن كثرة وتعدّد هذه المراسي يدل على ازدهار حركة التجارة البحرية الخارجية للمغرب الأوسط مع غيره من الأقطار في هذه الفترة، خاصة مع العدوة الأندلسية. ولا أَدَلُّ على هذه الحركة من الدَّوْر الذي قام به التجار الأندلسيون من تأسيس عدة مدن بساحل المغرب الأوسط لأغراض تجارية بالدرجة الأولى مِثل: تنس[372] و وهران[373] وغيرها.

أما التجارة الداخلية فقد ازدهرت هي الأخرى، وبرزت هناك عدة مدن وقرى يتكون اسمها من عبارة (سوق)، مثل: قرية **سوق هوارة**[374]، قرية **سوق كَرَّام**[375]، مدينة **سوق حمزة**[376]. ومن خلال أسماء هذه المراكز السكانية أستطيع أن أستنتج أنها كانت في الأصل أمكنة لمختلف الأسواق اليومية والأسبوعية والموسمية بين مختلف القبائل والمدن والمراكز

[368]هاشم العلوي القاسمي، **المرجع السابق**، ج2، ص 98.

[369]يذكر الأستاذ فيلالي عبد العزيز –فيما نُقِل عنه– أنّ مرسى فروخ يقع في منطقة وهران ما بين مدينتي مستغانم وأرزيو، ويسمى حاليا مرسى الدّجاج. ابراهيم بحاز، **المرجع السابق**، ص 192. (الهامش رقم 24).

[370]اليعقوبي، **البلدان**، **المصدر السابق**، ص 192.

[371]**نفسه**، ص 190.

[372]عن تأسيس مدينة تنس، ينظر: البكري، **المصدر السابق**، ص 61.

[373]عن تأسيس مدينة وهران، ينظر: البكري، **نفسه**، ص 70.

[374] **نفسه**، ص 60.

[375] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[376] **نفسه**، ص 65.

السكانية، وتطورت أو حُوّلت فيما بعد إلى مدن على غِرار مدينة فَكَّان أو إِفْكَانْ التي "كانت سوقا قديمة من أسواق زناتة فمدَّنها يعلى بن مُحَّد بن صالح اليفرني...سنة ثمان وثلاثين وثلاثمية"[377].

كما لا يخفى على أحد الوضع التجاري المزدهر لتيهرت وللدولة الرستمية عموما، لاسيما على صعيد التجارة الخارجية التي انتعشت منذ البدايات الأولى للدولة الرستمية كما هو واضح من هذا النص المصدري: "...واستُعملت السبل إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة فأقاموا على ذلك سنين...والعمارة زائدة والناس والتجار من الأقطار تاجرون"[378].

واستمر الحال على ذلك في أواسط عمر الدولة، ففي "عهد ثالث الأئمة الرستميين أفلح ابن عبد الوهاب (211-240هـ/826-854م)"[379] ازدهرت أوضاع تيهرت و"عُمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة وأجرو الأنهر"[380]. وأكبر دليل على الحضور القوي للتجارة في الدولة الرستمية هو أن بعض أئمتها كانوا تجارا أو كانوا قد تعاطوا التجارة إما قبل إمامتهم أو بعدها أو في كِلتا الحالتين، مثل الإمام أفلح بن عبد الوهاب (208-258هـ/823-872م)[381] والإمام أبي بكر بن أفلح بن عبد الوهاب (230-241هـ/844-855م)[382]، وكذا الإمام أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان (281-294هـ/894-907م)[383].

ت. الازدهار العمراني والديمغرافي

اعتباراً من جملة المدن التي أوردها اليعقوبي في مصنفه، أورد في كثير من الأحيان عدة عبارات ومصطلحات دالة على كِبر هذه المدن وازدهار عمرانها مثل: "مدينة عظيمة"[384]، "مدينة عظيمة جليلة...عامرة"[385]، "جليلة المقدار عظيمة

---

[377] البكري، **المصدر السابق**، ص 79.

[378] ابن الصغير (ت ق3هـ/9م)، **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق وتعليق: مُحَّد ناصر وابراهيم بحاز، د د ن، د م ن، ص 32.

[379] آمال سالم عطية، **دور الإمام أفلح ابن عبد الوهاب في ازدها الحركة العلمية بتيهرت خلال القرن الثالث الهجري**، مجلة عصور الجديدة، ع 23 –عدد خاص-، صيف (أوت) 1437هـ/2016م، ص 232.

[380] ابن الصغير، **المصدر السابق**، ص 53.

[381] ينظر: جودت عبد الكريم يوسف، **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1984، ص 68. (الهامش رقم2).

[382] يُنظر: جودت عبد الكريم يوسف، **نفسه**، ص 66.

[383] يُنظر: **نفسه**، ص 68.

[384] مثلا عند حديثه عن مدينة أيْزرَج. اليعقوبي، **البلدان**، **المصدر السابق**، ص 196.

الأمر"[386]و" المدينة العظمى"[387] وغيرها. وهذه الظاهرة لم تختص بها المدن والمجالات الحضرية فحسب، بل وحتى القرى والحصون والمجالات الريفية بشكل عام كانت مزدهرة عمرانيا، وذلك ما يمكن فهمه من خلال تكرار عدة عبارات على شاكلة: "وهو بلد واسع فيه عدة مدن وحصون، وهو بلد زرع وعمارة"[388]، "ويتصل [بها] مدن كثيرة وحصون وقرى ومزارع"[389]...إلخ

وفي سياق الازدهار العمراني دائما، يُسَمِّي اليعقوبي تيهرت ب"**عِراق المغرب**"[390]، وهذا أكبر دليل على عِظم ما وصلت إليه هذه المدينة عمرانيا، خاصة وأن اليعقوبي من العراق وبالضبط من بغداد كما هو معلوم، ولايُخفى على أحدٍ عِظم ما وصلت إليه بغداد خُصوصاً والعراق عموماً في هذه الفترة من رُقِيٍّ حضاري وتطورٍ عمراني وديمغرافي كَبيريْن.

أما على الصّعيد الديمغرافي، فاليعقوبي لم يذكر بشكل واضح معلومات ديمغرافية مهمة ومحددة عن مجالات المغرب الأوسط التي ذكرها في مصنفه، لكنه قدّم -في المقابل- العديد من المؤشرات الدّالة على الازدهار الديمغرافي لهذه المنطقة، وعلى سبيل المثال يسمي طبنة ب"مدينة الزاب العظمى" في موضعين[391].

بل يُفهم من خلال وصفه لكل من مدينتي: طبنة وتيهرت أنهما مدينتان في غاية الازدهار الديمغرافي، وأنهما أيضا مدينتان متعددتا الأجناس والأعراق، فعن طبنة يورد قائلا: "...وهي التي ينزلها الولاة وبها أخلاط من قريش والعرب والجند والعجم والأفارقة والروم والبربر"[392]، وذكر بشأن تيهرت أن بها "أخلاط[اً] من الناس"[393]. وعن تيهرت دائما يُلاحَظ من خلال أحد المصادر[394] أنها كانت منذ بداية نشأة الدولة الرستمية مدينة متعدِّدة الأعراق والمذاهب والثقافات، وذلك وِفق ما يُفهم من هذا النص المصدري: "...حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان

---

[385]مثلا عند حديثه عن مدينة ميلة. اليعقوبي، **البلدان**، **المصدر نفسه**، ص 190.

[386] عند حديثه عن مدينة تيهرت. اليعقوبي، **نفسه**، ص 192.

[387]مثلا عند حديثه عن مدينتي تيهرت وتلمسان. **نفسه**، ص 192 و ص 196 (على التوالي).

[388]عند حديثه عن منطقة متيجة. **نفسه**، ص 191.

[389]عند حديثه عن مدينة الخضراء (عين الدفلى حالياً). **نفسه**، ص 191.

[390] **نفسه**، ص 192.

[391] **نفسه**، ص 190.

[392] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[393] **نفسه**، ص 192.

[394] ابن الصغير، **المصدر السابق**، ص 32.

القَرَوي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين..."[395]، وهذا دليل آخر على اتساع خطة هذه المدينة وازدهار عمرانها وديمغرافيتها.

وكذلك الحال بالنسبة لمدينة تلمسان التي سماها اليعقوبي ب"المدينة العظمى المشهورة بالغرب"[396]، حيث ذكر أن بها "خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة"[397] كدليل قاطع على ازدهار عمران وديمغرافية هذه المدينة.

من خلال كل ما سبق، يُمكن القول أن هذا الازدهار العمراني الكبير الذي شهدته مختلف مدن ومناطق المغرب الأوسط سينعكس بالضرورة إيجابا على الجانب الديمغرافي لهذه المنطقة. واعتباراً مما ذُكر يمكن القول أن الوضعية الديمغرافية للمغرب الأوسط كانت منتعشة وفي غاية الازدهار بسبب توفر جملة من الشروط والعوامل التي أدت إلى ذلك، وفي مقدمتها: الاستقرار السياسي –النسبي- الذي ساد هذه المنطقة ومنطقة بلاد المغرب أجمع في هذه الفترة (ق3هـ/9م)، إضافة إلى ازدهار الجوانب التجارية والزراعية والرعوية والعمرانية للمغرب الأوسط، والتي انتعشت –أي هذه الجوانب- بدورها كنتيجة من نتائج الاستقرار السياسي.

لقد ساعدت مختلف الظروف –خاصة السياسية منها- على ازدهار مختلف المدن بالمغرب وانتعاشها ديمغرافيا وعمرانيا بسبب وقوعها كمراكز سياسية لمختلف القوى السياسية التي كانت سائدة آنذاك. فبرزت **طبنة** كعاصمة سياسية مركزية لإقليم الزاب التابع للأغالبة، وبرزت **ميلة** كحاضرة للقبائل والمجالات الكتامية، و**تيهرت** كعاصمة سياسية واقتصادية للدولة الرستمية. دون نسيان **مدن الإمارات العلوية والسليمانية** المنتشرة هنا وهناك ضمن إطار مجالات المغرب الأوسط الشمالية والممتدة من **هاز** (نواحي المسيلة) شرقا إلى **تلمسان** غربا، هذا دون إغفال مختلف **المجالات الريفية والبدوية** التي انتعشت هي الأخرى ديمغرافيا وعمرانيا نتيجة ازدهارها الاقتصادي زراعيا ورعويا وحتى تجاريا، سِيَما تلك المراكز السكانية الواقعة على خطوط شبكة الطرق والمسالك التجارية البرية والبحرية.

---

[395] ابن الصغير، **المصدر السابق**، ص 32.

[396] اليعقوبي، **البلدان**، **المصدر السابق**، ص 196.

[397] **نفسه**، الصفحة نفسها.

المطلب الثاني: ابن حوقل شاهِدٌ على تراجع الوضع الحضاري والديمغرافي للمغرب الأوسط خلال القرن 4هـ/10م:

في البداية يجب التنويه إلى أمر مُهمّ، وهو أن هذا التراجع الحضاري والديمغرافي الذي أتحدث عنه، هو تراجع نِسبي مقارنة بالازدهار الذي كان سائدا في القرن المنصرم (ق3هـ/9م)، ولم يكن بتلك الدرجة الكبيرة التي ربما سيتصورها البعض. إذ شمل هذا التراجع بشكل أكبر المناطق التي كانت عُرضة بصفة كبيرة لمختلف الصراعات والحملات العسكرية أثناء المرحلة الفاطمية ومن بعدها الزيرية ضد المعارضين والمنتزين. إذ تركزت هذه المناطق في الغالب في بلاد الزاب والمجالات الكتامية والمنطقة الشمالية الوُسطى والغربية للمغرب الأوسط.

أ. التّعريف بابن حوقل:

يُعدّ مُحَمَّد ابن حوقل النصيبي أو الموصلي أو البغدادي وذلك حسب اختلاف الروايات في تعيين مَسقط رأسه واحداً من أشهر الجغرافيين الرحالة الذين أفرزتهم العصور الإسلامية الزاهية[398]، وهو أبو القاسم مُحَمَّد علي الموصلي المشهور بابن حوقل، وُلد ببغداد ونشأ بها على اتفاق المؤرخين[399] غير أن هناك من يرى أنه وُلِد بِنصِّبِينْ[400] بالجزيرة[401]، وإن كنا لا نعرف تاريخ مولده، إلا أنه قضى طفولته بنصّيبين[402]. وفي مدينة نِصّيبين ثم بغداد تلقى علومه الأولى، ولقد اتّضحت ميوله العلمية في سن مبكرة متجهة نحو علم الجغرافيا، ذلك أنه طالع عددا من كتب الجغرافيين المسلمين فشغف بها، مما عَمّق في نفسه فيما بعد حُبّ الرحلة الجغرافية، وعِلاوة على ذلك، كان اشتغاله بالتجارة ومزاولته لها سبباً في تزايد حبّ التَّرحل والتِّجوال لديه[403].

---

[398] يوسف بن أحمد حوالة، **ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للجناح الغربي من الدولة الإسلامية**، مجلة رسائل جغرافية، ع 142، جامعة الكويت - الجمعية الجغرافية الكويتية، رمضان 1412هـ/مارس 1992م، ص 3.

[399] عبد الرحمن حميدة، **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**، دار الفكر، دمشق، إصدار 1416هـ/1995م، ص 210.

[400] "...مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادّة القوافل من الموصل إلى الشام...بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام...". الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، **معجم البلدان**، مج5، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م، ص 288. تقع حاليا هذه المدينة في الجنوب الشرقي لدولة تركيا الحالية قرب الحدود بين دولة تركيا ودولة سوريا.

[401] أحمد رمضان أحمد، **الرحلة والرحالة المسلمون**، دار البيان العربي، جدة، د.ت.ن، ص 117.

[402] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[403] يوسف بن أحمد حوالة، **المرجع السابق**، ص 4.

عَزَم ابن حوقل عل السفر والارتحال في السابع من شهر رمضان سنة 331هـ/943م في دِيار الإسلام، فظَلَّ يجوب البلاد نحو ثلاثين عاما طلباً لدراسة البلاد والشعوب ورغبة في الارتزاق من باب التجارة[404]. لكن هل حقا هذه هي الأسباب الحقيقية التي أدت به إلى القيام برحلته الطويلة هاته نحو مختلف أقاليم العالم الإسلامي آنذاك، وإعطائنا معلومات في غاية الدقة عن الوضع السياسي الاجتماعي والاقتصادي والجغرافي لمختلف البلدان والأقاليم التي زارها بمنتهى الدقة والإحكام لاسيما في المنطقة الغربية من العالم الإسلامي، خاصة إذا علمنا أن هناك من يذهب إلى القول أن ابن حوقل "ربما كان في الحقيقة داعيا سياسيا"[405]. أما المستشرق الهولندي رينهارت دوزي (Reinhart Dozy) فيَرى ب"أنّ ابن حوقل جاسوساً للفاطميين بلا ريب"[406]، في حين يراه المستشرق الآخر ليفي بروفنصال (Lévi-Provençal) أنه "من عملاء العباسيين أو الفاطميين"[407].

لكن في المقابل، يُقرّ هؤلاء المستشرقون في الوقت نفسه أن ابن حوقل "قد عاش طويلا بقرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث، أي في عهد ازدهار خلافة الأمويين بالأندلس"[408]. ولم يستطيعوا أن يفسروا كيف ولماذا مكث ابن حوقل في الأندلس وبالضبط في قرطبة كل هذه المدة من الزمن حتى أن هناك من يرى أن ابن حوقل من "الثابث أنه توفي بالأندلس بعد سنة 367هـ"[409]، وهذا ما يجعلني أتحفظ -نوعا ما- عن ادعاءات هؤلاء المستشرقين، وبالتالي أقف موقف الحياد من هذا الأمر ما لم يُعثَر على دليل قوي ورادع يؤكد صحة ذلك.

بدَأ ابن حوقل رحلاته كما ذكرنا من قبل سنة 331هـ/943م، حيث جاب أولا قطره: العراق ثم عرج على إيران ومنها إلى بلاد الهند ثم عاد فاتجه إلى بلاد العرب، وتحديداً الأحساء ثم إلى بلاد الشام، ثم مصر، ويَمَّم بعد ذلك وجهه نحو غربي الدولة الإسلامية، فزار بلاد المغرب، وبلاد السودان الغربي ثم الأندلس ثم قام أخيرا بزيارة لجزيرة صقلية إبان وجود المسلمين بها حدود سنة 362هـ/973م[410].

---

[404] أحمد رمضان أحمد، **المرجع السابق**، ص 117.

[405] اغناطيوس يوليانوفيتش كراتشوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الأول، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963،ص 200.

[406] **نفسه**، ص 204.

[407] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[408] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[409] علي ابن عبد الله الدفاع، **رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية**، مكتبة التوبة، د د ن، د م ن، د ت ن، ص 107.

[410] يوسف بن أحمد حوالة، **المرجع السابق**، ص 4.

وجدير بالذكر، فإن ابن حوقل يعتبر من بين أهم الجغرافيين الذين تحدثوا عن بلاد المغرب وعن منطقة الغرب الإسلامي بشكل عام في القرن 4هـ/10م. وهو الأمر الذي أدى بأحدهم إلى القول بأن ابن حوقل يعد "الخبير الأول من بين جغرافيي عصره في شؤون المغرب"[411]. بل ذهب هذا الطرح إلى أكثر من ذلك عندما ذكر بأنه "لا تظهر أصالة ابن حوقل إلا من خلال الفصول التي كتبها عن الجناح الغربي من العالَم الإسلامي"[412].

يمكن القول في البداية أن مادة الجناح الغربي للدولة الإسلامية في كتاب صورة الأرض قد استغرقت حيزا واسعا من الكتاب، أي حوالي: 61 صفحة، حيث شغل المغرب العربي الأفريقي بأقسامه التاريخية الثلاثة: المغرب الأدنى والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى من هذه الصفحات 39 صفحة، أما الأندلس فقد شغل 8 صفحات.[413]

وبما أن ابن حوقل كان اهتمامه واسعا بمنطقة بلاد المغرب والغرب الإسلامي بصفة عامة. وبما أن موضوع البحث منصب حول المغرب الأوسط، سأحاول التطرق لما ورد عند ابن حوقل والمتعلق بهذه الرُّقعة الجغرافية (المغرب الأوسط)، بتتبع ملامح التراجع الإقتصادي والعمراني والديمغرافي التي كانت سائدة في القرن السابق لابن حوقل (في ق3هـ/9م)، والتي وردت عند اليعقوبي مع التركيز على المناطق والمدن والقرى التي وردت عند اليعقوبي بصفة أكثر حتى تكون هناك نوعٌ من المقارنة بين وضع هذه المناطق والمجالات خلال هاتين الفترتين (ق3و4هـ/9و10م).

ولا بأس من إعادة التأكيد على أن هذا التراجع الذي أتحدث عنه كان تراجعا نسبيا وليس كليا تماما، وشمل فقط هذا التراجع –بصفة كبيرة– المناطق التي كانت مجالاتها مَسرحا للصراعات العسكرية بين الدولة الفاطمية ومن بعدها الزيرية ضد القبائل المناوئة لها من زناتة وكتامة. في حين بقيت المناطق البعيدة عن هذا الصراع و الأقل تعرضا للظاهرة الحربية ، بقيت بمنأى عن هذا الصراع، وهو ما ساهم في قُدرتها من المحافظة على ازدهارها الاقتصادي والعمراني والديمغرافي.

ب. قراءة في بعض مظاهر التراجع الاقتصادي والديمغرافي لمجالات المغرب الأوسط خلال ق4هـ/10م من خلال ابن حوقل:

أكيد عند الحديث عن الاقتصاد في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، فإن هذا –على ما أعتقد– يعني الحديث مباشرةً على الزراعة والرعي باعتبارهما ركيزتي اقتصاد هذه المنطقة خلال العصر الوسيط، تليها التجارة، ثم الصناعة ثم سائر

[411] عبد الرحمن حميدة، **المرجع السابق**، ص 210-211.

[412] عبد الرحمن حميدة، **نفسه**، ص 211.

[413] يوسف بن أحمد حوالة، **المرجع السابق**، ص 15.

الأنشطة الاقتصادية الأخرى. إلا أن الزراعة والرعي والتجارة شكلت أهم الأنشطة الإقتصادية لبلاد المغرب خلال الفترة الوسيطة.

وكما لُوحظ في المطلب السابق فإن هذه الأنشطة الاقتصادية كانت في غاية الازدهار في القرن المنصرم (ق3هـ/9م)، من خلال ما تم رصده من معطيات وردت عند اليعقوبي. لكن وفي المقابِل فإنه وعند استقراء ما وَرَد عند ابن حوقل حول هذه الأنشطة يُمكن ملاحظة بعض العَلامات الدَّالة على التراجع في حجم كثافة هذه الأنشطة بالمغرب الإسلامي، وبشكل أخص بالمغرب الأوسط الذي كانت العديد من أراضيه ومجالاته حلبة للصِّراع العسكري بين مختلف القِوى السياسية بهذه المنطقة. فَفِيمَ تتمثل أبرز مظاهر هذا التراجع؟

ب.1. مظاهر التراجع على الصعيد الاقتصادي (الزراعي والرعوي والتجاري):

انطلاقا من واقع مدن المغرب الأوسط الحضاري والاقتصادي والتي تحدث عنها اليعقوبي في ق3هـ/9م، وما ذكره ابن حوقل في ق4هـ/10م بشأن هذا الواقع، يتضح بسهولة أن هناك تراجعاً –نسبياً– وملحوظا لواقع هذه المدن مقارنة عما كانت عليه في القرن السابق (ق3هـ/9م). وسأحاول هنا التركيز على الملاحظة التي تُعنى بالجانب الزراعي و الواردة عند ابن حوقل.

فمدينة **طُبنة**[414] –على سبيل المثال– كانت في زمن اليعقوبي (ق3هـ/9م) "**مدينة الزاب العظمى**"[415]، وأضحت عند ابن حوقل (في ق 4هـ/10م) بأنها "مدينة قديمة **وكانت عظيمة** كبيرة البساتين والزروع والقطن والشعير..."[416]. أي أنها لم تعد عظيمة مقارنة مع ماكانت عليه من قبل إن على المستوى الاقتصادي أو العمراني، وحتى تلك الخاصية التي اتّصفت بها هذه المدينة باعتبارها مدينة تعايش حضاري وعرقي باحتضانها لمختلف أنواع الجماعات العِرقية والقبلية، وِفقاً لكلام اليعقوبي الذي ذكر أن "بها –أي طبنة– أخلاط[اً] من قريش والعرب والجند والعجم والأفارقة والروم والبربر"[417]، يُلاحَظُ بسهولة أن ذلك سرعان ما تلاشى عند ابن حوقل عندما قال عن مدينة طبنة ما يلي: " وأهلها قبيلتان عرب

[414] تقع آثار مدينة طبنة في الوقت الحالي على بعد حوالي 4كلم جنوب مدينة بريكة الحالية على الطريق المؤدية إلى بسكرة النخيل وإلى بلدية مدوكال التابعة لبريكة، وطبنة تقع ضمن بلدية أخرى من بلديات دائرة بريكة تسمى الآن بلدية بيطان. موسى لقبال، **طبنة مدينة الزاب والأوراس في العصور الوسطى**، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ع 60-61، ص 83.

[415] اليعقوبي، **البلدان، المصدر السابق**، ص 190.

[416] ابن حوقل، **المصدر السابق**، ص 85.

[417] اليعقوبي، **البلدان، المصدر السابق**، ص 190.

وبرقجانة...فحَدَث بينهم البغي والحَسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض، وأتى على نِعمهم، فصاروا بعد السّعة والدّعة إلى الضّيق والذِّلة والصّغار الشّتات والقِلّة، مُشردين في البلاد مُطرحين في كل جبل وواد..."[418].

أي أنه وبسبب الفتن والاضطرابات السياسية والحروب والصراعات التي شهدتها منطقة الزاب بصفة عامة وبين سكان مدينة طبنة وما حولها على الخصوص في القرن الرابع الهجري، ساهم كل ذلك في تردي الوضع العام لهذه المدينة بعد أن كان في غاية الازدهار في القرن السابق (ق 3هـ/10م) نتيجة جو الاستقرار السياسي والهدوء الأمني الذي شهدته المنطقة في هذا القرن.

وبالفِعل، فإن هذه الفقرة التي أوردها ابن حوقل تحمل في طياتها الكثير عن مختلف الجوانب الحضارية لهذه المدينة والتي كانت سيئة للغاية، كما هو مُوضّح فيما يلي[419]:

- ✓ **"أهلها عرب وبرقجانة"** (فقط!)⇦ تدل على انحسار ذلك التعدد القبلي والعرقي الذي ورد عند اليعقوبي وانحصَر في قبيلتين كبيرتين هما العرب وبرقجانة، هذه الأخيرة وبالرغم من أنني لم أتوصل إلى أصل هذه القبيلة إلا أنه يُحتمل أن تكون قبيلة بربرية ، أي انحسار سكان هذه المدينة إلى عرب وبربر بعد أن كان "بها أخلاط من قريش والعرب والجند والعجم والأفارقة والروم والبربر".
- ✓ **"...فحدث بينهم البغي والحسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض..."**⇦ تدل على تلاشي ذلك التعايش السِّلمي الذي كان سائداً في المدينة في القرن السابق بين مختلف الأطياف والشرائح الاجتماعية والعِرقية والقَبَلية للمدينة، مما أدى إلى وقوع حروب وفتن بين أبناء المدينة الواحدة.
- ✓ **"...فصاروا بعد السعة والدعة إلى الضيق"**⇦ تدل تردي الحالة الاقتصادية للمدينة بشكل عام.
- ✓ **"...فصاروا...إلى...الذلة والصغار"**⇦تدل على تردي قوة هذه المدينة سياسيا وعسكريا، باعتبار أنها كانت عاصمة إقليم الزاب في ق3هـ/9م، وسرعان ما ستفقد هذه المكانة في القرن الموالي في المرحلة الفاطمية وما بعدها، وستتخلى عن دورها الريادي وتسلم هذه المهمة والخاصية لصالح مدن أخرى على غرار المسيلة وأشير وغيرها.

---

[418] ابن حوقل، **المصدر السابق**، ص 85.

[419] العِبارات التي ستُذكر وستُشرح وستُحلّل مأخوذة من النص الذي أورده ابن حوقل بخصوص مدينة طبنة: "...مدينة قديمة وكانت عظيمة كبيرة البساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير...وأهلها قبيلتان عرب وبرقَجَانة...وكانت وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكِراع والنَّعَم، فحدث بينهم البغي والحسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض، وأتى على نِعمهم فصاروا بعد السّعة والدّعة إلى الضّيق والذِّلة والصّغار والشَّتات والقِلَّة، مُشردين في البلاد مُطرحين في كل جبل وواد...". ابن حوقل، **نفسه**، ص 85.

- ✓ كلمة "**الشَّتات**" و عبارة "**مُشرَّدين في البلاد مطرحين في كل جبل وواد**"⇦ تدل على حالة الهجرة الاضطرارية التي حلت بسكان المدينة نتيجة استفحال آلة الحرب بها وبالمجالات المحيطة بها خلال القرن 4هـ/10م، مما أدى بالسكان إلى ترك منازلهم وأماكن استيطانهم سعيا منهم للنجاة بأنفسهم بعيدا عن جو الحرب، كما تدل أيضا على انتقال سكان طبنة عن مدينتهم نحو مدن جديدة، وقد تكون الوجهة في الغالب نحو المدن المشيدة حديثا في هذه الفترة كالمحمدية (المسيلة) التي شُيّدت سنة 313هـ/925م أو 315هـ/927م وأشير التي شُيّدت سنة 324هـ/936م، وهو ما انعكس سلباً على ديمغرافية هذه المدينة.
- ✓ عبارة "**أهلك الله بعضهم ببعض**" و كلمة "**القِلَّة**"⇦ تدلان على تراجع نسبة ديمغرافية هذه المدينة بسبب وقوع جزء مهم من ساكنتها كضحايا للحروب والفتن التي اندلعت على مستوى المدينة ومجالاتها، هذا دون نِسيان ظاهرة الشّتات والهجرة التي لحقت بسكان المدينة نتيجة حالة الحرب واضطراب الوضع السياسي والأمني. كل ذلك أدى إلى تراجع النسيج الديمغرافي للمدينة سواءً على مستوى تنوع التركيبة السكانية أو على مستوى نسبة عدد السكان.

هذا الوضع السِّلبي للمدينة الملاحَظ من خلال ما دُوّن عند ابن حوقل، يُنمّ عن تراجع وتردِّي كبير لجانبيْها الاقتصادي والعمراني، فبخصوص الجانب الاقتصادي، فلم يُخفِ ابن حوقل تحسّره على تراجع نشاط هذه المدينة الزراعي والرعوي عندما ذكر بأنها "كانت عظيمة كبيرة البساتين والزروع..."[420] وأنها "كانت وافِرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنَّعَم"[421]. أي أن هذه المدينة كانت منتعشة اقتصاديا على المستوى الزراعي والرعوي، ولم تعد كذلك بسبب وقوعها ضمن المجالات التي كانت مسرحا لمختلف الحروب والفتن والاضطرابات السياسية التي شهدها المغرب الأوسط في هذه الفترة إبَّان العهديْن الفاطمي والزيري، وبسبب ما وقع بين سكانها من "البغي والحسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض، فصاروا بعد السعة والدعة إلى الضيق"[422]، وسوء الوضع الاقتصادي هذا أثر سلبا على ديمغرافية هذه المدينة وعمرانها.

وكما هو مُلاحظ، فإن وصف مدينة طبنة، قد أعطى القارئ صورة كاملة وشاملة عما أحدثته الحروب والفتن التي عصفت بكيان المغرب الأوسط في هذه الفترة بالإخلال بالجانب الاقتصادي والعمراني الذي كان في غاية الازدهار في القرن السالف. ولا أظن أنه يُحتاج إلى كثيرٍ أمثلةٍ عن ذلك بسبب شُمولية مِثال طبنة كما قلتُ، ومع ذلك سأُحاول ضرب مثال أو مثالين حتى تتضح الصورة أكثر.

---

[420] ابن حوقل، **المصدر السابق**، ص 85.

[421] ابن حوقل، **نفسه**، الصفحة نفسها.

[422] **نفسه**، الصفحة نفسها.

فمثلاً مدينة **مقرة** التي سمّاها اليعقوبي ب"المدينة العظمى...أهلها قوم من بني ضبَّة وبها قوم من العجم وحولها قوم من البربر يقال لهم بنو زنداج وقوم يقال لهم كزبرة وقوم يقال لهم سارسة"[423]، أجِد أن ابن حوقل يختزل كل هذا الكلام بشأن هذه المدينة في أربع كلمات فقط بقوله: "مقرة: منزل فيه أيضا مرصد"[424]!، أي أنها أضحت في زمن ابن حوقل مجرد محطة عادية يمرّ بها السالك للطريق الرابط بين إفريقية وفاس عبر المرور بالمغرب الأوسط.

وكذلك الحال بالنسبة ل**تاهرت** وساكنتها، فبالرغم من أن مدينة تيهرت تعتبر "أحَد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات"[425]، إلا أن "أهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت"[426]. هذا النص واضح تقريبا ولا يحتاج إلى كثير شرح، فبالرغم من الامكانات الهائلة تتميز بها المدينة زراعيا ورعويا واقتصاديا بشكل عام إلا أن ذلك لم ينعكس إيجابا على سكان هذه المدينة واقتصادها، إذ عان السكان في هذه المدينة من الفقر وضُعف المستوى المعيشي وكثرة الضحايا والقتلى بسبب موجات الحروب والجفاف التي كثيرا ما تتعرض لها المدينة في هذه الفترة، خاصة عند التحدث عن عامل الفتن والحروب ومختلف الاضطرابات السياسية التي كلفت تيهرت كثيرا ديمغرافيا واقتصاديا وعمرانيا بسبب وقوع هذه المدينة في قلب الصراعات السائدة في المرحلتين الفاطمية والزيرية.

ب.2. مظاهر التراجع على الصعيد العمراني والديمغرافي:

عند تَتبُّع جُلّ المدن والقرى الواردة عند اليعقوبي والحالة التي صارت إليها في القرن الموالي عند ابن حوقل، يمكن بسهولة اكتشاف أن هناك حقا تراجعا –نسبيا– ملحوظا على مستوى الجانب العمراني ومن ثم الديمغرافي، حيث ذَكر ابن حوقل أن العديد من هذه المدن قد خربت بشكل بنسبة قليلة أو كبيرة أو على الأقل تراجع نسيجها العمراني والديمغرافي. وهذا كُلُّه بسبب وقوع هذه المدن ضمن مجالات مختلف الفتن والحروب والصراعات العسكرية المدوية التي شهدتها العديد من مناطق ومجالات بلاد المغرب في هذه الفترة.

وسأُحاول في الجدوليْن المواليْن ذِكر بعض العِبارات التي أوردها ابن حوقل بشأن هذه المدن والتي تدل على التراجع العمراني الديمغرافي، سأحاول في الجدول الأول إجراء مقارنة بين حال بعض المدن عند اليعقوبي وحالها عند ابن حوقل، وفي

[423] اليعقوبي، **البلدان**، **المصدر السابق**، ص 191.

[424] ابن حوقل، **المصدر السابق**، ص 85.

[425] **نفسه**، ص 86.

[426] **نفسه**، ص 93.

الجدول الثاني سأتطرق لعينة من النصوص والعبارات الواردة عند ابن حوقل والتي تدل على ظاهرة الخراب الذي طالت بعض مدن المغرب الأوسط في هذه الفترة:

الجدول رقم 09: يمثل مقارنة للوضعية الحضارية والديمغرافية لبعضٍ من مدن المغرب الأوسط خلال فترتي كلٍّ من اليعقوبي (ق3هـ/9م) وابن حوقل (ق4هـ/10م):

المدينة	**حالها عند اليعقوبي** (الحالة العمرانية والديمغرفية والاقتصادية)	الصفحة	**حالها عند ابن حوقل** (الحالة العمرانية والديمغرفية والاقتصادية)	الصفحة
طبنة	"...**مدينة الزاب العظمى**..."	190	"...مدينة قديمة **كانت عظيمة**"...	85
مقرة	"...مقرة لها حصون كثيرة **والمدينة العظمى مقرة**..."	191	"...**مقرة منزل فيه أيضا مرصد!**..."	85
هاز	"...مدينة يقال هاز، سكانها قوم من البربر القدم يقال لهم بنو برنيان من زناتة ثم مدن بعض سكانها صنهاجة وزواوة يعرفون بالبرانس، **وهم أصحاب عمارة وزرع وضرع، وإلى هاز ينسب البلد**..."	191	"...**قرية كانت قديمة عظيمة فخربت، وهي في وقتنا هذا مفازة** فيها عيون مسجونة...وهو بلد يغلب عليه الرمل..."	85 و86
تيهرت	"...**المدينة العظمى مدينة تاهرت جليلة المقدار عظيمة الأمر** تسمى **عراق المغرب**، لها أخلاط من الناس..."	192	"...**وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه**، و أهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت..."	93

من خلال هذه النماذج الواردة في هذا الجدول يتبين أن هناك نوعاً من التحسر لدى ابن حوقل على الواقع السَّيء الذي أضحت عليه المدن المذكورة أعلاه مقارنة مع كانت عليه في فترة اليعقوبي (ق3هـ/9م) حين كانت في أزهى فتراتها العمرانية والديمغرافية والاقتصادية، وذلك ما يمكن أن يُفهم من خلال العبارات التي أوردها ابن حوقل بخصوص وضعية هذه المدن، مثل: "كانت عظيمة"، "كانت قديمة عظيمة فخُرِّبت"، "وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه"...إلخ.

وفيما يلي جدول يتضمن بعض الإشارات والعبارات التي تدل على ظاهرة الخراب العمراني التي طالت بعض مدن المغرب الأوسط في هذه الفترة من خلال ما ورد عند ابن حوقل:

الجدول رقم 10: يمثل العِبارات الدّالة على الخراب العمراني لبعض مدن المغرب الأوسط خلال القرن 4هـ/10م من خلال ابن حوقل:

المدينة	دلالة الخراب أو التراجع العمراني	الصفحة
تامدفوس	"...مرسى ومدينة **خربت**..."	78
أشرشال (شرشال)	"...مدينة قديمة أزلية قد **خربت**..."	78
برشك	"...مدينة **كان عليها سور فتهدم**..."	78
دار ملول	"...وكانت مدينة قديمة **فرزخت (أي ضعفت) أحوالها** وصارت منزلا ينزله المجتازون..."	85
هاز	"...**قرية كانت قديمة عظيمة فخربت، وهي في وقتنا هذا مفازة** فيها عيون مسجونة...وهو بلد يغلب عليه الرمل..."	85

المصدر: ابن حوقل، صورة الأرض، المصدر السابق.

لقد أوردتُ في هذا الجدول بعض العِبارات التي تدل على تراجع عمران عينة من مدن المغرب الأوسط في فترة ابن حوقل لكي أُبيِّن مدى تراجع ديمغرافية المغرب بدورها تَبعاً لذلك في هذه الفترة، لأنه وكما هو معلوم فإن العمران والسكان شيئان متّصلان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، ولئن بَيَّنتُ في هذا الجدول تراجع عمران المغرب الأوسط من خلال ابن حوقل، فذلك لأُبين بشكل أو بآخر تراجع ديمغرافية هذه المنطقة في هذه الفترة لأنني أعتقد أنه: **لا عُمران بدون سُكَّان، ولا سُكَّانَ بِدون عُمران، ومتى تراجع وتضعضع أو ازدهر أَحدُهماَ أَثَّرَ ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر على الآخر.**

من خلال كل ذلك، يتبين مدى التراجع العمراني والديمغرافي والاقتصادي الذي لَحِقَ بالمجالات الحضرية والريفية للمغرب الأوسط خلال القرن الرابع الهجري/10م، مقارنة بالقرن الثالث الهجري/9م، وذلك نتيجة استفحال الظاهرة الحربية عَقِب بدأ المشروع العُبيْدي الفاطمي نهاية القرن الثالث/9م وما تبع ذلك من حركات سياسية وعسكرية صاخبة إلى غاية نهاية القرن الرابع الهجري/10م. غير أن هذا التراجع الذي أتحدّث عنه كان تراجعاً نسبياً كما أسلفت، وشمل بشكل أكبر المناطق التي كانت عرضة بصفة أكثر لمختلف الحروب والفتن السياسية والصراعات العسكرية كإقليم الزاب وتيهرت وأحوازها وغيرها، في حين حافظت مختلف التجمعات السكانية الأخرى التي تقع ضمن مجالات أخرى على ازدهارها الذي استمر منذ القرن الثالث الهجري/9م خاصة تلك المجالات التي لم تكن عرضة بصفة كبيرة للنشاط الحربي، مثل المجالات الصنهاجية والساحلية ومجالات تلمسان وغيرها.

وعلى النّقيض من ذلك، شهدت مختلف مناطق ومجالات المغرب الأوسط ازدهارا وانتعاشا اقتصاديا وعمرانيا وديمغرافيا ملحوظا خلال القرن الثالث الهجري/9م وفق ما رصدتُه من خلال اليعقوبي، وهذا كله –كما سبق وأن قلتُ– بسبب حالة الاستقرار السياسي والأمني الذي شهده المغرب الأوسط في هذه الفترة.

غير أن هذا الانتعاش الحضاري المُتحدث عنه يقود بدوره إلى التساؤل عن الجانب الديمغرافي لبلاد المغرب بشكل عام والمغرب الأوسط على وجه الخصوص خلال هذه الفترة من حيث نسبة تقديرية وتقريبية للحجم الديمغرافي لهذه المنطقة. وبعبارة أخرى: هل يمكن الحديث عن نسبة تقديرية لحجم أو عدد سكان المغرب الأوسط وبلاد المغرب ككل خلال الفترة الممتدة من بداية الفتح الإسلامي (بداية العصر الوسيط) إلى غاية القرن 3هـ/9م، أي إلى غاية بداية فترة هذه الدّراسة؟

ت . هل يمكن الحديث عن نسبة تقديرية لعدد سكان المغرب الأوسط من بداية الفترة الوسيطة وإلى غاية القرن 3هـ/9م (بداية البحث)؟

في البداية وَجَب –في اعتقادي– التّنبيه إلى نُقطتين مُهمّتين لهما علاقة بهذا الأمر:

النقطة الأولى: إن مجرد طرح مثل هذا النوع من الأسئلة والتي لها علاقة بعدد سكان المغرب بشكل عام وبلاد المغرب الأوسط على سبيل المثال خلال هذه الفترة الزمنية (من ق1هـ إلى ق3هـ/7-9م)، يعتبر –بشكل أو بآخر– نوعا من أنواع المغامرة المحفوفة بالمخاطر وغير المضمونة النتائج بسبب ما يشوب هذه الفترة من غموض حول التاريخ الاجتماعي لهذه المنطقة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى بسبب غياب أي معطيات ديمغرافية إحصائية أرشيفية أو مصدرية عنيَت بهذا

الجانب والتي يمكن الاعتماد عليها في هذا الصدد، اللّهم إلا بعض ما تناثر هنا وهناك من بعض الإشارات الانطباعية بشكل أكبر والإشارات الرقمية بصفة أقل بين ثنايا بعض المصادر.

النقطة الثانية: لا يمكن تركيز الحديث عن الوضعية الديمغرافية لبلاد المغرب وعن تقدير عدد سكان هذه المنطقة خلال بداية الفترة الوسيطة لهذه المنطقة (ق 1-3هـ/7-9م) دون التّعرف كذلك على الوضعية الديمغرافية لهذه المنطقة خلال الفترة القديمة قبل مجيء الفتوحات الإسلامية بسبب ترابط الفترتين في مختلف الجوانب الحضارية خاصة في الجانب السكاني والديمغرافي. لهذا ارتئيتُ أولاً أن أُحاول أن آخذ فكرةً عامّةً عن نسبة –تقديرية– لعدد سكان بلاد المغرب خلال فتراتها القديمة، وبالضبط ابتداءً من الفترة الرّومانية وصولاً لبداية الفترة الوسيطة، وذلك كُلّه في ضَوء ما توفر من دراسات لها علاقة بهذا الصدد.

- **في الفترة الرومانية:**

في الحقيقة، ليس هناك إحصاء دقيق لعدد السكان الذين تعايشوا في المغرب خلال زمن ما من العهد الروماني. ذلك أن كل التقديرات المتعلقة بعدد السكان وأنشطتهم لا تستند إلى معلومات تاريخية دقيقة ومؤكدة، فقد اعتمد فيها أصحابها على النصوص الأدبية وجرد الأسماء الأثرية والمرافق العامة للمدن، كخزّانات المياه المموّنة للمدينة وسعة المسارح والحمامات والكنائس أو الإحصائيات الجزئية المتعلقة بالموظفين الإداريين أو الدينيين[427].

لكن بالرغم من كل ذلك، حاول العديد من المؤرخين –لاسيما الفرنسيون منهم– في القرن الماضي (ق 14هـ/20م) القيام بالعديد من المحاولات التي تهدف إلى محاولة تقدير عدد سكان شمال أفريقيا التابع للإمبراطورية الرومانية في الفترة القديمة.

ليس هناك أيضاً تقدير تقريبي معاصر لِحجم السكان في العصر الروماني، ومن الضروري –بداهة– أنه كان يجري تعداد دوري لأغراض مالية، وفي هذه الحالة فإن الدارسين مجبرون –في أغلب الأحيان– على استخدام وسائل –قد تكون غير كافية– للوصول إلى أرقام محتملة من بينها استخدام معدل الكثافة كعامل في حساب العدد الكلي للسكان وبخاصة استخدام البراهين الطوبوغرافية مع ربطها باعتبارات مختلفة في محاولة لتقدير عدد سكان المدن بصفة خاصّة[428].

[427] مُحَّد البشير شنيتي، **نظرة عن الوضع الديمغرافي والإجتماعي في المغرب أثناء الإحتلال الروماني**، مجلة الدراسات التاريخية، مج1، ع1، جامعة الجزئر2، 1986، ص 13-14.نقلا عن: Courtois, **les vandales et l'Afrique**,1955,pp,106-3.

[428] ع. محجوبي، **العصر الروماني وما بعده في شمال إفريقيا**، ضمن كتاب: **تاريخ إفريفيا العام**، مج2: حضارات إفريقيا القديمة، المشرف على المجلد: جمال مختار، اليونيسكو، 1985، ص 491.

وفي هذا الصدد حاول العديد من المؤرخين الأوروبيين المعاصرين خلال القرن الماضي القيام بالعديد من المحاولات التي هدفت إلى الوصول لتقديرات تقريبية لعدد سكان شمال أفريقيا في الفترة القديمة، خاصة في الفترتين الرومانية والبزنطية.

إذ نَقَل أحد الدارسين[429] عن بعض هذه الدراسات أن المؤرخين اختلفوا في تقدير العدد الإجمالي لسكان المغرب أنذاك، إذ بينما يرى **بلوك** أنهم بلغوا **6 ملايين نسمة** في فجر الإمبراطورية، يرى **ستين** أن شمال أفريقيا عرف نمواً ديمغرافيا ملحوظا خلال القرن الثالث الميلادي[430] وأن مُدنه كانت غاصَّة بالسكان[431]، أما **كورتوا** فقد تحفظ كثيرا واقترح حوالي **4ملايين نسمة** يكونون قد تعايشوا في إفريقيا الرومانية خلال العصر الإمبراطوري الأول[432]، وهو العهد الذي لعبته فيه الكثافة البشرية أقصاها في نظر المؤرخين، ويضيف أن هذا العدد قد هبط إلى حوالي **ثلاثة ملايين نسمة** أثناء العهد الإمبراطوري المتأخر (284-430م)[433].

ويرى **بيكار** من جهة أخرى أن سكان شمال أفريقيا الرومانية قد بلغوا **ستة ملايين ونصف مليون نسمة**، لكنه وزّع هذا العدد على الولايات كالتالي[434]:

- 2,5 مليون بالولاية البروقنصلية
- 0,5 مليون بولاية طرابلس
- 3 مليون بنوميديا
- 0,5 مليون بولايتي موريطانيسا معا. (**ينظر الخريطتين أدناه 01 و 02 للتعرف على خريطة الولايات الرومانية في شمال أفريقيا)**

[429] مُحَّد البشير شنيتي، **نظرة عن الوضع الديمغرافي والإجتماعي في المغرب أثناء الإحتلال الروماني**، المرجع السابق، ص 14.

[430] **نفسه**، ص 14. نقلاً عن: Beloch**, Die bevolkecung der greichish-romis**, Welt. Lepzig, 1866,p.507.

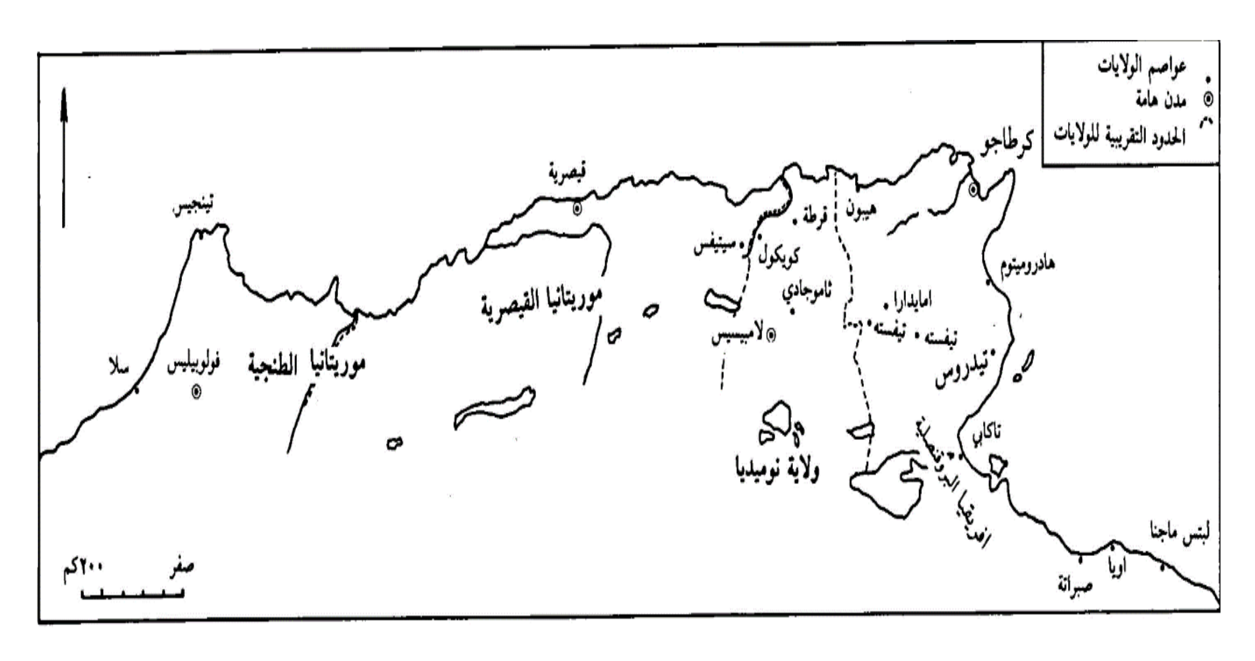
[431] **نفسه**، الصفحة نفسها. نقلا عن: Stein, **Histoire du Bas-empire**, 1,1959,pp.2 – 3.

[432] **نفسه**، الصفحة نفسها. نقلا عن: Courtois, **op**. cit.106.

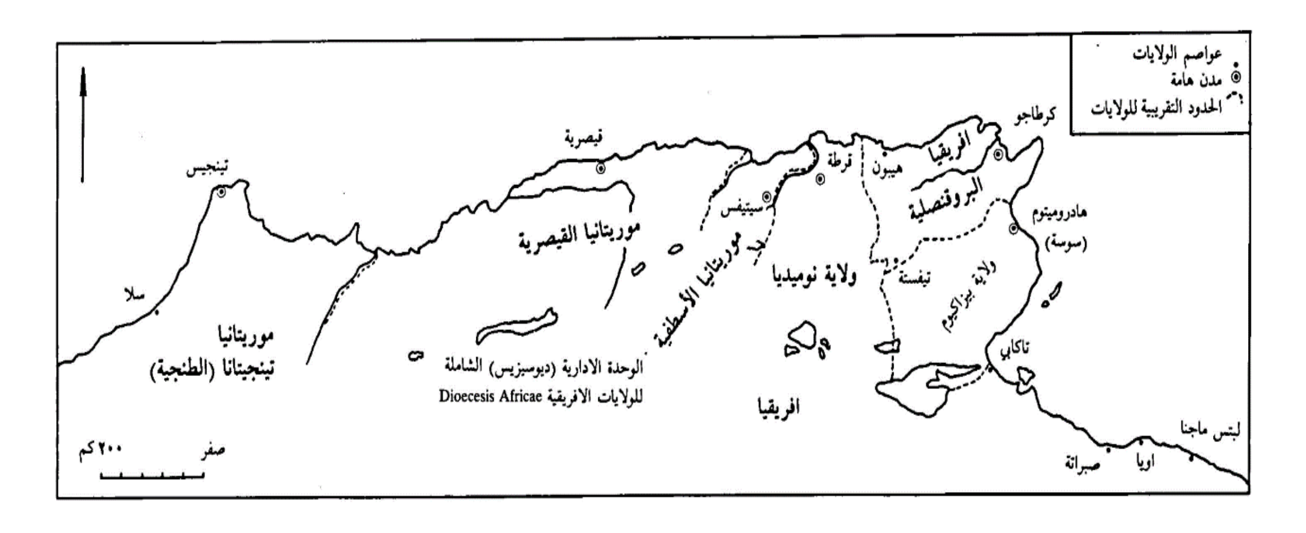
[433] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[434] **نفسه**، الصفحة نفسها. نقلا عن: G.Ch. Picard. **La civilisation de l'Afrique romanie**,1959,p 258.

الخريطة رقم 01: تمثل الولايات الرومانية في شمال إفريقيا نهاية القرن الثاني الميلادي[435]:



الخريطة رقم 02: تمثل الولايات الرومانية في شمال إفريقيا في القرن الرابع الميلادي[436]:



عموما، يُفهم من هذه المحاولات والدراسات التقديرية أن عدد سكان شمال أفريقيا في العصر الروماني تراوح ما بين 3 و6 ملايين نسمة خلال فترات الاحتلال الروماني للمنطقة.

---

[435] ع. محجوبي، **العصر الروماني وما بعده في شمال إفريقيا**، ضمن كتاب: **تاريخ إفريفيا العام**، مج2، **المرجع السابق**، ص 477.

[436] **نفسه**، ص 481.

وإذا ما أُخِذ بعين الاعتبار ما ذكر **بيكار** بأن عدد سكان شمال أفريقيا في الفترة الرومانية قد بلغ ستة ملايين ونصفاً، وإذا ما أُخِذ بعين الاعتبار أيضا توزيعه هذا العدد على حسب كل ولاية، فإنه سيُتوصّل إلى أن عدد سكان المغرب الأوسط في الفترة الرومانية وفقا لبيكار قد بلغ **ثلاثة ملايين نسمة ونيفاً**، وذلك باعتبار أن كلا من ولايتي نوميديا وموريطانيا القيصرية، تشكلان تقريبا حدود المغرب الأوسط السياسية، إذ أن بيكار قد خصص رقم ثلاثة ملايين لولاية نوميديا التي استحوذت على حصة الأسد من العدد الإجمالي لسكان شمال أفريقيا في الفترة الرومانية، بينما خصص لولاية موريطانيا القيصرية نصف مليون نسمة فقط مناصفة مع ولاية موريطانيا الطنجية[437].

وأنا هنا لا أُسلِّم بهذه الأرقام التي قدمها بيكار مع غيره من الدارسين والمؤرخين، وفي نفس الوقت لا أستطيع أن أَنفيها بسبب غياب ما يمكن الاستناد إليه من وثائق وأرشيفات مصدرية تخص هذا الجانب، وهذا ما يجعلني أقف موقف الحياد من هذه الأرقام المقدمة، ومع ذلك لا يمكن تجاهل هذه المحاولات. إذ يمكن الاستئناس بها والاستعانة بها –بحذر– أحيانا، وذلك باعتبار أنها تساعد على أخذ صورة عامة –ولو ضبابية– عن عدد سكان شمال أفريقيا أو بلاد المغرب في الفترة الرومانية، وعن بلاد المغرب الأوسط على وجه الخصوص في هذه الفترة الزمنية أيضا.

– **الفترة الوندالية والبيزنطية:**

يمكن القول أن الفترتين الوندالية والبزنطية والتي سبقت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والتي امتدت لقرابة القرنين من الزمان، كانت فترة اضطرابات سياسية بامتياز. وهذا يعني تعدد موجات المواجهات العنيفة في هذه الفترة بين السكان المحليين والوافدين الجدد سواءً من الوندال أو من بعدهم البزنطيون، وأيضا بين الوندال والبزنطيين أنفسهم في فترة انتقال السلطة بينهما سنة 533م وما بعدها.

هذا الوضع السياسي المتأزم سيؤدي لا محالة إلى اشتداد وطأة الحروب والفتن السياسية بين مختلف القوى السياسية، وهو ما يعني انعكاسا سلبيا على عدد سكان بلاد المغرب في هذه الفترة والذي كما خَلُص إليه أعلاه أنه كان يترواح ما بين الثلاث والستة ملايين نسمة، وأنه كان في حدود الستة ملايين نسمة خلال الفترة الروماني دائما وفقا لأغلب المؤرخين الذين تمت الإشارة إليهم أعلاه. ولهذا أعتقد أن هذا الوضع السياسي المتأزم في هذه الفترة سيؤدي لا محالة إلى تناقص نسبي لعدد سكان منطقة شمال أفريقيا، أو على الأقل سيبقى كما هو بين حاجز 3 و6 ملايين نسمة، خاصة إذا أُخِذَ بعين الاعتبار وُفود عناصر جديدة للمنطقة والمتمثلة في العُنصريْن الوِندالي والبِيزَنطي على التَّوالي.

[437] يُنظر ما ذَكَره بيكار في الصفحة 147، ويُنظر أيضاً للخريطتيْن رقم 01 و 02 في الصفحة السابقة (148) لِيتَّضِح ما شَرَحتُه في هذه الفقرة.

- **بعد الفتح الإسلامي وإلى غاية القرن 3هـ/9م:**

وإذا تم الأخذ بهذه الفرضية القائلة أن عدد سكان بلاد المغرب عشية الفتح الإسلامي كان تقريبا كما هو خلال الفترة الرومانية (أي ما بين 3و6 ملايين نسمة) ولم يزدد خلال الفترة الوندالية والبزنطية نتيجة تأزم الوضع السياسي والأمني. فإنه يمكن القول بأن عدد سكان بلاد المغرب قد انتعش أخيراً بعد انتهاء مرحلة الوُلاة بسبب هجرة العديد من القبائل العربية لبلاد المغرب واستقرارها مع عائلاتها في العديد من مدن ومناطق هذا المجال، سواءً أثناء مرحلة الفُتوحات أو بعدها في مرحلة الولاة.

وما إن انتهت مرحلة الولاة، إلا وكانت فترة الدول المستقلة، حيث دخلت بلاد المغرب مرحلة جديدة اتسمت بالاستقرار السياسي والأمني ومن ثم الازدهار الاقتصادي، خاصة في القرن الثالث/9م الذي سبق وأن قُلت أنه كان في غاية الازدهار الاقتصادي والعمراني والديمغرافي. وفي ذلك ذهب أحد الدارسين[438] إلى القول بأن إلقاء " نظرة شمولية إلى التطور العمراني في المغرب الإسلامي تجعل المرء يلاحظ صعود الرسم البياني لهذا التطور ابتداءً من النصف الثاني للقرن الثاني الهجري ليبلغ أوجه في القرنين الثالث والرابع للهجرة"، هذا بالرغم من تحفظي –نوعا ما– عن اعتبار القرن الرابع الهجري/10م أنه يدخل ضِمن فترات الازدهار العمراني خاصة على مستوى المجالات التي كانت عرضة بصفة أكبر للظاهرة الحربية وذلك نتيجة تأسيس الكيان الفاطمي وما ترتب عنه من صراعات ومواجهات كثيرة ضمن مجالات مختلفة من بلاد المغرب.

لقد سبق وأن تمّ تِبيان مدى الازدهار الاقتصادي والعمراني والديمغرافي لبلاد المغرب ككل وبلاد المغرب الأوسط على سبيل المثال خلال ق3هـ/9م. وعلى الصعيد الديمغرافي، فقد شهد المغرب خلال هذه الفترة ازدهارا سكانيا وديمغرافيا كبيراً، فوِفقا لإحدى الدراسات[439] فإنه "**لم يشهد المغرب في العصور الوسطى كثافة سكانية بالدرجة التي شهدها في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي،** مما يسهم في تفسير توسعه فيما وراء شواطئه. ومن جهة أخرى كانت الحركة السكانية تتجه وقتئذ على عكس ما سوف يحدث لاحقا، نحو استقرار الرُّحّل الذين كانوا يشغلون المغرب الأوسط ومشارف الصحراء على الأخص، ونحو التعمير. وقد جاء إنشاء العواصم الأربع الكبرى السياسية والثقافية للبلاد –**القيروان وتاهرت وسجلماسة وفاس**– نتيجة لقدوم العرب والإسلام. وفي القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي **بلغ مجموع سكان القيروان**

---

[438] الحبيب الجنحاني، **المجتمع العربي الإسلامي، المرجع السابق**، ص 264.

[439] مُحَمَّد الطالبي، **استقلال المغرب**، ضمن كتاب: **تاريخ إفريقيا العام**، مج3: أفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، المشرف على المجلد: م. الفاسي و إ. هربك، اليونيسكو، ط2، 1997، ص 299.

بالتأكيد بضع مئات من الآلاف، ويُقدِّر ابن حوقل أن سجلماسة لم تكن دُونَ القيروان من حيث عدد السكان أو الازدهار".

وبخصوص المغرب الأوسط فقد برزت ضِمنه عِدّة مُدن كانت في غاية الازدهار الديمغرافي والعمراني مثل مدينة **تيهرت** عاصمة الرستميين التي بلغت ذروة مجدها الحضاري في هذه الفترة (ق3هـ/9م)، وهو ما انعكس إيجاباً على ديمغرافية هذه المدينة التي كانت يمكن أن تتخطى حاجز **ال100 ألف نسمة** حسب ما ذكره البعض[440]. كما أن مدينة **طبنة** "ليس من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها" حسب ما أورده البكري[441]، هذا دون نسيان مدن أخرى برزت هي الأخرى في هذه الفترة (ق3هـ/9م) التي كانت هي الأخرى في غاية الازدهار الديمغرافي والأهمية العمرانية مثل: **تِلمسان وتنس وميلة** وغيرها حسب ما ورد عند اليعقوبي كما بينتُ سابقا.

ورغم عدم توفر معلومات ومُعطيات دقيقة عن ديمغرافية المغرب الأوسط وبلاد المغرب بشكل عام في هذه الحِقبة (ق3هـ/9م)، إلا أن كُلّ المؤشرات والدلائل المقدمة في المصادر الوسيطية المتعلقة بهذه الفترة تؤكد مدى ازدهار اقتصاد وعمران وديمغرافية هذه المنطقة الغربية من الجَناح الإسلامي. وهو ما يعني بطبيعة الحال انتعاش عدد سكان هذه المنطقة وديمغرافيتها بشكل عام مُقارنةً مع ما كانت عليه عَشيّة أو قبيل الفتح الإسلامي والذي كما تمت الإشارة إليه سابقاً أنه يمكن أن يترواح مابين 3و6 ملايين، ولهذا يُحتمل أنه ازداد على الأقل في القرون الثلاثة الأولى للهجرة وبشكل أخص في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي إلى ما يقارب المليونين نسمة، أي **ما بين 5 و 8 ملايين نسمة!**

لكن عموما **تبقى هذه النتيجة المُتحصل عليها وغيرها من الأرقام المُقدمة من قِبلي أو حتى غيري مجرد تخمينات وفرضيات عرَضية ما لم يُعثر على وثائق تاريخية وأرشيفية وأثرية مُوثَّقة يمكن الاعتماد عليها لإعطاء حجم دقيق أو قريب من الدقة لعدد سكان بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى من الوسيطة أو حتى الفترات التي تسبق أو تَلِي**

---

[440] حميد اجميلي، **المسألة الديمغرافية بالمغرب الأقصى – مؤشرات إحصائية حول الإقتصاد والتمدين خلال العصر الوسيط ق 6 – 8هـ/ 12 – 14م –** ، تق: محمد الغرايب، منشورات الزمن، مطلعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2018، ص 88. نقلاً عن: محمد طالبي، **الانهيار الديمغرافي في بلاد المغرب من ق 11 إلى ق 15م**، تعر: محمد الغرايب، مجلة كنانيش، ع4، 2002، ص ص 185-186.

[441] البكري، **المصدر السابق**، ص 51. رغم أن البكري ينتمي إلى فترة القرن الخامس الهجري/11م، إلا أن هذا الوصف يُحتمل أن ينطبق على حال المدينة في القرن الثالث الهجري/9م أين كانت في أوجّ ازدهارها، ولا يَنطبق على وضعها في القرنين الرابع والخامس الهجريين/10-11م نتيجة تراجع دورِها الرّيادي لِصالح مُدن جديدة (أشير، المسيلة، القلعة...)، ومُعانتها من تَبِعات جوّ الفتن والحروب التي عَصفت بها وبمجالاتها أثناء المرحلتين الفاطمية والزّيرية في القرن الرابع الهجري/10م ومِن نتائج الاجتياح الهلالي لمجالاتها في القرن الخامس الهجري/11م.

هذه الحِقبة. لكن مع ذلك يمكن اعتبار أن هذه الاجتهادات والتَّخمينات تساعد –على الأقل– على أخذ انطباع عام عن الحجم السكاني والديمغرافي لهذه المنطقة خلال هذه الفترة.

المطلب الثالث: حروب وصراعات الفترة (280–398هـ/893–1008م) ودورها في التراجع الديمغرافي للمغرب الأوسط:

يُعتبر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قرن الصراعات والفتن والحروب بدون منازع، أو بالأحرى قرن عادت فيه بلاد المغرب إلى جو الاضطرابات السياسية الذي كان سائدا من قبل أثناء الفترة الانتقالية من عصر الولاة إلى عصر الدول المستقلة (122-184هـ/740-800م). وتأتي هذه العودة إلى جو الاضطراب السياسي هذا، بعد فترة الاستقرار السياسي –النسبي– في القرن الثالث إلى غاية الربع الأخير من هذا القرن مع بداية المشروع الإسماعيلي العُبيْدي الفاطمي مع أبي عبد الله الشيعي، وهو ما فتح الباب واسعا أمام فتح عدة جبهات ومراحل للصراعات العسكرية بين مختلف القِوى السياسية طوال فترات هذا القَرن.

أولاً: تعدُّد جبَهات ومراحل الصراعات العسكرية:

1. معركة مانو (283هـ/896م): أوّل الانتكاسات الديمغرافية في بلاد المغرب نهاية القرن 3هـ/9م:

تُوفي الإمام الرستمي أبو اليقظان سنة 281هـ/894م، وبعد هذا التاريخ بسنتيْن حدثت موقعة مانو (283هـ/896م) التي كانت قاصمة الظهر لنفوسة أولا وللدولة الرستمية ثانيا، وجعلتها تفقد أكبر مدد عسكري وسياسي[442].

إن أهم ما يميز الحديث عن موقعة (مانو) أن المعلومات حول عدد من سقطوا في هذه المعركة كان محدداً بدقة ولا يحتاج إلى عناء لاستنتاجه. على عكس الكثير من المواجهات العسكرية الأخرى –لاسيما الكبرى منها– التي يصعب إدراك حجم خسائرها البشرية خاصة من جانب الطرف المنهزم.

[442] صالح معيوف مفتاح، **جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية (من منتصف القرن الثاني الهجري إلى أوخر القرن الثالث الهجري)**، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية، د م ن، 2006، ص 207.

بعيداً عن الخوض في أسباب وقوع هذه المعركة بين الأغالبة وإباضيي جبل نفوسة[443]، فإن ما يهمّ في سِياق هذه الدّراسة هو نتائجها الديمغرافية التي كانت كبيرة لدى الطرف الإباضي المنهزم، حيث خلفت هذه المعركة **12 ألف قتيل**، تفصيلها ما يلي: **أربعة آلاف من قبيلة نفوسة، وثمانية آلاف من سائر القبائل الأخرى**[444].

ورغم أن وُقوع هذه المعركة كان "بموضع يقال له (مانو) وهو قصر قديم بين قابس وطرابلس"[445] أي خارج مجالات المغرب الأوسط، إلا أن الأمر الذي جعلني آتي على ذِكر هذه المعركة هو تبعية منطقة جبل نفوسة في تلك الفترة للدولة الرستمية وعاصمتها تاهرت. وأَعتقد أن عدد 8000 قتيل الذي ذكرته المصادر والذي يخص القبائل الأخرى غير نفوسة، يخص بشكل أكبر القبائل المغربية الأخرى التي لها صلة وعلاقة مباشرة ومتينة بالدولة الرستمية، أي القبائل التي تندرج ضمن الخوارج الإباضية وهي على الأغلب القبائل البدوية التي كانت تجوب المنطقة الممتدة من برقة وطرابلس شرقا إلى تيهرت ومجالاتها غربا مروراً بمنطقة الزاب في الوسط، كقبيلة لواتة، هوارة، لماية ومزاتة وغيرها. والذي حَمَلني على هذا الاعتقاد هو ما ذكرته إحدى النصوص المصدرية[446] بشأن عدد الثمانية آلاف غير المتعلق بخسائر قبيلة نفوسة، كان يخص من كان مع النفوسيين من **البربر** وغيرهم.

2. مشروع تأسيس الدولة الفاطمية العسكري (289-296هـ/902-909م) ونتائجه الديمغرافية:

لم تكن مَسألة تأسيس وبناء الدولة الفاطمية على أنقاض الدول التي كانت تتربع على أرض المغرب خلال القرنيْن الثاني والثالث الهجريين/8-9م بالأمر الهَيّن على سكان بلاد المغرب أجمع وسكان المغرب الأوسط على سبيل المثال، حيث كلَّف هذا المشروع آلاف القتلى والضحايا. صحيح بأن هذا المشروع السياسي العسكري الفاطمي كان خاطفا وسريعا فيما بين سنتي 289 و 296هـ/902-909م أي سبع (7) سنوات فقط، إلا أن نتائجه الديمغرافية كانت كارثية.

لقد بَرَزت في هذا المشروع مَعركتان كبيرتان وحاسمتان كان لهما ثقل كبير على صعيد الخسائر البشرية، وهاتان المعركتان هما: **معركة كَبُّونَة أو كَيُّونَة سنة 292هـ/905م ومعركة الأربس سنة 296هـ/909م.** لهذا سأحاول التركيز هنا على هاتين المواجهتين فقط بسبب ضخامتهما وكِبرهما وكثرة عدد المُقاتلين المشاركين فيهما وبالتالي كثرة ضحاياهما، هذا من

---

[443] لِمعرفة أسباب وقوع هذه المعركة، ينظر: الدرجيني، **المصدر السابق**، ج1، ص 87 وما بعدها. أبي زكريا يحي بن أبي بكر، **المصدر السابق**، ص 103 وما بعدها و ص 107 (الهامش رقم 1). الباروني، **المرجع السابق**، ص 332 وما بعدها.

[444] الدرجيني، **نفسه**، **ج1**، ص 89. أبي زكريا يحي بن أبي بكر، **نفسه**، ص 104. الباروني، **نفسه**، ص 335.

[445] الباروني، **نفسه**، ص 334.

[446] أبو زكريا يحي بن أبي بكر، **سير الأئمة وأخبارهم**، **المصدر السابق**، ص 104.

جانب، وبسبب مِفصلية دورهما في هذا الصراع من جانب آخر. فهل يمكن التّوصّل إلى عدد –ولو تقريبي– بشأن من قضوا في هاتين المعركتيْن؟

يبدو أن الإجابة على هذا السؤال تستدعي مِنّي محاولة استنطاق ما دُوِّن في أمّهات المصادر التي عايَشت الحدث أو كانت قريبة منه، ويأتي في مقدمتها: كتاب (افتتاح الدعوة) للقاضي النعمان المغربي (ت سنة 363هـ/974م). ورغم كون هذا الإخباري من الشيعة الإسماعيلية ومن أشد المتعصبين والمدافعين عن المشروع الفاطمي ببلاد المغرب، إلا أن معلوماته التاريخية المذكورة في مُصَنفه ثمينة جدا ولا يمكن إغفالها. لكن كل هذا لا يمنع من توخي الحيطة والحذر أثناء الاستئناس بما أورده القاضي النعمان في كتابه السالف الذكر.

أ. معركة كَبُونَة أو كَيُّونَة سنة 292هـ/905م:

ذَكَر القاضي النعمان أن عدد الجيوش التي عبَّأها الأغالبة في بادئ الأمر استعدادا لهذه المعركة كان قد بلغ **أربعين ألف** ما بين فارس وراجل[447]، "ولم يكن خرج لبني الأغلب مذ دخلوا إفريقية عسكر أكثر منه عددا ولا قوة!...ولم يَدَع [الأمير الأغلبي] أحدا من حماة رجاله ولا ممن نزع إليه من **كتامة وأهل الزاب** إلا أخرجه في ذلك العسكر"[448]. هذا دون القبائل التي استمالها ابراهيم ابن حبشي (القائد الأغلبي على الجيش) في طريقه "بالحِملان والخِلع"[449] لأن القاضي النعمان نجده قد ذكر في موضع آخر أنه وبوصول الجيش الأغلبي إلى قسنطينة وانضمام الحامية الأغلبية بطبنة لجيش الأغالبة، قد بلغ قِوام الجيش الأغلبي بقسنطينة قبيل المعركة بقليل "نحو **المائة ألف** بين فارس وراجل"[450].

انطلاقا مما ذُكر أعلاه عند هذا المؤرخ الفاطمي، فإن جزءً مهما من الجيش الذي أرسله الأغالبة قد كان يتكون في أغلبه من عناصر كتامية وأخرى من الزاب إضافة إلى مختلف القبائل الأخرى المنضمة إليه أثناء مسير الجيش من إفريقية إلى موقع المعركة بالمجالات الكتامية. ومن المعلوم أن غالبية الجيش الأغلبي قد تم طحنه في هذه المعركة إذ **"قُتل منهم ما لا يحصيه إلا الله وحده"**[451]. ورغم أن القاضي النعمان لم يصرّح بشكل دقيق عن عدد من قضوا في هذه المعركة، إلا أن هذه العبارة الانطباعية الأخيرة "قُتل منهم ما لا يحصيه إلا الله وحده" تُعبر عن مدى روع الكارثة الديمغرافية التي خلفتها هذه

[447] القاضي النعمان، **المصدر السابق**، ص 169.

[448] القاضي النعمان، **نفسه**، الصفحة نفسها.

[449] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[450] **نفسه**، ص 170.

[451] **نفسه**، ص 172.

المعركة. ويُعيد و يُؤَكِّد ذلك في موضع آخر على لِسان (ابن حبشي) قائد الجيش الأغلبي في إطار الرسالة التي بعثها هذا الأخير إلى الأمير الأغلبي زيادة الله ببغاية بعد أن فرّ بجِلده من المعركة مع من نجا من جيشه، أين كتب له رسالة أُورِدُ منها ما يلي: "كتبتُ إلى الأمير أطال الله بقاءه من مدينة باغاية، وقد انهزم العسكر المنصور، **فلم ينج إلا شِرذمة يسيرة...وقُتل أكثر أهل العسكر المنصور...**"[452].

وإذا تم تصديق ما ذكره القاضي النعمان بشأن عدد من شاركوا في هذه المعركة من جانب الأغالبة والذي بلغ ال 100 ألف جندي، وأن معظم أفراد هذا الجيش قد تمت إبادتهم و "لم يَنج منهم إلا شِرذمة يسيرة" حسب كلام القاضي النعمان دائماً. فإن هذا يعني حقا حُدوث فاجعة ديمغرافية أليمة تعبر بشكل واضح عن مدى قدرة الحروب والفتن والاضطرابات السياسية على الإخلال بالوضع الديمغرافي لمجالات جغرافية معينة في ظرف قياسي. ومهما تم التحفظ عن معلومات النعمان حول الخسائر البشرية لهذه المعركة، فإن النتائج ستكون دوما كارثية، فإذا افتُرِض –مثلاً– أن عدد من قضوا في هذه المعركة قد بلغ النصف، فإن الحاصِل سيكون: **50 ألف قتيل** على سبيل التقدير، هذا دون احتساب الجرحى والأسرى ومختلف الخسائر البشرية والمادية الأخرى!

ب. معركة الأرْبُس سنة 296هـ/909م:

على عكس المعركة السابقة، قدّمت مختلف المصادر التاريخية إشارة رقمية عن عدد عناصر الجيش الكتامي بقيادة أبي عبد الله الشيعي الذي بلغ **مائتي ألف** فارس وراجل[453]! وفي المقابل لم تُقدِّم هذه المصادر عدد الجيوش المعبّأة من طرف الأغالبة، لكنها –مع ذلك– اشتملت نصوصها على بعض العبارات الانطباعية التي تدل على أن عدد الجيوش المشاركة في هذه المعركة من الطرف الأغلبي كانت كبيرة، كعبارات مثل: "وجمع زيادة الله ما لا يحصى"[454] و " اجتمع من عساكر زيادة الله بالأربس مع ابرهيم [الأغلبي] ما لا يُحصى"[455] و " اجتمع بالأربس من العساكر [للأغالبة] ما لا يُحصِي عدده إلا الله"[456].

---

[452] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[453] القاضي النعمان، **نفسه**، ص 227 – 228. ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج6، ص 458. ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج4، ص 46. إلّا أن المقريزي ذكر عدد ال 100 ألف فارس وراجل. ينظر: المقريزي: تقي الدين أحمد (ت سنة 845هـ/1441م)، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ج1، مطابع الأهرام التجارية، قليوب (مصر)، د س ن، ص 62.

[454] المقريزي، **الاتعاظ**، **المصدر السابق**، ج1، ص 63.

[455] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج6، ص 458.

[456] القاضي النعمان، **المصدر السابق**، ص 228.

كيف لا وقد اعتُبرت هذه المعركة من الطرف الأغلبي على حدّ تعبير أحد المصادر[457] بأنها : "ضَربة الفَيْصل تكون لمن تكون"، وهناك إشارة مقدَّمة من طرف القاضي النعمان تدل على أن عدد من شاركوا في هذه المعركة من الطرف الأغلبي كان كبيرا وربما يفوق عدد ال 200 ألف الذي يخص جيش أبي عبد الله الشيعي، وذلك حين ذكر النعمان أنه "لم يكن بإفريقية ونواحيها وأطرافها من عَربها وبربرها ورجال زيادة الله أحد مذكور إلا وكان مع ابن أبي الأغلب"[458].

وبالرغم من هذه الأوصاف والمؤشرات الانطباعية التي تدل على ضخامة الجيش الأغلبي، إلا أن هذا الأخير مُني بهزيمة نكراء جعلته يفقد معظم وحدات جيشه وفق ما يفهم من المصادر[459]. ولم يكتف أبو عبد الله الشيعي بهذا النصر الكاسِح، بل تتبَّع فُلول من نجوا من هذه المعركة، أين كان على موعد من ارتكاب مجزرة ديمغرافية أخرى عند اقتحامه لمدينة الأربس، فما كان منه إلا أن "أخذَها عنوة...ولجأ أهل الأربس ومن كان اجتمع فيها من فُلَّال إلى جامعها، فقتلهم [أبو عبد الله] الشيعي أجمعين، وقيل: إنه قتل **ثلاثين ألف** رجل من العصر إلى آخر الليل"[460]. وبالرغم من أن أحد المصادر المشرقية ذكرت أن عدد من قُتلوا في جامعها كان "أكثر من **ثلاثة آلاف**"[461] سِوى مَن داخل المدينة التي قُتل بها "**خلق عظيم**"[462]، إلا أن أحد المؤرخين المحليين المغاربة يؤكد أن المدينة قد تعرضت حقا لنكبة ديمغرافية هائلة، وأن معظم سكان المدينة والفلول التي نجت من المعركة والتي احتمت بالمدينة قد تمت تصفيتهم[463].

والسؤال الذي يبقى مطروحا: كم عدد الذين قضوا في هذه المعركة باحتساب قتلى المعركة مباشرة وقتلى مدينة الأربس بعد أن تمت "اسباحتها" على حد تعبير ابن خلدون[464]؟ مهما تم التحفظ مرة أخرى عن الأرقام المقدمة من طرف المصادر

---

[457] القاضي النعمان، **نفسه**، ص 172.

[458] **نفسه**، ص 230.

[459] "و أَوْقَع فيهم القتل". المقريزي، **الإتعاظ**، **المصدر السابق**، ج1، ص 63. "واستُبيح مُعسكره". ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج4، ص 46. "فانهزم أصحاب ابراهيم [ابن الأغلب] ووقع الصوت في عسكره بكمين أبي عبد الله...وهَرَب ابراهيم وبعض من معه إلى القيروان ، وتبعهم أصحاب عبد الله يقتلون ويأسرون". ابن الأثير، **الكامل**، **المصدر نفسه**، ج6، ص 458.

[460] ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 183.

[461] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج6، 458.

[462] **نفسه**، ج6، الصفحة نفسها.

[463] "...واتبعهم الأولياء بكل ناحية يقتلونهم ويأسرون ويغنمون ما معهم، وقصد قوم منهم إلى المدينة فقتلوا بها من وجدوه وانتهبوا ما قدروا عليه إلى أن غربت الشمس ودخل الليل، فانصرفوا إلى مَناخِهم فباتوا فيه، وأصبح أبو عبد الله فأمر بِقصد مدينة الأربس وذلك أن أهلها أضرموا نارا وأصروا مع ابن أبي الأغلب، فدخلها الأولياء بالسيف **فقَتلوا بها من الخلق ما لا يُحصى** وانتهبوا ما بها...". القاضي النعمان، **المصدر السابق**، ص 232.

[464] "ودَخَل الشِّيعي الأربس **فاستباحها**". ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج4، ص 46.

-مع ما تحمله هذه الأرقام من مبالغة وتهويل- إلا أن المرأ سيصطدم حتما بحقيقية تاريخية مؤلمة مفادها أن النتيجة الديمغرافية لهذه المعركة كانت مُفجعة. فإذا افتُرِض مثلاً أن عدد من شاركوا في هذه المعركة من الجانب الأغلبي كان 200 ألف مساواةً مع عدد جنود الداعي، وافتُرِض أيضا أن نصف هذا الجيش قد تمت تصفيته وفق ما يُفهم من مختلف المصادر، بالإضافة إلى عدد ال 30 ألف الذين تمت إبادتهم في مدينة الأربس فإن الحاصِل النِّهائي يساوي: **130 ألف قتيل** في ظرف بضعة أيام فقط! إنها حقا لانتكاسة ديمغرافية مروعة بكل ما تحمله الكلمة من معنى قد تعرضت لها بلاد المغربين الأدنى والأوسط في هذه الفترة.

وباحتساب مجموع قتلى المعركتين مع انتهاجي دائما لمبدأ التحفظ على الأرقام المُقدمة من طرف المصادر وتوقع أقل الأضرار وأحسن الاحتمالات، فإن العدد المُتحصل عليه يتراوح ما بين 150 و 200 ألف قتيل، أما إذا فُعِل العكس أي العمل مباشرة بالأرقام المُقدمة من طرف المصادر وقبلتُها كما هي عليه وتوقع أسوأ الاحتمالات، فإن العدد سيكون أكبر من ذلك بكثير.

وجدير بالذكر فإن هذا العدد (150 إلى 200 ألف قتيل) يخص فقط المعركتين الكبيرتين والفاصلتين في هذا الصراع (كيونة والأربس)، إذ يُحتمل أن يكون العدد أكبر بكثير، خاصة عند استحضار مختلف المواجهات الأخرى التي حدثت بين الطرفين على غرار المعركة التي مُني فيها الداعي بهزيمة كبيرة "قُتل [فيها] كثير من أصحابه"[465] على يد القائد الأغلبي ابن حوال أو ابن الأحول وذلك سنة 289هـ/902م ضمن المجالات الكتامية، إضافة إلى اقتحامات أبو عبد الله الشيعي للعديد من المدن أثناء عمليات توسعه ضد الأغالبة كاقتحامه لمدينتي سطيف وبلزمة وغيرهما.

عموما، فإن الرقم السابق (**150 إلى 200 ألف قتيل**) والذي خَلُصتُ إليه بشأن عدد ضحايا هاتين المعركتين يبقى كبيرا ومُهوّلا جدا وسأكتفي به وأعتقد أنه يمثل المؤشر الإحصائي الذي يعطي نظرة عامة عن عدد الضحايا الذين سقطوا أثناء عملية تأسيس الكيان العبيدي الفاطمي فيما بين سنتي: 289 و 296 للهجرة/902-909م.

3. ثورة صاحب الحمار وانعكاساتها الديمغرافية على المغرب الأوسط:

[465] المقريزي، **الإتعاظ**، **المصدر السابق**، ج1، ص 58.

من المعلوم أن بداية ثورة صاحب الحمار كانت من المغرب الأوسط وبالضبط من جبال الأوراس على حد قول أغلب المصادر[466]، كما أن نهاية هذه الثورة كانت أيضا بالمغرب الأوسط وبالضبط في قلعة كيانة سنة 336هـ/948م. صحيح بأن جُزءً مهماً من فصول صراعات هذه الثورة قد دار بالمغرب الأدنى ما بين القيروان والمهدية، إلا أن جُزءً مهما آخر من أحداثها خاصة في مرحلتي بدايتها ونهايتها كان على أراضي المغرب الأوسط، وبالتالي فإن "معظم النشاطات الكثيفة [لهذه الثورة] تركّزت بعد حوافر إفريقية في حواضر الزاب والحضنة، طبنة، والمحمدية وبسكرة ومقرة وأُفق جبل سالات (ببوسعادة) وقلعة كيانة بجبل عياض"[467].

هذا يعني أن مجالات عدة من بلاد المغرب الأوسط ظلت مسرحا لأحداث هذه الثورة العنيفة، لا سيما في مناطق الزاب والأوراس والحضنة خلال محطات مهمة من سيرورة الثورة. وهذا يعني أيضا أن ديمغرافية المغرب الأوسط ستتلقى مجددا ضربات عنيفة ستؤدي حتما إلى الإخلال بالوضع الديمغرافي لهذه المناطق إلى جانب مناطق أخرى من إفريقية كالقيروان والمهدية.

إن طول مدة الثورة من جهة، وشساعة مناطق انتشارها من جهة أخرى، إضافة إلى تعدد جبهات حروب هذه الثورة وكثرة معاركها ومواجهاتها طوال فترة ليست بالقصيرة امتدت لقرابة ثلاث سنوات، تعدّ كلها من الأمور التي تُصعب من مهمة احصاء الانعكاسات الديمغرافية لصراعات هذه الثورة من جانب الطرفين. كما تعد أيضاً من الأمور العسيرة والمعقَّدة نظرا لعدم اهتمام المصادر المُؤرِّخة لهذه الأحداث وغيرها من الوقائع والأحداث الأخرى بذكر الأعداد الدقيقة للخسائر البشرية الناجمة عن كل مواجهة أو صدام عسكري أو عن اقتحام لمدينة ما، والشيء الوحيد الذي تُقدمه هذه المصادر عن ذلك هو مجرد معطيات وعبارات انطباعية تحمل في معظمها طابع التهويل والمبالغة. وما يزيد الوضع تعقيداً على الباحث المهتم بهذا الموضوع هو صعوبة الوصول إلى معطيات ومؤشرات إحصائية يمكن الاستناد إليها بسبب نُدرة هذا النوع الأخير من المعطيات في مختلف المصادر.

لكن وبالرغم من كل ذلك، فقد احتفظت بعض المصادر –أحياناً– بشيءٍ من المعطيات الإحصائية التي تخص أحداث هذه الثورة كأعداد المشاركين في الحملات وأعداد قتلى المعارك، ورغم قِلَّة هذا النوع من المؤشرات إلا أنها في غاية الأهمية

---

[466] القاضي النعمان، **المصدر السابق**، ص 332. البكري، **المصدر السابق**، ص 50. ابن حماد الصنهاجي، **المصدر السابق**، ص 54 – 55. الدرجيني، **المصدر السابق**، ج1، ص 98. ابن عذاري،**المصدر السابق**، ج1، ص 226. ابن خلدون ، **المصدر السابق**، ج7، ص 19. الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين**، **المصدر السابق**، ص 265 وما بعدها.

[467] موسى لقبال، **طبنة في مجال العلاقة بين زناتة والفاطميين حتى نهاية عهد المنصور الفاطمي**، مجلة حوليات جامعة الجزائر، مج6، ع2، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 30 ديسمبر 1991، ص 50.

بمكان، كونها تساعدني على معرفة الملامح العامة لحجم الضحايا البشرية لوقائع هذه الثورة. وكمثال على ذلك: تذكر المصادر[468] أن عدد جيوش أبي يزيد عند وصول جحافل جيوشه إلى رقادة كان قد تجاوز ال **100 ألف** فارس وراجل.

رغم تحفظي عن هذا الرقم الذي يحمل طابع المبالغة كما هي عادة العديد من المصادر الوسيطية، إلا أنه يُعطي انطباعاً عاماً أن عدد الجيوش التي اجتاح بها أبو يزيد إفريقية كان كبيرا جداً. وكما هو معلوم فإنّ انطلاق تمرّد أبي يزيد العسكري كان من جبل أوراس كما أشرتُ إلى ذلك من قبل، يمكن القول عندها أن غالبية هذا الجيش الضخم الذي اقتحم إفريقية مع أبو يزيد كان يتشكل في الغالب من قبائل جبل أوراس والمناطق المُجاورة له التي تبنت دعوة أبي يزيد وناصرته خاصة بنو كملان من هوارة[469] وكذلك بنو بُرزال الذين يستوطنون الجبال قبلة المسيلة[470] وبنو زنداك من مغراوة[471] إضافة إلى غيرها من القبائل سيما ذات المذهبين النكاري والإباضي. هذا يعني أن غالبية هذا الجيش المُقتحِم لإفريقية مع أبي يزيد والذي كان يتشكل في غالبيته من هذه القبائل المنتشرة في جبل أوراس والحضنة والزاب ستتم إبادة معظم صفوفه عقِب فشل ثورة صاحب الحمار وهزيمته أمام الفاطميين، مما يعني إحداث خلل ديمغرافي هائل في حجم سكان هذه القبائل ومجالات استيطانها وانتشارها بالمغرب الأوسط.

قدمت إحدى المصادر الإباضية ممثلة في الدرجيني بعض المعلومات المهمة عن مسألة تعداد جيوش أبي يزيد، إذ يُقرأ في هذا المصدر أن عدد جيوش أبي يزيد في بداية ثورته بالأوراس كان قد بلغ ال **12 ألف** فارس[472]، لكن نفس هذا المصدر يقدم رقما آخر في غاية المبالغة لا يمكن لأي أحد تصديقه وذلك عندما ذكر أنه قد تم عدُّ "**ألف ألف** أبلق (حصان أو فارس)"[473] أي مليون حصان في عسكر أبي يزيد عندما كان هذا الأخير في بداية ثورته وفي عزّ نشوة انتصاراته العسكرية على الفاطميين.

---

[468] ابن خلدون ، **العبر**، **المصدر السابق**، ج7، ص 20. الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين**، **المصدر السابق**، ص 283. يُنظر أيضا: فرحات الدشراوي، **الخلافة الفاطمية بالمغرب (296–365هـ / 909–975م)**، نقله إلى العربية: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1994، ص 255.

[469] "...وسار [أبو يزيد] إلى جبل أوراس وفيه قوم من هوارة يُقال لهم بنو كملان من أهل مذهبه فقام فيهم واشتدت شوكته واستفحل أمره...". ابن حماد الصنهاجي، **المصدر السابق**، ص 54 – 55.

[470] ابن خلدون ، **المصدر السابق**، ج7، ص 19.

[471] **نفسه**، ج7، الصفحة نفسها.

[472] الدرجيني، **المصدر السابق**، ج1، ص 99.

[473] **نفسه**، ج1، الصفحة نفسها.

ومَهما يكن من أمر، فلن يتم أبداً تصديق روايتي ال 100 ألف فارس وراجل والمليون حصان أو فارس بسبب ما يحمله هذان الرقمان من مبالغة خاصة الرقم الثاني. وتبقى الرواية الأقرب في نظري إلى الصحة هو عدد **12 ألف** التي قدمها الدرجيني عن عدد فرسان جيش أبي يزيد عند إعلان تمرده بجبل أوراس، وهذا الرقم كما هو مصرَّح به يخص فقط الفرسان، ومن المعلوم أن عدد الراجلين والمشاة يفوق عدد الفرسان في أي جيش، وبذلك سأحاول أن أضيف عدد يقرب من البضع عشرة ألف فرد كاحتمال مِنّي لتقدير عدد الراجلين في صفوف هذا الجيش، ومنه فإنه يُحتمل أن يبلغ عدد جيوش أبي يزيد صاحب الحمار عن انطلاق شرارة ثورته بالمغرب الأوسط بجبل أوراس قرابة الأزيد من **20 ألف** فارس وراجل، وذلك بعد جمع رقمي أو عددي الجنود الفرسان مع الراجلين أو المُشاة.

ومن المعلوم أن غالبية أفراد هذا الجيش سيتم طحنها أثناء معارك ومواجهات هذه الثورة وبعد فشل مشروع صاحب الحمار وثورته، هذا يعني أن قرابة الأزيد من **عشرين (20) ألف** شخص ستكون أبرز الخسائر الديمغرافية لهذه الثورة بمجالات المغرب الأوسط فقط دون غيره المجالات الأخرى. وإذا أُخذ بعين الاعتبار من نجو من صفوف هذا الجيش بعد انتهاء الثورة من جهة، ومن جهة أخرى يُؤخذ بعين الاعتبار أيضا الضحايا المدنيون الآخرون الذين سقطوا ضمن أحداث هذه الثورة والذين سيعوِّضون عدد الجنود الذين نجوا، فإني سأتوصل إلى رقم تقريبي قريب من العدد السابق الذكر الذي هو: **قرابة الأزيد من عشرين ألف شخص**. لهذا أعتقد أن هذا الرقم الأقرب للصحة والممكن عقلا يمكن أن يمثل الحصيلة العامة للخسائر الديمغرافية بالمغرب الأوسط فقط جراء هذه الثورة، وذلك دائما حسب أقل التقديرات.

4. الحمَلات الفاطمية على المغرب الأوسط وانعكاساتها الديمغرافية السلبية على المنطقة:

لم يكن إعلان قيام الدولة الفاطمية الرّسمي ابتداءً من سنتي 296 و 297 هجرية/909-910م على أنقاض الدول التي كانت تتربع على مجالات بلاد المغرب منذ القرن الثاني للهجرة، لم يكن كل ذلك إلا إيذانا بإعادة بعثٍ جديد للصراعات القبلية التي سكن وهدأ روْعُها -نِسبيا- لمدة زمنية طويلة. ولم تكن مختلف الكونفدراليات القبَلية الكبرى ببلاد المغرب التي كانت تتمتع بحرية مُطلَقة أو شِبه مُطلَقة ضِمن مجالات حِلّها وترحالها ورعيِها ببلاد المغرب أن تسمح للمشروع السياسي الفاطمي الجديد من أن يُقوّض سلطانها أو أن يَحُدّ من تحركاتها، وهو ما يعني محاولة هذه القبائل الوقوف والتصدي لهذا المشروع الجديد الذي أضحى يُهدّد مصالحها -خاصة الاقتصادية- في عُقر دارها.

لقد شَكّل الفرع البتري مُمَثَّلاً في زناتة بِفرعيْها الكبيرين: مغراوة وبني يفرن، إضافة إلى أحلافِهما من القبائل الأخرى البترية وغير البترية كهوارة ولواتة ولماية ومزاتة وغيرها أبرز المعارضين والرافضين للمشروع الفاطمي الإسماعيلي، وبخصوص

سبب العَدَاء الفاطمي الزناتي فقد أرجعته إحدى المصادر الإسماعيلية[474] إلى المرحلة التي كان فيها أبو عبد الله الداعي في أوجّ صراعه مع الأغالبة في إطار مشروع تأسيس الدولة الفاطمية، وذلك بعد أن أقدمت بعض قبائل زناتة المنضوية تحت ابن خزر المغراوي على اعتراض الوفد الذي أرسله الداعي إلى أبي عبيد الله المهدي المتواجد بسجلماسة يبشره فيها باستمرار انتصاراته على الأغالبة، إذ تمت تصفية هذا الوفد أثناء عودته من سجلماسة بنواحي طبنة بالزاب.

وأنا هنا صراحة أُخالف هذه الرواية التاريخية، وأعتقد أن سبب العَدَاء الكبير بين زناتة والفاطميين وأحلافهم من كتامة وصنهاجة لم يكن راجعاً إلى هذه الحادثة التي أشكّ في حدوثها أو أعتقد أنها ربما لم تحدث أصلاً، وإنما راجعٌ إلى صِراع المصالح والمكتسبات الاقتصادية بين هذه القِوى، وما الغطاء المذهبي الذي يُغطِّي هذا الصّراع إلا وسيلة لتحقيق مختلف المكتسبات الاقتصادية والمَصْلحَية لكل قوة.

لقد سبق وأن تحدثتُ عن ثورة صاحب الحمار التي تزعّمها الفرع اليفرني وأحلافه من هوارة ومزاتة وسدراتة وغيرها ضد الفاطميين وأحلافها من كتامة وصنهاجة، غير أن الفرع الزناتي الآخر المتمثل في مغراوة بقيادة أسرة بني خزر كان سبّاقا إلى إعلان التمرد على الفاطميين في مهد دولتهم، بل كانت بداية التمرد بتاهرت مباشرة بعد استيلاء أبي عبد الله الشيعي على سجلماسة وتحرير المهدي من قبضة المدراريين سنة297هـ/910م[475].

هذا العَدَاء بين زناتة والفاطميين خاصة من الفرع المغراوي مُمَثلة في أسرة بني خزر سيتسبب بقلاقل عديدة للفاطميين طوال فترة تواجدهم بالمغرب، وذلك بسبب انتشار هذه القبيلة وأحلافها من زناتة أو غيرها من القبائل ضمن مجالات المغرب الأوسط الممتدة من الزاب شرقا إلى غاية تلمسان غربا مرورا بتيهرت، الأمر الذي جعل "المنطقة ما بين المحمدية (المسيلة) حتى المغرب الأقصى لا تتبع الخلافة الفاطمية إلا عندما تخرج الجيوش لإعادتها إلى الطاعة"[476]. وهو ما يعني بالضرورة توالي الحملات الفاطمية على المغربين الأوسط والأقصى كُلّما كان هناك تمرد من هذه القبيلة (بني خزر من مغراوة) أو غيرها.

---

[474] القاضي النعمان، **المصدر السابق**، ص 222-223. ينظر كذلك: موسى لقبال، **دور كتامة في الخلافة الفاطمية، المرجع السابق**، ص 349.

[475] يُنظر: ابن عذاري، **المصدر السابق، ج1**، ص 187. الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين، المصدر السابق**، ص 166.

[476] بوبة مجاني، **دراسات إسماعيلية، المرجع السابق**، ص 157.

- **أهم الحملات الفاطمية على المغرب الأوسط:**

سأحاول في الجدول التالي ذِكر أهم الحملات الفاطمية على المغرب الأوسط ابتداءً من سنة 909/296م إلى غاية 362هـ/973م تاريخ رحيلهم إلى مصر، مع تِبيان انعكاسات هذه الحملات وما ترتَّب عليها من صراعات على الجانب الديمغرافي، مع التركيز أيضا على تلك الحملات الكبرى ذات الأثر السلبي على الصعيد الديمغرافي للمغرب الأوسط.

الجدول رقم 11: يمثل أهم الحملات الفاطمية على المغرب الأوسط:

الحملة	المكان المستهدف	السنة	نص الحملة الذي يُبرز تأثيرها الديمغرافي	المصدر
حملة أبي عبد الله الشيعي لإخضاع تيهرت عاصمة الرستميين	تيهرت	296هـ/910م	"...فسار [أبو عبد الله] حتى حل بمدينة تيهرت، فدخلها بالأمان، **وقتل بها من الرستمية جماعة** وبعث برؤوسهم إلى...القيروان..."	البيان، ج1، ص 186.
حملة أبي عبد الله الشيعي على المغرب الأوسط	المغرب الأوسط	298هـ/911م	"...تحوّل أبو عبد الله الداعي في بلاد البربر وحارب صدينة وزناتة **وقتل الرجال** وأخذ الأموال **وسبى الذرية** وأحرق بعض المدن بالنار..."	البيان، ج1، ص 189.
حملة الفاطميين على المغرب الأوسط وعلى تيهرت	المغرب الأوسط وتيهرت	299هـ/912م	"...كانت وقعة بين عساكر عبيد الله وبين زناتة **قُتل فيها من زناتة خلقا كثيرا**، وكانت أيضا ملحمة تيهرت وذلك أن أهلها قد ثاروا على دواس [بن صولات] عاملها...**وقُتل أكثر أصحابه**، وكانوا في ألف فارس، واستدعوا مُحَمَّد ابن خزر...ثم أخرج عبيد الله العساكر إلى تيهرت في عدد عظيم...**فقَتلوا الرجال وسبو النساء**	البيان، ج1، ص 191.

			والذرية...وبلغ عدد القتلى بها ثمانية آلاف رجل..."	
حملة مصالة ابن حبوس (الوالي الفاطمي) على مجالات زناتة وابن خزر	المغرب الأوسط	312هـ/ 924م	"...خرج مصالة ابن حبوس من تيهرت إلى زناتة فأداخ بلادهم **وقتل وسباهم** وأخرج خيلا إلى نواحي ابن خزر، فبلغ ذلك ابن خزر فقصد نحو مصالة ودارت بين الفريقين حروب عظيمة قُتل فيها مصالة وانهزم أصحابه..."	البيان، ج1، ص 203.
في إطار حملة القائم (الخليفة الفاطمي) على المغرب الأوسط ابتداء من سنة 315هـ	جبل عقار (قرب المسيلة)	315هـ/ 927م	"...وقد اجتمعت جماعة عظيمة من كيانة وبني كملان وقبائل زناتة فتحصنوا في قلعة منيعة وعرة المسالك صعبة المرام تُعرف بعقار، فقصدهم العساكر في قلعتهم...**وقتلوهم أبرح قتل ولم ينج منهم إلا القليل**..."	الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص ص 216-217.
في إطار حملة جوهر الصقلي على المغرب الأقصى	مدينة إفكان	347هـ/ 958م	"...وخرَّب جوهر مدينة إيفكان وفرَّت زناتة أمامه، وكشف القناع في مطالبتهم...فتفرقت بعدها جماعة بني يفرن...**ولحق الكثير منهم بالأندلس**..."	ابن خلدون، العبر، ج7، ص 25.

من خلال هذا الجدول يتبين مدى حضور وتعدد الحملات الفاطمية على المغرب الأوسط عبر مختلف الفترات طِوال مدة التواجد الفاطمي في بلاد المغرب. فلاطالما أن هناك تمردات من طرف القبائل الموالية للأمويين على غرار زناتة بالمغربين الأوسط والأقصى إضافة إلى مكناسة بالمغرب الأقصى أيضا، فإن هناك حملات فاطمية، حملات كان المغرب الأوسط أول المتضررين منها سواء استهدفته إحدى هذه الحملات أم استهدفت المغرب الأقصى باعتباره -أي المغرب الأوسط- محطة عبور لجحافل الجيوش الفاطمية إليه (المغرب الأقصى) ذهابا وإياباً.

وبما أن "مدينة تاهرت [تعتبر] قاعدة زناتة"[477] في تلك الفترة، و أسرة بني خزر من الفرع المغراوي الزناتي كان أبرز المعارضين للدولة الفاطمية، فإن الكثير من الحملات الفاطمية كانت تستهدف تيهرت ومجالاتها باعتبارها محل الصراع بين القوتين، الأمر الذي ساهم طبعا في تواتر الفتن والاضطرابات السياسية على هذه المدينة وأحوازها، وهو ما يعني بالضرورة تردي وضعيتها الديمغرافية.

ولم تَتردّ وضعية تيهرت ومنطقتها فقط جراء الحروب والصراعات العسكرية بين الفاطميين ومعارضيهم، بل شمل هذا الوضع مُعظم "مَرابِع المغرب الأوسط، خاصة في مجالات طبنة والزاب وتاهرت وحوض الشلف والونشريس وتلمسان"[478]، باعتبار أن هذه المجالات من المغرب الأوسط كانت أهم مناطق التماس والصراع بين الفاطميين والثوار.

وكما لُوحِظ في الجدول (رقم 11)، فقد تنوعت الآثار الديمغرافية السلبية لهذه الحملات الفاطمية المتعددة وما نتج عنها من صراعات وحروب مع المعارضين، فتارة يكون سقوط مئات أو آلاف القتلى أبرز هذه الآثار، أو السبي والأسر تارة أخرى، دون نسيان ظاهرة الهجرات الاضطرارية داخل أو خارج المغرب الأوسط للعديد من السكان والقبائل الذين تطالهم الآلة الحربية، كل ذلك أثر سلبا على ديمغرافية المغرب الأوسط في هذه الفترة، وهذا الموضوع المتمثل في ظاهرة الهجرات الناتجة عن الحروب وانعكاساتها الديمغرافية السلبية سأحاول التطرق له بشيء من التفصيل في العُنصر المُوالي.

ثانياً: انتكاسات ديمغرافية ناعِمة، أو الهجرات النَّاجِمة عن الحروب ودورها في الإخلال الديمغرافي للمغرب الأوسط خلال ق4هـ/10م:

سأحاول أن أتحدث في هذه النقطة على قضية مساهمة جوّ الفتن والحروب واضطراب الوضع السياسي في هذا القرن في بثّ وحدوث هجرات جماعية كبرى إلى خارج المغرب الأوسط، خاصة في المرحلة الفاطمية التي شهدت حدوث هجرات كبيرة لكل من قبيلتي كتامة وزناتة. غير أن كتامة تبقى أبرز قبيلة مغربية في هذه الفترة (ق4هـ/10م) شهدت حركية واسعة وهجرات ضخمة لمعظم قبائلها ولعشرات الآلاف من أفرادها نحو خارج المغرب الأوسط، وبشكل أكبر نحو إفريقية أولاً ونحو المشرق ثانياً.

---

[477] ابن أبي الزرع، **الأنيس المطرب، المصدر السابق**، ص 98. أنظر أيضا: سنوسي يوسف ابراهيم، **المرجع السابق**، ص 180.

[478] موسى لقبال، **طبنة في مجال العلاقة بين زناتة والفاطميين**، المرجع السابق، ص 44.

أ. **كتامة:**

الهِجرة الأولى إلى إفريقية أثناء ميلاد الدولة الفاطمية:

وِفقاً لأحد المصادر[479]، فإن دخول أبي عبد الله الشيعي لرقادة سنة 296هـ/909م كان على شكل "سَبعة عساكر فيها **ثلاث مئة ألف** بين فارس وراجل" (**300 ألف**)! وبالرغم من كون هذا الرقم مُهوّلا ومبالغا فيه وبالتالي لا يمكن تصديقه طبعا، إلا أنني مقتنعٌ تماماً أن عدد الجيوش التي اقتحمت رقادة عقِب مَوقعة الأربس الفاصلة كان كبيرا جدا، ومن المعلوم أن الأغلبية الساحقة لهذا الجيش كانت تتشكل من العناصر الكتامية بالأساس، هذا يعني حقاً حُدوث إحدى أُولى وأهمّ وأكبر الهجرات الكتامية في العصر الوسيط من مناطق انشارها ومواطنها الأصلية (نواحي: ميلة، جيجل، سكيكدة، سطيف...) نحو مناطق أُخرى (إفريقية).

وإذا تمَّ –مثلاً– قَبول فقط رُبع هذا العدد الذي قدمه المصدر أعلاه بشأن عدد الجيوش التي اقتحمت رقادة مع أبي عبد الله الداعي، فإن الحاصِل سيكون: **75 ألف** مقاتل كتامي دخلوا رقادة مع أبي عبد الله الداعي. هذا الأخير وفور دخوله رقادة عاصمة الأغالبة "نزل ببعض قصورها **وفَرَّق دورها على كتامة**"[480]، بحيث **نزلت جميع كتامة بدور هذه المدينة**[481] التي "لم يكن بقي بها أحد من أهلها" على قول المصادر[482]، **كما ونزل قوم من كتامة أيضا "بالقصر القديم في دور الهاربين مع زيادة الله وفيما حوله من الأرباض وحول رقادة فكانوا كالجراد المنتشر، ورأى الناس من جمعهم ما لم يظنوا أنه يجتمع مثله لأحد من الناس"[483]!**

تدلّ هذه النصوص المصدرية بشكل واضح على كثرة جموع الجيوش الكتامية التي اجتاحت رقادة، لتستقر أخيراً في هذه المدينة وفيما حولها من مناطق، كما تدل أيضا على أن غالبية الجيش –إن لم يكن كُلّه– كان يتألف من العناصر الكتامية. وإذا أُخِذ بعين الاعتبار الرقم الذي أشرتُ إليه سابقاً والذي هو **75 ألف** بخصوص عدد المقاتلين الذين اقتحموا رقادة مع أبو عبد الله الشيعي، فإن هذا يعني أن ما يقارب من **70 ألف** فرد كتامي تركوا مناطق سُكناهم الأصلية بالمجالات

---

[479] ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 184. انظر أيضا: بوبة مجاني، **دراسات اسماعيلية**، **المرجع السابق**، ص 154.

[480] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج6 ص 459. المقريزي، **الإتعاظ**، **المصدر السابق**، ج1، ص 63. الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين**، **المصدر السابق**، ص 138.

[481] القاضي، **المصدر السابق**، ص 245.

[482] القاضي النعمان، **نفسه**، الصفحة نفسها. الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين**، **المصدر السابق**، ص 138.

[483] القاضي النعمان، **نفسه**، ص ص 245-246.

الكتامية، وذهبوا للاستقرار برقادة العاصمة الأغلبية السابقة التي "لم يكن بقي أحد من أهلها فيها"[484]. وكما هو معلوم فإن استقرار هؤلاء الجنود الكتاميين بإفريقية وبالأخصّ بِرقّادة سيستدعي بالضرورة نُزوح عائلاتهم إليهم للعيش معهم في مواطنهم الجديدة، عندها سيتضاعف هذا العدد (70ألف) بشكل خيالي إذا احتُسبت عائلة كل جندي، وسواءً قُدِّر عدد أفراد كل عائلة بخمسة (5) أو عشرة (10) أفراد، فإن النتيجة ستكون في كلتا الحالتين خيالية وجنونية **حيث تعطي هذه النتيجة انطباعاً واحداً مفادُه أن عدد الكتاميين في هذه الهجرة الأولى نحو رقادة خاصة وإفريقية بشكل عام كان ضخماً جداً!**

من هنا يتبين مَدى هول الأمر ومدى ضخامة عدد الأفراد الكتاميين الذين تركوا مناطق انتشارهم واستقرارهم بالمغرب الأوسط والهجرة نحو إفريقية ونحو العاصمة الأغلبية السابقة بشكل أخص قصد الاستقرار بها بشكل نهائي أو شبه نهائي، وهو ما يعني إحداث خلل بالوضع الديمغرافي لقبيلة كتامة على وجه الخصوص، وإحداث أثر سلبي وكبير على ديمغرافية المغرب الأوسط بشكل عام خلال هذه الفترة.

الهجرة الثانية لكتامة، أو التهجير الثاني لكتامة من سطيف ونواحيها نحو المنصورية بإفريقية:

يبدو أن كتامة في هذه الفترة قد قَدَّر لها الله أن تكون ذاك القَبيل الذي يُستعان به من أجل تعمير أي عاصمة جديدة للفاطميين، فبعد أن عُمِّرت رقادة العاصمة الأغلبية القديمة وعاصمة الفاطميين حديثاً بعشرات الآلاف – على أقل تقدير– من الكتاميين، جاء الدّوْر على المنصورية عاصمة الفاطميين الجديدة ليتم تعميرها كما سيتَّضِح بعشرات الآلاف من الكتاميين أيضا، وهو الأمر نفسه الذي سيُنتهج عند بناء القاهرة في المشرق.

سأُحاول أن أُشير هنا باختصار إلى التّهجير القَسري –الذي سبق وأن تحدثتُ عنه– والذي تَعرّض له جزء مهمّ من كُتاميي سطيف ومنطقتها، والذي فرضه عليهم الخليفة الفاطمي المنصور (334-341هـ / 946-953م). هذا الأخير وبعد انتهائِه من مُطاردة أبي يزيد صاحب الحمار والقضاء على ثورته سنة 336هـ/948م، وأثناء عودته من المغرب الأوسط نحو إفريقية "فَرَض على كتامة **أربعة عشر ألف بيت** يوافون المنصورية فيسكُنون فيها"[485].

[484] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج6 ص 459.

[485] الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين، المصدر السابق**، ص 467. بوبة مجاني، **دراسات إسماعيلية، المرجع السابق**، ص 162.

لقد سبق وأن تحدثتُ عن هذه الحادثة التاريخية من قبل، حين قُلتُ بأن هذا التهجير الذي تعرضت له كتامة من قِبل المنصور الفاطمي يعد أفضل مثال عن ظاهرة التهجير القسري الذي يمارَس بشكل مباشر على السكان خاصة المدنيين منهم بسبب تبعات جو الفتن والاضطراب واللاستقرار السياسي الذي شهده المغرب الأوسط وبلاد المغرب بشكل عام خلال هذه الفترة. كما قلتُ أنه وعند القيام بعملية بسيطة سيكون مجموع من تم نقله أو إجلاؤه من الكتاميين: **140 ألف** شخص إذا ما احتُسِب 10 أفراد لكل بيت، كما يمكن أن يبلغ **70 ألف** شخص إذا ما احتُسِب 5 أفراد لكل بيت، وفي كلتا الحالتين فإن الرقم الحاصِل ضخم جداً ويصعب تصوّرُه.

ما يُهمّ في هذا المثال أنَّ هذا المُعطى أو المُؤشر الديمغرافي المقدم من طرف المصادر والذي يعطي مثالاً حياً على أن ظاهرة التقتيل الجماعي للسكان والقبائل بسبب الظاهرة الحربية لم يكن وحده من يعصف بالوضعية الديمغرافية لقبيلة أو مجال ما، بل ساهمت ظاهرة الهجرات القسرية وشِبه القسرية التي شهدتها التحركات البشرية في بلاد المغرب الأوسط وغيره من بلدان المغرب أثناء فترات الاضطراب السياسي، ساهمت هي الأخرى في إحداث شرخ ديمغرافي هائل وفراغ سكاني كبير للمجالات والقبائل التي كانت عرضة للظاهرة الحربية. وبالتالي إمكانية أن يتسبَّب هذا النوع من الهجرات في إحداث انتكاسات ديمغرافية هائلة في وقت قصير وقياسي، وهو ما يصعِّب أكثر قضية تعويض نِسبة الحجم السكاني المهاجِر أو المُهَجَّر إلى مناطق خارجية.

الهجرة الثالثة لكتامة: هجرة الفاطميين إلى المشرق وانعكاساتها الديمغرافية على قبيلة كتامة:

بِرَحيل الفاطميين إلى المشرق، فإن كتامة كانت على موعد مع حدوث هَزّة أخرى جديدة لديمغرافيتها بانتقال عشرت الآلاف –إن لم يكن مئات الآلاف– من أفرادها نحو موطنهم الجديد بالمشرق في القاهرة بشكل أخصّ وفي غيرها من المناطق المشرقية التي خضعت للفاطميين بعد قدومهم إليها من بلاد المغرب بشكل عام، وذلك باعتبار أنهم –أي الكتاميون– يشكّلون أغلبية الجيش الفاطمي المستولي على المشرق.

وأعتقد هنا أن هذه الهجرة التي حدثت لكتامة في هذه المرة أكثر خطراً من الهجرتين الأوليتيْن الّلتين تعرضت لهما كتامة في بداية تأسيس الدولة الفاطمية في عهد المنصور نحو إفريقية. إذ تكمن خطورة هذه الهجرة –في نظري– في أن الهجرتيْن الأَوْلَيَيْن كانتا فقط داخل مجالات بلاد المغرب وبالضبط من المجالات الكتامية الأصلية نحو إفريقية، وهو ما يجعل من أمر عودة بعض الأفراد والجماعات نحو مناطقها في المجالات الكتامية أمرا واردا وممكنا خصوصا وأن كِلا المجالايْن تابِعان لدولة

واحدة هي دولة الفاطميين. وأبرز دليل على ذلك عودة بعض العناصر الكتامية من إفريقية إلى بلادهم قصد التمرد على الفاطميين احتجاجا على إقدام أبي عبيد المهدي على تصفية أبي عبد الله الداعي سنة 298هـ/911م أو احتجاجا على تعرض كتامة لمقتلة كبيرة في القيروان سنة 299هـ/912م على اختلاف الرِّوايات[486]، على عكس الهجرة الثالثة للمشرق التي تجعل من مَهمّة عودتهم بأعداد كبيرة لبلاد المغرب بصفة عامة ولموطنهم الأصلي بصفة خاصة أمراً في غاية الصعوبة – إن لم أقُل مستحيلا– بسبب بُعد المسافة من جهة، ومن جهة أخرى بسبب تبعية معظم أراضي بلاد المغرب بما فيها مواطنهم الأصلية للزيريين القَبِيل الصنهاجي الذي لا تربطه بنظيره الكتامي علاقة طيبة.

حسب أحد المصادر التاريخية[487]، فإن عدد جيوش الحملة الفاطمية التي خرج بها جوهر الصقلي القائد الفاطمي من رقادة نحو مصر كان يفوق ال **100 ألف فارس**، وهو نفس العدد الذي وجدتُه عند الكثير من الدراسات الحديثة[488]، "هذا عَدا النَّجْدات التي تقاطرت على مصر بعد مَسير الحملة [والتي] قادها كل من سعادة ابن حيان...والحَسَن بن عَمّار"[489] الكتاميَيْن. ورغم تعيين المُعزّ قائده جوهر على رأس هذه الحملة، إلا أن العناصر الكتامية شكلت الدعامة الأساسية لجيش هذه الحملة، فحسب أحد الدارسين[490] فإن جوهراً هذا وابتداءً من سنة 355هـ/ 965-966م اتّصَل بالكتاميين في مناطق القبائل الصُّغرى والمناطق الأخرى في المغرب لحشد الجنود وجبي الضرائب الموظفة على البربر، ولم يرجع إلا في شهر محرم 358هـ/ أواخر ديسمبر 968م مَصحوبا بالرّجال والأموال.

---

[486] "وبَقيت من المنافقين بَقية، قد اجتمعوا إلى بلد كتامة فأقاموا غُلاما حَدَثاً...فزَعَموا أنه المهدي". الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين، المصدر السابق**، ص 190. للمقارنة: تُنظر رِواية أُخرى لابن عذاري: "...ولحق من كان حوالي رقادة من كتامة ببلادهم، فلما حصلوا فيها أظهروا الخلاف، وقدموا على أنفسهم [غلاما] حدثا...وزعموا أنه المهدي...". ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 191.

[487] المقريزي، **الإتعاظ، المصدر السابق**، ج1، ص 113.

[488] يُنظر على سبيل المثال: موسى لقبال، **دور كتامة في الخلافة الفاطمية، المرجع السابق**، ص 474. فرحات الدشراوي، **المرجع السابق**، ص 379. شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تعريب: مُحَّد مزال و البشير بن سلامة، ج2، الدار التونسية للنشر، فيفري 1983، ص 86. عبد الله مُحَّد جمال الدين، **الدولة الفاطمية: قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري مع عناية خاصة بالجيش**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1411هـ/1991م، ص 122.

[489] موسى لقبال، **دور كتامة في الخلافة الفاطمية، المرجع السابق**، ص 474. "...[وفي سنة 360هـ] قَدِم سعادة بن حيان من المغرب في جيش كبير فتَلَقَّاه جوهر فترجل له سعادة...". ينظر: المقريزي، **الإتعاظ، المصدر السابق**، ج1، ص 128.

[490] فرحات الدشراوي، **المرجع السابق**، ص 378.

لقد كانت كتامة طِوال الفترة الإفريقية من العهد الفاطمي تمثل العُنصر المتفوق داخل جيش العبيديين الذين ارتكزت دعوتهم منذ البداية على العصبية الكتامية[491]، كما أن قبيلة كتامة كانت أيضا وفقا لأحدهم[492] أساس العساكر الكثيرة التي وفدت مع جوهر لفتح مصر سنة 358هـ/969م، وقد كانت تشكل أصل الجيش الفاطمي كما كانت في عهود الخلفاء الثلاثة الأوائل ببلاد المغرب.

اتَّضَحَ من خلال ما سبق أن كتامة كانت "هي أصل دولة الخلفاء الفاطميين"[493] في الطَّور المغربي، كما لعبت دورا رئيسيا في عملية إخضاع مِصر وغيرها من المناطق في المشرق لدولة العبيديين إلى غاية الانتقال النهائي للفاطميين صَوْبَ المشرق على يد المعز سنة 362هـ/973م. ومنه فحشود كتامة قد رحلت إلى المشرق في إطار حملة جوهر ابتداءً من سنة 358هـ/969م وما تَبِعَ ذلك من حَمَلات أخرى بعدها، وصولا إلى رحلة جزء آخر مهم من عناصرها أثناء الحملة الأخيرة والنهائية في إطار انتقال المعز[494].

إن هذا المشروع السياسي الفاطمي الضخم الذي كان على أكتاف كتامة أعتقد أنه قد جَنَى على القَبيل الكتامي ضريبة ديمغرافية هائلة، سواء على مستوى الطور المغربي أو أثناء عملية الانتقال نحو المشرق مع ما صحِب هذا الانتقال من مواجهات وصراعات أثناء التوسعات الفاطمية في كلّ من مصر والشام والحجاز واليمن.

وجدير بالذكر، فإن رقم 100 ألف الذي قدمته المصادر كان يخص فقط عدد الجنود المشاركين في حملة جوهر سنة 358هـ/969م، دون احتساب حملات الإمدادات التي ستلتحق به تِباعا وصولا إلى الهجرة النهائية والأخيرة بقيادة المعز، ومع ذلك وعلى أقل تقدير سآخُذ بعين الاعتبار رقم 100 ألف عنصر فقط على افتراض أنه يمثل عدد العناصر الفاطمية التي انتقلت إلى المشرق. وإذا أخِذ بعين الاعتبار أيضا أن العناصر الكتامية كانت تُشكّل الأغلبية الساحقة لهذا الجيش –

[491] فرحات الدشراوي، **المرجع السابق**، ص 537.

[492] عبد الله محمد جمال الدين، **المرجع السابق**، ص 188.

[493] المقريزي: تقي الدين (ت 845هـ/1441م)، **المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار –المعروف ب: الخِطط المقريزية–**، تحقيق: محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، ج2، مكتبة مدبولي، د م ن، 1998، ص 388.

[494] "...وما زالت كتامة هي أهل الدولة مدّة خلافة المهدي عبيد الله وخلافة إبنه القاسم القائم بأمر الله وخلافة المنصور بنصر الله إسماعيل بن القاسم وخلافة معد المعز لدين الله ابن المنصور، وبهم أخذ ديار مصر لما سيَّرهم إليها مع القائد جوهر سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة، وهم أيضا كانوا أكابر من قَدِم معه من الغرب في سنة اثنين وستين وثلاثمئة...". المقريزي، المواعظ، المصدر نفسه، ج2، ص 390. نقلا عن: عبد الله محمد جمال الدين، **المرجع السابق**، ص 189.

وهذا أمر لا غُبار عليه-، فإن هذا الأمر يؤدي بي إلى القول أن ثُلثي هذا الجيش -على الأقل- مُكون من الأفراد الكتامية أي ما يُقارب ال **70 ألف** عنصر!

ومن المعروف أن هذه الهجرة هي بمثابة هجرة نهائية أي دون عودة تقريبا، وهذا ما سيؤدي بالضرورة بهؤلاء الجنود إلى اصطحاب أُسَرهم معهم من أجل استقرارهم سويا في موطنهم الجديد بالمشرق خاصة في مدينة القاهرة التي اختطوها بمعية جوهر الصقلي قائد الجيش، أين سيكون لهم في هذه المدينة حي أو حارة خاصة بهم وتعرف باسمهم والتي هي "حارة كتامة" كما هو مذكور في خِطط المقريزي[495]. هذا يعني حُدوث هجرة جماعية كتامية أُخرى تُقدَّر بمئات الآلاف سواءً باحتساب 10 أو 5 أفراد لأُسرة وعائلة كل جندي!

وطبعاً سيكون للمجالات الأصلية لكتامة بالمغرب الأوسط حَظُّها من هذا العدد المنتقل نحو المشرق. هذا بالرغم من أن هناك من يرى "أن تِعداد من انتقل من القبائل الكتامية القاطنة بمجالاتها الأصلية لم يكن كبيراً"[496] أثناء هذه الهجرة. ومع كافة احترامي لصاحب هذا الرأي، إلا أنني هنا أَرى طرحاً مغايراً -ربما- لذلك، إذ أعتقد أن كتامة التي طالما كانت الملجأ والخيار الأفضل للسّلطة الفاطمية في المرحلة المغربية أثناء الأزمات والمهمّات الصّعبة، كيف لا يُستعان بها في هذا الظّرف الذي أصبح فيه المشروع الفاطمي الأكبر قاب قوسين أو أدنى من التَّحقق، والذي هو حُلم بَسط السّيطرة على المشرق ومُقارعة العباسيين في عُقر دارهم!

ثم إنه كيف يُفسَّر ما ذَكَره أحد الدارسين[497] -كما أسلفتُ من قبل- بشأن اتّصال جوهر بالكتاميين في مجالاتهم بالمغرب الأوسط قصد تعبئة الحشود والجيوش منهم قبل المَسير إلى المشرق! بالإضافة إلى ذلك، فإنني أذهب إلى الاعتقاد أن كتامة التي تمّ توظيفها من قبل في مشروع إعْمار صبرة مدينة المنصور الجديدة وبقيت -أي كتامة- عاجزة عن رفض تهجير هذا الخليفة لأزيد من 14 ألف بيت منهم من ضواحي سطيف نحو العاصمة الجديدة بإفريقية، لم تكن لتجرؤ -أي كتامة دائما- على رفض المعز طلب مشاركتها في مشروع غزو المشرق والانتقال إليه. خاصة وأن كتامة في هذه المرحلة قد ذابت تماماً في الدولة العُبيدية ومشروعها السياسي والمذهبي ولم يكن لها أن تفوّت على نفسها فرصة كهذه. خاصة أيضا إذا

[495] بخصوص (حارة كتامة) ، أنظر: المقريزي، المواعظ، المصدر السابق، ج2، ص 388.

[496] حسين بوبيدي، **الحراك القبلي الكتامي من ق3-5هـ/9-11م دراسة في الخلفيات والتداعيات**، مقال ضمن كتاب جماعي بعنوان: شهادات ودراسات مهداة إلى الدكتور عبد العزيز فيلالي، إعداد وتنسيق: حسين بوبيدي و مُحَمَّد نصير، إشراف بوبة مجاني، ج2، دار الهدى، عين مليلة – الجزائر، 2022، ص 261.

[497] الدشراوي، الدولة الفاطمية، المرجع السابق، ص 378.

عَلِمت هذه القبيلة أن أمر إفريقية والمغرب سيؤول –لا محالة– لصنهاجة، عندها كتامة وأثناء هذا الموقف المحرج والصعب ستحاول أن تربح المشرق –على الأقل– إن خسرت المغرب!

ما يُمكن الخَلاصُ إليه هو أن كتامة جَرَّاء هذا الانتقال وجَرَّاء باقي الهجرات الأخرى والانتكاسات الديمغرافية العديدة بسبب جوّ الفتن والحروب التي عصفت بهذه القبيلة من كل جانب خلال هذه الفترة (ق4هـ/10م)، تكون قد خسرت الكثير من ديمغرافيتها سواء المستقرة منها بإفريقية أو المستقرة بمواطنها الأصلية بالمغرب الأوسط. فابن خلدون مَثلاً عندما تحدث عن هذا المكوِّن القَبَلي المغربي إبَّان القرن الثامن الهجري/14م، يُلاحَظ عليه أنّه يُكثر من استعمال اشتقاقات الفِعل الماضي (كان)[498]، وهو ما يمكن أن يُفهم كمؤشر على تراجع ديمغرافية هذه القبيلة ودورها السياسي الريادي بسبب مشاركتها الأساسية في بناء وتجسيد المشروع الإسماعيلي العُبيدي على أرض الواقع في بلاد المغرب وما تَرتَّب عن هذا المشروع من ضريبة ديمغرافية هائلة لها. هذا من جانب، ومن جانب آخر بسبب انتقال نِسبة مُهمّة من ديمغرافية هذه القبائل مع الفاطميين إلى المشرق[499].

وقَبْلَ ابن خلدون هناك إحدى المؤلَّفات الجغرافية في القرن 6هـ/12م تشير إلى نص خطير مفاده أنه في تلك الفترة – أي في القرن السادس الهجري/12م – لم يبق من كتامة "إلا نحو **أربعة آلاف رجل وكانوا قبل ذلك عددا كثيرا وقبائل وشعوبا**"[500]. وهذا دليل ومؤشر مصدري آخر على تضرر ديمغرافية كتامة بشكل سلبي جراء مختلف هذه الهجرات وجراء مختلف الحروب التي كانت فيها القبيل الكتامي فاعلا أساسيا فيها ابتداءً من بداية مشروع تأسيس الكيان الفاطمي إلى غاية رحيله إلى المشرق. وما مختلف النصوص المصدرية –التي سبق وأن تحدثتُ عنها– والتي تشير إلى الحالة الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية السيئة التي آلت إليها كتامة بعد الرحيل الفاطمي سنة 362هـ/973م نتيجة التَّسلّط الزيري على هذا القبيل والذي كان بإمكانه –أي الطرف الزيري– إخضاع التمردات الكتامية بكل سهولة ودون كبير عناء، لم يكن كل

---

[498] مَثلاً: "...وكانت بتلك المواطن (مواطن كتامة) بلاد مذكورة أكثرها لهم..." و "...وكانت بطونهم كثيرة...". يُنظر: ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 195.

[499] "...ولما صار لهم (كتامة) المُلك بالمغرب، زحفوا إلى المشرق فملكوا الإسكندرية ومصر والشام واختطوا القاهرة أعظم الأمصار بمصر، وارتحل المعز رابع خلفائهم فنزلها وارتحل معه كتامة على قبائلهم واستفحلت الدولة هنالك وهلكوا في ترفها وبذخها". ابن خلدون، المصدر **نفسه**، ج6، ص 196.

[500] الإدريسي، **المصدر السابق**، ج1، ص 270. يُنظر أيضا: حسين بوبيدي، **الحراك القبلي الكتامي**، **المرجع السابق**، ص 262.

ذلك إلا دليلاً آخر على تردِّي حالة كتامة الحضارية بشكل عام والديمغرافية بشكل خاص[501]. وذلك نتيجةً لمشاركتها الأساسية والفاعلة في المشروع العبيدي الفاطمي في بلاد المغرب (ما بين سنتي:280-362هـ/893-973م) والذي كما يبدو فقد كَلَّفها الكثير، لاسيما على الصعيد الديمغرافي بسبب مختلف الحروب والهجرات التي كانت كتامة فاعلاً أساسيا فيها وذلك دائما في إطار المشروع الفاطمي خلال طوره المغربي الذي ارتكز أساسا على القبيل الكتامي ابتداءً مرحلة من التأسيس والقيام إلى غاية مرحلة الرَّحيل نحو المشرق.

ب. هوارة وزناتة وقبائل أخرى:

بالرغم من أن الهجرات المتعلقة بهوارة وزناتة لا ترقى إلى عمليات التهجير التي تعرضت لها كتامة، إلا أن القبيلين الهواري والزناتي لم يَسلما هما الآخران من هذه الظاهرة ولم يكونا بمنأى عنها، لا سيما فرع بني كملان من هوارة والفرع اليفرني من زناتة اللذين لعبا دورا بارزا في ثورة صاحب الحمار المناهِضة للعُبيديين.

فالقائم بأمر الله الفاطمي وأثناء حملته على المغرب الأوسط ابتداءً من سنة 315هـ/927م وأثناء وصوله إلى باغاية، "وافته هناك مزاتة وقبائل هوارة وصدينة وعجيسة وأهل تيجس وقصر الإفريقي وزناتة وغيرهم بحشودهم، **وأمرهم بمصير (مسير) وجوه رجالهم بعيالهم إلى المهدي...وأن يسكنوا المهدية**"[502]. ويبدو أن القائم كان مُصِراً على هذا القرار الذي اتخذه، ومن أجل ضمان تنفيذه، أقام بهذه المدينة (باغاية) قُرابة الأسبوعين "وأنفَذ الكتب إلى القبائل بالترغيب والترهيب والتحذير لمن عصاه من بعيد وقريب"[503]، وربما جاء هذا التحذير من أجل حثّ هذه القبائل على الالتزام بهذا الأمر وعلى الانضمام إليه بجيوشها في حملته على ابن خزر وحلفائه بالمغرب الأوسط.

---

[501] "وقد تَغيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت، **وكذلك كتامة في حالها من جهة خليفة أهل المغرب بالمغرب، وهو بلكين يوسف بن زيري وقد استباح الجميع**". ابن حوقل، **المصدر السابق**، ص 93. "وفي سنة ثمان وسبعين وثلاث مئة: تحرك أبو الفتح المنصور بعساكره إلى بلاد كتامة فمَرّ على ميلة وأمر بخرابها وهدْم سورها، وأمر أهلها بالمسير منها إلى باغاية فاجتمعوا وساروا إليها...ولما وصل المنصور إلى كتامة، حاربوه فظفر بهم وقتلهم واستأصلهم...ونزل بكتامة الذل والهوان، وبقيت ميلة خرابا، ثم عمرت بعد ذلك...". ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 263-264.

[502] الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين**، **المصدر السابق**، ص 216.

[503] **نفسه**، الصفحة نفسها.

وحسب بعض المصادر[504] فإن القائم وفور عودته من حملته التي استهدفت حرب مُحَّد ابن خزر الزناتي، خطّ هذا الخليفة الفاطمي مدينة المسيلة التي كانت في الأصل تقع ضِمن مجالات بني كملان من هوارة، حيث "**أخرجهم منها ونقلهم إلى فحص القيروان**"[505].

وطبيعي أمام ما كان يقدمه الأمويون بالأندلس من دعم للعناصر المغربية المناوئة للفاطميين، فإن الفلول المنهزمة أمام الفاطميين سيكون الأندلس مَلاذها المفضل فرارا من بطش الفاطميين. فمثلاً يذكُر أحد المصادر[506] أنه وبعد هزيمة يعلى ابن مُحَّد وجماعته اليفرنيين من طرف الفاطميين وتخريب القائد الفاطمي جوهر الصقلي لمدينتهم إفكان، "**لحِق الكثير منهم بالأندلس**"[507].

فلطالما كانت الأندلس في هذه الفترة ملجأ الثوار المغاربة المنهزمين والذين كانوا قد قاموا بالتمرد ضد الفاطميين ومن بعدهم الزيريون، حتى وإن كان هؤلاء الثوار من صنهاجة، ففي عهد حكم باديس بن المنصور الزيري (386-406هـ/996-1016م)، ثار ضده أعمامه: ماكسن وزاوي بن بلكين[508]، فلما ظفر بهم حماد بن بلكين (قائد باديس بن المنصور)، هادنهم على شرط انتقالهم إلى الأندلس، "**فلحقوا بابن عامر** سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة"[509] وانضموا إلى جيوشه.

هذا ولم تكن أجزاء من العناصر الصنهاجية وحدها من انضمت إلى جيوش المنصور ابن أبي عامر بالأندلس، بل سبقتها إلى ذلك جموع من زناتة. إذ يُقرأ في أحد المصادر أنه عندما "تحرَّك بلكين بن زيري الصنهاجي إلى المغرب في جموعه، وأوقع بقبائل زناتة طالبا ثأر أبيه زيري، فهربوا أمامه كلهم إلى سبتة وضاقت عليهم أرض العدوة"[510]، فاستغل

---

[504] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج7، ص 36. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، **المصدر السابق**، ج5، ص 64-65.

[505] ابن الأثير، الكامل، المصدر نفسه، ج7، الصفحة نفسها. أنظر أيضا: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، **نفسه**، ج5، ص 65. أنظر أيضا: بوبة مجاني، **دراسات إسماعيلية**، **المرجع السابق**، ص 162.

[506] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج7، ص 25.

[507] ابن خلدون، **نفسه**، ج7، الصفحة نفسها.

[508] الصّواب هنا هو: زاوي بن زيري، وليس كما ذكره ابن خلدون (نفسه، ج6، ص 209) باسم: زاوي ابن بلكين.

[509] ابن خلدون، **نفسه**، ج6، ص 209. غير أن ابن الأثير يرى أن ذلك حدث سنة 373هـ/983م: "في هذه السنة انتقل أولاد زيري بن مناد وهم زاوي وجلالة وماكسن إخوة بلكين إلى الأندلس، وسبب ذلك أنهم وقع بينهم وبين أخيهم حماد حروب وقتال على بلاد بينهم، فغلبهم حماد، فتوجهوا إلى طنجة ومنها إلى قرطبة فأنزلهم مُحَّد بن أبي عامر وسُرَّ بهم، وأجرى عليهم الوظائف وأكرمهم وسألهم عن سبب انتقالهم، فأخبروه وقالوا له أنما اخترناك على غيرك وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل الله، فاستحسن ذلك منهم...". ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج7، ص 413. يُنظر كذلك: الهادي روجي إدريس، **المرجع السابق**، ج1، ص 95.

[510] ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج2، ص 293.

المنصور بن أبي عامر هذه الفرصة الذهبية وحاول استمالتهم إلى جانبه واصطِناعهم، ف"أنفَذ كتبه إلى قبائل العدوة يستدعيهم ويتضَمّن الإحسان إليهم والتوسعة عليهم **حتى كثروا بالأندلس**، فحسنت أحوالهم وكثرت أموالهم وما زالوا خاصته وبطانته إلى أن هلك، وانقرضت الدولة العامرية، **وقد صار لهم بالأندلس منهم القبائل بأسرها**..."[511].

اتَّضح من خلال كل ما سبق مدى قدرة الهجرات نحو الخارج والناجمة عن الحروب على الإخلال بالوضع الديمغرافي لمجتمع وقبائل المغرب الأوسط، وهذه الظاهرة لا تختلف كثيرا عن ظاهرة القتل الجماعي وليدة الفتن والحروب أيضا.

كما اتَّضح أيضا أن قبيلة كتامة كانت من أبرز القبائل المغربية التي عانت من هذه الظاهرة، إذ يمكن القول أنها فقدت جزءً مهماً من ديمغرافيتها، انطلاقا من هجرتيها الأولى والثانية من أماكن انتشارها واستقرارها الأصلية نحو إفريقية في بداية تأسيس الكيان العُبيدي ثم في عهد المنصور الفاطمي، وانطلاقا أيضا من هجرتها الثالثة صوب المشرق. كما وقد عانت بعض القبائل المغربية الأخرى من هذه الظاهرة، لا سيما القبائل المعارضة للمشروعين الفاطمي والزيري كبني كملان من هوارة وبني يفرن من زناتة.

5. الصراعات القبلية في العهد الزيري بالمغرب الأوسط وانعكاساته الديمغرافية:

أ. صراع الزيريين ضد زناتة.

استمرت الصراعات السياسية القبلية بعد رحيل الفاطميين نحو المشرق، وورث الزيريون عنهم قيادة هذه الصراعات ضد القبائل المناوئة، خاصة ضد العنصر الزناتي المتحالف مع قرطبة والمدعوم من قِبلها. فكما كانت زناتة العدو اللَّدود لدى الفاطميين، كانت كذلك بالنسبة لدى الزيريين حلفاء الفاطميين و وارِثُوا عرشهم ببلاد المغرب بعد انسحابهم نحو المشرق. ففضلاً عن تأسيس زيري بن مناد الصنهاجي لمدينة أشير سنة 324هـ/936م في المرحلة الفاطمية وذلك في إطار صراعه مع زناتة من أجل اتخاذها كقاعدة أمامية في هذا الصراع، تواصلت محاولات الزيريين في المراحل اللاحقة من أجل وضع حد لتحركات زناتة بالمغرب الأوسط وفي غيره من بلدان المغرب، حيث لعب الزيريون دورا هاما في مساندة الفاطميين أثناء ثورة أبي يزيد صاحب الحمار ضدهم[512].

بعد ثورة أبي يزيد التي قادها الفرع اليفرني، أخذ الفرع الزناتي الآخر مُمَثَّلا في بني خزر من مغراوة مهمة مواصلة مناهَضة الفاطميين وحلفائهم من بني زيري، حيث لعبت هذه الأسرة (بنو خزر) دوراً أساسياً في عملية المناهضة هذه.

[511] ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج2، ص 294.

[512] عن ذلك كُلّه، يُنظر: ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج7، ص 333.

قُبيل رَحيل الفاطميين نحو المشرق، وبالضبط في سنة 361هـ/972م، تحالفت زناتة مع جعفر بن علي بن حمدون "صاحِب المسيلة وأعمال الزاب"[513] ضد القوة الزيرية، فتمكن هذا الحلف من قتل زيري بن مناد زعيم صنهاجة. ثم إن ابنه بلكين بن زيري " قصد زناتة وأكثر القتل فيهم وسبى نسائهم وغنم أولادهم..."[514] حتى "أجفلت زناتة أمامه، وتقدم إلى تاهرت فمح[ى] من المغرب الأوسط آثار زناتة"[515].

ساهمت هذه الحملة وغيرها من الحملات التي شنها بلكين بن زيري ضد زناتة في إحداث خلل كبير في ديمغرافية زناتة، وإجبارها على ترك مناطق انتشارها بالمغرب الأوسط والتقهقر أكثر نحو الغرب والمغرب الأقصى إلى حدّ أن "أقفر المغرب الأوسط من زناتة وصار إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى إلى أن كان من رجوع بني يعلى بن مُحَّد (اليفرني) إلى تلمسان وملكهم إياها"[516].

بعد انتهاء ولاية بلكين بن زيري (362-373هـ/973-983م)، جاء الدّور على ابنه وخليفته المنصور (373-386هـ/983-996م) الذي واصل الصراع مع زناتة. إذ في سنة 374هـ/984م، "أعطى المنصور أخاه يطوفت العساكر والعُدد ووجّهه إلى فاس وسجلماسة يطلب ردهما (استرجاعهما)، وكانت زناتة قد مَلَكت تلك البلاد بعد موت أبي الفتوح فمضى حتى وصل قرب فاس وبها زيري بن عطية الزناتي المعروف بالقرطاس ومعه عساكر زناتة، فعاجله زيري والتقوا واقتتلوا فانهزم يطوفت وجميع من معه وتبعه زيري فقتل من عسكره خلقا عظيما وأُسر، وهرب من سَلِم إلى تيهرت...فلم يتعرض المنصور بعدها لشيء من بلد زناتة"[517].

وفي فترة باديس بن المنصور (386-406هـ/996-1015م) وبالضبط في سنة 389هـ/999م "زَحَف زيري بن عطية (الزناتي) صاحب فاس وما والاها من بلاد الغرب إلى مدينة تيهرت فنزل عليها وحاصرها"[518] مما دفع بالزيريين تحت قيادة حماد بن بلكين بن زيري صاحب أشير إلى محاولة التصدي لهذه الحملة، إلا أن الطرف الزيري مُني هذه المرة أيضا بهزيمة نكراء، حيث "قُتل منهم خلق كثير وأُخذ أُسارى كثيرة"[519] تم إطلاقهم فيما بعد.

---

[513] ابن الأثير، **نفسه**، ج7، ص 334.

[514] **نفسه**، ج7، الصفحة نفسها.

[515] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج7، ص 38.

[516] **نفسه**، ج7، ص 38.

[517] النويري، **المصدر السابق**، ج 24، ص 98. أنظر أيضا: ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 260.

[518] ابن عذاري، **نفسه**، ج1، ص 270.

[519] **نفسه**، ج1، ص 271.

تزامُناً مع هذه الأحداث، ثار فُلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي ضد الزيريين بطبنة، فكانت بين الطرفين "حروب لم يُسمع بمثلها، وكان قد اجتمع لفلفل من البربر ما لا يُحصى عددا وكثرة، فانهزم فلفل...واتبعته صنهاجة والعبيد...وقُتل في ذلك اليوم نحو سبعة آلاف من زناتة"[520].

في هذه الأثناء أيضا حدث خِلاف وانشقاق داخلي بين الزيريين أنفسهم، وذلك أن أبناء زيري: " مَاكْسن وزاوي ومَغْنين، نافقوا بأشير وأنهم قد قبضوا يَطُّوفَت"[521] بن بلكين صاحب هذه المدينة وعامل الزيريين عليها، كما تحالفوا أيضا مع فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي ضد الزيريين، إلى أن "زحف [حماد بن بلكين] إلى عمه ماكسن بن زيري ومن معه، فقُتل ماكسن وولداه محسن وباديس بعد حروب شديدة"[522]بين الطرفين سنة 391هـ/1001م.

من خلال ما سبق، يتبين مدى شراسة الصراع الصنهاجي الزناتي في هذه الفترة وهو ما يعني –بالضرورة– وقوع المزيد من الخسائر الديمغرافية الهائلة بين الطرفين، تارة عن طريق مظاهر القتل الجماعي التي تخلفها هذه الحروب والفتن، وتارة أخرى عن طريق الهجرة والفرار نحو الأقاليم الأخرى خارج المغرب الأوسط.

ب. صراع الزيريين ضد كتامة.

رجعت كتامة أخيرا وللمرة الأخيرة –فيما يبدو– إلى جو الثورات والتمردات[523] وذلك في سنة 376هـ/986م، عندما "ظَهَر [فيهم] أبو الفهم الخرساني الداعي [الذي] اجتمع إليه خَلقٌ كثير من كتامة"[524]. وأمام تَقاعُس المنصور الزيري عن وضع حد لهذا التمرد الكتامي، "تَقرَّرت أُمور [هذا الثائر]...حتى صار يركب الخيل ويجمع العساكر ويعمل البنود ويضرب السّكة، فعَظُم أمره وشاع خبره"[525].

استمر هذا التمرد إلى غاية سنة 378هـ/988م، ففي هذه السنة "تحرك أبو الفتح المنصور بعساكره إلى بلاد كتامة، فمر على ميلة وأمر بخرابها وهدْم سورها، وأمر أهلها بالمسير منها إلى باغاية، فاجتمعوا وساروا إليها...ولما وصل المنصور إلى بلاد كتامة، حاربوه فظفر بهم وقتلهم واستأصلهم...وقُتل...والي ميلة وجماعة من كتامة، ونزل بكتامة الذّل والهَوان..."[526]. يُفهم من هذه الأوصاف

---

[520] **نفسه**، ج1، ص 272.

[521] **نفسه**، ج1، الصفحة نفسها.

[522] **نفسه** ، ج1، ص 273.

[523] أقصد هنا قيادة كتامة للتمردات وتأطيرها وليس مجرّد المشاركة فيها كأحد أطرافها فقط. وإلّا فإن كتامة قد شاركت في ثورات وانتفاضات مختلفة بعد هذه الفترة، على غرار الانتفاضة التي شاركت فيها رفقة قبيلة لواتة وتحت قيادة صنهاجة ضد الموحدين بعد سقوط بجاية عاصمة الحماديين على يد الموحدين سنة 547هـ/1152م. عن هذه الانتفاضة، ينظر: ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج9، ص 373.

[524] ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 261.

[525] **نفسه** ، ج1، ص 273.

[526] **نفسه**، ج1، ص 263-264.

العنيفة أن حملة المنصور الزيري هذه على مَضارب كتامة بالمغرب الأوسط كانت قاصمة الظهر بالنسبة لديمغرافية كتامة في هذه الفترة وبالنسبة أيضا لحضورها المذهبي وقوتها العسكرية ولأطماعها السياسية مُستقبلاً[527]، وأن سُهولة قضاء الزيريين على هذا التمرد الكتامي الذي استمر مدة عامين دون أن يشكل أي خطر حقيقي على الوجود الزيري، كل ذلك يعطي الدارس فكرة واضحة مَفادها: تراجع قوة كتامة السياسية والعسكرية بسبب تراجع ديمغرافيتها.

فهذا القَبِيل الذي كان يُرعِد فرائص مختلف الدول والقِوى السياسية قبل قيام الكيان العبيدي ببلاد المغرب، أضحى لُقمة سائغة أمام أي قوة سياسية ستحكم المغرب بعد رحيل العبيديين إلى المشرق، ابتداءً من الزيريين ومن سيأتي بعدهم. وهذا راجِع –فيما أعتقد– إلى تراجع ديمغرافية القبيلة خاصة في مناطق انتشارها الأصلية بالمغرب الأوسط. فابتداءً من سنة 289هـ/902م تاريخ بدء مرحلة الدعوة الإسماعيلية المسلحة ضد الأغالبة وصولا لسنة 362هـ/973م تاريخ رحيل الفاطميين إلى المشرق، شهدت كتامة عدة أحداث سياسية وعسكرية كبرى وصاخبة ذهبت بخيرة زهرة شبابها وفرسانها بسبب مشاركتهم الأساسية في تشييد الكيان الفاطمي وتثبيته والمساهمة في توسعاته في بلاد المغرب وصقلية ومصر والشام والحجاز واليمن. هذا دون نسيان هجرات وتهجير جزء مهم من ديمغرافية كتامة انطلاقا من مجالاتها بالمغرب الأوسط نحو إفريقية والمشرق في إطار مشاريع السلطة الفاطمية التي سعت إلى إقحام كتامة وتوظيفها في مختلف أهدافها السياسية والعسكرية ضمن هذه الفترة في كل من بلاد المغرب والمشرق الإسلاميَيْن.

وتأسيساً على كل ما تمت الإشارة إليه سابقا، فإني أذهب إلى القول أن قبيلة كتامة كانت من أكثر القبائل والتجمعات السكانية بالمغرب الأوسط التي دفعت فاتورة ديمغرافية هائلة وسلبية وخطيرة كثمن للسياسات والأهداف الفاطمية التوسعية والعسكرية. صحيح أن معظم أقاليم وسكان بلاد المغرب قد تأثروا بشكل سلبي على مستوى كل الأصعدة خاصة على الصعيد الديمغرافي نتيجة مختلف الفتن والحروب التي استعرت نيرانها ببلاد المغرب نتيجة المشاريع السياسية الفاطمية، إلا أنني أعتقد أن حجم الآثار الديمغرافية للمشروع العبيدي الإسماعيلي ببلاد المغرب كان قد كَلّف كتامة ديمغرافيا أكثر من غيرها

---

[527] صحيح أن إحدى الدراسات التي صُدِرت حديثاً قد تَطرَّقت إلى إشارة بعض المصادر إلى الجوانب الدّالة على تواصُل الحضور السياسي الكتامي فيما بعد في القرون والمراحل والفترات اللاحقة خاصة في القرن السادس الهجري/12م من خِلال الإدريسي وابن الأثير وصاحب الاستبصار، ضِف إلى ذلك ابن خلدون الذي أشار إلى استمرار الحضور السياسي لبعض القبائل المحسوبة على العُنصر الكتامي في القرن 8هـ/14م ك:سدويكش وبني ثابت وزواوة. إلاَّ أنَّني أظن أن مُستويات هذا الحضور السياسي والعسكري وحتى العمراني والديمغرافي الكتامي كانت عادية جداً، ولم تَرقَ إلى مستوى قبيلة كبيرة بحجم كتامة التي كانت يوماً ما فِيما مَضى "مِن قبائل البربر بالمغرب وأشدُّهم بأساً وقوّةً" حسب تعبير ابن خلدون. يُنظر (على التوالي): حسين بوبيدي، **الحراك القبلي الكتامي، المرجع السابق**، ص ص 262-263. ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 197 وما بعدها و ص 195.

من القبائل والمراكز السكانية الأخرى ببلاد المغرب الأوسط وببلاد المغرب بشكل عام، إنْ على مستوى الخسائر البشرية الناجمة عن الحروب بشكل مباشر، أو عن طريق التهجير والترحيل الممارَس على هذا القبيل من طرف الفاطميين كانعكاس غير مباشر للظاهرة الحربية أيضاً.

6. حَوصلة نهائية لانعكاس حروب وصراعات الفترة (ق4هـ/10م) على التراجع الديمغرافي:

من خلال ما تم عرضه سابقا بشأن انعكاسات حروب وفتن القرن الرابع الهجري على الصعيد الديمغرافي ببلاد المغرب الأوسط، تبيَّن مدى استشراء الظاهرة الحربية -بصفة تدعو إلى الدهشة والاستغراب- في معظم مجالات وأقاليم بلاد المغرب، وبشكل أخص بلاد المغرب الأوسط التي كانت بمثابة حلبة صراع بين مختلف القوى المتصارعة في هذه الفترة. حيث كان هناك استمرار وتواصل لمسلسل المواجهات والصدامات العسكرية العنيفة بين مختلف هذه القِوى من جهة، ومن جهة أخرى تعدد جبهات القتال والحروب بين مختلف مراكز الثقل القبلي والسياسي والعسكري، وهو ما انعكس بشكل سلبي ومُروّع على ديمغرافية المغرب الأوسط بشكل خاص، وعلى ديمغرافية بلاد المغرب بشكل عام.

وسأحاول في الجدول التالي ذكر النتائج الديمغرافية —التقريبية التي توصلتُ إليها- لأهمّ الصراعات والمواجهات العسكرية والأحداث السياسية الهامّة والكبرى التي سبق وأن تحدثت عنها، والتي امتدّت من سنة 280هـ/893م إلى غاية نهاية القرن 4هـ/10م (398هـ/1008م)، والتي أيضا كان المغرب الأوسط مَسرحا لها أو طَرَفا مشاركا أو مؤثرا فيها أو متأثرا بها بشكل مباشر أو غير مباشر.

الجدول رقم 12: يرصد الحَوصلة الديمغرافية لمختلف الصراعات والمواجهات العسكرية بالمغرب الأوسط خلال الفترة: 280-398هـ/893-1008م

الأحداث والمواجهات العسكرية أو ما ينجم عنها من هجرات وتهجيرات	الحصيلة الديمغرافية	ملا حظات
معركة مانو	12 ألف قتيل	هذه المعركة لم تحدُث في المغرب الأوسط، إلا أن القبائل المشاركة في هذه المعركة من الطرف الرستمي كانت إباضية في الأساس وعلى علاقة مباشرة بالدولة الرستمية بتيهرت،

		كنفوسة ولواتة ولماية وهوارة ومزاتة...
مشروع بناء وتأسيس الدولة الفاطمية من سنة 289هـ/902م إلى غاية 296هـ/909م	من 150 إلى 200 ألف قتيل	هذا المُعطى المُتوصل إليه من قِبلي يخص فقط النتيجة التقريبية التي خلصتُ إليها بشأن دراسة معركتي كيانة والأربس باعتبارهما أكبر وأهم مواجهتين في هذا المشروع، ولا يخص سائر المواجهات والصدامات الأخرى بين الطرفين الكتامي والأغلبي. إلا أنني عمَّمتُ هذه النتيجة كحوصلة عامة عن هذا المشروع باعتبار المعركتين السابقتي الذكر كبيرتين ومفصليتين، والمؤشرات الديمغرافية المصدرية بشأنهما كانت متوفرة –نوعا ما– مقارنة بالمواجهات والصدامات الأخرى التي كانت أقل تأثيرا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المؤشرات الإحصائية المصدرية عن مجريات مشروع تأسيس الكيان العبيدي بقيادة أبي عبد الله الشيعي –بشكل عام– كانت نادرة وفي بعض الأحيان غائبة تماماً.
ثورة صاحب الحمار (333-336هـ/945-948م)	20 ألف قتيل	يُعتبر هذا الرقم المُتوصل إليه مجرد اجتهاد مِنّي خلصتُ إليه من خلال مُسائلة وتحليل مختلف النصوص المصدرية، وهو رقم تقريبي يخص فقط النتائج الديمغرافية لهذه الثورة على بلاد المغرب الأوسط فقط، ولا يخص باقي مناطق بلاد المغرب التي شملتها هذه الثورة.
الحملات الفاطمية على المغرب الأوسط من سنة: 296هـ/909م إلى 362هـ/973م	آلاف القتلى	مجرد رقم تقريبي، أولا بسبب تعدد وكثرة هذه الحملات على امتداد التمركز الفاطمي ببلاد المغرب، وثانيا لأن المصادر لا تقدم عدد ضحايا كل حملة إلا في بعض الإشارات القليلة والنادرة والتي مع قلتها وندرتها هذه لا تخلو –كما هو مُتعود عليها– من عُنصري التهويل والتضخيم أو العكس من عنصري التقليل والتقزيم.

هِجرة عناصر الجيش الكتامي إلى إفريقية وبشكل أخص إلى رقادة عقب سقوط هذه الأخيرة بعد معركة الأربس سنة 296هـ/909م	75 ألف مهاجِر	على أقل تقدير
تهجير المنصور الفاطمي ل 14 ألف بيت كتامي من سطيف ونواحيها إلى عاصمته الجديدة: صبرة أو المنصورية سنة 336هـ/948م	70 ألف مُهَجَّر	على أقل تقدير، وهذا باحتساب 5 أفراد لكل بيت، أما إذا احتسبتُ 10 أفراد لكل بيت فإن الحاصل عندها سيكون ضخما جدا: 140 ألف نسمة!
هجرة جزء من العنصر الكتامي مع الفاطميين إلى المشرق (358-362هـ/969-973م)	100 ألف مهاجِر	على أقل تقدير
الصّراع القبلي لصنهاجة ضد كل من زناتة وكتامة	آلاف القتلى	مجرد رقم تقريبي، بسبب تعدد واستمرار هذه الصراعات وتشعُّبها، وبسبب نُقص المؤشرات الإحصائية الديمغرافية حولها بين ثنايا المصادر.

المصدر: من إنجاز الطالب بالاعتماد على النتائج المُتوصَّل إليها بشأن هذه المواجهات والصراعات في هذا المطلب

المبحث الثاني: المغرب الأوسط ومرحلة التذبذب الذيمغرافي: بين التراجع والاستقرار (398-580هـ/1008-1184م):

المطلب الأول:صِراعات الفترة (398-580هـ/1008-1184م) ومحدودية انعكاساتها الديمغرافية السلبية مقارنة بالفترة السابقة (280-398هـ/893-1008م):

شَهِد المغرب الأوسط خلال هذه الفترة الطويلة (398-580هـ/1008-1184) التي تُقارب القرنيْن من الزمان عدة أحداث ومحطات سياسية كبيرة ومهمة ابتداءً من تأسيس الدولة الحمادية في مطلع القرن 5هـ/11م بالقلعة ثم ببجاية وإخضاع المرابطين لغرب المغرب الأوسط، وصولا إلى بداية الدّخول الهلالي لمجالات المغرب الأوسط عقب هزيمتهم للحماديين في معركة سبيبة سنة 457هـ/1065م، وأخيرا السيطرة الموحدية التي كانت ابتداءً من سنة 539هـ/1145م. صحيح بأن هذه الأحداث السياسية المهمة قد كان لها الأثر السلبي الكبير على الصعيد الديمغرافي للمغرب الأوسط، إلا أنها لم ترقَ إلى الأثر السلبي الكبير الذي خلّفته الأحداث السياسية في المرحلتين الفاطمية والزيرية على مستوى هذا الجانب (الديمغرافي). وسأحاول فيما يلي ذكر مُعظم الصراعات السياسية والعسكرية التي شهدها المغرب الأوسط طوال هذه الفترة مع تِبيان انعكاساتها الديمغرافية:

1. الحملات الزيرية على الحماديين:

يُعتبر التاريخ الرسمي والعَمَلي لقيام الدولة الحمادية هو سنة 408هـ/1017م، لكن الفترة الممتدة من سنة 395هـ إلى 408هـ/1004-1018م كانت بمثابة الفترة الحاسمة التي تمخّض عنها قيام الدولة[528]. فما إن مضت سنة واحدة على تولي باديس بن المنصور حكم الدولة الزيرية (386-406/996-1016م)، إلا وكان هذا الأمير الزيري قد عقد لعمه حماد بن بلكين على ولاية أشير، "فخَرَج [حماد] عاملاً عليها وأعطاه [باديس] خيلاً كثيراً وكُسىً جليلة، ثم اتسعت عمالته وكثرت عساكره وعظم شأنه"[529] وبذل حماد جهوداً كبيرة -باسم الدولة الزيرية- في توسعة قوته ونفوذه بالمغرب الأوسط والتصدي للقبائل المناوئة لا سيما من زناتة. وهو ما ساهم في توسعة سلطانه في المناطق التي أخضعها بالمغرب الأوسط،

[528] عبد الحليم عويس، **دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري**، دار الصحة ، القاهرة- دار الوفاء، المنصورة، ط2، 1411هـ/ 1991م، ص 47.

[529] ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 269. أنظر كذلك: النويري، **المصدر السابق**، ج24، ص 102. رشيد بوروبة، **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية – المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977م/ 1397هـ، ص 18.

وهو ما أقلق السلطة الزيرية ممثلة في أميرها باديس الذي "طلب منه...أن ينزل على عمل تيجس وقسنطينة اختباراً للطاعة، فأَبَى [حماد] وأظهَر الخِلاف"[530].

أدّى هذا الأمر بباديس بن المنصور الزيري إلى القيام بحملة عسكرية كبيرة على القلعة وعلى المغرب الأوسط ما بين سنتي 405 و 406هـ/1014-1015م، وكانت أبرز نتائج هذه الحملة على الصعيد السياسية والعسكري هو استيلاء الزيريين على كل من تامديت ودكمة (نواحي المسيلة) والمسيلة وأشير وغيرها[531]، إضافة إلى حصار الزيريين للقلعة والذي دام لمدة ستة أشهر[532] ثم معركة وادي شلف بين الطرفين الزيري والحمادي والتي مُني فيها حماد بن بلكين بهزيمة كبيرة وثقيلة كادت أن تودي بحياته بعدما تخلّى عنه جميع رجاله وانفصل عنه أغلب أنصاره لا سيما بنو توجين من زناتة وانضموا إلى باديس[533] وذلك بسبب ذكاء وحنكة هذا الأخير واستمالته لأولئك بالعَطايا والهِبات[534].

إن أهمّ مُؤشّر ورقم ديمغرافي واضح قدمه أحد المصادر ضمن أحداث هذه الحملة هو ما قام به حماد بعد هزيمته بوادي شلف حين دخل مدينة دَكْمَة التي تقع "على مرحلتين من المسيلة"[535] حيث "قَتل منهم نحو ثلاث مئة رجل"[536].

بعدها وفي خِضمّ هذه الأحداث، توفي باديس بن المنصور الزيري بالمسيلة سنة 406هـ/1015م، ووفقا لأحدهم[537] ف"قد أنقذت هذه الوفاة الفجيئة حماداً من الهلاك، ولولاها لما تمكن من تأسيس دولة بني حماد، على الأقل في ذلك الظرف بالذات".

وتذكر المصادر[538] أنه بعد هذه الوفاة، عاد الجيش الزيري بجثمان باديس نحو إفريقية، فيما بقيت قطعة من الجيش قوامها سبعة ألاف (7000) مقاتل تحت قيادة كرامة بن المنصور وتوجهت صوب مدينة أشير، أين كانت على موعد مع

---

[530] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 209.

[531] ينظر: الهادي روجي إدريس، **المرجع السابق**، ج1، ص 147 وما بعدها.

[532] الهادي روجي إدريس، **نفسه**، ج1، ص 153.

[533] **نفسه**، ج1، ص 150.

[534] " وقد انتهت مدة ولاية [باديس] بالحملة العسكرية التي انتصر فيها على حمَّاد المُتمرد الذي خانه الصنهاجيون وحلفاؤه الزناتيون، ويمكن تفسير تلك الخيانة بمهارة باديس وسوء تدبير حماد وبُخلِه الذي يرجع سببه إلى قِلَّة موارده بالمقارنة مع موارد ابن أخيه...". يُنظر: **نفسه**، ج1، ص 158.

[535] رشيد بورويبة، **المرجع السابق**، ص 26.

[536] ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج1، ص 288. أنظر أيضا: رشيد بورويبة، **نفسه**، ص 26. الهادي روجي إدريس، **المرجع السابق**، ج1، ص 152.

[537] الهادي روجي إدريس، **نفسه**، ج1، ص 154.

مواجهة عنيفة ضد حماد الذي بلغ جيشه ألف وخمسمئة (1500) فارس. انتهت هذه المواجهة بهزيمة جيش كرامة بسبب سطو ثُلّة من جيش هذا الأخير بيت ماله وهروبهم، كما وأسفرت هذه المواجهة عن عودة كرامة إلى إفريقية واستيلاء حماد على مدينة أشير وقيامه بقتل كثيرٍ من أهل هذه المدينة بسبب تعاونهم مع كرامة ضده[539].

سُرعان ما عاد حماد مرة أخرى واستولى على أشير والمسيلة وحاصر باغاية[540]، مما استدعى بالمعز الذي خلف والده باديس على الحكم (406-454هـ/1016-1062م) إلى القيام بحملة جديدة على المغرب الأوسط سنة 408هـ/1017م، فكانت المواجهة بين المعز وحماد "فاقتتلوا، فما كان إلا ساعة حتى انهزم حماد وأصحابه، ووضع أصحاب المعز فيهم السيف وغنموا ما لهم من عدد ومال وغير ذلك، فنادى المعز من أتى برأس فله أربعة دنانير، فأوتي بشيء كثير، وأسر إبراهيم أخو حماد، ونجا حماد وقد أصابته جراحه، وتفرق عنه أصحابه..."[541].

بعد هذه الموقعة، تمّ الصلح والاتفاق بعد مفاوضات ومراسلات بين الطرفين، "فبمقتضى الاتفاق المبرم مع حماد، اعترف المعز بهذا الأخير ملكاً مستقلاً على المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وكل أعمال المغرب الأوسط التي سيتمكن من فتحها"[542]، ومن خلال هذا الاتفاق المبرم في هذه السنة (408هـ/1018م) وبشكل رسمي "افترق مُلك صنهاجة إلى دولتين: دولة إلى المنصور بن بُلكين أصحاب القيروان، ودولة إلى حمَّاد بن بلكين أصحاب القلعة"[543].

وفي عهد القائد ابن حماد (419-446هـ/1029-1054م)، وبالضبط في سنة 432هـ/1041م "خالَف أولاد حماد على المعز بن باديس صاحب افريقية وعادوا إلى ما كانوا عليه من العصيان والخلاف عليه، فسار إليهم المعز وجمع العساكر وحشدها وحصر قلعتهم المعروفة بقلعة حماد، وضيَّق عليهم وأقام عليهم نحو سنتين"[544] أي إلى غاية سنة

---

[538] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج8، ص 89. النويري، **المصدر السابق**، ج24، ص 113.

[539] ابن الأثير، **نفسه**، ج8، ص 89. ينظر أيضا: : رشيد بورويبة، **المرجع السابق**، ص ص 28-29 . الهادي روجي إدريس، **المرجع السابق**، ج1، ص 190.

[540] الهادي روجي إدريس، **نفسه**، ج1، ص 191. رشيد بورويبة، **نفسه**، ص 32.

[541] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج8، ص 89. ينظر أيضا: النويري، **المصدر السابق**، ج24، ص 114.

[542] الهادي روجي إدريس، **المرجع السابق**، ج1، ص 193.

[543] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 210. ينظر أيضا: الهادي روجي إدريس، **نفسه**، ج1، ص 193. رشيد بورويبة، **المرجع السابق**، ص 34.

[544] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج8، ص 248. ينظر أيضا: النويري، **المصدر السابق**، ج24، ص 116. ينظر أيضا: الهادي روجي إدريس، **نفسه**، ص ص 195-196. رشيد بورويبة، **نفسه**، ص 41.

434هـ/1043م، إذ "اضطر القائد في آخر الأمر إلى إبرام الصلح مع ابن عمه، ورجع المعز إلى إفريقية"[545]. هذا دون أن تذكُر المصادر تفاصيل ومجريات هذه الحملة وهذا الحصار الذي طال القلعة لمدة السنتين.

2. الدّخول الهلالي للمغرب الأوسط ومسألة تَبايُن تأثيراته الديمغرافية: بين السلب والإيجاب:

وفقا لأحد الدارسين[546]، فإن أول دخول الهلاليين إلى المغرب الأوسط كان في عهد رابع الأمراء الحماديين: بلقين بن مُحَمّد بن حماد (447-454هـ/ 1055-1062م)، إذ وِفقاً لذات الدارس فإن الهلاليين وبعد أن تغلبوا على الزيريين في معركة حيدران، تمكنوا من إخضاع القيروان سنة 449هـ/1057م، وواصلوا سيرهم نحو المغرب الأوسط[547]. ويُواصل نفس الدارس القول بأن ابن خلدون ذكر في هذا الصدد أن بني حماد عندما زَحف بنو هلال إلى المغرب الأوسط دافعوا "عن حوزته وأوعزوا إلى زناتة بمدافعتهم أيضا"[548]، لكن صاحِب كتاب العِبر (ابن خلدون) لا يُعطي أَيّ تفصيل عن الحرب التي نشبت بين بني حماد والهلاليين، بينما يُفيد بمعلومات عديدة عن الحرب التي وقعت بين بني هلال وزناتة، فكانت هذه الحروب شديدة لأن زناتة المغرب الأوسط خافوا أن يقع لهم مثلما وقع لإخوانهم بإفريقية الذين كانوا طُردوا من أراضيهم بعد الزحف الهلالي فنظموا صفوفهم لمحاربة بني هلال[549].

وفي هذا الصّدد يُقرأ في أحد المصادر ما يلي: "فاجتمع لذلك بنو يعلى ملوك تلمسان من مغراوة وجمعوا من كان إليهم من بني واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين وبني راشد، وعقدوا على حرب الهلاليين لوزيرهم أبي سَعدى خليفة اليفرني، فكان له مقامات في حروبهم ودفاعهم عن ضواحي الزاب وما إليه من بلاد أفريقية والمغرب الأوسط إلى أن هلك في بعض أيامه معهم، وغلب الهلاليون قبائل زناتة على جميع الضواحي وأزاحوهم عن الزاب وما إليه من بلاد أفريقية، وانشمر بنو واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى موطنهم بصحراء المغرب الأوسط من مصاب وجبل راشد..."[550]، فاستقر بنو هلال في الزاب، حيث وقع اتفاق بينهم وبين حماد فحافظ الحماديون على المدن وتركوا الأرياف لبني هلال[551].

---

[545] الهادي روجي إدريس، **نفسه**، ص 196. ينظر أيضا: رشيد بورويبة، **نفسه**، ص 41.

[546] رشيد بورويبة، **نفسه**، ص 54.

[547] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[548] **نفسه**، الصفحة نفسها. نقلا عن : ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج7، ص 83.

[549] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[550] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج7، ص ص 83-84. ينظر أيضا: رشيد بورويبة، **نفسه**، ص ص 54-55.

[551] رشيد بورويبة، **نفسه**، ص 55. "...ولما غلَبوا (أي بنو هلال) صنهاجة، اجتهد زناتة في مدافعتهم بما كانوا أملك للبأس والنجدة بالبداوة فحاربوهم ورجعوا إليهم من إفريقية والمغرب الأوسط، وجهز صاحب تلمسان من بني خزر قائده أبا سعدى اليفرني فكانت بينهم

إلا أن مَسألة المجيء الهلالي إلى المغرب الأوسط وغيره من بلدان المغرب تكمن في إشكالية تناقض تأثيرها على ديمغرافية المغرب الأوسط بشكلين سلبي وإيجابي في نفس الوقت.

أما التأثير السلبي، فيكمن في الخسائر البشرية الكبيرة الناجمة عن الحروب والمواجهات التي اندلعت بين الوافدين الجدد ومختلف القوى المحلية من صنهاجة وزناتة وغيرها، على غرار معركة حيدران بإفريقية سنة 443هـ/1052م والتي بلغ عدد ضحاياها من الطرف الزيري "ثلاثة آلاف وثلاثمئة"[552] عُنصر من جيش المعز بن باديس. وكذا معركة سبيبة (457هـ/1065م) التي سبق وأن أشرتُ إليها أين قلتُ بأن الأمير الحمادي الناصر بن علناس قد مُني فيها بهزيمة نكراء أودَت بحوالي 24 ألفاً من قواته الصنهاجية والمتحالفين معه من زناتة[553]، هذا بالإضافة إلى المواجهات والصدامات الأخرى التي لم تحدِّث المصادر عن خسائرها الديمغرافية.

أما التأثير الإيجابي، فيتمثل في الأعداد البشرية الهلالية الكبيرة التي قدمت إلى بلاد المغرب في إطار هذه الهجرة، التي استقرت في العديد من مناطق بلاد المغرب شرقا وغربا شمالا وجنوبا. وفي رأي أحد الدارسين[554]، فإن عدد النازحين من العناصر الهلالية قد يصل إلى 200 ألف شخص باحتساب النساء والأطفال والشيوخ، "وقد تواصَل توافد [هذه] القبائل البدوية من الصعيد المصري وجهة برقة حتى قدوم الموحدين أي طيلة قرن من الزمن، وقد تضاربت الآراء حول العدد الإجمالي لهؤلاء، فقد قدّره أحمد توفيق المدني بنصف مليون شخص وحسن حسني عبد الوهاب بين خمسمائة وسبعمائة ألف وجورج مارسي قرابة المليون..."[555]. الأمر الذي جعل ذات الدارس[556] يذهب إلى القول بأن عدد هذه القبائل كان

وبينه حروب إلى أن قتلوه بنواحي الزاب وتغلبوا على الضواحي في كل وجه، وعجزت زناتة عن مدافعتهم بأفريقية والزاب، وصار الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد ومصاب من المغرب الأوسط. فلما استقر لهم الغلب وضعت الحرب أوزارها وصالحهم الصنهاجيون على خطة خسف في انفرادهم بملك الضواحي دونهم وصاروا إلى التفريق بينهم وظاهروا الأثبج على رياح وزغبة...". ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 27.

[552] ابن خلدون، **نفسه**، ج6، ص 21.

[553] ابن الأثير، الكامل، **المصدر السابق**، ج8، ص 373. النويري، **المصدر السابق**، ج24، ص 123. ينظر أيضا: الهادي روجي إدريس، **المرجع السابق**، ج1، ص 305 وما بعدها. رشيد بورويبة، **المرجع السابق**، ص 62 وما بعدها.

[554] إبراهيم جدلة، **المجموعات القبلية وتأثيرها على الحياة الإجتماعية والسياسية بإفريقية أثناء العهد الحفصي**، تم نشرها ضمن أشغال الملتقى الدولي الثاني حول: القبيلة – المدينة – المجال في العالم العربي الإسلامي الوسيط، منشورات: كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس، تونس 2006م، ص ص 153-182.

[555] إبراهيم جدلة، **نفسه**، ص ص 153-182.

[556] **نفسه**، ص ص 153-182.

هاما وربما وصل إلى نصف مليون نسمة وذلك بالنظر إلى تأثير هذه القبائل البعيد المدى على المستوى السياسي والعسكري والثقافي لبلاد المغرب.

وأيٌّ كان أحد هذه الأرقام المقدَّمة صحيحة أو قريبة من الصحة، فإنه يمكن القول أن هذه الأرقام التي تتراوح في معظمها ما بين نصف مليون والمليون، هي أرقام كبيرة وضخمة بالنظر إلى الحجم الديمغرافي في هذه الفترة لمنطقة بلاد المغرب بشكل عام وبلاد المغرب الأوسط على سبيل المثال، وهو ما يعني بالضرورة تأثير إيجابي كبير على ديمغرافية المنطقة في هذه الفترة وفي مختلف الفترات المستقبلية.

هذا ما يجعلني أذهب إلى الاعتقاد بأن الهجرة الهلالية قد أحدثت نوعاً من التوازن على مستوى تأثيرها على ديمغرافية المغرب الأوسط وغيره من بلدان المغرب على المستويين السلبي والإيجابي. فهذه النسبة المهمة والكبيرة من العناصر الهلالية والسليمية والمعقلية التي استقرت في بلاد المغرب على مستوى العديد من مجالاته ومناطقه، أعتقد أنها عوضت –بشكل أو بآخر– النسبة الديمغرافية التي أسفرت عليها الفتن والحروب التي حدثت بين هذه القبائل وبين القِوى المحلية، أو حتى لربما فاق عددها الهائل هذه النسبة وهذا بالنظر إلى الحجم الديمغرافي الكبير لهذه الهجرة، وهو ما يعني تأثيرا ديمغرافيا إيجابيا يُحتمل أن يكون قد فاق مستوى إحداث التوازن.

3. الصراع الحمادي المرابطي:

يعود أول صِدام بين القوتين الحمادية والمرابطية إلى بداية التوسع المرابطي في مجالات المغرب الأقصى، وبالضبط خلال نهاية حكم رابع الأمراء الحماديين: بلكين بن مُحَّد بن حماد (447-454هـ/1055-1062م)، فهذا الأمير الحمادي كان "كثيرا ما يُردد الغزو إلى المغرب. وبَلَغه استيلاء يوسف بن تاشفين والمرابطين على المصامدة، فنهض نحوهم سنة أربع وخمسين وأربعمائة وفرَّ المرابطون إلى الصحراء، وتوغل بلكين في ديار المغرب ونزل بفاس واحتمل من أكابر أهلها وأشرافهم رهنا للطاعة وانكفأ راجعا إلى القلعة"[557].

بعد أن تم للمرابطين إخضاع المغرب الأقصى بقيادة الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين، قاموا أيضا بحملة خاطفة على الناحية الغربية الحمادية ما بين سنتي 473 و 474هـ/ 1080-1082م، أسفَرت هذه الحملة عن إخضاع المرابطين

[557] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 229. ينظر أيضا: رشيد بورويبة، **المرجع السابق**، ص56 . الهادي روجي إدريس، **المرجع السابق**، ج1، ص ص 289-290.

لتلمسان، تنس، ونشريس، ناحية وادي شلف والجزائر (على التوالي)، ثم عادوا إلى المغرب الأقصى بعدما تركوا جيشا بتلمسان تحت قيادة مُحَّد بن تنعمر المسوفي[558].

بعد هذه الحركة العسكرية المرابطية الخاطفة التي مكنتهم من السيطرة على المجالات الغربية للدولة الحمادية، تحالفت كلٌّ من قبيلتي بني ومانو وبني يلومي الزناتيتين المستقرتين ضمن هذه المجالات ، تحالفوا مع المرابطين وهجموا معا مجدداً على الأراضي الحمادية. فسار إليهم المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي (481-498هـ/1089-1105م) في جيوشه وخرب قلعة بني ومانو وتغلب على الوالي المرابطي على تلمسان حتى اضطر يوسف بن تاشفين (الأمير المرابطي) إلى طلب الصلح[559].

عندها كَفّ المرابطون الهجوم على الجهة الغربية الحمادية، لكنهم سرعان ما عادوا مرة أخرى إلى الهجوم مما أدى بالمنصور الحمادي إلى إرسال ابنه الأمير عبد الله على رأس حملة للتصدي لهم، فرّ المرابطون عندها إلى مراكش بعدما سمعوا بخبر هذه الحملة، وسيطر عبد الله على الجهة الغربية للمغرب الأوسط وقام بشن هجوم على مجالات بني ومانو وأخضع الجعبات وعفا عن أهلها ورجع إلى أبيه[560].

استُأنفت المواجهة مرة أخرى بين بني ومانو بقيادة ماخوخ والمنصور الحمادي حيث انتهت المواجهة بينهما هذه المرة بانتصار الزناتيين الذين انضموا فيما بعد ومرة أخرى إلى المرابطين بتلمسان، إذ شكلوا مع بعض تحالفا هجموا من خلاله مجدداً على المجالات الحمادية واستولوا على كل من الجزائر وأشير، وهو ما أدى بالمنصور إلى القيام بحملة كبيرة على المرابطين وحشد كلا من صنهاجة وحلفائه من الأثبج وزغبة وربيعة ومن زناتة في نحو 20 ألف وذلك في سنة 496هـ/1103م. انتهت هذه الحملة بهزيمة المرابطين ودخول الحماديين مدينة تلمسان، لكن المنصور الحمادي سرعان ما خرج من هذه المدينة وعاد إلى القلعة بعدما قامت (حوّا) زوجة (تاشفين بن تينعمر) الوالي المرابطي الجديد على تلمسان

[558] رشيد بورويبة، الدولة الحمادية، **نفسه**، ص75 . ينظر أيضا: الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، **نفسه**، ج1، ص 327. ابن أبي الزرع، **الأنيس المطرب**، **المصدر السابق**، ص 143.

[559] رشيد بورويبة، **نفسه**، ص76 . الهادي روجي إدريس، **نفسه**، ج1، ص 327. ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج7، ص 75.

[560] ابن خلدون، **نفسه**، ج6، ص 233. الهادي روجي إدريس، **نفسه**، ج1، ص ص 327-328. رشيد بورويبة، **نفسه**، ص76.

بالتماس الصَّفح منه، وفي سنة 497هـ/1104م تمّ الصلح بين يوسف بن تاشفين والمنصور، ومن أجل إرضاء هذا الأخير تم استبدال الوالي المرابطي على تلمسان بالوالي: مزدلي[561].

وبالرغم من أن المصادر لم تُحدِّث عن الخسائر الديمغرافية الناجمة عن مواجهات هذا الصراع الحمادي/المرابطي ، إلا أن الظاهر بأنه لم تكن هناك خسائر ديمغرافية كبيرة وجسيمة بين الطرفين، وذلك بالنظر إلى محدودية وقِلّة المواجهات والصدامات بين الطرفين كما بينتُ أعلاه، إضافة إلى التجاء الطرفين إلى الصّلح والسّلم عقِب مُعظم المواجهات. وهذا راجِع فيما أعتقد إلى تغيّر أهداف السياسة الخارجية الحمادية صَوب الجِهة الشرقية من حدودها أي إلى إفريقية بعدما كانت من قبل موجهة تماما إلى الجهة الغربية من حدودها وذلك بعد ضعف وتراجُع الدّور الرّيادي السياسي والعسكري لأبناء عمومتهم الزيريين بإفريقية. هذا دون نِسيان صِلات القَرابة الصنهاجية بين الحماديين والمرابطين والتي يمكن أن تكون أيضا عاملاً مهما في الحدّ من المواجهات العنيفة بين الطرفين والتجائهما إلى طاولة الحوار والمفاوضات بدل المواجهة والصدام.

4. الهجمات النورمانية على سواحل المغرب الأوسط:

يذكُر ابن الأثير[562] أن الفرنج (النورمان) وبعدما فشلوا في الاستيلاء على طرابلس سنة 537هـ/1142-1143م، توجهوا مباشرة صوب مدينة جيجل، "فلما رآهم أهل البلد هربوا إلى البراري والجبال، فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها، وأخربوا القصر الذي بناه يحي بن العزيز بن حماد للنُّزهة ثم عادوا"[563]. وفي سنة 539هـ/1145م قام النورمان بهجوم آخر كان هذه المرة على مدينة برشك "التي تقع بين [مدينتي] تنس وشرشال"[564] فاقتحموا هذه المدينة "وقتلوا أهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين"[565].

---

[561] ابن خلدون، **نفسه**، ج6، ص ص 233-234 و ج7، ص 75. الهادي روجي إدريس، **نفسه**، ج1، ص ص 327-330. رشيد بورويبة، **نفسه**، ص ص 76-78. وعن ترجمة الوالي المرابطي: أبو مُحَّد مزدلي بن سولنكان، يُنظر: ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج4، ص 60. (الهامش رقم: 1).

[562] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج9، ص 326.

[563] ابن الأثير، **نفسه**، ج9، ص 326. ينظر أيضا: رشيد بورويبة، **المرجع السابق**، ص98 . الهادي روجي إدريس، **المرجع السابق**، ج1، ص 409.

[564] رشيد بورويبة، **نفسه**، ص99 . ينظر أيضا: الهادي روجي إدريس، **نفسه**، ج1، ص 410 (الهامش رقم: 109).

[565] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج9، ص 326. ينظر أيضا: رشيد بورويبة، **نفسه**، ص99 . الهادي روجي إدريس، **نفسه**، ج1، ص 410.

كما أنه وفي سنة 548هـ/1153م، "سار أسطول رجار ملك الفرنج بصقلية إلى مدينة بونة، وكان المُقدم عليهم فتاه فيلب المهدوي، فحصرها واستعان بالحرب عليها بالحرب فأخذها في رجب، وسبى أهلها وملك ما فيها غير أنه أغضى (أي بمعنى:غض الطَّرف) عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى، فأقام بها عشرة أيام، وعاد إلى المهدية وبعض الأسرى معه، وعاد إلى صقلية..."[566].

5. **الدخول الموحدي للمغرب الأوسط ومُخلفاته الديمغرافية الكبيرة:**

لم يكن الدخول الموحدي إلى المغرب الأوسط دخولا سلميا وهادئا، بل كان دخولا قويا وعنيفا تحت رحمة السيف خاصة عند الحديث عن المدن التالية: وهران، تلمسان والقلعة.

فكانت البداية في سنة 539هـ/1145م مع حصن وهران الذي فرض عليه الموحدون حِصارا لمدة شهرين عانى فيهما سكان الحصن الأمرين من العطش نتيجة قطع الموحدين الماء عنهم[567]. وينقل أحد النصوص المصدرية على لسان أحد سكان المدينة الذين عاشوا الحدث "أن العطش انتهى بالناس إلى أن مات في اليوم الواحد الثلاثون والأربعون بين نساء ورجال، ولما خرجوا انطرحوا على الماء حتى مات بعضهم لما روي، وبعد ذلك حكم عبد المؤمن...بقتلهم، فاستُئصلوا عن آخرهم"[568].

ثم في نفس السنة، جاء الدور على مدينة تلمسان بجزأيها الشهيرين: تاجرارت وأجادير، فأما تاجرارت فقد "دخلها عبد المؤمن فلقيه أهلها بالخضوع والاستكانة، فلم يقبل ذلك منهم وقَتل أكثرهم"[569]، وأما أجادير فقد تعرضت لحصار موحدي شديد دام لمدة السنة، "وكان المُقدّم على أهلها الفقيه عثمان، فلما اشتدّ الحصار على أهلها اجتمع جماعة منهم وراسلوا الموحدين بغير علم الفقيه وأدخلوهم البلد. فلم يشعر أهله إلا والسيف قد أخذهم، فقُتل أكثر أهل البلد ونُهبت الأموال وسُبيت الذّراري والحُرم وبِيع من لم يُقتل بأبخس الأثمان، وأُخِذ من الأموال والجواهر ما لا يحصى، **وكان عدّة من قُتل: مائة ألف**"[570].

---

[566] ابن الأثير، **نفسه**، ج9، ص 391. ينظر أيضا: العيد بكري و مفتاح خلفات، **غارات النورمان على سواحل المغرب الأوسط خلال ق6هـ/12م**، مجلة عصور الجديدة، مج10، ع4، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، الجزائر، (ديسمبر) 1442هـ/2020م، ص 174. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، **المرجع السابق**، ج1، ص 437.

[567] ابن عذاري، **المصدر السابق**، قسم الموحدين، ص 22.

[568] ابن عذاري، **نفسه**، قسم الموحدين، الصفحة نفسها.

[569] النويري، **المصدر السابق**، ج24، ص 161. ينظر أيضا: ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج9، ص 203.

[570] النويري، **نفسه**، ج24، ص 162. ينظر أيضا: ابن الأثير، **نفسه**، ج9، ص 203.

وقبل ذلك وفي بداية التوسع الموحدي في هذه المنطقة الغربية من المغرب الأوسط، قُتل حوالي ستمئة (600) شخص من قبيلة بني ومانو الزناتية المتحالفة مع الموحدين ضد القبائل الزناتية الأخرى من بني يلومي وبني عبد الواد المتحالفين مع المرابطين، وذلك في إطار الصراع بين القوتين المرابطية والموحدية على المنطقة قبل إخضاع الموحدين لكل من وهران وتلمسان[571].

بعد ذلك بحوالي بِبضع سنوات، نَظَّم عبد المؤمن بن علي حملة أخرى لاستكمال إخضاع بقية المغرب الأوسط في جهتيه الوسطى والشرقية. ووفقا لأحد المصادر[572]، فإنه في سنة 546هـ/1151م تحرك الموحدون لغزو الحماديين ببجاية، فقاموا في نفس السنة بإخضاع الجزائر صلحاً وتأمين أهلها ثم المدية وأخيراً بجاية في سنة 547هـ/1152م. "ولما ملَك عبد المؤمن بجاية، تجمعت صنهاجة في أمم لا يُحصيها إلا الله تعالى، وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قصبة، واجتمع معهم من كتامة ولواتة وغيرها خلق كثير وقصدوا حرب عبد المؤمن فأرسل لهم جيشا كثيراً...فالتقوا في عرض الجبل شرقي بجاية فانهزم أبو قصبة وقُتل أكثر من معه ونُهبت أموالهم وسُبيت نساؤهم وذراريهم، ولما فرغوا من صنهاجة ساروا إلى قلعة بني حماد"[573] التي "سرَّح [إليها] عبد المؤمن عساكر الموحدين وعليهم ابنه عبد الله...وبها جوشن بن عبد العزيز في جموع صنهاجة، فاقتحمها واستلحم من كان بها منهم وأضرم النار في مساكنها...**ويقال إن القتلى بها كانوا ثمانية عشر ألفاً**، وامتلأت أيدي الموحدين من الغنائم والسبي..."[574].

كان سقوط القلعة سببا في إثارة القبائل العربية من الأثبج ورياح وزغبة وغيرها، وذلك بسبب طردهم من الأراضي التي استولوا عليها سابقا في ظل ضعف الدولة الحمادية، وقد جهز عبد المؤمن لقتالهم جيشا جعل على قيادته يصلاسن بن المعز و صهره عبد الله بن وانودين، وكانت الدائرة على الموحدين وهزمهم العرب. فحشد عبد المؤمن وابنه عبد الله قوتهم مرة أخرى، فنشبت معركة كبيرة بالقرب من سطيف أسفرت عن هزيمة كبيرة للعرب قُتل فيها ألمع زعمائهم، فلجأوا للاستسلام

---

[571] ابن خلدون، العبر، **المصدر السابق**، ج6، ص 307. أمبروسيو هويثي ميرندا، **التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية**، تر: عبد الواحد أكمير، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004.، ص 121.

[572] ابن أبي الزرع، الأنيس، المصدر السابق، ص ص 192-193. ينظر أيضا: علي عشي، **المغرب الأوسط في عهد الموحدين دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية (534هـ/1139م إلى 633هـ/1235م)**، (مذكرة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 1433-1434هـ/2011-2012م)، ص ص 39-40.

[573] ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج9، ص 373. ينظر أيضا: رشيد بورويبة، **المرجع السابق**، ص108 . الهادي روجي إدريس، **المرجع السابق**، ج1، ص ص 432-433.

[574] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 316. ينظر أيضا: رشيد بورويبة، **المرجع السابق**، ص106 .

والدخول في طاعة الموحدين وذلك في ربيع 548هـ/يونيو1153م[575]، بعد أن "**استُلحموا** وسُبيت نساؤهم واكتُسحت أموالهم وأسر أبناؤهم"[576] في هذه المعركة.

أخيراً، فإن ما يمكن قوله بخصوص الدخول الموحدي للمغرب الأوسط هو أنه وبالرغم من عدم تصديق مختلف المؤشرات الانطباعية والرقمية المقدَّمة من طرف المصادر حول الخسائر الديمغرافية الناجمة عن العمليات العسكرية الموحدية في إطار مشروع ضم المغرب الأوسط بسبب اتصاف هذه المعطيات المصدرية –كعادتها– بعُنصري المبالغة والتهويل خاصة عند الحديث عن الدخول الموحدي لوهران وتلمسان والقلعة ومعركة سطيف، إلا أن هذا لا يمنع من القول بأن هذه المعطيات المصدرية تُخبر –بشكل أو بآخر– بأن الدخول الموحدي لمجالات المغرب الأوسط قد بلغ درجة كبيرة من القوة والعنف وخَلّف نتيجة ديمغرافية سلبية كبيرة سواءً على المناطق والمجالات الحضرية أو الريفية والبدوية. وهو ما يعني تأثيراً ديمغرافيا سلبيا وكبيرا على الاستقرار والنمو الديمغرافييْن للمنطقة خلال هذه الفترة. وهو الأمر الذي يجعلني أعتقد بأن مشروع الضّم الموحدي للمغرب الأوسط وما خَلَّفه من فتن وحروب يعتبر من بين أقوى صراعات ومواجهات هذه المرحلة (مرحلة التذبذب الديمغرافي) والذي كان له انعكاسات ديمغرافية كبيرة على مستوى بلاد المغرب الأوسط، وهذا بالنّظر إلى حجم الخسائر الديمغرافية التي أسفرت عليها مختلف الاقتحامات والحَملات والمعارك الموحدية اتجاه العُنصر المحلي.

إلا أن الفترة الممتدة من سنة 548هـ إلى غاية 580هـ/1153–1184م، أي من استكمال الدخول الموحدي للمغرب الأوسط إلى غاية ثورة بني غانية، كانت فترة استقرار سياسي وأمني لبلاد المغرب الأوسط خلال العهد الموحدي. وبالتالي فإنني أعتقد أن هذه الفترة التي دامت قُرابة الثلاثين سنة يمكن أن تكون عاملاً مهما مساعداً على تحسُّن الوضع الديمغرافي للمنطقة واستقراره ونموه بعد الهزّة التي تَعرَّض لها في بداية المجيء الموحدي.

[575] علي عشي، المغرب الأوسط في عهد الموحدين، **المرجع السابق**، ص 42. البيدق: أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت 559هـ/1164م)، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م، ص ص 74-75. ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج9، ص ص 390-391. النويري، **المصدر السابق**، ج24، ص ص 167-168. ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 316. رشيد بورويبة، **المرجع السابق**، ص ص109-114 . الهادي روجي إدريس، **المرجع السابق**، ج1، ص ص 433-437.

[576] ابن خلدون، **نفسه**، ج6، ص 316.

المطلب الثاني: لماذا تم اعتبار هذه المرحلة (398-580هـ/1008-1184م) مرحلة تذبذب للوضع الديمغرافي للمغرب الأوسط (بين التَّراجع والانتعاش)؟

بِبساطة لأنها تمازجت بين فترات الصراع والمواجهات العسكرية القوية العديدة وبين فترات الاستقرار والازدهار الطويلة. وإذا تم استثناء معركة سبيبة سنة 457هـ/1065م، والمجيء الموحدي للمنطقة (ما بين سنتي 539 و548هـ/1145-1153م)، فإن مختلف الصراعات الأخرى لم تكن بتلك العنف والبطش الذي لُوحظ خلال الفترة السابقة (280-398هـ/893-1008م) إبَّانَ الحِقبتيْن الفاطمية والزيرية.

لقد سبق وأن تحدثتُ عن مختلف الصراعات التي حدثت في هذه الفترة (فترة التذبذب الديمغرافي) ابتداءً من الحملات الزيرية على بني حماد بالمغرب الأوسط والدخول الهلالي للمنطقة إضافة إلى الصراع الحمادي المرابطي والغارات النورمانية وصولاً إلى المجيء الموحدي. غير أنه وفي خضم هذه الصراعات وما بينها من فترات زمنية، برزت هنالك عدة مؤشرات ومعطيات مصدرية دالة على ازدهار وضع المنطقة الديمغرافي والعمراني نتيجة حالة الاستقرار السياسي في بعض الفترات أو نتيجة ضعف حدة الصراعات وضعف تأثيرها الديمغرافي مقارنة بالمرحلة السالفة أثناء الدولتين الفاطمية والزيرية، وأبرز مؤشر عن هذه المؤشرات التي أتحدث عنها هو: الازدهار العمراني والحضاري لمدن ومجالات المغرب الأوسط في هذه الفترة خلال العهدين الحمادي و الموحدي.

ففي العهد الحمادي أُسّست المدينتان الجديدتان الشّهيرتان اللّتان أعتقد أنهما قد وُلدتا وأُسّستا كبيرتيْن منذ البداية: القلعة (سنة 398هـ/1008م) وبجاية (سنة 460هـ/1068م) وذلك بسبب كونهما عاصمتين لدولة بني حماد مباشرة بعد تأسيسهما على التوالي، حيث برزتا كأحد أبرز مدن بلاد المغرب في هذه الفترة، إذ بلغت هاتان المدينتان في ظل الدولة الحمادية ازهارا حضاريا كبيرا على مستوى كل الأصعدة: سياسيا واقتصاديا وحتى ثقافيا وفكريا. وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة من خلال الاطّلاع على مختلف المصادر، لاسيما الجغرافية منها. إذ يذكُر أحدُها عن **القلعة** ما يلي: "هي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة وتمصّرت عند خراب القيروان [و] انتقل إليها أكثر أهل أفريقية، وهي اليوم مَقصد التجار، وبها تحلُّ الرِّحال من العراق والحجاز ومصر والشام وساير بلاد المغرب"[577]. فيما وصفها نص مصدري آخر أنها "**أكبر البلاد قُطراً وأكثرها خَلقاً** وأغزرها خيراً و أوسعها أموالا وأحسنها قصورا ومساكن وأعمها فواكه وخصبا، وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سمينة"[578]. ومِثل هذه الأوصاف التي أوردتُها عن هذه المدينة من خلال هذين النصين المصدريين تدل بشكل

[577] البكري، **المصدر السابق**، ص 49.

[578] الإدريسي، **المصدر السابق**، ج1، ص 255.

جلي وواضح عن وضع اقتصادي في غاية الازدهار، وهو –بالضرورة– ما سينعكس إيجابا على النسيجيْن العمراني والديمغرافي للحاضرة الحمادية، وهو ما يمكن الانتباه إليه من خلال العِبارة الانطباعية التالية: "أكبر البلاد قُطراً وأكثرها خَلقاً"[579].

بجاية الحمّادية هي الأُخرى ستشهد بعد القلعة حرَكية حضارية كبيرة لا سيما على الصعيد الاقتصادي، وذلك ما يمكن فهمه من خلال أحد النصوص الجغرافية التي يُذكَر فيها ما يلي: "مدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد والسفن إليها معلقة وبها القوافل منحطّة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار. وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يُجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتُباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بوادٍ ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه منها ما يكفي لكثير من البلاد. وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي...وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة..."[580].

هذا فيما يتعلق بالمدن المشيَّدة في هذه الفترة، أما المدن القديمة والموجودة سَلفا فهي الأخرى شهدت ازدهارا حضاريا واقتصاديا كبيرا، ف**تلمسان** –مثلا– كانت "مقصد[اً] لتجار الآفاق"[581]. أما **المسيلة** ف"هي عامرة"[582] "جليلة على نهر يسمى سَهْر...[بها] أسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة ويجود عندهم القطن، وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر..."[583]. **قسنطينة** هي الأخرى وُصفت بأنها "عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك في الحرث والادخار، والحنطة عندهم تقيم بها في مطامرها مائة سنة لا تفسد، والعسل بها كثير وكذلك السمن يُتجَهّز به منها إلى سائر البلاد..."[584]. أيضا **بسكرة** التي هي عبارة عن "كورة فيها مدن كثيرة وقاعدتها بسكرة، وهي مدينة كبير، كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار..."[585].

---

[579] الإدريسي، **نفسه**، ج1، ص 255.
[580] **نفسه**، ج1، ص 260.
[581] البكري، **المصدر السابق**، ص 77.
[582] الإدريسي، **المصدر السابق**، ج1، ص 254.
[583] البكري، **المصدر السابق**، ص 59.
[584] الإدريسي، **المصدر السابق**، ج1، ص 265.
[585] البكري، **المصدر السابق**، ص 52.

وعطفاً على ذلك، فإن هذا الازدهار المُتحدَّث عنه لا يخص فقط المدن والمجالات الحضرية، بل يخص أيضا المجالات البدوية والقرى والأرياف. فكما هو معلوم، فإن المجالين الحضري والبدوي مرتبطان ومكملان لبعضعهما وازدهار أحدهما يؤثر على الثاني والعكس. فغالباً ما تُذكَر البوادي تبعاً للمدن الحضرية القريبة منها في كلتا الحالتين: الازدهار والانحطاط، فبجاية الحمّادية —مثلاً— "لها بَوادٍ ومزارع"[586] عديدة وهي التي تزوّد المدينة بالمؤن والسلع الأساسية والكمالية المختلفة، وهو ما جعل "الحِنطة والشّعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه منها ما يكفي لكثير من البلاد"[587]. كما أن الازدهار الديمغرافي الذي يمكن أن يلحق المدن نتيجة ازدهارها الاقتصادي يمكن أيضا أن يلحق المجالات البدوية للسبب ذاته أو لأسباب أخرى، فبالرغم من طول جبل الأوراس الذي يمتد على مسافة "اثني عشر يوما"[588] إلا أن "عِمارته متصلة"[589]، نفس الأمر بالنسبة لمدينة تلمسان التي "لها قُرى كثيرة وعَمائر متصلة"[590]...إلخ.

وباستثناء القلعة التي تراجع دورها الريادي الحضاري في العهد الموحدي، فإن معظم مدن المغرب الأوسط خلال هذا العهد —أي الموحدي— حافظت على ازدهارها الحضاري خاصة في فترة الاستقرار التي سبق وأن أشرتُ إليها والتي امتدت من استكمال الدخول الموحدي للمغرب الأوسط بعد معركة سطيف سنة 548هـ/1153م إلى غاية اندلاع شرارة ثورة بني غانية ببجاية سنة 580هـ/1184م.

هذا ما يمكن ملاحظته من خلال أحد النصوص الجغرافية الهامّة التي كانت قريبة من هذه المرحلة الموحدية[591]، حيث وُصفت **بجاية** -على سبيل المثال- بأنها "مدينة عظيمة"[592] وبأن لها "مَرسىً عظيم[اً] تحطّ فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر، وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها"[593].

---

586 الإدريسي، **المصدر السابق**، ج1، ص 260.

587 **نفسه**، ج1، الصفحة نفسها.

588 **نفسه**، ج1، ص 264.

589 **نفسه**، ج1، الصفحة نفسها.

590 مجهول (ق 6هـ/12م)، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة — آفاق عربية، بغداد-العراق، د ت ن، ص 176.

591 مجهول، الاستبصار، **نفسه**. وفقا لمحقق الكتاب فإن مؤلِّفه "عاش على عهد يعقوب المنصور الموحدي" الذي حَكَم ما بين سنتي580 و595هـ/1184-1199م. ينظر: مجهول، الاستبصار، **نفسه**، ص: ت-ث (من مُقدمة المحقق).

592 **نفسه**، ص 129.

593 **نفسه**، ص 130.

أيضا وُصِفت بأنها -أي بجاية-" كثيرة الفواكه والأثمار وجميع الخيرات وهي مشرفة، نزيهة..."[594]. أمّا مدينة **المسيلة** ف"هي الآن عامِرة آهلة كثيرة الخصب رخيصة السعر على نظر واسع وقرى عامرة"[595]. فيما وُصفت **تلمسان** بأنها هي الأخرى "مدينة عظيمة...كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار، كثيرة الخيرات والنعم"[596]. كما اعتُبرت **قسنطينة** بأنها "مدينة كبيرة عامِرة...وهي على نظر واسع وقرى كثيرة عامرة آهلة، وهي [كثيرة] الخصب والزرع ولها بساتين كثيرة الفواكه"[597].

إن مِثل هذه الأوصاف وغيرها، تدل على ازدهار حضاري واقتصادي كبيرين شهده المغرب الأوسط ضمن مجالاته الحضرية والبدوية خلال هذه المرحلة التي تزامنت مع العهد الحمادي وبداية نظيره الموحدي، وهو ما أعتقد أنه سينعكس – بالضرورة– على الجانبين العمراني والديمغرافي لهذه المنطقة وبالتالي مزيدا من الاستقرار والنمو السكاني والديمغرافي خاصة خلال فترات توقف أو نقص وتيرة مختلف الفتن والاضطرابات السياسية خلال هذه المرحلة. هذا بالرغم من أن المصادر الوسيطية التي اعتمدتُ عليها لا تُعطي أي مؤشرات رقمية واضحة عن استقرار الوضع الديمغرافي أو نموه، لكن هذا أمكنني فهمُه من خلال العبارات والأوصاف الانطباعية الوارِدة في هذه النصوص الدالة على رخاء الوضعية الاقتصادية للمنطقة وبالتالي استقرار ونمو ديمغرافيتها بالضرورة تبعاً لذلك.

لكن يبقى هذا الاستقرار والنمو الديمغرافي الذي أتحدث عنه والمرتبط أساسا بالازدهار الحضاري والاقتصادي الناجم عن الاستقرار السياسي، يبقى مُتذبذباً عبر فترات مختلفة ارتبطت بدورها بفترات الاستقرار السياسي التي دائما ما تَبرُز ما بين كل صراعيْن سياسييْن وعسكرييْن شهدهما المغرب الأوسط خلال هذه الفترة (398-580هـ/1008-1184م).

---

[594] **نفسه**، ص 130.

[595] **نفسه**، ص 166.

[596] **نفسه**، ص 176.

[597] **نفسه**، ص ص 165-166.

المبحث الثالث: المغرب الأوسط والعودة مرة أخرى إلى حالة التراجع الديمغرافي (580–707هـ/1184–1306م):

يُمكن اعتبار هذه الفترة بمثابة عودة أخرى لبلاد المغرب الأوسط إلى حالة الاضطراب السياسي، ومن ثم حالة التراجع الديمغرافي نتيجة اشتداد وطأة الفتن والحروب التي عصفت بهذه المنطقة خلال هذه الفترة. فكانت البداية مع ثورة بني غانية التي تسببت في الكثير من المشاكل السياسية الداخلية والخارجية للدولة الموحدية، حيث كانت أحد أهم العوامل التي أودت بسقوطها، وذلك –كما سبق وأن قلتُ– بسبب طول مدة هذه الثورة التي امتدت لغاية خمس (5) عقود (580–630 أو 633هـ/1184–1233 أو 1236م) إضافة إلى تشعُّب وتوسع رُقعة انتشار هذه الثورة في كُلٍّ من مجالات المغرب الأوسط وإفريقية.

كما لعِب مشروع تأسيس الدولة الزيانية ومحاولة تثبيت أركانها ابتداءً من سنة 627هـ/1230م إلى غاية 698هـ/1299م، دوراً فاعلاً في إحداث تأثير ديمغرافي سلبي هو الآخر على ديمغرافية المغرب الأوسط خلال هذه الفترة بسبب كثرة الفتن والحروب الناجمة عن محاولة الطرف الزياني تجسيد هذا المشروع في ظل محاولة القِوى الخارجية الموحدية والحفصية والمرينية التي سعت هي الأخرى إلى محاولة وضع حد لنجاح قيام هذا المشروع، لاسيما من الطرف المريني الذي شنّ حَملات عديدة على تلمسان ومجالات المغرب الأوسط قبل حدوث الحصار الشهير لتلمسان ابتداءً من سنة 698هـ/1299م، وهذا كله في إطار صراع قِوى بلاد المغرب على التاّج الموحدي الذي آل إلى التّضعضع والانهيار.

وسأختَتِم هذه المرحلة بالحصار المريني على تلمسان، والذي امتد لثمان (8) سنوات (698–706هـ/1299–1307م)، حيث كانت له انعكاسات ديمغرافية سلبية كبيرة وخطيرة على ديمغرافية الدولة الزيانية بصفة عامة وعلى ديمغرافية مدينة تلمسان وأحوازها بصفة خاصة.

المطلب الأول: ثورة بني غانية (580–630هـ/1184–1233م) وبداية تراجع ديمغرافية المغرب الأوسط خلال هذه المرحلة:

كانت الجزائر الشرقية إحدى ولايات المرابطين في الأندلس وهي عبارة عن ثلاث جزر: ميورقة ومنورقة ويابسة. فقد استطاع مُحَّد بن علي بن غانية (ت 550هـ/1155م) أن يدير دفّة الحكم في تلك الجزر بحِنكة سياسية بارعة وحزم وقوة

عظيميْن، ثم أخذ يرقب بحذر شديد انتصارات الموحدين على المرابطين في المغرب. فلما دخل الموحدون مراكش عاصمة المرابطين شدد مُحَّد بن غانية قبضته على الجزائر الشرقية، ليجعلها نواة لإمارة تحمل اسم قبيلته[598] أو عشيرته.

عَرفت جُزر البليار أزهى عصورها في عهد إسحاق بن مُحَّد بن غانية (ابن الأمير السابق) من سنة 550 إلى 580هـ/1155-1184م. إلا أن فترة حكم هذا الأخير لم تكن عادية لأنها ستدفع أبناءه من بعده إلى الدخول في حرب ضروس مع الدولة الموحدية التي تمكن كلٌّ من مُحَّد وإسحاق بن غانية من تجنبها حفاظاً على كيانهم واستقلالهم، إلا أن هذا الاستقلال سرعان ما هدَّدته الدولة الموحدية التي طلبت على لسان خليفتها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن تحديد موقفهم من السلطة الموحدية إما بإعلان الطاعة والولاء لها أو بالتمرد عليها. فكان الرد سريعاً منهم بحرب بدأت من بجاية في 6 شعبان سنة 580هـ/ 13 نوفمبر عام 1184م بقيادة علي بن غانية برفقة علي بن إسحاق بن مُحَّد بن غانية وإخوته، لتشمل هذه الحرب منطقة المغرب الأوسط وإفريقية وجزر البليار (الجزر الشرقية) إلى غاية 633هـ/1237م، انعكست على القوتين الإسلاميتين بنتائج وخيمة شملت جميع الميادين استفاد منها بالدرجة الأولى النصارى الذين كانت الفرصة مواتية أمامهم لاسترجاع المزيد من الأراضي في الأندلس تاركين القوتين الميورقية والموحدية متطاحنتين فيما بينهما في بلاد المغرب الإسلامي[599].

فكانت سنة 580هـ/1184م مَوعداً لانطلاق شرارة هذه الثورة وذلك عندما "خرج الميورقيون بنو ابن غانية من جزيرة ميورقة قاصدين مدينة بجاية، فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين وذلك لست خلون من شعبان من السنة المذكورة"[600]، ثم سيطر بنو غانية بعد ذلك على المدن التالية: الجزائر، مازونة، مليانة، أشير والقلعة، فيما اكتفوا بمحاصرة

---

[598] طويلب عبد الله ، **بجاية تحت حكم بني حماد**، مجلة القرطاس، مج2، ع3، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان – الجزائر، جانفي 2017، ص 108. للمزيد من التفاصيل، ينظر: مُحَّد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، العصر الثالث: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني: عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1411هـ/1990م، ص 145 وما بعدها.

[599] هرباش زاجية، **نتائج ثورة بني غانية 580-633هـ/ 1184-1237م**، مجلة الحوار المتوسطي، مج4، ع1، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس- الجزائر، مارس 2013، ص 123.

[600] عبد الواحد المراكشي، **المصدر السابق**، ص 195.

قسنطينة بعدما استعصت عليهم[601]. لكن الموحدين سرعان ما تَدَاركوا الأمر كما سيتداركونه عند أي هجوم يشنه عليهم بنو غانية أثناء مدة هذه الثورة.

لقد سبق وأن تمت الإشارة إلى ما لَحِق ببجاية ومختلف مجالات المغرب الأوسط الأخرى بعد سيطرة بني غانية عليها ابتداءً من سنة 580هـ/1184م قبل استردادها من طرف الموحدين، وذلك وفقاً لما رصده أحد النصوص المصدرية الهامة[602]. ولأهمية هذا النص سأحاول إدراجه مرة أخرى هاهنا، إذ يُذكَر فيه أنه "لما وقعت الفتنة ببجاية وأنظارها...، خفَّ قطينها وعمارها، وانتُهبت زروعها وغلاتها، وقلّت خيراتها وعدمت مرافقها وأقواتها وألَمَّ بالرعية الحيف وتقسمهم الجلاء والسيف، اعتصم من نَجا منهم بقنن الجبال والأوعار، واحتمى من ركن منهم إلى أحياء العرب بالجوار، فأقفرت من بجاية بسائطها وقلت مادتها وغلَت أسعارها وتعذّرت الجباية وجاوز تقتيرها النهاية. فتسلّل من القبائل خيلاً ورجلاً معظم سوادهم، وتسربوا مع الأيام فرارا من الإعدام إلى أقطارهم وبلادهم، ولم يبق إلا من يعرف بعينه واسمه ولا ساغ له الرحيل عن قومه...فأقام السيد [أبو زيد الوالي الموحدي] على هذا الحال والمجاعة تشتد والوباء يزيد حتى عم الموتان...وانحصر المسلوبون والمغنومون إلى البلد في أمم لا يحصى عديدهم...وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء، فكانوا يصبحون في الخرب وفي سكك المدينة زمراً أمواتا ذكورا وإناثا"[603].

صراحةً لا أَعْلَمُ إن كان ما يرويه ابن عذاري صاحب هذا النص صحيحاً، أم انه كان فقط مجرد تحامُل منه على بني غانية وذلك بالنظر إلى العبارات الانطباعية المبالغ فيها أحيانا التي أوردها في سياق هذا النص. لكن الفكرة الأساسية التي يمكن الخروج منها انطلاقا من هذا النص المصدري هو عنفوان الحرب بين الطرفين الميورقي والموحدي ومدى تأثيرها السلبي والكبير على مدينة بجاية ومجالاتها على الصعيد السكاني أو الديمغرافي وعلى الأصعدة الأخرى كالأمن والهجرة والاقتصاد والعمران والمجتمع وغيرها.

وإذا كان هذا التأثير السلبي لمواجهات وصراعات بني غانية مع الموحدين كان تأثيره بالغ القَسوة لهذه الدرجة على المجالات التي تطالها هذه الصراعات في بداية ثورة الموارقة على بني عبد المؤمن، فكيف يُمكن -إذاً- استساغة حجم التاثير

---

[601] نويقة عبد الرحمن، **بنو غانية وتأثيرهم في التوازن بين عدوتي المتوسط في الغرب الإسلامي (541-631هـ/ 1156-1233م)**، (مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر2، 1432-1433هـ/ 2011-2012م)، ص ص 67 – 68. ينظر أيضا: محمد عبد الله عنان، **المرجع السابق**، ص 150-151. ابن عذاري، **المصدر السابق**، قسم الموحدين، ص 177. ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 254.

[602] ابن عذاري، **نفسه**، -قسم الموحدين-، ص ص 180-181.

[603] **نفسه**، -قسم الموحدين-، الصفحات نفسها.

السلبي الناتج عن الصراع الذي امتد لقرابة النصف قرن من الزمان على مستوى مختلف الأصعدة، خاصة على الصعيد الديمغرافي لبلاد المغرب الذي سيكون بطبيعة الحال أبرز المتضررين!

وعلى الرغم من وقوع معظم أحداث وتفاصيل هذه الثورة في المغرب الأدنى أو إفريقية[604]، إلا أن المغرب الأوسط قد كان له نصيب هو الآخر من بعض أحداثها، بدءً بالنص الذي أوردتُه أعلاه بشأن بداية هذه الثورة ببجاية عن طريق استيلاء بني غانية على هذه المدينة وعلى مجالات أخرى من المغرب الأوسط، مرورا بمعارك أخرى شهدتها المنطقة في إطار هذا الصراع على غرار معركة تاهرت التي وقعت سنة 605هـ/1209م بين يحي بن إسحاق الميورقي والوالي الموحدي على تلمسان: أبي عمران موسى بن عبد المؤمن، والتي مُني فيها الجانب الموحدي بهزيمة كبيرة قُتل فيها والي تلمسان وأُسر ولده وأقاربه وخواصّه وكان عدد القتلى من عسكره **ألفاً وسبعمائة**[605]. ووِفقاً لابن خلدون فإنه وفي هذه الوقيعة "استُبيحت تاهرت، فكان آخر العهد بعُمرانها"[606].

وبما أن معظم أحداث ثورة بني غانية كانت بإفريقية، فبالضّرورة طبعاً أن نتائجها السلبية المتعددة لاسيما الديمغرافية منها ستكون في هذه المنطقة، إلا أن المغرب الأوسط قد شملته هو الآخر بعضاً من هذه النتائج كما سبق وأن بينتُ لكن بحجم أقل من ذلك الذي طال إفريقية، وذلك باعتبار وقوع معظم مواجهات هذا الصراع في مجالات هذه المنطقة. وهذا ما يجعلني أعتقد أن ثورة بني غانية قد شكلت بالنسبة للمغرب الأوسط مجرد بداية فقط لهذه المرحلة (580-706هـ/1184-1306م) التي أَقبَل فيها المغرب الأوسط مُجدداً عل حالة التراجع الديمغرافي، وأن هذه الأخيرة – أي

---

[604] لمزيدٍ من التفاصيل عن سيرورة أحداث هذه الثورة، ينظر: نويقة عبد الرحمن، **المرجع السابق**، ص ص 58 – 124.

[605] الحميري: محمَّد بن عبد المنعم (ت 900هـ/1495م)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص 127. (مادة تاهرت). ينظر أيضا: نويقة عبد الرحمن، **المرجع السابق**، ص 116. هويثي ميرندا، **المرجع السابق**، ص ص 404 - 405.

[606] ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج6، ص 375. ينظر أيضاً: سعدي شخوم، **ظاهرة خراب المدن بالزاب والمغرب الأوسط أسبابها مظاهرها آثارها**، مجلة الحضارة الإسلامية، مج17، ع28، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، وهران-الجزائر، ص ص 515-532. ينظر أيضاً: ابراهيم لحسن، **نماذج عن المعتقدات الشعبية الخيالية والخرافية لِعامّة المغرب الأوسط**، المرجع السابق، ص 153.

حالة التراجع الديمغرافي- ستتجسد أكثر خلال فترة تأسيس وتوطيد أركان الدولة الزيانية (627-698هـ/1230-1299م) وستشهد ذروتها أثناء الحصار المريني لتلمسان (698-706هـ/1299-1307م).

المطلب الثاني: مشروع تأسيس وتوطيد أركان الدولة الزيانية (ما بين سنتي 627و698هـ/1230-1299م) ودوره في مواصلة التراجع الديمغرافي للمغرب الأوسط:

لقد سَبق وأن بينتُ بأن ثورة الموارقة المسوفيين كانت من العوامل التي ساعدت على إضعاف دولة الموحدين بسبب ما سببته هذه الثورة العنيفة والطويلة من قَلاقل وفتن داخلية كبيرة لدولة الموحدين في كل من الجزر الشرقية وإفريقية والمغرب الأوسط. وهو ما ساهم في تبديد مَوارد الدولة الموحدية وتشتيت الجهود العسكرية لهذه الدولة المترامية الأطراف، الأمر الذي استغلته الممالك المسيحية في الأندلس من أجل الانقضاض على مزيد من أراضي المسلمين والتهامها كُلّما سَنَحت الفُرصة بذلك.

عندما دخلت ثورة بني غانية ضد الموحدين مرحلة ضعفها وبداية أفولها، كان الطرف الموحدي على موعد مع حدوث معركة كبيرة وفاصلة بينه وبين الطرف المسيحي في الأندلس، حديثي هنا عن معركة العقاب (609هـ/ 1212م) التي مُني فيها الموحدون بهزيمة نكراء ستلعب في المستقبل دورا مفصليا في رسم مستقبل قوة الدولة الموحدية واستقرارها ووحدتها. فكما هو معلوم فقد شكلت هذه الهزيمة بداية انكسار شوكة الموحدين في بلاد المغرب بما في ذلك الأندلس، وبداية لانحسار ظِلّهم في هذه المنطقة ككل، حيث تكاد "تُجمع المصادر التي تعرضت بالذكر لملامح الواقع السياسي ببلاد الغرب الإسلامي خلال القرنين 7و8هـ/ 13-14م على ربطها بالهزيمة الكبرى التي تلقتها الجيوش الموحدية في معركة العقاب سنة 609هـ/ 1212م، إذ بعدها انفرط عقد الوحدة التي حفظها الموحدون وتقوضت خلافتهم على مجموع هذه البلاد، حيث استبدّ الحفصيون ببلاد إفريقية وبسط بنو عبد الواد سلطتهم على معظم بلاد المغرب الأوسط وبرز بنو الأحمر في غرناطة وما تبقى من أرض الأندلس بعد أن استرد المسيحيون معظمها، بينما سيطر بنو مرين على المغرب الأقصى مركز الدولة الموحدية، مما يُحيل إلى واقع سياسي معقد تميز بعدم الاستقرار والاضطراب المستمرين"[607].

غير أن الدول والقِوى السياسية التي تربعت على بلاد المغرب قبل وبعد الأفول الموحدي لم تكن لتقوم وتُأسَّس هذه الكيانات ويُوطَّد بِناؤها إلا بعد صراعات سياسية وعسكرية مريرة بين مختلف الأطراف: الموحدية والحفصية والزيانية والنصرية (بني الأحمر). وبما أن موضوعي مُنصبّ على المغرب الأوسط، سأحاول تركيز حديثي هنا عن مشروع وبناء

[607] حميد تيتاو، **المرجع السابق**، ص 29.

وتأسيس الدولة الزيانية وتوطيد أركانها ابتداءً من سنة 627هـ/1230م إلى غاية تاريخ حدوث الحصار المريني على تلمسان سنة 698هـ/1299م، وذلك بالتركيز على أهمّ الصّدامات والمواجهات التي بَرزت في إطار هذا المشروع وإبراز أهم خسائرها الديمغرافية.

تنتسب دولة بني عبد الواد أو بني زيان إلى قبيلة بني عبد الواد إحدى بطون زناتة، وكان بنو عبد الواد يرتادون زاب قسنطينة ويجوبون صحراء المغرب الأوسط سعيا منهم للانتجاع في المراعي الخصبة، وفي عهد المرابطين انتقل بنو عبد الواد إلى غرب المغرب الأوسط تحت ضغط الهلاليين. ولما وصل الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي (524-558هـ/ 1130-1163م) إلى هذه الديار، اعترضتهم زناتة وفي مقدمتهم بنو عبد الواد، وسرعان ما انحاش بنو عبد الواد انحياشاً، وأصبحوا من أخلص قبائل زناتة ولاءً لهم، فقربهم الموحدون وأصبحوا حلفاءً لهم مع غيرهم من القبائل الزناتية الأخرى المنتشرة والمستقرة في المجالات الغربية للمغرب الأوسط (البطحاء، إقليم وهران، تلمسان وأحوازها...). وعندما ضعفت السلطة المركزية في مراكش وتقلص نفوذ الموحدين، أصبح تأثيرهم ضعيفا على الأقاليم، خاصة على بلاد المغرب الأوسط[608] تهيأت الظروف بعدها أمام ظهور بني عبد الواد على الساحة السياسية للمغرب الأوسط ابتداءً من هذه الفترة.

ففي عهد الخليفة الموحدي: المأمون إدريس بن يعقوب (624-630هـ/1227-1233م)، قام والِيه على مدينة تلمسان وأحوازها: أبو سعيد عثمان بن يعقوب بإساءة السيرة والتصرف مع بني عبد الواد، وقام بإهانة وجهائهم وتعذيبهم، كما حاول طردهم من أراضيهم وديارهم، وبرزت في هذا الظرف شخصية: جابر بن يوسف، كبير قوم بني عبد الواد حينذاك والذي تصدى لتجاوزات الوالي الموحدي مُعلناً في الوقت ذاته ولاءه وطاعته للخليفة الموحدي المأمون، هذا الأخير عمل على تثبيته حاكماً شَرعيا على إقليم تلمسان وإقليم بني راشد ومُدنٌ أخرى ما عدا ندرومة وكان ذلك سنة 627هـ/ 1230م[609].

اتَّضحت أكثر مَعالم المستقبل السياسي لقبيلة بني عبد الواد في عهد زعيمها جابر بن يوسف بعد هذا المكسب السياسي الهامّ. وفي هذا الإطار يذكُر أحد المصادر[610] ما يلي: "كانت هذه الوِلاية رُكوباً إلى صهوة المُلك الذي اقتعدوه

[608] فيلالي عبد العزيز، **تلمسان في العهد الزياني، المرجع السابق**، ج1، ص ص 14-15. ينظر أيضا: يحي ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج1، ص 207 وما بعدها و ص 217 وما بعدها. عبد الرحمن ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج7، ص 97 وما بعدها.

[609] فيلالي عبد العزيز، **نفسه**، ج1، ص 15. عبد الرحمن ابن خلدون، **نفسه**، ج7، ص ص 99-100.

[610] عبد الرحمن ابن خلدون، **نفسه**، ج7، ص 100. ينظر أيضا: يحي ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج1، ص 220. فيلالي عبد العزيز، **نفسه**، ج1، ص ص 15-16.

من بعد، ثم انتفض عليه أهل ندرومة بعد ذلك فنازلهم وهلك في حصارها...سنة تسع وعشرين [وستمائة]. وقام بالأمر بعده ابنه الحسن وجدّد له المأمون عهده بالولاية، ثم ضعُف عن الأمر وتخلّى عنه لستة أشهر من ولايته، ودفع إليه عمه عثمان بن يوسف، وكان سيّء المَلَكة كثير العسف والجور فثارث به الرعايا بتلمسان وأخرجوه سنة إحدى وثلاثين [وستمائة] وارتضوا لمكانه ابن عمه زكراز بن زيان بن ثابث الملقب بأبي عزة، فاستدعوه لها وولوه على أنفسهم وبلدهم وسلموا له أمرهم، وكان مضطلعا بأمر زناتة ومستبداً برياستهم ومستوليا على الضواحي، فنفس بنو مطهر عليه وعلى قومه بني علي إخوانهم ما آتاهم الله من المُلك وأكرمهم الله به من السلطان، وحسدوا زكراز وسلفه فيما صار لهم من الملك، فشاقوه ودعوا إلى الخروج عليه، واتبعهم بنو راشد أحلافهم منذ عهد الصحراء. وجمع لهم أبو عزة سائر قبائل بني عبد الواد، فكانت بينه وبينهم حرب سجال هلك في بعض أيامها سنة ثلاث وثلاثين [وستمائة]. وقام بالأمر بعده أخوه يغمراسن بن زيان، فوقع التسليم والرضى به وسائر القبائل ودان له بالطاعة جميع الأمصار، وكتب له الخليفة [الموحدي] الرشيد [630هـ-640هـ/1233-1242م] بالعهد على عمله وكان له ذلك سُلَّماً إلى المُلك"، وبداية فِعلية لتأسيس دولة بني زيان التي ستحكم هذه المنطقة لِقُرابة أزيد من ثلاثة قرون بدءً من هذا التاريخ (633هـ/ 1236م).

واجهت الدولة الزيانية بعد قيامها على يد يغمراسن عدة تحديات هامة هددت أمنها بل وحتى وجودها بالأساس، تمثلت أولاً في الحملة الضخمة التي قام بها: أبو زكريا يحي الأول بن عبد الواحد بن أبي حفص (626-664هـ/ 1228-1244م) سنة 639هـ أو سنة 640هـ[611]. إذ بسبب المكانة التي بلَغها يغمراسن بعد تأسيس دولته وتوطيد أركانها إضافة إلى الحظوة الكبيرة التي بلغها عند الموحدين، أدى كل ذلك ببني توجين ومغراوة منافِسيه من زناتة بأن يُسوّلوا لأبي زكريا بن أبي حفص الاستيلاء على تلمسان[612]. وهو ما تمّ فِعلاً كما قلتُ بالحملة الحفصية على بلد يغمراسن (أي تلمسان) الذي "اقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال"[613] بعد أن تمّ حصار المدينة وأخذها عُنوة من طرف الحفصيين[614]. لكن الأمير الزياني يغمراسن الذي فَرّ بأهله من عاصمته تلمسان أثناء هذه الحملة نحو جبل بني ورنيد

[611] ذَكر الزركشي أن هذه الحملة كانت سنة 639هـ/1242م، بينما ذَكَر الأخوين: ابن خلدون أنها كانت سنة 640هـ/1243م. يُنظر (على التوالي): الزركشي: أبو عبد الله مُحَّد بن إبراهيم (ت بعد سنة 932هـ/1526م)، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تح وتعل: مُحَّد ماضود، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، د ت ن، ص 29. ينظر أيضا: يحي ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج1، ص 226. عبد الرحمن ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج7، ص 109. (على التوالي).

[612] عبد الرحمن ابن خلدون، **نفسه**، ج7، ص ص 106-108. فيلالي عبد العزيز، **تلمسان في العهد الزياني**، **المرجع السابق**، ج1، ص 21.

[613] عبد الرحمن ابن خلدون، **نفسه**، ج7، ص 108.

[614] الزركشي، **المصدر السابق**، ص 29. فيلالي عبد العزيز، **تلمسان في العهد الزياني**، **المرجع السابق**، ج1، ص 22.

(جنوب تلمسان) سُرعان ما استعاد مدينته بعد أن سَلَّمها له أبو زكريا بن أبي حفص مقابل دخول يغمراسن في ولاء وطاعة بني حفص في تونس بدلاً من الموحدين في المراكش[615] وهو ما تمّ فِعلاً، عندها عاد أبو زكريا إلى تونس ورجَع يغمراسن إلى عاصمته تلمسان[616].

أثار هذا التّقارب الزياني الحفصي الجديد حفيظة الموحدين بمراكش، إذ لما بلغ خليفة مراكش السعيد أبو الحسن (640-446هـ/ 1242-1248م) بما تم بين تونس وتلمسان من معاهدة، غضب لذلك وعزم على تأديب يغمراسن فخرج في جيش كبير نحو مدينة تلمسان في سنة 645هـ/ 1247م. لكن أبا يحي يغمراسن لم ينتظر وصوله، بل خرج إليه وفاجأه في الطريق بالقرب من قلعة (تامزيزدكت) التي تحصن بها منتظِراً وصول الجيش الموحدي. وبعد معركة حامية الوطيس، أفضت في النهاية إلى انتصار خاطف ليغمراسن أودى إلى مقتل الخليفة الموحدي وذلك سنة 646هـ/ 1248م، حيث أثَّرت هذه الهزيمة على معنويات الموحدين وحدَّت من شوكتهم وسمعتهم أمام القبائل المختلفة بالمغرب الأقصى خاصة بني مرين الذين زادت أطماعهم في الاستيلاء على ما تبقّى من الأراضي الموحدية[617].

إلا أن أكثر المعارك والمواجهات التي تكبَّد فيها الزيانيون خسائر فادحة، سيما على الصعيد الديمغرافي كانت مع الطرف المريني. إذ خاض يغمراسن بن زيان معارك عديدة مع الطرف المريني هُزم فيها كلها، وسأحاول في الجدول التالي ذكر معارك يغمراسن مع المرينيين وأهم انعكاساتها الديمغرافية على الجانب الزياني إن وُجدت[618]:

الجدول رقم 13: يمثل معارك يغمراسن بن زيان مع المرينيين وانعكاساتها الديمغرافية السّلبية على الجَانِب الزياني:

المعركة	انعكاساتها الديمغرافية	المصدر

[615] عبد الرحمن ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج7، ص 108. الزركشي، **نفسه**، ص 29.

[616] الزركشي، **نفسه**، الصفحة نفسها.

[617] فيلالي عبد العزيز، **تلمسان في العهد الزياني، المرجع السابق**، ج1، ص 22. ذَكَرت المصادر أن سبب قيام الخليفة الموحدي بهذه الحملة هو رغبته في شنّ حملة كبيرة تهدف إلى الوصول إلى إفريقية والقضاء على الأمير الحفصي أبو زكريا الذي أعلن استقلاله عن الموحدين. وبالرغم من دخول يغمراسن في طاعة الخليفة الموحدي عند لقاء الجيشين قبل حدوث المعركة، إضافة إلى قبول يغمراسن لمساهمة قطعةٍ من جيشه في المشاركة في هذه الحملة الموحدية على إفريقية، إلا أن الخليفة الموحدي كان مُصراً على الحُضور الشخصي ليغمراسن ومُثوله أمامه وهو ما رَفضه يغمراسن، الشيء الذي في النهاية إلى الصِّدام بين الطّرفين الموحدي والزياني. يُنظر: ابن عذاري، **المصدر السابق**، – قسم الموحدين–، ص ص 384-386. يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 227.

[618] عن هذه المعارك، يُنظر: قويدر عباس، **الجيش في العهد الزياني (633-962هـ/ 1235-1554م)**، (أطروحة دكتوراه، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس– الجزائر، 2015-2016م)، ص ص 168-171. ناصري مُحَّد، **المرجع السابق**، ص 12 وما بعدها.

موقعة إيسلي[619] الأولى عام 647هـ/1249 م	"...فكانت بينهما حروب عظيمة هزم فيها يغمراسن هزيمة شنعاء...**وقُتل من بني عبد الوادي جماعة من خيارهم وأنجادهم**...وهي أول حرب كانت بين أولاد عبد الحق [المريني] وأولاد زيان العبد الوادي..."	ابن أبي الزرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص 76
موقعة أبي السلط عامَ 655هـ/ 1257م	"...فانهزم يغمراسن..."	ابن خلدون، العبر، ج7، ص 112. ينظر أيضا رواية: ابن أبي الزرع، الذخيرة، ص 83.
معركة كلدمان عام 657هـ/ 1259م	"...ولقيه يعقوب بن عبد الحق (المريني) في قومه فأوقع به، وولى يغمراسن منهزما، ومر بطريقه (أي يغمراسن) بتافرسيت فانتسفها وعاث في نواحيها...	ابن خلدون، العبر، ج7، ص 112. ينظر أيضا رواية: ابن أبي الزرع، الذخيرة، ص 89.
معركة وادي تلاغ[620] عام 666هـ/ 1267م	"...**وكانت الوقيعة على يغمراسن، استُبيحت فيها حرمه واستُلحم قومه وهلك هناك ابنه أبو حفص عمر أعز ولده في أتراب له من عشيرته،** مثل: ابن أُخته عبد الملك بن حنينة وابن يحي بن مكي وعمر ابن ابراهيم ابن هشام..."	ابن خلدون، العبر، ج7، ص 115. ينظر أيضا رواية: ابن أبي الزرع، الذخيرة، ص 116. ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب، ص 305. ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية، ص 66.

[619] وِفقاً لابن خلدون وابن الأحمر فإن هذا المكان يقع نواحي أو أحواز مدينة وجدة. ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج7، ص 112. ابن الأحمر: اسماعيل بن يوسف الخزرجي الأنصاري النصري أبو الوليد (ت 807هـ/1404م)، **تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان**، تقديم وتحقيق وتعليق: هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد-الظاهر، 1421هـ/ 2001م، ص 65.

[620] واد وسهل مُلاصق لنهر ملوية من جهة الشرق غير بعيد عن كرسيف، وبالمغرب الأوسط جنوبي مدينة سيدي بلعباس مدينة وسهل يُدعى كلاهما أيضا بتلاغ، والأول هو المقصود. يُنظر: ابن أبي الزرع الفاسي، **الأنيس المطرب، المصدر السابق**، ص282 (من كَلام المحقق في الهامش رقم 167). يُنظر أيضا: **قويدر عباس، الجيش في العهد الزياني**، المرجع السابق، ص 169 (الهامش رقم 2).

موقعة إيسلي عامَ الثانية 670هـ/ 1272م	"...ففرَّ [يغمراسن] منهزما جريحا **وقُتل ولده فارس وجميع من كان في عسكره من الروم، فلم يفلت منهم أحد، وكانوا ما يزيد عن خمسمئة فارس، فاستُؤصلوا عن آخرهم، وقُتل من بني عبد الوادي وبني راشد ومغراوة والعرب خلق كثير، وفر يغمراسن جريحا في شرذمة قليلة من عشيرته وقرابته**...فانتهبت مرين محلة بني عبد الوادي وأموالهم وسلاحهم وسبوا حريمهم وعيالهم..."	ابن أبي الزرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص 131.
	"...كانت الدبرة على يغمراسن انكشفت جموعه **وقُتل ابنه فارس، ونجا بأهله** بعد أن أضرم معسكره ناراً تفاديا من معرَّة اكتساحه ونجا إلى تلمسان وانحجر بها..."	ابن خلدون، العبر، ج7، ص 115.
معركة خرزوزة عام 680هـ/ 1281م	"...فرأى يغمراسن ما لا يقدر عليه فولّى هارباً مهزوماً...**فقُتلت جنوده** وكُسرت بنوده، ودخل إلى حضرته (تلمسان)...وانتهب الناس جميع محلته، **ولم يزل الناس طول ليلتهم إلى الصباح ينتهبون سائر البلاد** والنواحي وباتت طبول أمير المسلمين في محلته تضرب في الخيام...ووصل الأمير أبو زيان بن عبد القوي إلى أمير المسلمين يعقوب فبايعه **وأقام معه ببلاد يغمراسن هو وقبيلته من بني تجين يدمرون ويخربون ويفسدون، فلما استأصل جميع بلاده وأكل زروعها ونهبها وخرب ربوعها**، أمر بني تجين بالرجوع إلى بلادهم وأعطاهم أموالاً جزيلة في جهازهم، وأقام هو على تلمسان حتى وصلت تجين إلى بلادها، ثم ارتحل راجعاً إلى المغرب فوصل مدينة فاس فدخلها في شهر رمضان من سنة ثمانين وستمئة..."	ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب، ص 337. ينظر أيضا رواية ابن خلدون: العبر، ج7، ص 117.

إذاً فكما اتَّضح في هذا الجدول، فقد خاض الزيانيون معارك طاحنة مع المرينيين تعرض فيها الطرف الزياني لهزائم كبيرة في كلها كما أسلفتُ. حيث تسببت هذه الانهزامات التي تلقاها الطرف الزياني في خسائر بشرية واقتصادية وعمرانية كبيرة، وهو ما انعكس سلباً على ديمغرافية الدولة الزيانية والمغرب الأوسط في المرحلة الأولى من تأسيس الدولة، خاصة عند الحديث عن المعركتين الأخيرتين اللتين وقعتا في سنة 670هـ/1272م (معركة إيسلي الثانية) وفي سنة 680هـ/ 1281م

(معركة خرزوزة) على التوالي، حيث مُني الطرف الزياني في هاتين المعركتين بهزيمتين ثقيلتين كان لهما أثر سلبي كبير على الوضع الديمغرافي لمدينة تلمسان ومنطقتها، إذ لم يكتف المرينيون هذه المرة بإلحاق الهزيمة بالزيانيين فحسب، بل استمروا في ملاحقة فلول الهاربين من بني زيان حتى مدينة تلمسان التي أطبقوا عليها الحصار. كما لم يكتف المرينيون بحصار تلمسان فحسب، بل عاثت جيوشهم فسادا بأحواز تلمسان بمعية قبيلة بني توجين المستقرة بجبل الونشريس. وفي هذا السياق تذكُر في أحد النصوص المصدرية عن معركة إيسلي الثانية ما يلي: "...وارتحل أمير المسلمين يعقوب (السلطان المريني) من الغد في أثره (يغمراسن)...وارتحل إلى تلمسان فنزل بظاهرها وأدار عساكره بأسوارها وشرع في قتالها، وبقي يغمراسن محصوراً...**واحتوت مرين على جميع ما بخارجها من القُر[ى] والضياع والفواكه والثمار والزروع**، وبَثَّ أمير المسلمين (يعقوب) الجيوش في جبالها وقبائلها المجاورين لها، ووصل إليه وهو محاصر لتلمسان أمير بني تجين صاحب بلاد الونشريس مُحَّد بن عبد القوي التجيني في جيش كثيف من قبائل تجين...فاشتد الحصار على يغمراسن وضيقت قبائل تجين بتلمسان لأخذ ثأرهم من أميرها، **فقطعوا الثمار ونسفوا الآبار وخرّبوا الربوع وأفسدو الزروع، ولم يَدعُوا بتلك الجهات قُوت يوم، حاشا السّدرة والدّوم**"[621]!

وبالرغم من ما يحمله هذا النص المصدري من مبالغة وتهويل كعادة العديد من النصوص المصدرية الأخرى، إلا أن هذه المعركة (إيسلي الثانية 670هـ/1272م) كان لها انعكاسات ديمغرافية كبيرة على الجيش الزياني وانعكاسات عمرانية واقتصادية سلبية كثيرة على المجالات الزيانية بتلمسان وأحوازها.

إلا أن التخريب العمراني والاقتصادي الذي طال تلمسان وأحوازها من طرف قبائل بني توجين المتحالفة مع بني مرين في معركتي إيسلي الثانية وخرزوزة، سرعان ما سيلحقه تخريب عمراني واقتصادي –انتقامي- مماثل لمجالات هذه القبيلة مع مجالات مغراوة من طرف يغمراسن في آخر حياته ومن طرف خليفته عثمان إبنه (681-703هـ/ 1283-1303م)[622].

يبدوا أن يغمراسن بعد معاركه الخاسرة قد أدرك القوة العسكرية للمرينين وكثرة أعدادهم وعدتهم خلال صراعه معهم خصوصا بعد معركة إيسلي[623]الثانية ومعركة خرزوزة سنتي 670 و 680هـ/1272 و 1281م على التّوالي، واللّتين تعرض فيهما الجانب الزياني -كما أسلفت- لخسائر جسيمة سواءً على الصعيد الديمغرافي أو على الصعيدين العمراني والاقتصادي. "ولذلك أوصى يغمراسن ابنه وولي عهده عثمان قبل وفاته وألَحَّ عليه بعدم التّعرض لبني مرين أو التّحرش بهم

---

[621] ابن أبي الزرع: علي الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، د م ن، د ت ن، ص 132.

[622] يُنظر: ابن خلدون عبد الرحمن، **المصدر السابق**، ج7، ص ص117-118 و ص ص 123-125.

[623] ناصري مُحَّد، **المرجع السابق**، ص 18.

والعمل على مُسالمتهم وإبرام المعاهدات السّلمية معهم، وإذا اضطر إلى المجابَهة يُستحسن أن يَعتصم خَلف أسوار مدينة تلمسان الحصينة والمقاوَمة من بعيد، لما يتميزون به من كثرة العدد ووفرة المدد وقوة الشكيمة...وأوصاه أيضا بأن لا يتوانى في توسيع نفوذه شرقا نحو بني حفص"[624].

الحَمَلات المرينية على تلمسان في عهد عثمان بن يغمراسن قبل حدوث الحصار:

استهل أبو سعيد عثمان يغمراسن حُكمه بانتهاج سياسة مسالمة بني مرين كما وجهه أبوه يغمراسن وتفرغ بذلك لبناء دولته وتوسيع رقعتها في الجهة الشرقية كما أكد عليه والده. ولذلك خاطب السلطان أبا إسحاق الحفصي (678-683هـ/1278-1284م) وبعث إليه بالبيعة والولاء، فردّ السلطان الحفصي بالقبول، ثم كاتب أيضا يعقوب بن عبد الحق المريني (656-686هـ/1258-1286م) وناشده السِلم، فاستجاب العاهل المريني لذلك. ولهذا ظلّت العلاقة طيبة وهادئة مدة ثلاث أو أربع سنوات بين فاس وتلمسان نتيجة المعاهدة المبرمة بينهما، والتي تقضي بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل منهما[625].

لكن وعلى ما يبدو فإن أبا سعيد عثمان بن يغمراسن لم يأخذ بنصيحة أبيه على محمل الجِدّ، ذلك أنه سرعان ما تسبب مرة أخرى في عودة العلاقة بين الطرفين الزياني والمريني إلى سالِف عهدها، أي إلى علاقة التوتر والمواجهة، وذلك حين آوى إليه بتلمسان أبا عامر الأمير المريني الثائر على أبيه السلطان المريني يوسف إبن يعقوب (685-706هـ/1286-1306م) رفقة وزيره مُحَّد إبن عطو وذلك في بداية سنة 688هـ/1289م ومكثا عند السلطان الزياني عثمان أياماً. ثم عاد الأمير أبو عامر إلى أبيه السلطان يوسف بن يعقوب بعدما عفا عنه، فيما بقي الوزير ابن عطو بتلمسان عند عثمان بن يغمراسن. حيث خاطب السلطان المريني نظيره الزياني بتسليمه إياه هذا الوزير، لكن السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن أبى ذلك لأنه يَعتبِر أنه -أي هذا الوزير- في ذمته وجواره، ولم يكتف -أي السلطان الزياني- بل قام باعتقال

---

[624] عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني، المرجع السابق**، ج1، ص 24. "أوصَى دادًّا يغمراسن لدادًّا عثمان (ودادًّا حرف كناية عن غاية التعظيم بلغتهم) فقال له: يا بُني إن بَني مرين بعد استفحال مُلكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا الوفور مددهم. ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها، فإياك واعتماد لقائهم وعليك باللّياذ بالجدران متى دَلفوا إليك. وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به مُلكك، وتكافئ حشد العدو بحشدك، ولعلّك تُصيِّر بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك. فعَلقت وصيّة الشيخ بقلبه وعقد عليها ضمائره، وجَنَح إلى السِّلم مع بني مرين ليفرغ عزمه لذلك..". ابن خلدون عبد الرحمن، **المصدر السابق**، ج7، ص 123.

[625] عبد العزيز فيلالي، **نفسه**، ج1، ص 26.

الرسول المبعوث من قِبل المرينيين بعدما أغلظ له هذا الرسول في القول، وهو ما أثار حفيظة السلطان المريني الذي عزم على غزو تلمسان في صَفر من سنة 689هـ/1290م[626].

ابتداءً من هذا التاريخ، قام المرينيون بعدة حملات هدفت إلى اقتحام تلمسان وإخضاعها بسبب تجدد العلاقات السياسية المضطربة بين فاس وتلمسان على أثر هذه الحادثة. وسأحاول في الجدول التالي ذكر الحملات المرينية على تلمسان في عهد عثمان بن يغمراسن قبل حدوث الحِصار ابتداءً من أول حملة سنة 689هـ/1290م إلى غاية آخرها سنة 698هـ/1299م والتي انتهت بالحصار المريني على تلمسان (698-706هـ/1299-1306م)، مع ذِكر الخسائر الديمغرافية والعمرانية والاقتصادية الناجمة عن كل حملة على الجانب الزياني وعلى جانب قبائل المغرب الأوسط من بني توجين ومغراوة المتحالفين مع المرينيين، والذين غالبا ما تطالهم الحملات الانتقامية من الأمير الزياني عثمان عَقِب انتهاء كل حملة مرينية نظير تحالفاتهم المستمرة مع المرينيين:

الجدول رقم 14: يمثل عَرض للحملات المرينية على تلمسان في عهد عثمان بن يغمراسن قبل حدوث الحِصار مع ذِكر انعكاسات هذه الحملات على الأصعدة الديمغرافية والعمرانية والاقتصادية:

تاريخ الحملة	نص الحملة: دلالة انعكاساتها السلبية الديمغرافية والعمرانية والاقتصادية على تلمسان والمغرب الأوسط إن وُجدت	المصدر
حملة سنة 689هـ/ 1290م	"...وسار حتى نزل تلمسان فانحجز عثمان وقومه بها ولاذوا منه بجدرانها، فسار في نواحيها ينسف الآثار ويخرب العمران ويحطم الزرع ثم نزل بذراع الصابون بساحتها، ثم انتقل إلى تمامة وحاصرها أربعين يوما، وقطع أشجارها وأباد خضراءها، ولما امتنعت عليه انكفأ راجعاً إلى المغرب..."	ابن خلدون، العبر، ج7، ص 284.
	"وفي الثامن عشر من شوال [من سنة 689هـ] خرج السلطان أبو سعيد (عثمان بن يغمراسن) رحمه الله في أثر مغراوة المتألِّبين مع مَلك	يحي ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 230.

[626] عن ذلك كله، يُنظر: ابن خلدون عبد الرحمن، **المصدر السابق**، ج7، ص ص 281-284.

	المغرب، بلادهم وانقادوا إلى طاعته ...وعاد إلى حضرته (تلمسان)...وفي الخامس والعشرين لشهر ربيع الآخر سنة تسعين [و ستمائة] نهض إلى توجين فقتل مَلِكهم واستأصل أموالهم وعاد إلى حاضرته..."	
حملة سنة 695هـ/ 1296م	"ثم خرج [السلطان يوسف بن يعقوب المريني] سنة خمس وتسعين وستمائة غازيا إلى تلمسان...وانتهى إلى ندرومة ونازلها أربعين يوماً ورماها بالمنجنيق وضيق عليها وامتنعت عليه فأفرج عنها ثاني الفطر..."	ابن خلدون، العبر، ج7، ص 290.
	"...وفي سنة ست وتسعين (قبل الحملة المرينية الموالية في سنة 696هـ/1297م) غزا السلطان أبو سعيد [عثمان الزياني] العرب، فنَزَلَ أثرهم ماء تغالين وجبل حنش من الصحراء فركبوا اليَبَاب بين يديه، فدخل إلى دار مُلكه"	يحي ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 231.
حملة سنة 696هـ/ 1297م.	"...ثم أغزى (السلطان المريني) تلمسان سنة ست وتسعين وستمائة وبَرَز لمدافعته عثمان بن يغمراسن، فهزمه وحجزه بتلمسان ونزل بساحتها وقتل خلقاً من أهلها ونازلها أياماً، ثم أقلع عنها وقفل إلى المغرب..."	ابن خلدون، العبر، ج7، ص ص 290 – 291.
حملة سنة 697هـ/ 1298م	"...ثم نهض [السلطان المريني في] جمادى غازياً تلمسان...ونزل بساحتها وأحاطت عساكره إحاطة الهالة بها ونصَّب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار، ازدلف إليه الصناع والمهندسون بعملها وكانت توقر على أحد عشر بغلاً، ثم لما امتنعت عليه تلمسان، أَفرج عنها في فاتح سنة ثمان وتسعين	ابن خلدون، العبر، ج7، ص 291.

	وستمائة..."	
	"...فنهض السلطان (الزياني)...ثاني عشر ربيع الأول من السنة (698هـ/1299م)، وشرَّق إلى توجين لِموْجَدة عليهم بتألُّبِهم مع مَلك المغرب، وأطال المغيب في تدويخ بلادهم، فخلع زكريا بن يخلفتن المضْغري قائده بندرومة طاعته وبايع المريني، فاضطرمت أرجاء حضرته ناراً لذلك. وطمع السلطان أبو يعقوب (المريني) في انتهاز الفرصة فيها فنهض يطوي المراحل إليها، وطار خبره إلى السلطان أبي سعيد، فرجع يصل التأويب بالإسْآد إلى حضرة ملكه (تلمسان) بعد استئصاله قَبيل توجين"	يحي ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 231.
حملة سنة 698هـ/ 1299م	"...نهض (السلطان المريني يوسف بن عبد الحق) من فاس شهر رجب من سنة ثمان وتسعين وستمائة بعد أن استكمل حشده...واحتلَّ بساحة تلمسان ثاني شعبان وأناخ عليها وضرب مُعسكره بفِنائها، وحجز عثمان بن يغمراسن وحاميتها من قومه وأدار الأسوار سياجاً على عمرانها كلّه، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى، ورتّب المسالح على أبوابها وفُرَجِهَا..."	ابن خلدون، العبر، ج7، ص ص 291 – 292.
	"وكان نزوله (أي السلطان المريني) عليها (أي على تلمسان) في يوم الثلاثاء وقت الضحى ثاني يوم من شعبان المذكور، فملك ندرومة وهنين ووهران وتاونت ومزغران ومستغانم وتنس وشرشال وبرشك والبطحاء ومازونة	ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب، ص 386. لمزيد من التفاصيل: يُنظر أيضا رواية عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج7، ص 292

	وونشريس ومليانة والقصبات والمدية وتازجدت وجميع بلاد بني عبد الوادي وبلاد توجين وبلاد مغراوة وبايعه صاحب الجزائر"	

كما تبين، فقد شَنَّ السلطان المريني يوسف إبن يعقوب خمس حملات عسكرية في ظرف تِسع (9) سنوات فقط "أي بمعدَّل غزوة في كل سنتين تقريباً"[627]، وهو ما يعني مزيداً من الخسائر الديمغرافية في كل حملة، ناهيك عن الخسائر الفادحة الأخرى على المُستويَيْن العمراني والاقتصادي (الزراعي) كما ثبث في الجدول أعلاه. هذا بالرغم من أن المصادر التي اعتمدتُ عليها لم تُفصح عن معطيات إحصائية رقمية واضحة عن حجم هذه الخسائر، إلا أن الأوصاف الانطباعية المُقدَّمة من هذه المصادر بالرغم مما تحمله من مبالغة وتهويل، إلا أنها تُعطي انطباعاً عاماً عن مدى فداحة تأثير المواجهات والصراعات الناجمة عن هذه الحملات على المستوى الديمغرافي أو على المستويات الأخرى (العُمرانية، الزراعية...) سواءً على المجالات القريبة من تلمسان من طرف بني مرين وأحلافهم من مغراوة وتُوجين وعلى المجالات الأخرى من المغرب الأوسط، على غرار مجالات القبائل المعارِضة للسلطة الزيانية، خاصة قبيلتا مغراوة وبني توجين المتحالفتيْن مع بني مرين كما سبق وأن أسلفتُ، إذ ما فتئت هاتان القبيلتان تتعرضان لحملات تخريبية انتقامية من طرف الزيانيين نتيجة تعاونهم مع المرينيين.

تُعتبر مرحلة تأسيس وتوطيد وبناء أركان الدولة الزيانية مرحلة تجسدت فيها حقيقة قضية عودة المغرب الأوسط إلى حالة التراجع الديمغرافي، خاصة في جهتيه الغربية والوسطى، وذلك بسبب كثرة الفتن والحروب التي خاضها الطرف الزياني في سبيل الحفاظ على كيانه واستمرار وجوده، لا سيما مع الطرف المريني الذي خاض معه حروباً ومواجهات عنيفة عديدة في فترة حكم يغمراسن مؤسس الدولة، ثم في فترة ابنه عثمان الذي تَعرّض هو الآخر لحملات مرينية عِدّة هدّدته في عُقر داره وحاصرت مدينته تلمسان في غير ما مرة ابتداءً مِن سنة 689 إلى 698هـ/1290-1299م.

لكن هذا التراجع الديمغرافي الذي شهده المغرب الأوسط ستشتدُّ وطأته بشكل أكبر أثناء الحصار المريني الذي استمر لمدة ثمان (8) سنوات ابتداءً من آخر حملة ليوسف بن عبد الحق على تلمسان سنة 698هـ/1299م إلى غاية اغتياله سنة 706هـ/1307م. حيث تعرضت العاصمة الزيانية تلمسان أثناء هذا الحصار لكارثة ديمغرافية حقيقية جعلتها تفقد معظم سكانها نتيجة المجاعة التي طالت المدينة بسبب شدة الحصار ومتانته وطول مدته.

[627] عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، **المرجع السابق**، ج1، ص 27.

المطلب الثالث: الحصار المريني لتلمسان (698-706هـ/1299-1307): قراءة وصفية تحليلية لانعكاساته الديمغرافية الكبيرة:

كما سبق وأن بيّنتُ أعلاه، أفضت الحملة المرينية الأخيرة على تلمسان سنة 698هـ/1299م إلى دخول العاصمة الزيانية في دوّامة الحصار المفروض عليها من طرف يوسف بن يعقوب المريني الذي دام ثمان (8) سنوات، دفعت فيه تلمسان ضريبة ديمغرافية هائلة نتيجة المجاعة التي شهدتها هذه المدينة بسبب الحصار السياسي والعسكري والاقتصادي المفروض عليها، وذلك عن طريق تطويقها عسكريا وسياسيا ثم تشييد مدينة أخرى بالقرب منها تحاول أن تساويها في المكانة السياسية والاقتصادية قصد إضعافها ومن ثم السيطرة عليها[628].

بعيداً عن الخوض في حيثيات وتفاصيل هذا الحصار، فإن ما يهم هنا في إطار هذه الدراسة هو الانعكاسات الديمغرافية لهذا الحصار على الدولة الزيانية بشكل عام وعلى عاصمتها تلمسان بشكل خاص، والحديث عن هذا الحصار الشهير يقود مباشرةً إلى الحديث عن المجاعة المهوِّلة التي تعرض لها ساكنة تلمسان بسبب هذا الحصار الطويل، حيث قَضَت هذه المجاعة على مُعظم سكان العاصمة الزيانية التي كانت تعتبر من كُبريات مدن بلاد المغرب في هذه الفترة.

أولاً: المجاعة بمدينة تلمسان كانعكاس مباشر للحصار

تُحدِّث المصادر عن تعرض ساكنة تلمسان لمجاعة رهيبة بلغت فيها أسعار المواد الاستهلاكية الرئيسية أسعاراً خيالية ناهيك عن اضطرار سكان المدينة إلى تناول أطعمة ومأكولات غير عادية دعتهم الحاجة الاقتيات منها، وذلك بسبب الحصار الشديد والطويل الذي طال المدينة والذي دام "ثمانية سنين وثلاثة أشهر...نالَهم فيها من الجُهد ما لم ينله أُمَّة من

[628] ذَكَر عبد الرحمن ابن خلدون أن يعقوب يوسف بن يعقوب المريني فرض حصاراً سياسيا عسكريا واقتصاديا محكما على مدينة تلمسان عقب حملته الأخيرة عليها سنة 698هـ/1299م. فبِخُصوص الحصار السياسي العسكري يذكر ما يلي: "...وأحاط العسكر بها من جميع جهاتها (أي تلمسان) وضرب يوسف بن يعقوب على ذلك سنين يغاديها القتال ويراوحها، وسرّح عسكره لافتتاح المغرب الأوسط وثغوره...". أما عن حصارها اقتصاديا فيذكر ما يلي: "...وهو (أي يوسف بن يعقوب) في خلال ذلك مستجمع للمطاولة بالحصار والتضييق، متجافٍ عن القتال إلا في بعض الأيام ولم تبلغ أربعة أو خمسة، ينزل شديد العقاب والسطوة بمن يميرها ويأخذ بالمرصاد على من يتسلل بالأقوات إليها، قد جعل سرداق الأسوار المحيطة ملاكاً لأمره في ذلك فلا يخلص إليهم الطرف ولا يكاد يصل إليهم العبد مدة مقامه عليها...واختط بمكان فسطاط المعسكر قصرا لسكناه واتخذ به مسجداً لمُصلاه وأدار عليها السور وأمر الناس بالبناء فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة واتخذوا البساتين وأجروا المياه. ثم أمر بإدارة السور سياجاً على ذلك سنة اثنين وسبعمائة وصيرها مَصراً، فكانت من أعظم الأمصار والمدن وأحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق أسواق واحتفال بناء وتشييد منعة وأمر باتخاذ الحمامات والمارستان وابتنى مسجداً جامعاً...وسماها المنصورة، واستبحر عمرانها ونفقت أسواقها ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق فكانت إحدى مدائن المغرب...". يُنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج7، ص 127 و ص ص 292- 293 (على التَّوالي).

الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران حتى أنهم زعموا أنهم أكلوا أشلاء الموتى من الناس وخربوا السقف للوقود وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد وعجز وجدهم عنه. فكان ثمن مكيال القمح الذي يُسمونه البرشالة ويتبايعون به مقداره إثنا عشر رطلاً ونصف مثقاليْن ونصفاً من الذهب العيّن، وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالاً ومن الضان سبعة مثاقيل ونصفاً، وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سِكَّتهم، تكون عشر المثقال والحمير بثمن المثقال والرطل من الجلد البقري ميتتة أو مذكى بثلاثين درهماً، والهرّ الداجن بمثقال ونصف، والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والحية بمثله والدجاجة بثلاثين درهماً والبيض واحدة بستة دراهم والعصافير كذلك، والأوقية من الزيت بإثني عشر درهماً ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين ومن الفول بمثلها ومن الملح بعشرة ومن الحطب كذلك، والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال، ومن الخس بعشرين درهماً، والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهماً، والخيار بثلاثة أثمان الدينار والبطيخ بثلاثين درهماً، والحبة من التين والإجاص بدرهمين واستهلك الناس أموالهم وموجودهم وضاقت أحوالهم"[629].

ثانياً: الحصيلة الديمغرافية للحصار:

عانى سكان تلمسان الأمرين أثناء هذه الأزمة الخانقة، "وأَمْر هذا الحصار في إضاقته بأهل البلد وغلاء أسعارهم فيه"[630] أمر كبير ومعروف سبق وأن أشرتُ إليه، وكانت النتيجة إذاً "موتان الناس [إمَّا] بالجوع و[إمَّا] بالأسلحة والمنجنيقات"[631]، وهو ما تسبب في حدوث كارثة ديمغرافية حقيقية تعرّض لها ساكِنة المدينة أثناء هذا الحصار الذي بلغ "ثماني سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام [حيث] بلغ فيها عدد موتى أهل تلمسان قتلاً وجوعاً زهاء **مائة ألف وعشرين ألفاً**"[632] أي بمعدل 40 مُتوفّ تقريباً في اليوم طِوال هذه المدة الطويلة.

وأنا هنا أستبعد تماماً التشكيك في هذا المؤشر والرقم الإحصائي المُقدم من هذا النص المصدري لسببين: السبب الأول هو كون صاحِب هذا الرقم المُقدَّم (يحي ابن خلدون ت 780هـ/1378م) أحد الرجالات المُقربين جداً من البلاط الزياني، ولهذا فإن أمر اطّلاعه على سجلات وأرشيف الدولة في سالِف عهدها أمر متاح وفي غاية اليُسر. السبب الثاني هو مَنطقية هذا الرقم المقدَّم وعدم المبالغة فيه أو تهويله، فمجموع أيام هذه المدة (8 سنوات و 3 أشهر و5 أيام) هو 2975

[629] ابن خلدون عبد الرحمن، **المصدر السابق**، ج7، ص 128.

[630] ابن خلدون يحي، **المصدر السابق**، ج1، ص 231.

[631] **نفسه**، ج1، الصفحة نفسها.

[632] **نفسه**، ج1، ص 234.

يوم تقريباً. وبِتَقسيم 120 ألف الذي هو عدد ضحايا الحصار على عدد أيامه (2975) سيكون الناتج حوالي 40 ضحية في اليوم، وهي نتيجة مقبولة نوعا ما بالنّظر إلى قوة الحصار واستحكامه من جهة أي حصار شامل لكل الجوانب: السياسية والعسكرية والاقتصادية، ومن جهة أخرى بسبب طول مدّة هذا الحصار التي زادت عن الثماني سنوات.

لكن عند القيام بقراءة أخرى لنص مَصدري آخر مُقرّب من البلاط الزياني، يمكِن القول أن العدد الذي فقدته تلمسان أثناء الحصار لم يكن فقط بسبب المجاعة والقتل كما ذكر يحي إبن خلدون صاحب النص الأول، بل أنّ للهجرة الاضطرارية التي قام بها سكان مدينة تلمسان بسبب شدة الحصار دوراً أيضا في هذه النتيجة الديمغرافية، وهو ما يمكن فهمه من هذا النص المصدري الآتي: "...**وفَرَّ أكثر أهلها فلم يبق من الرّعية إلا نحو المائتين وكان فيها من المقاتلة نحو الألف**"[633].

وعلى أيٍّ، فإن كِلا النصين المصدريين (يحي ابن خلدون والتّنسي) يؤكّدان أن المدينة استُفرغت تماماً من سُكّانها وفقدت كامل ديمغرافيتها تقريبا. وكان هذا الفقد إما عن طريق القتل المباشر نتيجة الحصار العسكري المريني، أو عن طريق المجاعة التي ضربت المدينة نتيجة الحصار، أو عن طريق الهجرة الجماعية الاضطرارية التي قام بها سكان المدينة من أجل النجاة بأنفسهم نحو مناطق أخرى بحثاً عن الأمان وهروباً من شبح المجاعة.

وإذا تم تصديق هذا الرقم المصدري (120 ألف قتيل) كنتيجة ديمغرافية لهذا الحصار على ساكنة تلمسان خلال مدة ثمان سنوات وثلاثة أشهر، فإن هذا يحيل إلى استنتاجين مُهمّيْن على صعيد ديمغرافية مدينة تلمسان في هذه الفترة:

الاستنتاج الأول: أن هذا الرقم يدل على أن المدينة قد تعرضت لكارثة ديمغرافية حقيقة قضت تماما على معظم سكانها نتيجة القتل الناتج عن العامل العسكري، أو نتيجة المجاعة، أو نتيجة الفرار (الهجرة الاضطرارية) كما أسلفتُ، وأيضا كما سبق وأن أشرت سابقاً فإن هذا الحصار يُعتبر بمثابة مِثال حي وواضح تتجلى فيه مدى قدرة مختلف الحروب والفتن على الإخلال بالوضع الديمغرافي لمدينة ما أو مجال ما في مُدّة زمنية قياسية.

الاستنتاج الثاني: يَدلُّ هذا الرقم أن عدد سكان تلمسان في هذه الفترة وقبل الحصار كان يبلغ ال **120 ألف** نسمة على وجه التّقريب، وهذا يَدلّ على أهمية مدينة تلمسان في هذه الفترة. إذ وبالرغم من الأجواء السياسية المشحونة التي أحاطت بهذه المدينة، إلا أنها كانت من كُبريات مدن بلاد المغرب في تلك الفترة على المستويات الديمغرافية والعمرانية والاقتصادية.

[633] التنسي، **المصدر السابق**، ص 132.

ومما يُقيم دليلاً على أن مدينة تلمسان كانت ذات مَكانة ديمغرافية وحضارية كبيرة على مستوى بلاد المغرب في هذه الفترة بالرغم من أوضاعها السياسية المتأزمة، أن هذه المدينة سرعان ما استعادت نشاطها الحضاري والديمغرافي بعد فترة قليلة من وقوع هذا الحصار عليها، والذي تسبّب لها في خسارتها الديمغرافية هذه. إذ بَلَغ الحجم السكاني لهذه المدينة في عهد السلطان الزياني أبي تاشفين عبد الرحمن (718-737هـ/ 1318-1337م) أي بعد حوالي عقديْن من الزّمن فقط من انتهاء الحصار، بلَغ **16 ألف كانون**[634] أي ما يُعادل **80 ألف** نسمة باحتساب 5 أفراد لكل كانون أو **160 ألف** نسمة باحتساب 10 أفراد لكل كانون.

---

[634] حسن الوزان، **المصدر السابق**، ج2، ص 17. أُنظر أيضاً الهامش رقم 25 من نفس الصفحة من هذا المصدر.

المبحث الرابع: هل يمكن الحديث عن نسبة –ولو تقديرية– لعدد سكان المغرب الأوسط خلال الفترة مَدار الدرسة (280–706هـ/ 893–1307م)؟

في البداية، لابُدّ من إعادة التنبيه إلى النقطة التي سبق وأن أشرتُ إليها في المطلب الثاني من المبحث الأول من هذا الفصل، حين قلتُ أن مجرد طرح مثل هذا النوع من الأسئلة التي لها علاقة بعدد سكان بلاد المغرب بشكل عام، وبلاد المغرب الأوسط على سبيل المثال خلال الفترة الوسيطة يعتبر –بشكل أو بآخر– نوعاً من أنواع المغامرة المحفوفة بالمخاطر وغير المَضمونة النتائج بسبب ما يشوب هذه الفترة من غموض حول التاريخ الاجتماعي لهذه المنطقة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى بسبب غياب أي معطيات ديمغرافية إحصائية أرشيفية أو مصدرية عَنِيَت بهذا الجانب والتي يمكن الاعتماد عليها في هذا الصّدد، اللّهم إلا بعض ما تناثر هنا وهناك من بعض الإشارات الانطباعية بشكل أكبر والرقمية بشكل أقل بين ثنايا المصادر.

لكن وبالرغم من كل ذلك، حاولتُ القيام بأخذ فكرة عامة عن نِسبة تقديرية لديمغرافية بلاد المغرب خلال الفترتين القديمة ابتداءً من الفترة الرومانية إلى غاية بداية الفترة الوسيطة (ما بين القرنين 1–3هـ/7–9م)، حيث توصلتُ في الأخير بخصوص الفترة الأخيرة (بداية الفترة الوسيطة ما بين القرنين 1–3هـ/7–9م) أن عدد سكان بلاد المغرب بشكل عام كان يمكن أن يكون محصوراً ما بين ال 5 و 8 ملايين نسمة[635].

وبخصوص تحديد عدد ساكِنة المغرب الأوسط خلال مختلف الفترات التاريخية وخلال فترة البحث (280-706هـ/ 893-1307م) هو أمر في غاية الصعوبة بمكان بسبب غِياب المُعطى الإحصائي المَصدري والأرشيفي كما سبق وأن بينتُ سابقاً، إذ أُدرِكُ تماما صعوبة إنجاز هذا الأمر بخصوص بلاد المغرب ككل، فما بالك ببلاد المغرب الأوسط على وجه التحديد، وذلك بسبب الترابط الكبير بين مختلف أقطار وبلدان بلاد المغرب في هذه الفترة وفي غيرها من الفترات، وبسبب غياب المعطى الإحصائي الأرشيفي الكافي والحقيقي الذي يمكن الاعتماد عليه في هذا الصدد.

ورغم كل ذلك، لا يجب فَقْدُ الأمل تماما والتَّغاضى عن القيام بأي دراسة تحاول أن تأخذ انطباعاً عامّاً عن ديمغرافية بلاد المغرب الأوسط وغيره من بلدان بلاد المغرب خلال مختلف الفترات، لا سيما الوسيطة منها. لكن محاولة القيام بهذا الأمر ستُضطّر بي في النهاية إلى انتهاج أسلوب الاجتهادات الفَردية القائِمة بدورها على توظيف أساليب الحَدس والتّخمينات والتّوقّعات في ظِلّ غِياب ونُقص ما يمكن الاعتماد عليه من مادة إحصائية في إطار هذه الدراسة.

[635] عن ذلك كلّهُ، ينظر: المطلب الثاني من المبحث الأول من هذا الفصل الأخير (الفصل الثالث).

لقد سبق وأن خلصنا في إحدى الدّراسات السابقة[636] أن سكان المغرب الأوسط خلال فترة بداية القرن 10هـ/ 16م كان يمكن أن يترواح ما بين **المليونين والمليونين والنصف نسمة (2 و 2,5 مليون نسمة)** على وجه التقريب. وإذا أُخِذ بعين الاعتبار التراجع الحضاري الذي لحق المنطقة خلال فترة القرن 10هـ/ 16م مُقارنة بالازدهار الحضاري الذي شهدته بلاد المغرب بشكل عام وبلاد المغرب الأوسط على سبيل المثال خلال فترة البحث (280-706هـ/893-1307م)، يمكن إضافة مليونٍ آخر على هذه النتيجة المتعلقة بديمغرافية المغرب الأوسط خلال القرن 10هـ/16م، وذلك عند الأخذ بعين الاعتبار الازدهار الحضاري –لا سيما العمراني والديمغرافي منه– الذي شهدته المنطقة مقارنة بالفترات المتأخرة من الفترة الوسيطة وبداية الفترة الحديثة. وبهذا يمكن القول أن ديمغرافية المغرب الأوسط خلال فترة هذا البحث (280-706/ 893-1307م) أي من نهاية القرن 3هـ/9م إلى بداية القرن 8هـ/14م كان يمكن أن تتراوح ما بين **الثلاث والثلاث ملايين ونصف نسمة (ما بين 3 و3,5 مليون نسمة)**.

لكن في المقابل يجب أن أعترف أن هذه الأرقام المُتوصّل إليها هاهنا أو في غيرها من الدراسات من جانِبي لا تعدو أن تكون مجرد أرقام ناتجة عن استنتاجات وتخمينات واجتهادات شخصية مُستنبطة مما اطّلعتُ عليه من مَادّة مَصدرية. لكن وبالرغم من نِسبية هذه الأرقام والنتائج وعدم دِقّتها، إلا أنها تُعطي الدارس فكرة انطباعية عامة عن ديمغرافية بلاد المغرب الأوسط وغيره من بلدان المغرب خلال هذه الفترة وخلال غيرها من الفترات التاريخية الأخرى. "لهذا نحن هنا لا نُسلِّم تماما بِصِحّة هذه الأرقام والنتائج، وفي نفس الوقت لا ننكرها أو نتجاوزها [وذلك] باعتبار أنها تساعدنا على أخذ انطباع –ولو أوَّلي– عن الوضع الديمغرافي للمغرب الأوسط في هذه الفترة بشكل عام وعن نسبة سكان[ه] ... بشكل خاص"[637].

---

[636] ابراهيم لحسن و عمار غرايسة، **جوانب من ديمغرافية المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) خلال فترة نهاية العصور الوسطى وبداية الفترة الحديثة من خلال كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان الفاسي المعروف ب:ليون الإفريقي (ت بعد 957هـ/ 1550م)**، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج35، ع1، قسنطينة-الجزائر، جوان 2021م، ص ص 1338-1405.

[637] **نفسه**، ص 1397 (الملاحظة الموجودة في هامش هذه الصفحة برمز*).

الـخـــــــاتــمة

أَخلُص في آخر هذه الدراسة المتواضعة إلى ما يلي:

أولاً: مَدى أهمية التأريخ لمختلف الأزمات التي واجهَت إنسان ومجتمع ودول بلاد المغرب الأوسط وغيره من بلدان بلاد المغرب خلال العصر الوسيط. ودِراسة هذه الأزمات والتأريخ لها ليس بِغرَض التَّسلية وتمضية الوقت كما قد يتصور البعض، وليس من أجل محاولة إعادة بعث أي نوعٍ من هذه الأزمات – لا سيما البشرية منها – أو إنتاجها في الوقت الرّاهن، بل تكون دراستها بغرض الاعتبار بها والاستفادة منها ومن تَجارب الأجداد والأسلاف في طُرق تعاطيهم معها ومواجهتِهِم لها قَصد تجنُّب وقوع أزمات مماثلة لبلادنا في وقتنا المُعاصر.

ثانياً: لقد كانت ظاهرتا الفتن والاضطرابات السياسية أبرز الأزمات والكوارث البشرية التي هددت إنسان ومجتمع ودُول المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، بل قلتُ أنها تفوق في كثير من الأحيان ما يمكن أن تُخلّفه مختلف الأزمات والكوارث الطبيعية من أضرار على مستوى كل الأصعدة لا سِيما على الصعيدَيْن الديمغرافي (السّكاني) والاقتصادي، وهو ما أدَّى بي إلى تسميتها ب: **أُمّ الأزمات** التي هدَّدت إنسان المغرب الأوسط وغيره من المجالات الأخرى من بلاد المغرب خلال العصر الوسيط.

وفي الحقيقة، فإنّ المتأمل في هذه الفتن والاضطرابات السياسية، يستنبط من خلال دراستها خطورة هذه الفتن ونتائجها الكارثية على البلاد والعِباد على مستوى جميع الأصعدة. ولهذا كَعِبرة أو توصية من قِبلي من خلال هذه الدراسة المتواضعة أدعو جميع أفراد بلادنا الجزائر وسائر بلدان المسلمين إلى نبذ كل الأسباب التي قد تؤدي إلى نشوب مختلف الفتن والأزمات والاضطرابات السياسية كالفُرقة والتعصب العِرقي والقَبَلي وغيرها، كما وأدعو في الوقت ذاته إلى بذل كل أسباب الوِحدة والتَّلاحم والتَّضامن والتَّآزر بين الأفراد والمجتمعات، فإذا لم نعتبِر من تاريخنا ولم نستفد منه فما الفائدة من دراسته أصلاً؟

ثالثاً: أهمية الديمغرافيا التاريخية في ميدان الدّرس التاريخي الوسيط، إذ أنّه وبواسِطتها يمكن تسليط الضّوء على العَديد من الجوانب والتّساؤلات والإشكالات التي تخصّ التاريخ السكاني للمغرب الأوسط على غِرار التّطور الديمغرافي وظاهرة الهجرات والتّحركات السكانية إلى غيرها من الظواهر والمَسائل ذات العلاقة بالتاريخ السكاني لبلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط. وذلك كُلّه في سِياق انفتاح عِلم التاريخ على غيره من العلوم الأخرى، خاصة الاجتماعية والإنسانية منها، وذلك لرؤية أكثر دِقّة وأكثر شُمولية لتاريخ مجتمعنا وبالتَّالي واقِعه وحاضِره. إلا أنَّني أظن أن هذا الانفتاح الذي أتحدّث عنه لا بُدَّ أن يكون وِفق ضَوابط مَنهجية صارِمة حتى لا تَفقِد الدراسات التاريخية تاريخِيَتها ومُميّزاتها التي تَفصِلها عن باقي الدراسات المتعلقة بالعلوم الأُخرى.

رابعاً: إن أهم إشكال يُواجه الباحث في ميدان الديمغرافيا التاريخية خلال العصر الوسيط، هو نُقص المعطيات الإحصائية في المصادر التاريخية. وهو ما يُصعّب أكثر وُلوج هذا النوع من الدراسات التاريخية في ظل نُقص أو ربما غياب المؤشر الإحصائي الذي يمكن الاعتماد عليه في مِثل هذا النّوع من الدراسات التي تعتمد على عُنصر الإحصاء بشكل أساسي. وهو ما يجعل النتائج المتحصل عليها في ظِلّ وجود هذه الإشكالية (نُقص المعطيات الإحصائية) مُجرّد دراسات تساعد على أخذ انطباعات أَوّلية عن الوضع السكاني والمجتمَعي للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط.

ولهذا، ومن أجل محاولة حلحلة هذه المسألة، وكتوصية منّي من خلال هذه الدراسة، فإنني أدعو الجِهات الوصيّة بقطاع التعليم العالي وكل الفاعِلين فيه إلى الاهتمام بأرشيف الذاكرة الوطنية الذي يعود لمختلف الفترات التاريخية لاسيما الوسيطة منها. وكذا محاولة استرجاع ما يمكن استرجاعه من هذا الأرشيف من مختلف البلدان الأجنبية وذلك كُلّه في إطار العلاقات السِّلمية الدبلوماسية والتعاون الثقافي والمعرفي والأكاديمي البحثي بين بَلدِنا الجزائر وبين البلدان الأُخرى.

مع دعوة نفسي ونُظرائي من زملائي الباحثين إلى الإقبال على تَعلُّم مختلف اللّغات الأجنبية الحيّة منها والميّتة، وذلك بالنَّظر إلى القِيمة الكبيرة التي يمكن أن يُضيفها تَعلُّم لغة ثانية للباحث من جودة وتميز لمختلف أبحاثه وطُروحاته العِلمية والأكاديمية. ودَعوتي هذه إلى تَعلُّم اللّغات الأجنبية ليس حُباً في أهلها وليس لتفضيلها على حِساب اللغة العربية، بل لأجل الحاجة إليها في عِلم التاريخ ومختلف العلوم والمَعارف الأُخرى. ضِف إلى ذلك أهمية هذا الأمر بالنسبة للبحث والباحث، خاصة عند دراسة هذا الأخير لمختلف العلوم ذات الأصل الأجنبي (الغربي) كالديمغرافيا والديمغرافيا التاريخية وتطبيقها على الأبحاث والدراسات التاريخية الوسيطية. إذ يُمَكِّنه ذلك من الاطّلاع الواسع والشّامل أولاً على الدراسات المكتوبة باللغة الأجنبية، أي بِلُغة ذلك العِلم الأصلية ثم مقارنتها مع ما هو مُترجم إلى اللغة العربية أو مُدوَّن بها، ومن ثَمَّ الحُصول على مُخرجات أكثر عُمقاً وأكثر دِقّة وأسلَمَ مَعرفياً ومَنهجياً.

خامساً: لقد كان العامِل الدّيني المُتمثّل في الصراعات المذهبية إضافة إلى العامل الاجتماعي المتمثل في الصراعات القَبَلية والعامل الاقتصادي المتمثل في الصراع على الأراضي الزراعية والرعوية والصراع حول الطرق والمراكز التجارية وظاهرة الشَّطط الجِبائي والضّريبي، كانت كلّها أبرز العوامل التي أدَّت إلى اشتداد وَطأة ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية وانتشارها على نِطاق واسع من المغرب الأوسط خلال مُعظم فترات الدراسة.

أين تجسّد هذا الانتشار الكبير للفتن والاضطرابات السياسية في عِدّة مَظاهر تمثلت أساسا في: كثرة وتَعدّد الصِّدامات العسكرية المباشرة بين الدول والقبائل، والحِصارات العسكرية للأمصار والمدن، وكثرة الثورات والانتفاضات وظاهرة تسارع

قِيام الدول وسُقوطها. كلّ ذلك أثَّر سلباً على الجانب الديمغرافي للمغرب الأوسط، تارة يكون هذا التأثير مباشراً ككثرة القتلى وتراجع ديمغرافية المناطق والمدن والأمصار وفراغها من السكان، إضافة إلى ظاهرتي الأسر والاسترقاق، وتارة أخرى يكون هذا التأثير غير مباشر كانتشار ظاهرتي الهجرة والخراب العمراني، ضِف إلى ذلك تراجع الوضع الاقتصادي وانتشار المجاعات والأوبئة، هذا دون نسيان ما يمكن أن تُخَلّفه الحروب من تَرسُّبات ذِهنية ونَفسية على المِخيال الشّعبي والذّاكرة الجماعية لمجتمع المغرب الأوسط المُعرَّض للظاهرة الحربية

سادساً: يمكن القول أنه ومن خِلال الدراسة التّحليلية التي قُمت بها في الفصل الثالث حول التّطور الديمغرافي للمغرب الأوسط في ظِل ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية خلال فترة الدراسة أنّه سَار وِفق المَسار التّالي: الازدهار والانتعاش خلال القرن 3هـ/ 9م وبالضبط من بداية هذا القرن إلى غاية بداية فترة هذا البحث سنة 280هـ/893م، ويَرجِع سبب هذا الازدهار إلى جَوّ الأمن الذي ساد بلاد المغرب نتيجة تعايش مختلف الدول المستقلة وقِلّة المواجهات العسكرية المباشرة فيما بينها. ومع بِداية ضُعف البيت الرّستمي ابتداءً من سنة 281هـ/894م وَوُقوع معركة مانو 283هـ/896م، وبداية المشروع الإسماعيلي الفاطمي بَدءً من سنة 280هـ/893م، كُلّ ذلك كان إيذاناً بدخول مَسار التطور الديمغرافي للمغرب الأوسط إلى طور التراجع النسبي الذي استمر –أي التراجع– طِوال الفترتين الفاطمية والزيرية اللّتين تَميزتا بكثرة الحملات والحروب ضِمن أوساط بلاد المغرب وبلاد المغرب الأوسط على وجه الخصوص. ثم مع بداية المشروع السياسي الحمادي بتأسيس القلعة سنة 398هـ/1008م، حَدَّ ذلك –نِسبياً– من وتيرة التوترات والقلاقل السياسية بين مختلف القِوى، ليدخل من خلال ذلك المغرب الأوسط لحالة من التذبذب الديمغرافي الذي تمازج بين أوقات التراجع أحيانا والاستقرار والازدهار أحياناً أُخرى طِوال الحِقبتين الحمّادية والمُوحدية وإلى غاية بداية ثورة بني غانية سنة 580هـ/1184م. وحالة التذبذب الديمغرافي التي أتحدّث عنها كانت بسبب تَضَمُّن واشتمال هذه الفترة على كلٍّ من حالات الاستقرار السياسي الطويلة –نوعاً ما– مع حالات الصدمات العسكرية التي انخفضت وتيرتها وحجمها ونتائجها الديمغرافية السّلبية الكبيرة مُقارنةً بالفترة السابقة خلال العهدين الفاطمي والزّيري. ثُمّ لِيعود المغرب الأوسط إلى حالة التراجع الديمغرافي في المرحلة الثالثة والأخيرة (580-706هـ/1184-1307م) التي بدأت مع بداية ثورة بني غانية سنة 580هـ/1184م، وتجسّدت أكثر في مشروع تأسيس وتوطيد أركان الدولة الزيانية ما بين سنتي: 627 و 698هـ/ 1230-1299م، وتجسَّد أكثر وأكثَر خِلال الحِصار المريني الطويل على تلمسان (698-706هـ/1299-1307م) الذي كلَّف هذه المدينة ضَريبة ديمغرافية هائلة.

أي أنَّه وباختصار، فإنّ مَسار التطور الديمغرافي للمغرب الأوسط في ظِلّ الفتن والاضطرابات السياسية خلال فترة الدّراسة سار على الخطّ الآتي: الازدهار من بداية القرن 3هـ/9م إلى غاية بداية هذا البحث سنة 280هـ/893م⇦ التّراجع النّسبي خلال الفترتين الفاطمية والزيرية ما بين سنتي 280هـ/893م و 398هـ/1008م ⇦ التذبذب الديمغرافي مابين التراجع أحياناً والاستقرار والازدهار أحياناً أخرى وذلك خِلال الحِقبة الحمّادية وبداية الحِقبة الموحدية إلى غاية بداية ثورة بني غانية أي ما بين سنتي 1008/398م و 580هـ/1184م ⇦ العودة مرّة أخرى لحالة التراجع الديمغرافي في المرحلة الأخيرة، من بداية ثورة بني غانية مُروراً بفترة تأسيس الدولة الزيانية وتوطيد أركانها وُصولاً للحصار الطّويل على مدينة تلمسان، أي خِلال الفترة الممتدة ما بين سنتي 580هـ/1184م و 706هـ/1307م.

تبقَى هذه النتيجة المُتوصَّل إليها من قِبلي مع نظيراتيها من النتائج الإحصائية التي قُمت بها، تبقى مجرّد اجتهادات شخصية خلُصت إليها من خِلال استقراء النّصوص التاريخية وتحليل الأحداث التّاريخية للمغرب الأوسط خلال فترة الدراسة. ولهذا فأنا هنا لا أُسلِّم بصحّتِها وفي نفس الوقت لا أَنفيها أو أَتجاوزها، بل أعتبرها نتائج تقريبية ونِسبية تُؤدّي إلى أخذ انطباع عام وأَوَّلِي عن الوضعية الديمغرافية والسكانية لبلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ومَعرفة مَسار تطور الوضع الديمغرافي وواقِعِه في ظِلّ الظاهرة الحربية أو في ظِلّ ظاهرة الفتن والاضطرابات السياسية. في انتظار إثراء موضوع هذه الدّراسة ونَقد نتائجها نقداً بنَّاءً من طرف الدّارسين والباحثين المهتمّين بهذا المجال من البحث التاريخي الوسيط لبلادنا.

ما أَودُّ قولَه في الأخير هو اعترافي بتواضع هذه الدِّراسة وبِمَحدودية مُستوايَ العِلمي وبِقِلَّة زادي المعرفي، ولهذا أدعو جميع الأساتذة والباحثين المتخصِّصين إلى تصويب أخطائها واستكمال نَقائصها وسَدِّ ثَغراتها.

والله سبحانه وتَعالى وحدَه أعلا وأعلم. سبحانك اللَّهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفركَ وأتوب إليك. ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، وصلَّى الله وسلّم على عبده ورسوله نبيّنا مُحَّد صلّى الله عليه وسَلّم وعلى آله وصحبه وسَلَّم تسليماً كثيراً، والحمد لله ربّ العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم بروايتي ورش وحفص.

أولاً: المصادر:

1- ابن أبي الربيع: شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد (ت 272هـ/885م)، **سلوك المالك في تدبير الممالك**، تح: عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز آل سعود، دار العاذرية للنشر والتوزيع، الرياض، 1431هـ/2010م.

2- ابن أبي دينار: أبي عبد الله الشيخ مُحَمَّد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت 1101هـ/1690م)، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ/1690م.

3- ابن أبي الزرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.

4- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الملقب بعز الدين (ت 630هـ/1233م)، **الكامل في التاريخ**، راجعه وصححه: مُحَمَّد يوسف الدقاق، مج 8، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 1407هـ/ 1987م.

5- ابن الأحمر: إسماعيل بن يوسف الخزرجي الأنصاري النصري أبو الوليد (ت 807هـ/1404م)، **تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان**، تقديم وتحقيق وتعليق: هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد–الظاهر، 1421هـ/ 2001م.

6- الإدريسي: أبو عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (ت 560هـ/1165م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/ 2002م.

7- ابن الأزرق: أبو عبد الله (ت896هـ/1491م)، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تح وتع: علي سامي النشار، ج2، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية،1978م.

8- الأزهري: أبو منصور مُحَمَّد بن أحمد (ت 370هـ/981م)، **تهذيب اللغة**، تحق: أحمد عبد العليم البردوني – مراجعة: علي مُحَمَّد البجاوي، ج13، الدار المصرية للتأليف والترجمة – مطابع سجل العرب، القاهرة، د.س.ن.

9- البكري: أبو عبيد (ت487هـ/1095م)، **المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ت ن.

10- البيذق: أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت 559هـ/1164م)، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م.

11- التنبكتي: أحمد بابا (ت 1036هـ/1627م)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكتاب، طرابلس، ط2، 2000م.

12- الحضرمي: أبو بكر محمد بن الحسن المرادي (ت 489هـ/1096م)، **كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة**، تح: محمد حسن محمد حسن اسماعيل – أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1424هـ/ 2003م.

13- ابن حماد: أبو عبد الله محمد بن علي (ت 628هـ/1231م)، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تح ودر : التهامي نقرة – عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، د ت ن.

14- الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/1229م)، **معجم البلدان**، مج1 و مج3، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م.

15- ـــــــ: **معجم الأدباء إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب**، تحقيق: إحسان عباس، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت –لبنان–، 1993.

16- الحميري: نشوان ابن سعيد (ت 573هـ/ 1178م)، **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**، تح: حسين بن عبد الله العمري وآخرون، ج1، دار الفكر بدمشق، دمشق ـ سورية، 1420هـ ـ 1999م.

17- الحميري: محمد بن عبد المنعم (ت 900هـ/1495م)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م.

18- ابن الخطيب: لسان الدين الوزير أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي (ت776هـ/1374م)، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام**، تح: سيد كسروي حسن، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1424هـ/ 2002م.

19- ابن خلدون: عبد الرحمن (ت 808هـ/ 1406م)، **تاريخ ابن خلدون المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع

الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، ج1و ج4 و ج6 و ج7، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، 1421هـ/ 2001م.

20- ابن خلدون: يحي أبو زكريا (ت 780هـ/1379م)، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تح:عبد الحميد حاجيات، ج1 و ج2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

21- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحد بن أبي بكر (ت 681هـ/ 1282م)، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تح: إحسان عباس، مج2، دار صادر، بيروت، د ت ن.

22- الداعي: إدريس عماد الدين (ت872هـ/1488م)، **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار**، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان ، 1985م.

23- الدرجيني: أبو العباس أحمد بن سعيد (ت 670هـ/ 1272م)، **طبقات المشائخ بالمغرب**، تح وطبع: ابراهيم طلاي، ج2، مطبعة البعث، قسنطينة –الجزائر–، د س ن.

24- الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (748هـ/1347م)، **سير أعلام النبلاء**، تح: محمد نعم العرقوسي و مأمون صاغرجي، ج3، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت ، 1402هـ/1982م.

25- الرّازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666هـ/1268م)، **مختار الصحاح**، مكتبة لبنان، بيروت 1986.

الزركشي: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت بعد سنة 932هـ/1526م)، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تح وتعل: محمد ماضود، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، د ت ن.

26- أبو زكريا: يحي بن أبي بكر(ت 471هـ/ 1079م)، **سِير الأئمة وأخبارهم**، تح وتع: اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1399هـ – 1979م.

27- الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد (ت 538هـ/1144م)، **أساس البلاغة**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان–، 1419هـ/1998م.

28- ابن صاحب الصلاة: عبد الملك (ت بعد سنة 594هـ/1198م)، **المن بالإمامة**، تح: عبد الهادي التازي،ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، 1987م.

29- ابن صعد: مُحَمَّد الأنصاري التلمساني (ت 901هـ/1496م)، **روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**، مراجعة وتحقيق: يحي بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2009.

30- ابن الصغير (ق3هـ/ ق9م)، **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق وتعليق: مُحَمَّد ناصر وابراهيم بحاز، د د ن، د م ن.

31- الطرطوشي: أبو بكر مُحَمَّد ابن الوليد الفهري (ت 520هـ/1126م)، **سراج الملوك**، تح: مُحَمَّد فتحي أبو بكر، تق: شوقي ضيف، مج الأول، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1414هـ/ 1994م.

32- ابن عِذارِي: أبو العباس أحمد بن مُحَمَّد (ت بعد 712هـ/1312م)، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، حققه - وضبط نصه - وعَلّق عليه: بشار عواد معروف – محمود بشار عواد، مج1 و مج3، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1434هـ/2013م.

33- ــــــــــــ، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – قسم الموحدين –** ، تح: مُحَمَّد ابراهيم الكتاني – مُحَمَّد بن تاويت – مُحَمَّد زنيبر – عبد القادر زمامة – ، ذار الغرب الإسلامي، بيروت،/ دار الثقافة، الدار البيضاء، 1406هـ/ 1985م.

34- العُمري: ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحي (ت749هـ/1348م)، **مسالك الأبصار في ممالك الأبصار**، تح: كامل سلمان الجبوري، ج4، دار الكنب العلمية، بيروت، 2010م.

35- الفراهيدي: الخليل بن أحمد (ت 170هـ/786م)، **كتاب العين**، ترت و تح: عبد الحميد هنداوي، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 1424هـ ـ 2003م.

36- الفيومي المقري: أحمد بن مُحَمَّد بن علي (ت770هـ/1369م)، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**، تح: عبد العظيم الشناوي، ط2، دار المعارف، القاهرة، د.س.ن.

37- القاضي النعمان (ت 363هـ/974م)، **افتتاح الدعوة**، تح: فرحات الدشراوي، ط2، الشركة الوطنية للتوزيع، تونس و ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م.

38- القريشي: إدريس عماد الدين (ت 872هـ/1488م) ، **عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار**، تح: مصطفى غالب، ج5، دار الأندلس، بيروت، د ت ن.

39- القيرواني: الرقيق (ت 425هـ/1034م)، **تاريخ إفريقية والمغرب**، تق وتح وتع: مُحَّد زينهم مُحَّد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1414هـ – 1994م.

40- ابن القوطية (ت 367هـ/ 977م)، **تاريخ افتتاح الأندلس**، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1410هـ/ 1989م.

41- المالكي: أبو بكر عبد الله بن مُحَّد (ت بعد 453هـ/1061م)، **رياض النفوس**، تح: بشير البكوش و مر: مُحَّد العروسي المطوي، ج1،ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1414هـ/1994م.

42- مجهول (ق 6هـ/12م)، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتع: سعد زغلول عبد الحميد، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد –العراق–، د.س.ن.

43- ــــــــ: **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذِكر أُمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم**، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1410هـ/ 1989م.

44- المراكشي: أبو مُحَّد عبد الواحد بن علي، **المُعجب في تلخيص أخبار المغرب**، شرحه واعتنى به: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1426هـ/2006م.

45- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/1441م)، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، مُحَّد حلمي مُحَّد أحمد، ج1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية –لجنة إحياء التثراث الإسلامي–، القاهرة، 1416هـ/1996م.

46- ــــــــ: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار –المعروف ب: الخِطط المقريزية–**، تحقيق: مُحَّد زينهم و مديحة الشرقاوي، ج2، مكتبة مدبولي، د م ن، 1998.

47- ــــــــ: تقي الدين أحمد (ت سنة 845هـ/1441م)، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ج1، مطابع الأهرام التجارية، قليوب (مصر)، د س ن.

48- الناصري: مُحَّد بن منكلي (ت بعد 778هـ/ 1376م)، **الحِيَل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب**، در و تح: نبيل مُحَّد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000م.

49- النميري: ابن الحاج (ت 768 هـ/1367م) ، **فيض العباب وإفاضة قدّاح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد: محمّد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، 1990م.

50- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ/1333م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تح: عبد المجيد ترحيني، ج24، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، د ت ن.

51- الوزان: حسن (ت بعد 557هـ/1550م)، **وصف إفريقيا**، تر: محمّد حجي ومحمّد الأخضر، ج1 و ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت . لبنان . ، ط2، 1983.

52- اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 284هـ/897م)، **البلدان**، وضع حواشيه: محمّد أمين ضنّاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، د س ن.

ثانيا: المراجع العربية:

1- اجميلي: حميد، **المسألة الديمغرافية بالمغرب الأقصى – مؤشرات إحصائية حول الإقتصاد والتمدين خلال العصر الوسيط ق 6 – 8هـ/ 12 – 14م –** ، تقديم: محمّد الغرايب، منشورات الزمن، مطلعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، أكتوبر 2018.

2- بن أحمد حوالة: يوسف، **ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للجناح الغربي من الدولة الإسلامية**، مجلة رسائل جغرافية، ع 142، جامعة الكويت - الجمعية الجغرافية الكويتية، رمضان 1412هـ/مارس 1992م.

3- إسماعيل عبد الرازق: محمود، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري**، ط2، دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب، 1406هـ/1985م.

4- الباروني: سليمان باشا، **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، مر: محمّد علي الصليبي، دار الحكمة، لندن، 2005.

5- بلهواري: فاطمة، **الفاطميون وحركات المعارضة في بلاد المغرب الإسلامي**، دار المسك للطباعة والنشر، د م ن، د س ن.

6- بنمليح: عبد الإله، **الرق في بلاد المغرب والأندلس**، الانتشار العربي، بيروت، 2004م.

7- بهلولي: سليمان، **الدولة السليمانية والإمارات العلوية في المغرب الأوسط 173-342هـ/789-954م**، تقديم: غازي الشمري، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م.

8- بوبيدي: حسين، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي من ق 5 – 10هـ/ 11 – 16م – دراسة في تفاعل المؤثرات السودانية والمغربية**، (رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة -، الجزائر، 1441-1442هـ/ 2020-2021م).

9- بوتشيش: ابراهيم القادري، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د.س.ن.

10-______: **المغرب والأندلس في عصر المرابطين –المجتمع –الدهنيات –الأولياء**، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت –لبنان-، 1993.

11- بوروبة: رشيد، **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية – المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977م/ 1397هـ.

12- بولقطيب: الحسين، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، د ت ن.

13- البوني: أحمد بن قاسم (ت1139هـ/1726م)، **الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة**، تقديم وتحقيق: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة –الجزائر- ، 1428هـ/ 2007م.

14- البياض: عبد الهادي، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6 ـ 8هـ/ 12 ـ 14م)**، دار الطليعة، بيروت ـ لبنان، 2008م.

15- تيتاو: حميد، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني 609- 869هـ/ 1212- 1465م إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية**، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، 2009، منشورات عكاظ 2010.

16- جدلة: ابراهيم، **المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي**، وحدة البحث: الجنوب الغربي، التاريخ والاثار والتراث والمجتمع، جامعة قفصة ـ تونس ـ ،2010.

17- الجنحاني: الحبيب، **المجتمع العربي الإسلامي –الحياة الإقتصادية والإجتماعية–**، عالم المعرفة – مطابع السياسة، الكويت، رجب 1426هـ/سبتمبر 2005م.

18- جودت عبد الكريم يوسف، **الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9–10م)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.س.ن.

19-ــــــــ: **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1984.

20- حافظي علوي: حسن، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1418هـ/1997م.

21- حركات: ابراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، ج1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء –المغرب–، 1420هـ/2000م.

22- حساني: مختار، **تاريخ الدولة الزيانية**، ج2، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م.

23- حمودة: عبد الحميد حسين، **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح الإسلامي وحتى قيام الدولة الفاطمية**، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 1428هـ/ 2007م.

24- حميدة: عبد الرحمن، **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**، دار الفكر، دمشق، إصدار 1416هـ/1995م.

25- الزحيلي: وهب، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي – دراسة مقارنة –**، دار الفكر، دمشق، ط3، 1419هـ/ 1998م.

26- الزّرِكلي: خير الدين، **الأعلام**، ج7، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002.

27- سنوسي: يوسف ابراهيم، **زناتة والخلافة الفاطمية**، مكتبة سعيد رافت، جامعة عين شمس، 1986م.

28- شنيتي: محمّد البشير، **أضواء على تاريخ الجزائر القديم**، دار الحكمة، الجزائر، 2003م.

29- طالبي: محمّد وإبراهيم العبيدي، **البرغواطيون في المغرب**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999.

30- العبادي: أحمد مختار، **في تاريخ المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، د ت ن.

31- عبد الله الدفاع: علي، **رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية**، مكتبة التوبة، د د ن، د م ن، د ت ن.

32- عبد الله: مُحَمَّد جمال الدين، الدولة الفاطمية: **قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري –مع عناية خاصة بالجيش–**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1411هـ/1991م.

33- العُروي: عبد الله، **مُجمل تاريخ المغرب**، ج1، ط5، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 1996.

34-ـــــــ: **مفهوم العقل**، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب/ بيروت – لبنان، 2001.

35- العلوي القاسمي: هاشم، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي**، ج2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1415هـ/ 1995م.

36- عمر: أحمد مختار، **معجم اللغة العربية المعاصر**، مج الأول، عالم الكتب، القاهرة، 1429هـ/ 2008م

37- بن عميرة: مُحَمَّد، **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

38- عنان: مُحَمَّد عبد الله، **دولة الإسلام في الأندلس**، العصر الثالث: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني: عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1411هـ/1990م.

39-عويس: عبد الحليم، **دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري**، دار الصحة ، القاهرة– دار الوفاء، المنصورة، ط2، 1411هـ/ 1991م.

40- أبو عيانة: فتحي مُحَمَّد، **دراسات في علم السكان**، دار النهضة العربية، د ت ن.

41- فيلالي: عبد العزيز، **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**، ط2، دار الفجر، القاهرة، 1999م.

42-ـــــــ: **بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط**، دار الهدى، عين مليلة–الجزائر، 2014م.

43-ـــــــ: **تلمسان في العهد الزياني**، ج1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م.

44- القبلي: مُحَمَّد ، **الدولة والولاية والمجال بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء –المغرب–، 1997م.

45-ـــــــــــ، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء –المغرب-، 1987م.

46-كوثراني: وجيه، **تاريخ التأريخ**، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ط2 ، بيروت، 2013.

47- لقبال: موسى، **المغرب الإسلامي**،ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

48-ـــــــــ: **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية من تأسيسها إلى غاية القرن الخامس الهجري (11م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

49- مجاني: بوبة، **النظم الإدارية للخلافة الفاطمية في مرحلتها المغربية خلال العصر الفاطمي (296-362/909-973م)**، دار بهاء الدين، الجزائر، ط1، 2009.

50-ـــــــــ: **دراسات إسماعيلية**، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، 2002-2003.

51- مجموعة مؤلفين، **المعجم الوسيط**، ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 1425هـ/ 2004م.

52- محمد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط: الدولة ـ المدينة ـ الإقتصاد**، تن: محمد المغراوي، منشورات كلية الآداب بالرباطن مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1420هـ ـ 1999م.

53- معيوف مفتاح: صالح، **جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية (من منتصف القرن الثاني الهجري إلى أوخر القرن الثالث الهجري)**، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية، د م ن، 2006.

54-المغراوي: محمد، **الموحدون وأزمات المجتمع**، جذور للنشر، الرباط، 2006.

55- بن منصور: عبد الوهاب ، **قبائل المغرب**، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، 1388هـ/ 1969م.

ثالثاً: المراجع المعرّبة:

1- أشباخ: يوسف، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، تر وتعل: محمد عبد الله عنان، ج2، ط2، مكتبة الخانجي بالقاهرة، القاهرة، 1417هـ/1996م.

2- أمبروسيو هويثي: ميرندا، **التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية**، تر: عبد الواحد أكمير، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004.

3- أندري جوليان: شارل، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تعريب: محمد مزالي و البشير بن سلامة، ج2، الدار التونسية للنشر، فيفري 1983.

4- بوتول: غاستول ، **هذه هي الحرب**، تر: مروان القنواتي، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس، 1981م.

5- الدشراوي: فرحات، **الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ / 909-975م)**، نقله إلى العربية: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1994.

6- روجي إدريس: الهادي، **الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن العاشر إلى القرن 12م**، نقله إلى العربية: حمادي الساحلي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت –لبنان-، 1992م.

7- الطالبي: محمد، **الدولة الأغلبية التاريخ السياسي 184-296هـ/800-909م**، تع: المنجي الصيادي، مرا: حمادي الساحلي، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1415هـ -1995م.

8- لوغوف: جاك، **التاريخ الجديد**، تر: محمد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،، 2007. .

9- يوليانوفيتش كراتشوفسكي: أغناطيوس، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الأول، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963.

رابعاً: المذكرات والرسائل العلمية:

1- بخدة: الطاهر، **الهجرة في المغرب الأوسط واقعها وآثارها من منتصف القرن السادس إلى أواخر القرن الثامن الهجري / ق12-14م**، (أطروحة دكتوراه، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، الجزائر، 1437-1438هـ/ 2016-2017م).

2- بشاري: لطيفة بن عميرة، **الرّق في بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى رحيل الفاطميين (ق 1 – 4هـ/7 – 10م)**، (أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2007 – 2008م).

3- بكارة: حنان، **الحرب والمجتمع بمملكة غرناطة خلال عهد بني الأحمر (626-897هـ/1232-1492م)**، (أطروحة دكتوراه طور ثالث، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس –الجزائر-، 1441-1442هـ/2020-2021م).

4- بلمداني: نوال، **نظام الرّعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (4-5هـ/10-11م)**، (أطروحة دكتوراه، جامعة وهران – الجزائر-، 1434-1435هـ/2013-2014م).

5- بوقاعدة: البشير، **الصراع العسكري وخراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296-547هـ/ 909- 1152م**، (مذكرة ماجستير، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة . الجزائر . 2012-2013).

6- بولعراس: خميسي، **فن الحرب بالغرب الإسلامي خلال عصري المرابطين والموحدين**، (رسالة دكتوراه ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة - الجزائر، 1434 ـ 1435هـ/ 2013 ـ 2014م).

7- صديقي: عبد الجبار، **سقوط الدولة الموحدية دراسة تحليلية في الأسباب والتداعيات**، (مذكرة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان -الجزائر-، 1434-1435هـ/2013-2014م).

8- الطبابي: بلقاسم، **الموت بمصر والشام في العهد المملوكي**، (رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، تونس، 1996/1997م).

9- بن عريب: مصطفى، **مجتمع المغرب الأوسط المتغيرات والعلائق (من القرن الرابع الهجري إلى سقوط دولة الموحدين 668هـ/ 1269م القرن العاشر القرن الثالث عشر الميلادي)**، (مذكرة ماجستير، جامعة محمد بوضياف، المسيلة -الجزائر-، 2016-2017م/ 1437-1438هـ).

10- عشي: علي، **المغرب الأوسط في عهد الموحدين دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية (534هـ/1139م إلى 633هـ/1235م)**، (مذكرة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة - الجزائر، 1433-1434هـ/2011-2012م).

11- عمران: عبد الحميد، **الديانة المسيحية في المغرب القديم -النشأة و التطور-(430-180م)**، (**أطروحة دكتوراه،، جامعة منتوري -الجزائر-، 1432 - 1433هـ/2010-2011م**).

12- عمروش: حسيبة، **إنعكاسات الحروب في السلوك والذهنية لمجتمع المغرب الأوسط في العهد الزياني (633-962هـ/ 1235-1555م)**، (أطروحة دكتوراه طور ثالث ، جامعة محمد بوضياف، المسيلة -الجزائر-، 1439-1440هـ/ 2017-2018م).

13- عميور: سكينة، **ريف المغرب الأوسط في القرنين 5 و 6هـ/11 و 12م . دراسة اجتماعية واقتصادية .**، (مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة2 –الجزائر-، 1433- 1434هـ/ 2012-2013م).

14- قويدر: عباس، **الجيش في العهد الزياني (633-962هـ/ 1235-1554م)**، (أطروحة دكتوراه، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس- الجزائر، 2015-2016م).

15- كرطالي: أمين، **الفقهاء والحياة السياسية بالمغرب الأوسط خلال القرنين (9-10هـ/ 15-16م)**، (مذكرة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، 1434-1435هـ/ 2013-2014م).

16- المزاري: الآغا بن عودة (ت 1315هـ/1897م)، **طلوع سعد السعود**، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت –لبنان- ، 1990م.

17- مزدور: سمية، **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/ 1192-1520م)**، (مذكرة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة –الجزائر-، 1429-1430هـ/2008-2009م).

18- مشري: حياة، **انعكاسات الفتن والحروب على مجتمع المغرب الأوسط ما بين القرنين 7-8هـ/ 13- 14م**، (مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة2 عبد الحميد مهري، 1435-1436هـ/ 2014- 2015م).

19- ناصري: مُحَّد، **الحرب والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني – دراسة في انعكاسات الحرب على البنى الاقتصادية والاجتماعية والذهنية (633-962هـ/1235-1554م)-**، (أطروحة دكتوراه طور ثالث، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس –الجزائر-، 1441-1442هـ/2020-2021م).

20- نويقة: عبد الرحمن، **بنو غانية وتأثيرهم في التوازن بين عدوتي المتوسط في الغرب الإسلامي (541-631هـ/ 1156-1233م)**، (مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر2، 1432-1433هـ/ 2011-2012م).

21- نويوة: واعظ، **أثر ثورة بني غانية على الدولة الموحدية 580 – 1184م/ 633هـ – 1235م**، (مذكرة ماجستير ، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة –الجزائر-، 2007-2008م).

22- يزير: بشير، **القبائل البدوية في المغرب الأوسط من بداية الفتح إلى نهاية القرن الثاني الهجري – أوربة أنموذجا –** ، (مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة2 –الجزائر- ، 2012 – 2013م).

خامساً: المقالات العربية:

1- استيتو: محمد، **الأزمة الديمغرافية في تاريخ المغرب الحديث**، مجلة كنانيش، ع1، كلية الاداب والعلوم الإنسانية . جامعة محمد الأول . وجدة، المملكة المغربية، 1999، ص ص 113 . 114.

2- أسكان: الحسين، **المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب**، الأيام الوطنية العاشرة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الجديدة –المغرب-، أكتوبر 2002.

3- بكري: العيد و مفتاح خلفات، **غارات النورمان على سواحل المغرب الأوسط خلال ق6هـ/12م**، مجلة عصور الجديدة، مج10، ع4، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، الجزائر، (ديسمبر) 1442هـ/2020م.

4- بلعربي: خالد، **المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني**، دورية كان التاريخية، العدد الرابع، يونيو 2009.

5- بلمداني: نوال، **السلطة والقبائل الرعوية بمجالات المغرب الأوسط دراسة في العلاقة (القرن الرابع هجري/العاشر الميلادي)**، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، ع1،مج1، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس –الجزائر-، 2015م.

6- بلمير: بلحسن، **الديموغرافيا: منظومة من المعارف**، مجلة العلوم الإنسانية، ع 14، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1. الجزائر. ، 2000، ص ص 219 - 234.

7- بنكرعي: حليمة، **الدراسة الديمغرافية بالبوادي المغربية في الفترة مابين 1459 . 1541 بادية الواجهة الأطلنطية أنموذجا**، مجلة كنانيش، ع1، كلية الاداب والعلوم الإنسانية . جامعة مُحَّد الأول . وجدة، المملكة المغربية.

8- بوبيدي: حسين، **بلاد المغرب الإسلامي بين التعايش والصراع المذهبي قراءة في الاستغلال السياسي والتأثير العقدي الفقهي**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج 11، ع1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة –الجزائر–، 2018.

9- ــــــــــــ، **الحراك القبلي الكتامي من ق3-5ه/9-11م دراسة في الخلفيات والتداعيات**، مقال ضمن كتاب جماعي بعنوان: شهادات ودراسات مهداة إلى الدكتور عبد العزيز فيلالي، إعداد وتنسيق: حسين بوبيدي و مُحَّد نصير، إشراف بوبة مجاني، ج2، دار الهدى، عين مليلة – الجزائر، 2022.

10-بوتشيش: ابراهيم القادري: **النوازل الفقهية في الأطروحات الجامعية: التوجهات، الإضافات المعرفية والإشكالات المنهجية**، عصور جديدة، ع 16 . 17، جامعة أحمد بن بلة، وهران . الجزائر . ، 2014 . 2015.

11-ــــــــــــ، **أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديمغرافي بالمغرب في العصر الوسيط (دراسة حالة)** ، مجلة كنانيش، ع1، كلية الاداب والعلوم الإنسانية . جامعة مُحَّد الأول . وجدة، المملكة المغربية، 1999.

12-جدلة: إبراهيم ، **المجموعات القبلية وتأثيرها على الحياة الإجتماعية والسياسية بإفريقية أثناء العهد الحفصي**، ضمن أشغال الملتقى الدولي الثاني حول: القبيلة - المدينة - المجال في العالم العربي الإسلامي الوسيط، منشورات: كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس، تونس 2006م، ص ص 153-182.

13-الجنحاني: الحبيب، **السياسة المالية للدولة الفاطمية**، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ع 49 – 50، 1977م.

14-حارش: مُحَّد الهادي، **ثورة فيرموس 372 – 375م**، مجلة الدراسات التاريخية، ع7، جامعة الجزائر2، 1993.

15-حالي: مُحَمَّد، **تطور الديمغرافيا التاريخية في سياق التاريخ الجديد،** دورية كان التاريخية، العدد الرابع والعشرون، يونيو 2014، ص ص 9 - 28.

16-حبيدة: مُحَمَّد، **الديمغرافيا التاريخية من اللاإجرائية الكمية إلى المقاربة الكيفية،** مجلة كنانيش، ع1، كلية الاداب والعلوم الإنسانية . جامعة مُحَمَّد الأول . وجدة، المملكة المغربية، 1999.

17-سالم عطية: آمال، **دور الإمام أفلح ابن عبد الوهاب في ازدها الحركة العلمية بتيهرت خلال القرن الثالث الهجري،** مجلة عصور الجديدة، ع 23 –عدد خاص–، صيف (أوت) 1437هـ/2016م.

18-سامعي: اسماعيل، **مُدعو النبوة في بلاد المغرب الإسلامي تحدي واستجابة،** مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج18، ع1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطنة – الجزائر–، 2003م.

19-السبتي: عبد الأحد، **علامات المدينة المغربية في الأدب الجغرافي الوسيط: في دلالات الخراب،** مقال ضمن أعمال المائدة المستديرة :التاريخ واللسانيات . النص ومستويات التأويل . مراكش 25 . 26 ماي 1990، تنسيق وتقديم: عبد الأحد السبتي، منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية بالرباط . جامعة مُحَمَّد الخامس . ،المملكة المغربية، 1992.

20-شخوم: سعدي، **ظاهرة خراب المدن بالزاب والمغرب الأوسط أسبابها مظاهرها آثارها،** مجلة الحضارة الإسلامية، مج17، ع28، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، وهران–الجزائر، ص ص 515–532.

21-شنعة: خديجة، **برغواطة قراءة جديدة في إشكالية صدها للتعريب،** مجلة مدارات تاريخية، جوان 2019.

22-شنيتي: مُحَمَّد البشير، **حول الدوناتية وثورة الريفيين بنوميديا خلال القرن الرابع الميلادي،** مجلة الأصالة، ع 60 – 61.

23-الطالبي: مُحَمَّد، **استقلال المغرب،** ضمن كتاب: **تاريخ إفريقيا العام،** مج3: أفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، المشرف على المجلد: م. الفاسي و إ. هربك، اليونيسكو، ط2، 1997.

24-الطويل: مُحَمَّد حجاج، **المسألة الديمغرافية: نحو منهجية ديمغرافية محاولات إحصائية (العصر الوسيط نموذجا)،** مجلة كنانيش، ع1، كلية الاداب والعلوم الإنسانية . جامعة مُحَمَّد الأول . وجدة، المملكة المغربية.

25-طويلب: عبد الله ، **بجاية تحت حكم بني حماد**، مجلة القرطاس، مج2، ع3، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان – الجزائر، جانفي 2017.

26- بن عربة: مُحَّد، **بلاد كتامة في ظل الصراع بين الجماعة الإسماعيلية والإمارة الأغلبية**، مجلة الحوار المتوسطي، ع2، مج9، جامعة سيدي بلعباس – الجزائر -، سبتمبر 2018م.

27-عمالك: أحمد، **الأزمة وتوطيد الحكم المركزي مجاعة عام 1071 ـ 1072 نموذجا**، الأيام الوطنية العاشرة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الجديدة ـ المملكة المغربية، أكتوبر 2002.

28-عولمي: الربيع، **الصراع الدوناتي الكاثوليكي في المغرب القديم (من خلال كتابات القديس أوغسطين) (311 – 411م)**، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج3، ع5، جامعة الوادي – الجزائر، جوان 2017.

29-لحسن: ابراهيم و عمار غرايسة، **جوانب من ديمغرافية المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) خلال فترة نهاية العصور الوسطى وبداية الفترة الحديثة من خلال كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان الفاسي المعروف ب:ليون الإفريقي (ت بعد 957هـ/ 1550م)**، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج35، ع1، قسنطينة-الجزائر، جوان 2021م، ص ص 1338-1405.

30- لحسن: ابراهيم، **نماذج عن المعتقدات الشعبية الخيالية والخرافية لعامة المغرب الأوسط – مساهمة في دراسة تاريخ ذهنية عامة المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط–** ، مقال ضمن كتاب جماعي بعنوان: أضواء على فئات الظل والمجالات المهمشة بالمغرب الأوسط في عصره الوسيط، تنسيق وإشراف: رضا بن النية و خالد حموم، جامعة مُحَّد لمين دباغين، سطيف 2 – الجزائر، ألفا للوثائق للنشر والتوزيع، قسنطينة –الجزائر، 2022.

31- لزغم: فوزية، **التسامح المذهبي في الدولة الرستمية**، مجلة الخلدونية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص، جامعة ابن خلدون، تيارت – الجزائر - ، أكتوبر 2009.

32-لقبال: موسى، **زناتة والأشراف الحسنيون في مجال تلمسان والمغرب الأوسط**، مجلة الأصالة، ع26.

33-ـــــــــــــ، **طبنة في مجال العلاقة بين زناتة والفاطميين حتى نهاية عهد المنصور الفاطمي**، مجلة حوليات جامعة الجزائر، مج6، ع2، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 30 ديسمبر 1991.

34-ـــــــــــ، **طبنة مدينة الزاب والأوراس في العصور الوسطى**، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ع 60-61.

35-اللهيبي: فائز صالح، **العلاقات الدولية في وقت الحرب في الفكر الإسلامي**، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد 2/14، مج :السابع، جامعة الموصل –العراق-، 1434هـ/ 2013م، ص ص 664 – 691.

36-مجاني: بوبة، **المذهب الإسماعيلي والقيادات الدينية والعسكرية الكتامية في المرحلة المغربية**، مقال ضمن كتاب جماعي: من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي، تقديم وتنسيق: بوبة مجاني، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة – الجزائر -، 2007.

37-محجوبي: عمار، **العصر الروماني وما بعده في شمال إفريقيا**، ضمن كتاب: **تاريخ إفريفيا العام**، مج2: حضارات إفريقيا القديمة، المشرف على المجلد: جمال مختار، اليونيسكو، 1985.

38-مُحَمَّد شنيتي: البشير، **نظرة عن الوضع الديمغرافي والإجتماعي في المغرب أثناء الإحتلال الروماني**، مجلة الدراسات التاريخية، مج1، ع1، جامعة الجزئر2، 1986.

39-المنصوري: عثمان، **بعض قضايا البحث الديمغرافي في الفترة الحديثة (القرن 16م نموذجا)**، مجلة كنانيش، ع1، كلية الاداب والعلوم الإنسانية . جامعة مُحَمَّد الأول . وجدة، المملكة المغربية، 1999.

40-هرباش: زاجية، **نتائج ثورة بني غانية 580-633هـ/ 1184-1237م**، مجلة الحوار المتوسطي، مج4، ع1، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس- الجزائر، مارس 2013.

41-يماني: رشيد، **الهجرة الإضطرارية بين المغرب والأندلس خلال القرن 8هـ/14م**، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج2، ع2، أكتوبر 2019م، ص ص 37-70.

سادسا: المقالات المعرّبة:

1- دومينيك: فاليرين، **بجاية ميناء مغاربي (1067 – 1510)**، تر: علاوة عمارة، مجلة معالم، ع7، الجزائر، 2016م.

2- الطالبي: محمد، **الانهيار الديمغرافي في بلاد المغرب من ق 11 إلى ق 15م**، تعر: محمد الغرايب، مجلة كنانيش، ع4، 2002.

سابعاً: المراجع الأجنبية:

1- Beloch**, Die bevolkecung der greichish-romis**, Welt. Lepzig, 1866.
2- Courtois, **les vandales et l'Afrique**,1955.
3- G.Ch. Picard. **La civilisation de l'Afrique romanie**,1959.
4- Mols (R), **Introduction de la démographie historique des villes d'Europe du (XIV au XVIII siècle),** T2, Louvain, Belgique, 1954**.**
5- Stein, **Histoire du Bas-empire**, 1,1959.

الفهـــــــارس

1. فهرس الجداول:

2. فهرس الأشكال:

3. فهرس الخرائط:

4. **فهرس الأشخاص والأفراد:**

(أ)

5. فهرس القبائل والشعوب:

6. فهرس الأماكن والبلدان:

فهرس الموضوعات: